رؤى

آمال عوّاد رضوان

مقالات من مشاهد الحياة

ثقافيّة واجتماعيّة

رؤى

مقالات من مشاهد الحياة

ثقافيّة واجتماعيّة

تأليف

آمال عوّاد رضوان

لوحة الغلاف

للفنان التشكيلي الأردني

سعيد حدادين

صدر عن دار الوسط اليوم للاعلام والنشر

رام الله- تلفون:02-2961258

جوال-0599 551603

alwasattoday@gmail.com

ISBN 978-9950-378-02-5

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

إهداء مع فائق التقدير وجزيل المحبة

رؤى

أهديها لديوان العرب عربون امتنان لتقديره آمال عوّاد رضوان ككاتبة متميّزة، ومنحها درع ديوان العرب لعام 2011

أهديها للرؤية العمانيّة ممثَّلة بمحرّر صفحتها "رؤى" الزميل الكاتب والصديق الأستاذ عبدالله خميس، ودفعها لي في تناول موضوعات الكتاب

أهديها للقارئ العربيّ مَن واكب نبض مقالاتي الهامسة المشاكسة، ومَن تابع إيحاءات عناويني الملغومة المكتومة، ومَن ساهم في نبش سطوري العاصفة الكاشفة على مدار أكثر من عاميْن

معكم ومع كلّ صوتٍ حرّ يعتلي بفكرةِ الحرّيّةِ إلى سموّ أحلامِنا وشعوبنا وأوطانِنا نمضي، نحملُ رسالاتنا بينَ ضلوعِنا المغمورة بالجَمالِ والمحبّة، نمتطي صهوة الآمالِ والأحلامِ، ونتعربشُ بحروفِ أفراحنا فوقَ سطورِ الآلام، لننقشَ مِن ذواتِنا الإبداعيّةِ معابرَ وجسورًا للنفوس في كلّ بقعةٍ تنطقُ بلغةِ الوطنِ والإنسان، وبرؤى بنّاءة نمنح الحرفَ واللوْنَ والصوتَ والوترَ والفِكرَ وهجَ إبداعٍ، استيقظت إرادته على سفوح وعيٍ عنيد لا تُرضخُه رياحُ الفُرقة، ومعًا نلملمُ ذواتنا بفنونِها وإبداعاتِها وتشكيلاتِها، بعطاءاتِها التي لا تنضبُ وإراداتِها التي لا تستكين، كي تعمّدَ طهارة لحظاتِنا الخالدةِ، بتعابيرِ وجودٍ يستدعي التفرّدَ والتميّزَ الصادق بطرح الحقائق على بساطِ البحث، ففي أوطانِنا المنهوبةِ ثمّة حكاياتٍ وروايات ما زالت تتوشّحُ بالصمت والبوْحِ المهذّب اللمّاح، تستحقُّ منّا الالتفاتَ إليها، لتمنحَ كينونتَنا بتكويناتِها المؤتلفة والمختلفة مساحاتٍ لتعبيرٍ راقٍ متألّق، يُشكّلُ جسورًا متينة لحيواتنا الغالية الحاضرة، ولمستقبلٍ يحملُ في طيّاتِهِ فوانيسَ فِكرٍ ناضجٍ وقلبٍ مسكونٍ بالمحبّة والتسامح، لننيرَ معًا دروبنا ودروب التائهين في لعنة الجهل والتجهيل والتخلف والتهميش، ويخيّمُ عليها العتم والتعتيم، ففي كونِنا المنكوبِ بالشرورِ والحروبِ والشتاتِ الطويل، ثمّة غربةٍ تستنهضُ الحنين إلى الرجوعِ والعودةِ للأوطان ولجوهرِ الإنسانِ والإنسانيّة، التي اكتوتْ بنيرانِ ظلم احتكرت تكويناتنا الوجوديّةَ على الأرض، وبالوحدة نعبُر الماضي لنجتازَ مرارةَ الحاضر بأقلّ خسائر، ومعًا نمضي إلى ملاذِ الإبداع الموضوعيّ، وبطموحات لا تنبري، بعيدًا عن القمع الفكريّ والتربويّ وفرض وهيمنة الرأي الأوحد، لنعانق غدًا جميلاً خاليًا مِن وفاضِ الأسر، ومتحرّرا مِن قيودِ المُشكّكينَ بسُموّ الفِكرة وطهارتِها!

آمال عوّاد رضوان

درع ديوان العرب للكاتبة الشاعرة الفلسطينيّة آمال عوّاد رضوان

كعادتها في تشجيع المبدعين العرب في مجالات الثقافة والأدب والفكر ودعم الأقلام الشابّة والمبدعة، التي وضعت نصب عيونها خدمة الثقافة العربيّة ورفع شأن الثقافة والفكر والأدب، تُقدّم ديوان العرب درع الديوان للكاتبة المبدعة الشاعرة آمال عوّاد رضوان من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، التي ساهمت بنشاط في ديوان العرب، وقدّمت الكثير من المقالات والنصوص الأدبيّة الراقية التي تجاوزت المئة.

أسرة التحرير تهنّئ الزميلة آمال وتدعو لها بمزيد من النجاح والإبداع، فأمّتنا بحاجة لتلك الأصوات الحرّة النقيّة التي تقاوم الرياح ولا تنكسر أمامها.

السيرة الذاتية لـ: آمال عوّاد رضوان

آمال؛ ليست سوى طفلةٍ خضراءَ انبثقتْ مِن رمادِ وطن مسفوكٍ في عشٍّ فينيقيٍّ منذ أمدٍ بعيد! أتتْ بها الأقدارُ، على منحنى لحظةٍ تتقدُ بأحلامٍ مستحيلةٍ، في لجّةِ عتمٍ يزدهرُ بالمآسي، وما فتئتْ تتبتلُ وتعزفُ بناي حُزْنِها المبحوحِ إشراقاتِها الغائمةَ، وما انفكّتْ تتهادى على حوافِّ قطرةٍ مقدَّسةٍ مفعمةٍ بنبضِ شعاعٍ، أسْمَوْهُ "الحياة"!

عشقتِ الموسيقا والغناء، فتعلّمتِ العزفَ على الكمانِ منذ تفتّحتْ أناملُ طفولتِها على الأوتار وسلالم الموسيقا، وقد داعبتْ الأناشيد المدرسيّةُ والترانيمُ حنجرتَها، فصدحتْ في جوقةِ المدرسةِ، إلى أنِ اتّشحَ حضورُها بالغيابِ القسريّ مدّة سنوات، لتعاودَ ظهورَها في كورال "جوقة الكروان" الفلسطينيّة!

عشقتْ أقدامُها المعتّقةُ بالتراثِ والرقصَ الشعبيّ، وكانَ لخطواتِها البحريّةِ نكهةً مائيّةً تراقصُ ظلالَ شبابٍ طافحٍ بالرشاقةِ في فرقةِ دبكةٍ شعبيّةٍ، إضافةً إلى نشاطاتٍ كشفيّةٍ وأخرى عديدة، تزخرُ بها روحُ فتاةٍ تتقفّزُ نهمًا للحياة!

أمّا لمذاقِ المطالعةِ والقصصِ والرواياتِ فكانَت أسرابُ شهوةٍ؛ تحُطُّ فوقَ أنفاسِها حدَّ التصوّفِ والتعبّد، منذُ أن تعلّقتْ عيناها بسلالم فكِّ الحروفِ، وكانَ للقلمِ المخفيِّ في جيبِ سترتِها وتحتَ وسادتِها صليلٌ يُناكفُها، كلّما شحَّ رذاذُ نبضِهِ في بياضِها، فيفغرُ فاهَهُ الناريَّ مُتشدِّقًا بسِحرِهِ، كأنّما يحثّها لاحتضانِهِ كلّما ضاقتْ بهِ الأمكنةُ، وكلّما تعطّشَ إلى خمْرِها، فتُحلّقُ به في سماواتِ فيوضِها، وما أن تصحُوَ مِن سكرتِها، حتّى تُمزّقَ ما خطّتْهُ ونسجَتْهُ مِن خيوطِ وجْدِها، لتمحوَ كلّ أثرٍ يُبيحُ للآخرَ أن يُدركَ ما يعتملُ في نفسِها، ولأنّ مكانةً سامقةً وأثرًا جمًّا ومهابةً للأدب، تخشى أن تتطاولَ إليهِ، أو تُقحمَ نفسَها في ورطةٍ لا خلاصَ منها.

ما بعدَ الفترةِ الثانويّةِ حلّتْ مرحلةُ منفاها عن طفولتِها الزاهيةِ، حينَ استلبتْها مخادعُ الدراسةِ الثلجيّةِ مِن أجيجِ نشاطاتِها، ومِن ثمّ؛ تملّكتْها مسؤوليّاتُ الزواجِ والأسرةِ ومهنة التدريس، واقتصرَ دورُها الأساسيُّ على مرحلةٍ جديدةٍ؛ هو بناءُ عالمِ محبّبٍ آخر بعيدًا عنها قريبًا جدًّا منها، الأسرةُ بكاملِ مسؤوليّاتِها الجمّةِ، وفي الوقتِ ذاتِهِ وبفعل سحر الأمومةِ، نما في قلبِها

عشقٌ جنونيٌّ للعطاءِ، رغمَ طراوةِ الحياةِ وقسوتِها، وكانَ بخورُ الذكرياتِ يعبقُ بكبريائِها، ويُمرّغُها بعطرِ الطفولةِ الهاربةِ!

ما بينَ رموشِ نهاراتِها ووسائدِ لياليها، ساحتْ آمال في عُمقِ بُوارٍ لا يَحدُّهُ خواء، تارةً، تأخذُها سنَةٌ مِن سباتٍ في استسقاءِ الماضي، وتارةً تستفيقُ مِن قوقعةِ أحاسيسِها الذاهلةِ، حينَ تهزُّها الفجوةُ الدهريّةُ بينَ الأنا والآخر والكون، وبينَ مجونِ الضياعِ المُزمجرِ فتنةً، وبينَ حاناتِ خطايا تشتعل كؤوسُها بلا ارتواء، والوطنُ يرتعُ في شهقاتِ ألمٍ تعتصرُ أملاً مِن كرومِ المستحيل!

لم تفلحْ شفافيّةُ الواقعِ المُرّ حلوُهُ، ولا مهرجاناتُ الحياةِ مِن صَلبِها على أعمدةِ مدرّجاتِ ومسارحِ الحياةِ، بل التجأت بصمتٍ وهدوءٍ إلى كهفِ الأبجديّةِ، واعتكفتْ فيهِ كناسكةٍ تحترفُها فتنةَ التأمّلِ، حيثُ تصطفي نيازكَ حروفٍ متلألئةٍ بالنضوج، كادتْ تسقطُ سهوًا في محرقةِ الألمِ، أو كادتْ ترجُمها إغواءاتُ الدروبِ بحصًى يتجمّر، لكنّها حاولتْ أن تلتقطَ بأناملِ خيالِها تلكَ الحروفَ اللاسعةَ الكاويةَ، كي ترطّبَ وجدَ آمالِها الموشومةِ بنشيجِ خلاصٍ قد يأتي!

كم تماوجتْ في طُهرِ روحِها شعاعاتُ إيمانٍ، صاخبة بفصولِ التوغّلِ وبوجوه الجمال في غدٍ دافئٍ، وكم نقشَتْها أنفاسُها تنهيدةً منحوتةً ومُشفّرةً، على شاهدةِ عمرٍ يلاحقُها ويُولّي في صحْوتِهِ، ولا يلوي على التفاتةٍ تكتظُّ بالحسرة!

"سحر الكلمات" هو عجوزي المستعارُ، وراعي انتظاراتي المؤجّلةِ بفوّهةِ مغارتِهِ الخضراء، يحرسُ بتمائمِهِ ومشاعلِهِ عرائشَ كرومي، عندما تسلّقتْ عليها دوالي قلبي وذاكرتي المنهوبةُ، ونصوصي الوجدانيّةُ المكدّسةُ على رفوفِ فسحاتٍ تعذّرَ التقاطُها، وبعشوائيّةٍ لذيذةٍ انفرطتْ قطوفُ أساريرِها على أطباقِ البراءة عبْرَ صفحاتِ النت، لتؤبّدَ دهشةَ صمتٍ عبَرَتْ كالريح، فوقَ ظلالِ الفصولِ والعمر، إلى أن كانتْ ومضةٌ مخصّبةٌ بأحضانِ سحابةٍ متنكّرةٍ، تراذذتْ من جلبابِها "آمال عوّاد رضوان"، ومنذُها، وآمال لمّا تزل آمالُها حتّى اللحظة تتلألأُ بـ :

***بسمةٌ لوزيّةٌ تتوهّج/ كتاب شعريّ/ آمال عواد رضوان/ عام 2005**

***سلامي لك مطرًا/ كتاب شعريّ/ آمال عواد رضوان/عام 2007**

رحلةٌ إلى عنوانٍ مفقودٍ/ كتابٌ شعريٌّ/ آمال عوّاد رضوان/ عام 2010

و كانت الكتب التالية بالاشتراك مع الشاعر محمّد حلمي الريشة:

***الإشراقةُ المُجنّحةُ/ لحظة البيت الأوّل من القصيدة/ شهادات لـ 131 شاعر من العالم العربيّ/**

***نوارس مِن البحر البعيد القريب/ المشهد الشعريّ في فلسطين المحتلة 1948 عام 2008**

***محمود درويش/ صورة الشاعر بعيون فلسطينية خضراء عام 2008**

*** رحلةٌ إلى عنوانٍ مفقود/ كتابي الشعريّ الثالث عام 2010.**

هل الجنسيّةُ صليبُ آلامِك؟

أعباءُ الحياةِ لا تقتصرُ على الهموم اليوميّةِ الشخصيّةِ للمواطن، ولا تنغلقُ متطلّباتُهُ التقليديّةُ على حدودِ أسْرتِهِ وبلدِه، بل تتجاوزُها إلى لغةِ هُويّتِهِ وانتمائِهِ، وتتعدّى جذورَ جنسيّتِهِ وولائِهِ، كأنّها ثيماتُ احتلالٍ تمتصُّ نخاعَ صمودِهِ، وتُقلّبُ أبجديّاتِ صبْرِهِ في أتونِ التحدّي!

مئاتُ آلافِ العائلاتِ تُهاجر سنويًّا إلى بلدان أكثرَ نموًّا وتطوّرًا، لتحسينِ أوضاعِهم الاقتصاديّةِ واستثمارِ أموالِهم، وآخرون يهربون مِن القمْع والقتل بحثا عن استقرارٍ سياسيٍّ وأمنيٍّ ودينيٍّ وعِرْقيّ، وطلّابٌ يُسافرون إلى دول أجنبيّة للعِلم، فمنهم مَن يتزوّج بأجنبيّةٍ ويصبح مواطنًا في تلك الدول، ويحظى بكافةِ حقوق المواطنةِ أو بجزءٍ منها وبفرصِ عمَل واستقرار، ومنهم مَن يتجنّس ويحافظ على تواصلِه مع أهلِهِ وأقربائِهِ وبلدِهِ، ومنهم مَن يعودُ إلى وطنِهِ بعدَ حين، ومنهم مَن ينخرط في وطنِهِ الجديد وينسلخ كلّيًّا عن وطنِهِ الأم، لحدّ التنكّر لانتمائِهِ ولغته وكلّ ما يرتبط بالوطنِ القديم!

كم مِن حضاراتٍ اندثرتْ كالفينيقيّة والبابليّة والآشوريّة والقبطيّة وأخرى كثيرة، طُمِست معالمُها بفِعل الاحتلال؟ كم مِن شعوبٍ مشرّدة مظلومة، مقهورة ومهدّدة بالاندثار؟ فكيف تحافظُ على إرثِها الإنسانيّ والوطنيّ والحضاريّ على غرارِ فلسطينيّي إسرائيل عرب 48؟

كيف ينعكسُ الاحتلال والجنسيّةُ القسْريّةُ على شعبٍ ومثقّفين أُخضِعوا للغةِ وهُويّةِ وجنسيّةِ المحتلّ؟ هل تعتبرُ الجنسيّة نعمةً أو نقمة؟ متى؟ ومتى تكون الجنسيّةُ شرعيّةً ومُتاحة، أو مُحرّمةً وممنوعةً تصل لحدّ التهمة بالخيانة والتطبّع؟

ما تعدادُ الذين سيُحافظونَ على انتمائِهم للوطن، وأولئك الذين سيُسلّمون شهاداتِ ميلادِهم في مطاراتِ التجنّس؟ ما وجهُ الشبه بين هؤلاء وبين العالقين على الحدودِ مِن حمَلةِ الجنسيّاتِ الوطنيّة، كالفلسطينيّينَ في ليبيا ممّن يحملون الجنسيّة الليبيّة؟ أين مأواهم ووطنُهم مُحتلٌّ، وبوّاباتهم مُغلقة، ولَمُّ شمْلِهم بباقي أجزاء الوطن ينتظرُ اعترافًا أمميًّا بحقّ العودة؟

رسائلُ إلكترونيّة كثيرة تصلني يوميًّا مِن عالمنا العربيّ والمشتّت في أرجاء العالم، تتضمّن إشادةً بالفِكر وأسلوب الطرح في المقالة والتقارير الإخباريّة، وأخرى ذوّاقة لحرْفي الشعريّ الملامس لشغاف الخيال، فيطربُني الإطراءُ ويدفعُ بقلمي إلى الاستفاضةِ العابقةِ بمواجعِ الحياة على أمل الجدوى، لكن تستوقفني أسئلةٌ فضوليّةٌ وجادّةٌ تستفسر عن هُويّتي وجنسيّتي ومَن أكون؟

وتقفزُ ذاكرتي الشقيّةُ إلى بداياتي في النتّ، وإلى اسمي المستعار "سحر الكلمات"، حين كنتُ أستكشفُ بصمتٍ عالَمًا جديدًا، وأُطرَدُ مِن غرفِ البالتوك بسبب جنسيّتي!

بكيتُ وبكيت! فما أشقاكَ حين يكبّلُك بأغلالِ التصهينِ والجاسوسيّة أخوكَ العربيّ! وما أشقاه أخي بجَفلتِهِ منك وبجهله وأحكامِهِ المُجحِفة بتخوينِك، تسوقهُ إلى هاويةِ الاحتلالِ الفكريّ بحقّ فلسطينيٍّ عربيٍّ، أبى إلاّ أن يتجذّر في بلدِهِ رغمَ كلّ الرغم!

وتتقافزُ عيني بينَ ذاكرتي الموجوعة وبينَ حروفِ عاشقٍ كنّاني بابنة موسى (يهوديّة)، وحروفٍ أخرى لحوارٍ مِن مجلّةٍ خليجيّةٍ يُحيّي فيها الداعية آمال رضوان، وحروفِ حوارٍ آخرَ مِن منبر الداعيات يسألُ عن رأيي بالحجاب، وعن سبب عدم اعتماري الحجاب بعْد؟

وتستوقفني رسائلُ أخرى تخاطبُني بكلّ ثقةٍ على أنّني عراقيّة! سوريّة! مصرية! أردنية! خليجية! لبنانية! كلّ الاحتمالاتِ واردةٌ، لكن؛ فلسطينيّة؟ في أيّ بلدٍ غربيٍّ تقطنين! فهل ينبغي أن أكونَ ببلدٍ آخر غيرَ موطني؟ هل يمكنُ محاكمةُ المرءِ على جنسيّتِهِ؟ مَن منّا اختارَ هُويّتَهُ الوطنيّةَ والقوميّة والدينيّةَ والعِرقيّة وجنسيّتَهُ القسْريّة؟

وصلت خبيرة الآثار والجيولوجيا الأميركية د. جنفير آلنما إلى زقورة أور غرب مدينة الناصريّة جنوب بغداد، للبحثِ عن المرشدِ السياحيّ مُحسن المغترِب، وفوجئت به يتحدّث أكثرَ مِن خمس لغاتٍ عالميّة، لكنّه يجهلُ لغته العربيّة قراءةً وكتابة، ليؤكّدَ بذلك على شكلٍ آخر لاغتصابِ واحتلال اللغةِ والهُويّة، غيرَ الاحتلالِ الحقيقيّ القائم على غطرسةِ القوّةِ بأدواتِ القتل والقهر والاضطهاد، فهناكَ احتلالٌ يتمثّلُ بالجهلِ وبدَوْرِهِ في اتّساع رقعةِ الضياع!

فكَم مِن مرشدين سياحيّين خدموا الاحتلالَ العسكريّ بدراية أو بدونِ دراية؟ وكم مِن بدويٍّ مِن مُتتبّعي الآثارِ في الرمال والصحارى خدموا الاحتلال؟ وكم مِن عشراتِ المُترجمينَ تَرجَموا لقوّات الاحتلال، وقُتلوا بعدَ إنهاءِ مُهمّاتِهم؟

منذ اكثر من سنتيْن خضت غمارَ المقالةِ المنبثقة مِن واقع إنسانيّ مرير، لا تُغيّرُ طعومَهُ لا الأيّامُ ولا الأعوامُ ولا الدهور، ووجدتُني في حالةِ إغراقٍ فكريّ مُرهق بكلّ ما يدورُ مِن حولي في هذا العالم القريب البعيد الضيّق الشاسع، فمرّة يشدّني التاريخ الى سمومِهِ المُلوّثةِ بالمآسي، ومرّةً إلى جذورِهِ الغارقةِ بدماءِ الأبرياءِ مِن البَشر!

وكإنسان لا يؤمنُ بحدودٍ جغرافيّة، تاريخيّة، عرقيّة، دينيّة أو سياسيّة، كتبتُ لأخي الإنسان، ذاك الذي يقعُ في كلّ مكان وزمان ومنذ الأزل، في ظلالِ الصراعاتِ والحروباتِ والمآزق، فيكون ضحيّة أخيهِ الإنسان على الغالب، ويدفعُ ضريبةً باهظةً قد تُكلّفُهُ حياتَهُ وزعزعة استقرارِ أسْرتِهِ وبلدِه!

فهل يستطيعُ الكاتبُ الحرُّ أن يتعدّى حدودَهُ المُسيّجة بالألم، كي يُحاكي المُضطهَدينَ في الأرض مِن جميعِ القوميّاتِ والجنسيّات؟ كيف يُحاكي العالَم، وحكايتُهُ تجتزُّها ألسنة القمع، وتجترُّها غوغائيّةُ الجهْل على السواء؟

هل يُجيَّرُ الكاتبُ لصالح المُهيمنينَ، ويخدمُ المُساهمين في هدْم المجتمعات، مِن خلالِ قوانين ونظم سياسيّةٍ وحزبيّة، تسوق إلى تفاقم الشراسةِ والاستغلال والقتل والنهب بين المجتمعات والشعوب؟

وأخيرا.. الكاتبُ؛ كيف يُناهضُ العاملين على توتيرِ المعايير الاجتماعية والدينيّة، ويمنعُ اختلال الأركان السياسيّة والأطر الاقتصاديّة، التي تخلق أجواءً مِن الفِتن والانتقام والهيمنة، فيَحمي المجتمعَ مِن صيرورتِهِ رهينةَ احتلالٍ فكريّ وسياسيّ وعِرقيّ ودينيّ، أو ضحيةً تتلاعبُ بها رياحُ المآسي وعذاباتٌ وضغوطاتٌ نفسيّة، تصلُ حدّ الرعب واللعنةِ والنزاع؟

"يا ربّ، لا تجعلْني أتّهمُ مَن يُخالفُني الرأيَ بالخيانةِ"

بلغَني سؤالُهُ مُستفسِرًا عن معنى الكتابة، وكوْني شاعرةً وأديبةً في ظلِّ الاحتلال، وتبادرَ لروحي قوْلُ جيفارا: "أحسُّ على وجهي بألمِ كلِّ صفعةٍ توجّهُ إلى كلِّ مظلومٍ في هذه الدّنيا، فأينما وُجدَ الظلمُ فذاك وطني، وإنَّ الطريقَ مظلمٌ حالِكٌ، فإذا لم نحترقْ أنتَ وأنَا فمَن سينيرُ لنا الطريق"!

وكأنّ بلادَنا المحتفلةَ بأعيادِ استقلالِها الوطنيّةِ تتمتّع بهُويّةِ الحُرّيّة! وكأنّ الوجودَ العربيَّ بمعظمِ مُكوّناتِهِ مِن لغةٍ وثقافةٍ وسيادةٍ وثرواتٍ واقتصادٍ مُهدّدٌ كيانهُ المستقبليّ مِن قِبلِ قوى عظمى!

أو كأنّنا نعملُ بالمقولةِ المأثورةِ: "نموتُ واقفينَ ولا نموتُ راكعين"، ونرفعُ قوْلَ لنكولين شعارًا: "اِنهضوا أيّها العبيدُ، فإنّكم لا ترونَهم كبارًا إلاّ لأنّكم ساجدون"؟

أيننا مِن مفهومِ الحُرّيّةِ والاحتلالِ العسكريّ؟

وماذا عن الاحتلالِ الفكريِّ وزعزعةِ الإيمانِ، وخلخلةِ الثوابتِ الفكريّةِ، وخلْقِ الفوضى والفتنةِ بينَ عناصرِ الشعبِ الواحد؟

كيفَ نفسّرُ تبعيّةَ دوُرِ الإعلامِ والدعايةِ كقوى مُحرِّكةٍ في الاحتلالِ النفسيِّ وبثِّ سمومِها المُغرية؟

هناكَ حركاتٌ مصطنعَةٌ تدّعي الاعتدالَ والعدلَ، تُوجّهُ عقاربَها باتّجاهِ الاحتلالِ ضدَّ الروحِ والضمير، وإنّي لأسمعُ صوتَ جبران خليل جبران:

"إنّ الأمّةَ المستعبَدةَ بروحِها وعقليّتِها، لا تستطيعُ أن تكونَ حُرّةً بملابسِها وعاداتِها"!

مَن يُساندُ الحقَّ إلاّ أهلُهُ، ووعْيُ أمّةٍ لا تتوانى ولا تتهاونُ في حقِّها وحُرّيتِها ولا بخلطِ أوراقِها؟ ألم يقلْ نيلسون منديلا:

"الحُرّيّةُ لا تُعطى على جرعاتٍ، فالمرءُ إمّا أن يكون حُرًّا أو لا يكون، والجبناءُ يموتونَ مرّاتٍ عديدة قبلَ موتِهم، والشجاعُ لا يذوقُ الموتَ إلاّ مرّة واحدة"!

إذًا؛ لماذا تتّسعُ آفاقُ المطامعِ الغربيّةِ بشرقِنا، وتضيقُ آفاقِ الفكرِ العربيِّ ورؤاه؟

عشراتُ النداءاتِ المستغيثة تصلُني، للتضامنِ والإفراج عن مفكّرينَ وإعلاميّينَ وشعراءَ وأدباءَ أطلقوا أصواتَهم المجروحةَ للحُرّيّة، فأُطبِقَ عليها وعليهم في السجونِ والتعتيم والإعدام والتهجير، فكيفَ تنيرُ هذهِ الأصواتُ العقولَ والنفوسَ والوجودَ والكيانَ والهِممَ إنْ شُلّتْ هذهِ الألسُنُ؟ وما أدراكَ ما الكتابة؟

الكتابةُ طائرٌ خرافيٌّ تُشكّلُهُ فوضويّةُ الواقعِ، يُمارسُ طقوسَهُ الغريبةَ، يسبحُ ويغوصُ في لججِ الخيالِ، لينتزعَ مِن أعماقِهِ محاراتِ آمالٍ، يُحلّقُ بها إلى سمواتِ الحلمِ، فيزرعُها نجومًا وضّاءةً في عتمِ ظروفٍ كالحةٍ، مغموسةٍ بأرَقِ الهمِّ الفرديِّ والجماعيِّ.

الكتابةُ ألبومٌ كبيرٌ للوحاتٍ مرسومةٍ بالكلماتِ، تشهدُ على بيئتِها وعصرِها وحضارتِها وثقافتِها، تحملُ بثيماتِها وتصوّراتِها وآمالِها اللامتناهيةِ رسالةً ساميةً ومؤثّرةً وإيجابيّةً، تتركُ بصماتِها محفورةً على جباهِ المقاماتِ، بَعْدَ انتشالِها من حُفَرِ الرمالِ المتحرّكةِ المردومةِ بقشٍّ مفخّخٍ، فتجوبُ بها آفاقًا لِتَحُطَّ في نفسِ المتلقّي وتهزّهُ وتُذهلُهُ، حينَ تُناغمُ أوتارَ قلبِهِ وإيقاعَ عقلِهِ.

ما معنى أن تكونَ رهينًا في بلدِكَ ومحاصَرًا في أرضِكِ، لكنّكَ حرٌّ طليقٌ بفكرِكَ، تقضمُكَ الغربةُ، وتؤطّرُكَ في صناديقِ الاتهامِ السوداءِ، تخضعُ لدينونةِ العدوِّ المحتلِّ من ناحيةٍ، ولرفضِهِ لكَ بشتّى وسائِلِهِ وبأبعادِها من أجل تهجيرِكَ، ومحاربتِهِ إيّاكَ بتجزئتِكَ وشرذمتِكَ بمسمّياتٍ تتعدّدُ، وبطمْسِ معالمِكَ العربيّةِ الموحِّدةِ لكلِّ الفئاتِ، ومِن ناحيةٍ أخرى تواجهُ دينونةَ أخيكَ العربيِّ، واتّهامَكَ بالتخلّي عن ملامحِكَ وهُويّتِكَ الفلسطينيّةِ، طالما أنّكَ أُرغِمْتَ على حَمْلِ جوازِ إسرائيليٍّ، يُرضخُكَ للقوانينِ والشروطِ الإسرائيليّةِ والمواطنةِ الجزئيّةِ كعربيٍّ في دولةٍ يهوديّةٍ؟

أنتَ المكبّلُ بسلاسلَ من أسئلةٍ لزجةٍ تدورُ محاورُها على ذاتِها: مَن أنا وإلى أينَ أسيرُ وأُسَيَّرُ، كيفَ أتحدّى وأُجابهُ مشاقَّ ووعورةَ الدروبِ المرسومةِ؟

كيف لا يسلبُني الهروبُ مِن هذا المَسيل؟

هل هناكَ مِن خيارٍ أمامي سوى الهجرةِ والرحيلِ إلى بلدٍ آخر؟

وإن بقيتُ هل سيتمكّنونَ أن يخلعُوا عنّي ثوبيَ العربيَّ، ويُلبسوني ثيابَهم المفصّلةَ لي بمقاساتِهِم وألوانهم؟

هل أخضعُ للذوبانِ والتلاشي والاضمحلالِ كما يُخطَّطُ لي؟

وهل إخوتي مَن يعيشونَ الشتاتَ على مضضٍ أفضلُ حالاً منّي أنا الراسخُ اللاجئُ في بيتي وبلدي؟ وكيفَ أثبتُ أنّي ابنُ هذه الـ فلسطين ولستُ لاجئًا فيها؟

أن أكونَ كاتبًا ينبغي أن أتماهى مع الهمّ العامّ والخاصّ، لأثبتَ أنّي أحملُ جوازًا وهُويّةً إسرائيليّةً رغمًا عنّي، وأنّ هذا الأمرَ لا يُلغي البتّةَ انتمائيَ الشديدَ إلى جذوري وحضارتي الفلسطينيّةِ الراسخةِ رغمَ كلِّ الجفافِ والتجفيفِ، ورغم محاولاتِ التخنيقِ والتقديدِ والتحجيمِ، واستخدامِ لغةِ التهجيرِ بشتّى لهجاتِها الملغومةِ، ففي أيّةِ محكمةٍ عادلةٍ يثبتُ عنادي وصمودي وإصراري في صراعي المرير، أنّي بريءٌ من دمِ هذا التاريخ المفخّخِ؟

ما هي البراهينُ والدلائلُ من أجلِ تثبيتِ حقّي الشرعيِّ والإنسانيِّ؟

ولماذا أظلُّ أنا الفلسطينيُّ ملزَمًا ومتأهّبًا للدفاعِ عنّي؟

هوَسٌ لا يَخبو يؤرّقُني على مدى الصحوةِ، هل تنجحُ أجيالُنا القادمةُ في متابعةِ مشوارِ الهمِّ العامِّ، أم أنّ الهمَّ الخاصَّ قد يقودُها إلى مقولةِ "أسألُكَ يا ربُّ نفسي"، فتخضع للتهجيرِ أو التذويب؟ كيف يمكننا تفادي الهواجسِ المرعبةِ والتصدّي لها؟

أسئلةٌ قائمةٌ تتأرجحُ ما بينَ زوايا حادّةٍ ومنفرجةٍ، ممزوجةٌ بفكرٍ وأحاسيسَ متألّمةٍ وفلسفةٍ متأمّلةٍ بالخلاصِ والفرجِ، نسكبُها بقوالبَ إبداعيّةٍ وتصنيفاتٍ أدبيّةٍ متعدّدةٍ، توصلُ عصافيرَ النفسِ الضالةَ إلى أعشاشِها الآمنةِ مؤقّتًا، والتي ترقى أعماقَ الكونِ الكثيفةِ بتفاصيلِهِ المتناقضةِ وخيوطِهِ المتشابكةِ، وفَكِّها ونَسْجِها، وسَبْكِها في أُطرٍ فنّيّةٍ صاخبةٍ صامتةٍ، ناطقةٍ خرساءَ، لكنّها أبدًا ليستْ عمياءَ فاقدةً اتّجاهاتِها، فهي هادفةٌ وليستْ عبثيّةً.

اليومَ علا الصوتُ وقويَ صداهُ، تخطّى الحدودَ المفروضةَ بفضلِ النتّ، فصارَ مُتنفّسًا حقيقيًّا فكريًّا وأدبيًّا واجتماعيًّا، إن لم يكنْ حضورًا بالجسدِ، يوصلُ الرسائلَ للخارجِ القريبِ البعيدِ، وتبادل وجهاتِ النظر وتفهّمها لظروفٍ تلاصقُ الوجعَ.

الكاتبُ إنسانٌ أوّلاً وأخيرًا، موهوبٌ مُطّلعٌ، يتحلّى ويتزيّنُ بكلِّ ما تحملُهُ حضارتُهُ وتاريخهُ مِن جمالٍ وصِدقٍ وأمانةٍ وإخلاصٍ، يتماهى مع كلِّ العناصرِ التي تُعزّزُ كيانَهُ الإنسانيَّ في ذاتِهِ ومجتمعِهِ، ليعكسَ مرآتَهُ الحقيقيّةَ الداخليّةَ بألقِها وجاذبيّتِها، ويبذرَ فكرَهُ وحِسَّهُ في نفوسِ قرّائهِ، لمتابعةِ واستمراريّةِ الثقافةِ والهُويّة!

الكتابةُ رحلةُ تأمُّلٍ هاربةٌ مِن حصارٍ قسريٍّ غيرِ مسلَّمٍ به، إلى أبعدِ مدى ما أمكن، للاطّلاعِ على ما يجولُ فيما وراءَ القضبانِ والجدرانِ، وبالتّالي تحويلِها للغةٍ فنّيّةٍ إبداعيّةٍ أدبيّةٍ، مِن أجلِ معالجةِ أمورٍ قابلةٍ للتّخلخلِ، ومن ثمَّ إعادةِ التوازنِ الناجعِ إلى الكيانِ الوطنيِّ والإنسانيِّ بقيَمِه الإيجابيّةِ الراقيةِ البنّاءةِ، فعسانا وعساهم نردّدُ دعوةَ طاغور: "يا ربّ، لا تجعلْني أتّهمُ مَن يُخالفُني الرأيَ بالخيانةِ".

سُلطةُ الكتابِ وإعادةُ نظر!

للكتابِ سلطةٌ وأثرٌ حضاريٌّ بالغ، كوْنه أداة تعبيرٍ وعصَب حياةِ الأمّة، وأحد شواهد الإبداع الإنسانيّ وتاريخ الحضاراتِ الإنسانيّةِ ورقيّ الأمم، لِما يحملُهُ مِن أبعادٍ لغويّةٍ وتراثيّةٍ وحضاريّة، فهو مقياسٌ للوجودِ والحضورِ ودرجةِ التقدّم والازدهار.

وللقراءةِ أهمّيّةٌ كبيرةٌ في التحدّيات والتطوّر الاقتصاديّ والصحّة والوعي والأمن الغذائيّ والديمقراطيّ، وبناء نسيجٍ فكريٍّ وتربويٍّ يُعزّز الحفاظَ على صحّةِ ومكانةِ المجتمعات واللغة، إذ تتيحُ اتّساعَ آفاق المعرفة وتوسيع المنظورِ للحياة، وصقلِ المواهب وتحفيزِ المخيّلة وتطوير الأفكار والوعي، وكسْرِ سلاسلِ أيّةِ إمكانيّةٍ لمحاصرةِ الكلمةِ الحرّة واحتكارها.

أمّا الترجماتُ والتعدّد اللغويّ والانتشار عالميًّا، فتلعبُ دورًا مهمًّا في التداول الحُرّ للأفكار وبناءِ جسورِ التعارف والتواصل بين الشعوب، مِن خلال الكلمةِ والصورة والإبقاء عليهما دون اندثارهما. وكثيرًا ما نسمعُ: عن كتبٍ تُصادَرُ وتختفي من المكتبات مِن قِبل جهاتٍ أمنيّة، تَحجُر على الفِكر الحُرّ، ونسمع عن تنافسٍ شنيعٍ بين معارضِ كتبٍ بمؤامراتٍ وطرقٍ ملتوية، وعن طباعةِ كتبٍ واختراقِ حقوقِ مؤلّفٍ وتعدٍّ عليها دون علمه! كما نسمع عن سرقةِ جهودِ أدباء أحياء وأموات والاتجار بها، دون إيعازٍ إلى جهود مؤلّفيها، وحكايا أخرى عديدة، فكيف يمكن تفادي السرقات الأدبيّة وجهود الأدباء؟

تاريخ 23- إبريل شهد وفاة الأديبيْن العالميّيْن شكسبير وسرفانتس، وولادة المؤلّفيْن المشهورَيْن فلاديمير ناباكوف وموريس دروان، وقد حُدّد "يومًا عالميًّا للكتاب وحقوق المؤلّف"، بإقرار الجمعيّةِ العامّة للأمم المتّحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) عام 1995 في باريس، كتقديرٍ للمؤلّف واحترام حقوق الكتابة، ولإبراز أهمّيّةِ القراءة.

وتقومُ المنظّماتُ المهنيّةُ الدوليّةُ الثلاث: رابطة الناشرين الدوليّة، والاتحاد الدوليّ للمكتبات، والاتحاد الدوليّ لرابطات ومؤسّسات أمناء المكتبات، على تحديدِ عاصمةٍ عالميّةٍ للكتاب، فتوالت الأعوام والعواصم الثقافيّة: مدريد عام 2001، الاسكندرية 2002، نيودلهي 2003، أنفير 2004، مونتريال 2005، تورينو 2006، بوغوتا 2007، أمستردام 2008، بيروت 2009، و لوبليانا عام 2010.

فهل الأدبُ صنعةٌ ورصيدُ للأديب يعتاشُ منه كما كان قديمًا؟ وهل يعتبرُ الكِتابُ في العالمِ العربيّ محورًا أساسيًّا في الأنشطةِ الثقافيّةِ، والمِهنِ المُدِرّةِ للدخل وللتنميةِ الاقتصاديّةِ كما في الغرب؟ أين موقعُنا في هذا الخضمّ الثقافيّ الهائل من مأزق تردّي القراءة؟ما حالُ ومصيرُ الكتاب الورقيّ عندنا، في مواجهةِ الوسائطِ الإلكترونيّةِ وقانونِ البقاء؟ كيف نُفسّرُ وجودَ مكتباتٍ ودُورِ نشرٍ ومقاهٍ أدبيّة عجّتْ بالكتب والقرّاء قديمًا، وحُوّلتْ إلى بوتيكات للملابس ومطاعم ومقاهٍ للنراجيل؟

لماذا يعيشُ الكِتابُ العربيّ أزماتٍ متنوّعة أثّرتْ سلبيًّا عليه، وما أسبابُ العزوفِ عن القراءةِ؟ هل انشغالُ الناسِ بمتطلّباتِ الحياةِ ومادّيّاتِها؟ هل انتشارُ عالم الفضائيّات والتقنيّاتِ الحديثة؟

هل تقصيرُ المدرسةِ والبيتِ والمؤسّسات والمجتمع عامّة في توجيهِ اهتمامِ المواطن للكتاب؟ هل عدمُ الشعور بالحاجةِ للقراءةِ ومتعتها؟ هل لخلافاتٍ مادّيّةٍ حولَ حقوق ونسبةِ أرباح وتنافُس في انتشارِ ورواجِ الكتب؟ هل اختلطَ الحابلُ بالنابل والصالح بالطالح إبداعيّا، وتسبّبَ برداءةِ الإنتاج وفقدانِ الثقّة بجدوى الأدب؟ هل هناكَ لجانُ مراقبةٍ تعطي شهادةَ ميلادٍ ووفاةِ للكاتبِ والكتاب، بمصداقيّةٍ زمنيّةٍ وموضوعيّة؟

مع اختراق فضاءِ الاتصالات، هل تبدّلت أساليبُ ممارساتِ لجان المُراقِبة الصارمة، أم أنّ المؤلّف ينتظرُ سنواتٍ طوال، ثمّ يركنُ إلى يأسه، أو يتعلّقُ بحبال الهواءِ العابرةِ وبالقطاعِ الخاصّ، فيغرق في التجريب والسقوطِ في الرداءة، ويحفرُ دروبَ ذوقٍ وعريّة سيّئة معَ القارئ، حين يساهمُ في هبوطِ مستوى الكتاب، أو في صراعٍ عبثيٍّ معَ الناشر والمُوزّع! هل نُحمّلُ دُورَ النشر مسؤوليّتَها عن حالة تردّي الكتاب، لاهتمامِها بالأبعادِ التجاريّة؟

ولماذا يعاني المؤلّفُ العربيّ مِن قلّةِ قرّائِهِ، فيطبعُ ألف إلى 3000 نسخة لكتابه، ويبقى معظمُها في المكتبات ودورِ النشر مدّة سنواتٍ، بينما الكاتبُ الغربيّ يحظى بطباعةِ آلافِ وملايين النسخ لكتابِهِ الواحد؟ هل بسبب الأزمة المُركّبةِ في ذائقة القارئ العربيّ ورداءةِ الكُتب؟ هل بسبب نشْرِ الأكاذيب والمعلوماتِ المُضلّلةِ، وتدمير حرّيّةِ الإعلام والتعبير؟ هل بسبب تغلّب النزعةِ التجاريّةِ وغلاءِ الكتب وصعوبةِ اقتنائِها؟ هل بسبب انحسارِ المعرفةِ المجتمعيّة للكتاب، وتقصيرِ المَرافق الوطنيّةِ والثقافيّةِ والإعلاميّةِ ودُورِ النشر، في الدعاية والتوزيع والبيْع والاحتفاءِ بالكِتاب وبشُهرتِه؟

كيف يمكن خلْق الدوافع والمحفزاتِ للكتابِ وتشجيعِ القراءة؟ هل بتوفيرِ أماكنَ وفرصٍ للمطالعة وللمنافسة؟ هل بتسليطِ الأضواءِ إعلاميًّا على المكتباتِ والكتابِ والمؤلّفينَ والمؤرّخين والباحثين؟ هل بزيارةِ المبدعين للمدارس والمؤسّسات وتمويلِ هذه الزيارات؟ هل بتبنّي مؤسّساتُ الدولة للكاتبَ والكتاب وتسويقه وتوزيعه بموضوعيّةٍ عادلة؟

الأمّيّة تؤثّر سلبًا على حياة واقتصاد وثقافة المجتمع، فهناك 771 مليون إنسان أمّيّ في العالم بنسبة 18%، وأعلى نسبة 39% في الجالية اللاتينية في أمريكا، و60% مِن المساجين الأمريكيّين أمّيّون، و15 مليون أمّيَ عاطل عن العمل، يُكلّف اقتصادَ الدولة مئات ملايين الدولارات، وأعلى نسبة أمّيّة عالميّة في العالم العربيّ، تشكّل 70 مليون أمّيّ مِن أصل 316 مليون، وثماني دول عربيّة بدون تعليم إلزاميّ، وفي مصر وحدها 17 مليون أمّيّ بنسبة 20%!

فهل هناك مُخطّطاتُ ترغيبٍ وطنيّة مُنسّقة وممولّة، تدعمُ النشاطاتِ الثقافيّةَ التثقيفيّة لكلّ الشرائح العُمَريّة، وتعملُ على توحيدِ جهودِ القطاعات الفاعلة؛ كالأسرة، رياض الأطفال، المدرسة، المكتبات، المنظّمات والجمعيّات، وتُغطّي التجمّعاتِ السكّانيّة في كلّ المدن والأرياف، لتكافحَ الأمّيّة وتشجّع المطالعة وترسّخ ممارستها، مِن خلال مسابقاتٍ وطنيّةٍ في المطالعةِ والإبداع الأدبيّ؟

معارضُ الكتب في دولِنا العربيّةِ والمهرجاناتِ الثقافيّةِ والمنتدياتِ الثقافيّةِ المحلّيّة والدوليّة، هل تساهمُ في تطويرِ العلاقاتِ الثقافيّةِ بينَ الكتّاب دوليًّا، والمصالحة مع القارئ المحلّيّ؟

أزمة الكِتاب والنشر عند كُتّاب فلسطين الداخل!

الإعلام هو وسيلة لتبليغ وإيصال قضايا العصر والتعريف بها، وكيفية معادلتها وموازنتها في ضوء النظريّات والأفكار والمبادئ التي اعتُمدت لدى كلّ نظام ودولة، وللإعلام زمامُ الأمور بأسلوبه المنظم في الدعاية السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة، من أجل ترويج الأفكار والتحكّم بالرأي العام، من خلال تهيئة نفسيّة لاستقبال السيول الفكريّة المؤَثّرة، ونقل المعلومات والثقافات الفكريّة والسلوكيّة التي تخاطب العقل والغرائز، بطُرقٍ مدروسة وأدوات ووسائلَ ظاهرة ومعنويّة، ولكن.. قد يكون الإعلام حقيقيًّا وموضوعيًّا وقد يكون العكس.

الإعلام المقروء يشكّل سلعة ثمينة في الوسائل الإعلاميّة بشكل متطوّر، وما الصحُف والمجلات والكتب إلاّ قوالب للفكر والرأي والأخبار والمتفرّقات الأخرى، ونلحظ اليوم صراعًا محتدمًا بين النشر الورقيّ والإلكترونيّ في السنوات الأخيرة بأبعادٍ خطيرة، ففي الوقت الذي فيه ينطلق النشر الإلكترونيّ في فضاءات واسعة، أخذ ينحسر التعاطي بالنشر الورقيّ ويخبو بريقه، وصار أصحاب الصحف الورقيّة يُطلِقون مواقع إلكترونيّة لصحفهم الورقيّة، وتحديد وقت للتحديث اليوميّ بما لا يضرّ من حيث المتابعة والإعلانات!

هل يمكن اعتبار الإعلام الإلكترونيّ سلعة العصر الأولى؟ وما مدى تأثير ذلك على المجتمعات العربيّة في ظلّ هبوط مستوى القراءة للمطبوعات؟ وما مستقبل الإعلام الورقيّ والكتاب المقروء في السنوات القادمة؟ هل المؤسّسات الثقافيّة والاتحادات ساهمت في عزوف القرّاء عن المتابعة للإعلام الورقيّ، وتوجيهها نحو الإلكترونيّ بكافّة أشكاله وألوانه؟ وبما أنّنا جزء من منظومة عالميّة تواجه تسارع الزمن وتقدّم العجلة التكنولوجيّة بالانخراط في تفاصيل الثورة الرقميّة، والاندماج في مكوّناتها وثوراتها الصناعيّة، فكيف تَعامَلنا نحن العربُ مع هذه الثورة التي ما زالت تترنّح بين انخراطنا في البعد السلبيّ لهذه التكنولوجيا، وبين التركيز على الجانب الترفيهيّ؟

في ظلّ الهيمنة الإلكترونيّة تقع الثقافة اليوم بين الربح واللاربح، يقع المؤلّف ضحيّة المؤسّسات في الكثير من الأحيان، إمّا لمبادئه الثقافيّة القائمة على عدم المتاجرة بمنتجه وبإبداعه، وإمّا لثقته الزائدة في المنابع والمؤسّسات الثقافيّة القائمة والمنتشرة في الوطن، والتي يعتبرها الكثير منّا رافدًا لثقافتنا ولمسيرتنا، والتي تتقنّع باللاربحي وتمارس الربحيّة في أكثر من وجه وعلى أكثر من صعيد، ممّا أصاب البعض بالصدمة عند اكتشافه لهذا الجانب المعتم، وأوصله لحالة من عدم الثقة، ولقناعات بأنّ الثقافة حالة فرديّة يمارسها كلّ كاتب على هواه وكيفما يشاء، فكيف يمكن إعادة الثقة بين المؤسّسة والكاتب، للوصول إلى منتج يخدم قضايانا الوطنيّة والثقافيّة بدون شوائب؟

هل وطنيّتنا وشعورنا الوطنيّ الذي نتبناه تجاه المؤسّسات، يمكن أن يصبح مذبح لإبداعاتنا؟ لماذا نبتعد عن المؤسّسات ونُحلّق في فضاءات فرديّة بتوجّهات فكريّة وحزبيّة وروحيّة مختلفة؟ لماذا نوافق أن تُستباح ثقافتنا وإبداعاتنا بمستوى النِّسب الربحيّة بين المؤسّسة والمطبعة؟ لماذا يلجأ كُتّابنا للنشر خارج البلاد في الأردن ومصر ولبنان وغيرهما من الدول

العربيّة والأوروبيّة؟ ما المغريات وما الجدوى وما المقابل؟ هل هو نوع من التسوّل، أم استغلال المثقف في الخارج، أم نوع من الركوب على متن قضيّتنا؟ وهل حقّق كُتّابنا المحلّيّون ما يصبون إليه في الخارج؟ وكيف نوقف هذا الاستنزاف لثقافتنا الإنسانيّة قبل ثقافتنا الإبداعيّة؟

يمكن من خلال زيارات استكشافية بسيطة ومتواضعة الدخول إلى عالم الطباعة والمطابع، وكشف حجم التزييف والقرصنة التي تنخر في هذا القطاع من الداخل، فهناك كتب مدرسيّة وروايات عالميّة ومؤلّفات لها من الشهرة ما يجعلها سلعة مُغرية للمطابع والقراصنة، يتمّ طباعتها بأعداد هائلة وتوزيعها على المكتبات وبيعها بأسعار أقلّ بكثير من سعرها الحقيقيّ، ودون أيّة مراقبة أو مساءلة قانونيّة، فما الذي يضمن للكاتب والمؤلّف الحماية لمُنتجه، وعدم تعرّضه للسرقة سواء داخل البلاد أو خارجها؟ كيف؟ هل بإمكان المؤلف أن يتحوّل إلى شرطيّ أو مُخبر يبحث بين الكتب المكدّسة بعناوين مختلفة وأغلفة مزيّفة عن كتابه، إذا ما تعرّض للتزييف والسرقة؟

على صعيد المؤلف، فالمعاناة تبدأ من لحظة دخول الكاتب والمؤلّف إلى مرحلة الإصدار، وكيفيّة اختياره لدار النشر المؤهّلة لإصدار منتجه وحمايته، وبكيفيّة عدم تعرّضه للاستغلال من قِبل دور النشر والمطابع، والأهمّ نقطة آليّات التوزيع والترويج للمنتج الفكريّ أو الأدبيّ الصادر، وكيفيّة تعامل دور النشر مع هذا البند، فلماذا يتهاون الكُتّاب في بيع حقوق النشر للناشر؟ لماذا يُساهمون في تمكين دور النشر من استغلالهم مقابل الشهرة، أو مقابل اكتساب ميزة نشر عدد أكبر من الكتب؟ ولماذا تتعامل وزارة المعارف مباشرة مع دور النشر وليس مع الكاتب، والكاتب لا يأخذ من مردود نصوصه وكتبه المُدرجة في المنهاج إلاّ الفتات؟

هذه المعاناة ناتجة من أسباب كثيرة، في أغلبها قلّة حيلة الكاتب في توفير تكاليف النشر، أو السعي وراء الشهرة بأيّ ثمن، وربّما لعدم تمييز المؤلف بين دور النشر والمطابع وجودتها وتكاليفها، أو بسبب الثقة المُطلقة التي يُوليها الكاتب لدار النشر والمطابع، أو بسبب غياب المؤسّسة الثقافيّة أو الفكريّة الجامعة التي من شأنها حماية الكُتّاب وعدم تعريضهم للاستغلال، أو اعتماد المؤلف في توجّهاته على المسموعات، أو لجهله بقوانين النشر، نظرًا للظروف السياسيّة التي تحكم واقعنا، وإمّا لعدم وجود قوانين من الأساس تحمي المؤلّف مادّيًا ومعنويًا، وبالتالي غياب إطار ثقافيّ ونقابيّ رسميّ يُمثّل الكُتّاب، ويضمن حقوقهم في حالة تعرّضهم لغبن دور النشر والمطابع كالنقابات.

لماذا تكثر الاتحادات والتشكيلات المرتبطة بالتوجّهات السياسيّة، ولا نجد إطارًا حقيقيًا وشرعيًا للمهنة كمهنة، شأنها شأن باقي المِهن الأخرى التي تحظى بالحماية، سواء من قوانين النشر والمطبوعات، أو من خلال جهة شرعيّة ترتبط بإطار دوليّ يُحاسِب على أيّ تجاوز؟ لماذا تُعقد آلاف الأمسيات الشعريّة والندوات الثقافيّة والسياسيّة لمناقشة نقديّة وتكريميّة واحتفاليّة ، ولا تُعقد ورشات عمل متواصلة لتوعية المؤلّف لحقوقه في النشر، وفي كيفيّة حمايته لمُنتجه وحمايته لنفسه من السرقة، ولمناقشة قوانين النشر والمطبوعات في واقعنا المحلّيّ والعربيّ؟

أسئلة كثيرة وتبريرات أكثر قد تواجهنا اذا ما دخلنا في نقاش حقيقي "لأزمة النشر المستفحلة"، وتعرّض كتّاب للاستغلال ولعمليّات القرصنة والابتزاز والضياع، وتظلّ الإجابات مُبهمة ومُغيَّبة، وذلك لعدم وجود مؤسّسة جامعة، ولعدم وضوح قوانين وشروط النشر، ممّا ساهم في تقديم الكُتّاب لدُور النشر والمطابع كلقمة سائغة للهضم، حدّ الشكل الاستعراضيّ على حساب الثقافة الوطنيّة العامّة.

أسوق هذا الحديث من خلال تجربة متواضعة عايشتني، فكتبي الخمسة الأولى أصدرتها على حسابي الخاصّ ولكن بختم مؤسّسة بيت الشعر الفلسطينيّ، كغطاء واقٍ لفلسطينيّتي المُشوّهة، ولأنّ التكلفة أقلّ وأرحم من بلادنا، أمّا كتابي الأخير "رحلة إلى عنوان مفقود"، فقد تكلّل بمعرفة أخرى فتحت لي عيون الحقيقة، لأشهد ما كنت غفلت عنه سنين طويلة، فقد تعرفت على المركز الوطنيّ للترقيم المعياريّ الدوليّ international standard book (ISBN) number، وهو مرتبط بجامعة القدس، ويقوم بتسجيل الإصدارات ضمن شيفرة وأرقام تسلسليّة عالميّة تحفظ حقوق المؤلّف عالميًّا، وتُوثّق أيّ إصدار مُسجّل في هذا المركز لصالح المؤلّف والكِتاب ودار النشر، بحيث تمنح الكاتب ودار النشر القاعدة القانونيّة والسند الشرعيّ للدفاع عن حقوقه، والمُطالَبة بها ومقاضاة العابثين، ومِن أهمّ ما يُطالب به هذا المركز في تسجيله للكتاب، فقط احتفاظه بنسختيْن مِن الكتاب الصادر في أرشيفه وبين مستنداته، ومُلخّص فقرة واحدة عمّا يتناوله الكتاب باللغتيْن العربيّة والإنجليزيّة، للاستفادة منه في الدليل السنويّ العامّ، الذي يَصدر عن المركز المعياريّ الدوليّ، وكذلك لمحة موجزة عن المؤلّف ودار النشر، للاستفادة منه في هذا الدليل أيضًا، ولدعم الكاتب بجهة دوليّة تحفظ الكتاب بالرقم التسلسليّ الدوليّ، وتحفظ حقّ المؤلّف ودار النشر أيضًا في الدفاع عن حقوقها.

أطرحُ هذه القضيّة بشفافيّة مألومة، فمِن خلال مشاهداتنا ومعايشاتنا لمسيرتنا الثقافيّة نصطدم بالشخص الواحد والشاعر الأوحد، والكاتب الذي لا يُشَقُّ له غبار والمدعوم إعلاميًّا ومادّيًّا وحزبيًّا، مثلما نصطدم بمعاناة الغالبيّة العظمى من الكُتّاب، وتعرُّض إصداراتهم للتعتيم والكتمان والنسيان والإهمال على حساب الإبداع الجَمعيّ، فإلى متى نظلّ نصطدم بالحقائق ولا نُواجهُها، ممّا يخلق حالة ثقافيّة باهتة، ويجعلنا رهائن المُطْلَق الذي تعتمده المؤسّسات والأحزاب كنهج، وتنتهجه المطابع كسلعة ربحيّة، لا تدخل في إطار الوعي ولا إطار المعرفة والتأثير؟

متى نؤسّس نواة لسلسلة ندوات وورشات عمل تثقيفيّة للكُتّاب والمُؤلّفين لمعرفة أبسط حقوق النشر، وكذلك ضرورة البحث في وجود هيئة حماية فكريّة للمؤلّفين والكُتّاب العرب، والبحث في إقامة مكتبة ثقافيّة عامّة تحمي المنتوج من التلاشي والاندثار، وتعمل على ترجمته، وتعمل على التصدّي لظاهرة "المُطلق" الذي يختزل المسيرة الثقافيّة في شخوص كتّاب وشعراء لا يتعدّوْن أصابع اليد الواحدة؟ متى ندرك ضرورة كشف المُسمّيات التي تعمل على القرصنة، من خلال استغلال أسماء الكُتّاب والشعراء، كجسر لحياتها وتواصلها واستمرارها، وعدم السكوت أمام استغلال "هذه الدكاكين" لواقعنا الأدبيّ والثقافيّ؟

مشاركتي في ندوة أقامتها جمعيّة الثقافة العربيّة في حيفا بتاريخ 16-5-2012، تحت عنوان: "جمعيّة الثّقافة تحتفي بالأدب الشابّ وتناقش أزمة النشر في الداخل".

مناطيدُ إعلاميّة فوقَ براكين وطنجيّة!

حين تكتظُّ نفسي بمواجع الواقع الدامي، يسبقني الهروبُ إلى حقل الزيتون بعيدًا عن كلّ ما يكتنفُ هذه العيون مِن دمعٍ عيلَ صبرُهُ، بات يتحجّر في المُقلِ مكلومًا، عاجزًا عن ترجمةِ الألم والإفصاح عن سرائر صمتِهِ المأزوم! هذا الصمتُ الدامع المتأجّجُ بضجيج الضمير المُتحدّي، ما انفكّ يُدمي القلبَ نشيجُهُ الذي يمزجُ العواصفَ بالعواطف، ولا يسعُهُ إلاّ أن يَكسرَ عظامَ الغطرسة والتكبّر والهيمنة، ليجعلَ منها سُلّمًا تصعدُ به درجاتُ العزة والكرامةِ نحوَ قمّةِ النجاح، لتُظلّلَهُ مظلّةُ المجدِ المُكلّلةِ بهالة الإنسانيّةِ العادلة! لكن؛ كيف يكون للشعب ذلك؟ هل ذلك ممكنٌ أم مستحيل؟ وبينَ الممكن والمستحيل وقفتُ وجهًا لوجهٍ في مناكفةٍ مُحبّبةٍ مع صديقتي الروائيّة فاطمة ذياب، حين كنّا نتردّدُ أيّامَ الإجازة على كرم الزيتون، نحادث أشجارَ الكرم ونحاورُها، نبثّها همومَنا ونرويها بمياهِ مواجعِنا، فتتستفيضُ دموعُها الخضراء زيتيّة تُواسينا بحِكَمٍ قالَها العربُ قديمًا: مَن أحبّ الشجرة أحبّ أغصانَها، والشجرةُ هي الوطن.

قالت: كم في البساتين مِن أشجارٍ نحبّها ونعشقها، ولكن البساتين الجميلة لا تخلو من الأفاعي!

وما أن أتمّت جُملتها، حتّى هرولَ الممكنُ باتّجاهِ المستحيل مذعورًا قائلا: أفاعٍ؟ مستحيل.

خرج المستحيل من قمقمِهِ صارخًا: نعم.. ممكن.. أفاعي وزواحف وحشرات.

صاحَ الممكن: يا المستحيل.. أنا أخافُ من الأفاعي والزواحف والحشرات، بالله عليك.. أعطني مفتاحَ بابي لأقفلَ بيتي وأنام!

المستحيل: مستحيل أن يغمضَ لك جفن. عليك أن تحترسَ مِن بابك الذي لهُ مفاتيح كثيرة.

الممكن: صحيح أنّ المفاتيحَ كثيرة، لكن ليس لديّ واحدٌ منها، فدعني آتي لأقطنَ معك إذن.

ردّ المستحيل: مِن المستحيل أن تقطنَ معي، لأنّي أقطن فقط في أحلام العاجزين.

سأل الممكن: أرجوكَ عرّفني بأولئك العاجزين!

انتفضَ المستحيلُ غاضبًا مُزمجرًا ومضى مسرعًا، وظلّ الممكنُ واقفًا متجهّمًا أمامَ مرآةٍ يحملُها بيدِه، يتأمّلُ تقاطيعَ وجهِهِ الملوّنةِ بالخوف! وأنا.. وقفتُ أمامَ صديقتي الروائيّة فاطمة ذياب في كرم الزيتون، نختلسُ السمعَ إلى هذا الحوار الخاطف. ومع أنفاس سيجارة تتقطّعُ ألمًا وسناجًا ضبابيّا، جعلتْ فاطمة تُعاقرُ خيالَها الجامحَ في سخريتِهِ، وأنا بهدوءٍ سارحٍ أداعبُ أفنانَ الزيتون بمشطِ القطفِ، وقهقهاتُ فاطمة المتحشرجة كأنّما تغفو وتصحو بينَ الحين والحين، تجولُ بين الأشجار تتبعّرُ، وتجولُ عن الأرض بعضَ حبّاتِ زيتون شاكستني هاربةً نافرةً مِن ثرثرتِنا اللزجة الممزوجةِ بالوجع العربيّ!

قالت فاطمة فجأة: القضاءُ على العدوّ ليس بإعدامِه، وإنّما بإبطالِ مبدئِه!

قلتُ: الضرباتُ القويّة تُهشّمُ الزجاج، لكنّها تصقلُ الحديد، وإرادةُ الشعب حديديّة!

قالت: مهمّ جدًّا أن نعرفَ المعادن التي نتعاملُ معها، كي لا نُهشّمَ بعضَها بجهلٍ وعدم دراية، فالموز الذي يتغاوى بسطوعِهِ، سرعانَ ما ينقلبُ إلى أسودَ داكن!

تدخّلَ الممكنُ هاتفًا: "لتكن فيكم طبيعةُ الماءِ الذي يُحطّمُ الصخرة بينما ينسابُ قطرةً قطرة"!

قالت فاطمة: قولٌ مأثورٌ يتسامى عطرُهُ في قواريرِ الروح كلّما هاجَها الغضبُ استياءً ممّا يُعكّرُ مزاجَها، وما أكثرَها المُعكّرات، وما أحوجَ المزاجَ أن يروقَ قليلا، فلا يُريق جامَ سُخطِهِ على مُمثّلي الرأي العامّ؟

قلت: وهل هناك حقّا رأيٌ عامّ لا يخضعُ لمِشرطِ الإعلام، ومَن ينضوي تحتَ جناح الإعلام الخاصّ والحزبيّ والطائفيّ والوطنجيّ وإلخ؟ وإذا بصوت وديع مراد يُطلّ مازحًا: "خلّيلي مزاجَك رايق وحياتك لا تفقسنا"!

قلت: كيف يظلّ المزاجُ رائقًا دونَ تعكير، ومسؤولون كُثرُ في الإعلام يتجبّرون ولا يعتبرون مِن أخطاءِ الماضي كي يسيروا في طريق الصواب، بل ويُغالون في حَجْب مَن لا يتفق وطريقهم، ويُعْلون شأنَ مَن يُناصرُهم؟! أين هو الرأي العامّ المتذبذب على أمواج الإعلام السطحيّ، والذي يهتمّ بالصور والقشور، ويُسخّف ويُهمّش الرأي العامّ ويتلاعبُ به؟

جُروحاتٌ تتراكمُ وتتكوّم، تؤلمُ مَن اعتقدَ أنّ ناصرَهُ هو شقيقه ابنُ البلد، وبإيمانٍ ساذج توخّى الحرّيّة الفكريّة لدى أولي الثقافة، وتوقّع النضوجَ الوطنيّ لدى مَن يتسلّمون زمامَ وسائلِ الإعلام المحلّيّة والعربيّة، وخاصّةً مَن يدّعون النضال والوطنيّة! فرحَت جماهيرُنا وتهلّلت بتوالدِ وتفاقسِ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والإلكترونيّة، إذ توخّت وسائلَ إعلامٍ محليّة تكون منابرَ أساسيّة للمثقفين لينطلقوا من خلالها، كي نتسلّمَ زمامَ أمورِنا بأنفسِنا وبطاقاتِنا وأناسِنا، فلا بدّ من خلاصٍ آتٍ في هذا البحر المائج المتخبِّط بالاحتلال ومتاهاتِ الضياع وخرائطِ الطرق التائهة!

لا بدّ أن ننقشَ بأظافرنا دروبَ الحرّيّة وطاقاتِ النور في هذه الجدران المحيطة بزنزانتِنا الـ الثماني أربعينيّة! فهل لنا أن نزحزحَ هذا النيرَ الثقيلَ المُتعربشَ على أكتافِنا وأجسامِنا وأفكارنا وحياتِنا؟ كيف؟ هل بتشجيع الثقافةِ والارتقاء بالإبداع المَحلّيّ في شتى مجالاتِه، على اعتبار أنّ الثقافة والإبداع والفنون كلّها مجتمعة تُبلورُ مرآةَ الحضارة؟ هل بترسيخ تراثنا وتجذير الماضي الجميل في نفوس أجيالِنا الناشئة؟ كيف لنا أن نتغاضى عن عيوبٍ إعلاميّةٍ جليّة ونواقصَ تُداهمُنا يوميّا ونلامسُ خدوشَها، وتؤلمُنا ضرباتُها المتوالية، وفي كلّ مرّة نحاولُ أن نخلقَ الأعذارَ والتبريراتِ لمَن يقفُ خلفَ متاريس الإعلام، على أنّ تلك الأخطاء تصدرُ مِن أفراد وليس من مسؤولين!

الإدارة الإعلامية ومَن تموضعوا بأدوارِ مسؤولين، كيف يسمحونَ لأحدٍ مُمثّليها أو مُراسليها أو مُحرّريها أن يحذف اسمَ الكاتب أو يُلغي مقالته، ويُشوّهَ صورةَ هذا المنطاد الإعلاميّ المنفوخ بغاز الوطنيّة، وهو يُحَلّقُ فوقَ براكينَ وزلازلَ وطنجيّة؟ هل تشبّعوا بهيمنةِ الاحتلال والنظام، وليس لهم إلاّ أن يمارسوهُ مِن مواقعِهم الإداريّة؟

ما بينَ شُهرةٍ مُحدّبةٍ ومُهرةٍ مُقعّرةٍ حقائقُ مُرّة!

سُئلَ جحا يومًا: إذا ما دخلَ القمرُ الجديد فأين يكونُ القديم؟ قال: إنّهم يُقطّعونَهُ ويصنعونَ منه نجومًا! مَن هُم؟ كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟ و...؟ ياه.. ما أكثرَ صانعي النجوم!

بهذهِ الطرفةِ الساخرةِ أفتتحُ وجعي، والسماءُ تغصُّ بالآهاتِ وتتوجّعُ مِن ثِقلِ نجومِها، كأنّما لا تتّسعُ للمزيد مِن روعةِ اللغةِ أو فتنةِ النغمة أو اللون الباهي، فهل تُخفى شمسُ اللغةِ بغربالِ الشهرة؟ وهل يُشرخُ جمالُ القمر وضوؤُهِ بعتمِ الأنانيّةِ والنرجسيّة؟ وهل تُمحى الألوانُ الزاهية بفعلِ المجدِ الذاتيّ والأرضيّ؟

ما أن تنوي أن تُجالسَ حروفًا تتوقُ أن تلتقيَها بعدَ يومٍ مُتعِبٍ ومُتعَب عصيب، تجدكَ في حضرةِ عشراتِ الرسائلِ الإلكترونيّة في طغيانها الخاطفِ اليوميّ، تقتحمُ بريدَكَ الإلكترونيّ، وتستفزُّ ما تبقّى مِن أعصابِكَ ، كأنّما خلَت الحياةُ مِن همومِها الفكريّةِ والحياتيّة، ولم يتبقَّ فيها إلاّ همّ الشهرة.. هذا يُعاتبُكَ وذاك يُقاطعُكَ، وهذا يطلبُ أن تُصوّتَ له، وآخرُ يطلبُ أن تتّصلَ وتتركَ رسائلَ س. م. س. ليكبرَ رصيدُ مؤيّديهِ ومُحبّيهِ في اختيارِهِ، ويضمنَ أعلى نسبةِ نجاح ممكنة، وذاك يطلبُ أن تُوقّعَ نصَّهُ بكلمةِ استحسان "لايك" حتّى وإن لم تقرأ النصّ!

أحابيلُ النفاقِ والاحتيال شاسعة المدى وعاليةُ الآفاق، ولكَ أن تتخيّلَ الوسائلَ التكنولوجيّة الحديثة والسريعة التي يتهالكون في طرْحِها بشكلٍ مسيءٍ لمُرسِلِها ولمتلقّيها، ولمجتمعٍ يُسيّرُهُ الاستخفافُ بهِ وبذائقتِهِ وقرارِهِ وثقافتِه، ولمجتمعٍ يَحكمُهُ الاندفاعُ واللاتعقّلُ واللامنطق!

هل الشهرةُ معيارٌ يَستوي في العُلا على عرش المجد الخالد، يمكنُ أن يُعوِّلَ عليهِ المبدعُ في انتشارِ اسمِهِ وإبداعِهِ بمصداقيّةِ وفاعليّةِ الإبداع وكينونتِهِ وديمومتِه، بعيدًا عن الإتقان والجَمال؟ ما هي أثمانُ الشهرة التي تُدفعُ في الخفاءِ وفي عتم الضمير؟ هل هي شهرةٌ مؤقّتة تَخدمُ لفترةٍ قصيرة، أو لمصلحةٍ تزولُ في مرايا الحقيقةِ الخالدة؟ هل للشهرةِ المُقعّرةِ والمُحدّبةِ سلطانٌ وسُلطةٌ على المجتمعِ المُثقّفِ الواعي، أم هي نوعٌ مِن أنواعِ التهميشِ والتجهيلِ للمجتمع؟ لماذا هذا السعيُ اللاهثُ وراءَ الشهرة التي باتت معاييرُها منقوصةً، في زمنٍ يتكَتْلجُ (تكنولوجيا) فيهِ الأصيلُ بكلّ سُبلِ التزويرِ والمُداهنةِ والتملّق؟

ضاعَ حمارُ جحا وأخذ يصيحُ ويسألُ الناسَ عنه، وحين لم يجدْهُ قال:- ضاعَ الحمارُ والحمد لله! استغربَ الناسُ وسألوه: أتحمدُ الله على ضياعِ حِمارِك؟ قال:- نعم؛ لو أنّني كنتُ أركبُهُ، لكنتُ ضعتُ معه!

جوابٌ فيهِ مِن السذاجةِ الظاهرةِ ما فيهِ مِن بلاغةِ أبعادِهِ الخفيّة، فكَم وكم يتوهونَ ولا يدرون، ويسوقُهم حمارُ الشهرةِ إلى الضياع! لماذا يطأ الغرورُ قلوبَ مَن يسعَوْن إلى الشهرة، ويُضلّلونَ أناسًا معهم، يسارعون الخطى الملتهبة في جريِهم، وكأنّ أحدًا لا يمكنُهُ أن يُجاريهم، لا في مرامِهم ولا في إبداء الرأي السديد أو التعبير عنه بصِدق؟

لحقت مجموعةٌ مِن الأطفالِ بجحا وتحلّقوا حولَه، وأخذوا يسخرونَ منهُ ويضحكونَ عليهِ، فأرادَ التخلّصَ منهم وقال لهم: اِذهبوا إلى تلك السيّدةِ هناك، إنّها تحملُ الكثيرَ مِن الحلوى. ذهبَ الأطفالُ عنه وركضوا مُهرولِين يتدافعون، وما كان من جحا إلاّ أن لحقَ بالأطفال ليأخذ نصيبَهُ من الحلوى، ظنًّا منهُ أنّ كذبتَهُ صادقة!

فكم من أناسٍ متمرّسين في الأكاذيب، تنطلي أكاذيبُهم على كثيرين ويصدّقونهم، لكن؛ ما أخطرَ أن تنطليَ الكذبة على مُؤلّفِها فيُصدّقُها ويتعايشُها..!

هذا القلقُ المُلازمُ حرفي المشاكس، والمبثوثُ في حروفِ تساؤلاتي مقهورًا، لا ينحصرُ في المُزاودةِ على الشعر والموسيقا والغناءِ وعلى طقوسِها وشعائرها، بل يتعدّاهُ إلى المُزايداتِ الملعونةِ على الوطن والتراث والإنسانيّة ذاتها والقِيم المهزومة، وفي جوانب الحياة العامّة الآيلة للسقوط في هاوياتِ الشهرة! وتأخذني المآسي المُبكية إلى فكاهات جحا الساخرة، إلى زوجتِه حين أعدّت أكبرَ إوزةٍ لديها للحاكم، وأحسنت طهيَها وتحميرَها، كي يفي جحا بوعدِهِ للحاكم، طمعًا بأن يُنعِمَ الحاكمُ على زوجها بعطاياه، فحملَها جحا ومضى إلى الحاكم، وفي الطريق جاعَ وأكلَ أحدَ فخذي الإوزة، وحين وصلَ إلى القصر، قدّمَها للحاكم الذي استاءَ وتضايقَ ممّا رأى وقال: ما هذا يا جحا؟ أين رِجلُ الإوزة؟

أجابَ جحا: كلُّ الإوز في بلدتِنا برِجلٍ واحدة، وإن لم تُصدّقني فتعالَ وانظرْ مِن نافذةِ القصر إلى الإوز على شاطئ البحيرة!

وفعلاً؛ نظرَ الحاكمُ ورأى سِربًا من الإوز قائمًا على رِجلٍ واحدةٍ أثناءَ القيلولة، فأرسلَ أحدَ الجنودِ إلى السرب كي يَهشّها بالعصا، ففزعَ الإوزّ وهربَ إلى الماءِ جريًا على رِجليْه!

قال الحاكمُ: ما قولُكَ الآن يا جحا؟

أجاب جحا: لو هَجمَ أحدٌ على الإنسان بهذهِ العصا لجَرى على أربع، فما بالُكَ بالإوز؟ أتراهُ كان إوزًّا برّيًّا أم مُدجّنًا؟

لماذا هذا التدجينُ الخطيرُ في سياسةِ قلب الحقائقِ على وجهِ الإبداعِ وأنفاسِهِ وخياشيمِه، ويُحاولُ ما استطاع إليه سبيلا أن يستأصلَ مَلكاتِ وكفاءاتِ ومواهبَ إبداعيّةً حقيقيّةً راسخةً في سماءِ الإبداع، وأن يَهدمَها ويبثّ الصدأ والتشويهَ في معادنِها، واليأسَ في حامليها؟

شاعر العرب، وشاعر المليون، وشاعر الحب، وشاعر الوطن، وشاعر العام، وشاعر الكون، و.. الخ مِن ألقابٍ رنّانةٍ أخرى كثيرة، تتواثبُ أمام مرأى وناظرَي المبدع الحقيقيّ الصامت، الناسك في صومعتِهِ يُخلصُ لفنّهِ وشِعرِهِ وإبداعِهِ، مُتفانيًا متسامحًا متواضِعًا، يُسخّرُ نفسَهُ وحياتَه وجهدَهُ في تأديةِ رسالتِهِ الإبداعيّة، بعيدًا عن ضوضاءِ الأضواء!

وأخيرًا.. ما الذي يَدفعُ المبدعَ والإنسانَ المثقّفَ إلى زجّ نفسِهِ في قفصِ المزايدات على الشهرة؟ أترانا نعود بثقافتنا وحضارتنا إلى عالمِ الرقيق وتجارةِ العَبيد من خلال تقنيّة جديدةٍ مُستحدَثة؟

الكلمةُ سهمٌ مثلومٌ بينَ الوهمِ والتزوير!

عشراتُ الرسائلِ الإلكترونيّةِ تصلُني يوميًّا، وأقفُ أمامَ بعضِها بتقديرٍ وإعجابٍ كبيرٍ لكتّابِها ومُرسليها، وبالمقابل، أشفقُ على كُتّابٍ ومُروِّجي الرسائل الأخرى التي تحملُ في طيّاتِها نقمةً وانتقامًا دفينيْنِ، أو تشهيرًا وتزويرًا مقزِّزيْنِ مكتوبيْنِ بلون الدمِ!

لماذا هذهِ الصبغةُ الواحدةُ والنكهةُ الوحيدةُ لبعضِ الكُتّابِ، تشتمُّ رائحتَها مِن على بُعدٍ، وتنفرُ منها قبلَ أنْ تدنوَ إليها؟

هل الكتابةُ حقًّا هي المرآةُ الحقيقيّةُ لنفسِ الكاتبِ في كلِّ أو معظمِ أو بعضِ الأحايينِ، أم أنّ الكتابةَ قد تكونُ مرآةً مهشَّمةً لذاتِ الكاتبِ، ومهشِّمةً لذواتِ بعضِ القرّاءِ اللاواعينَ في كثيرٍ من الأحيانِ، وبالتالي مهمَّشةً أيضًا مِن كثير من القرّاء المثقّفينَ الواعينَ؟

أنتَ وأنا وكلّ الضمائرِ المتكلّمة والمخاطبَةُ والمستترةُ، كقرّاء عاديّين أو ككُتّابٍ، كيفَ يَصِلُ بنا الحالُ إلى التقديرِ الموضوعيِّ والتقييمِ الحقيقيِّ لما نقرأُ ولِما يُكتبُ؟

متى يحقُّ للكاتبِ أنْ يكتبَ لذاتِهِ، ومتى يحقُّ لحروفِهِ أن ترى ضوءَ عينيّ القارئِ؟ بعضُ تساؤلاتٍ جالتْ في محرابِ خافقي، ونثرتْ في ناظريَّ بذارَ أرقٍ خشيتُ أن تنمُوَ مساكبُهُ، فسارعتُ إلى وجيبِ ندائِها أجيبُها!

أما للكتابةِ مِن شروطٍ ومقوّماتٍ أساسيّةٍ؟

نعم، في سلّمِ الارتقاءِ الإبداعيِّ هناكَ درجاتٌ تصعدُها درجةً درجةً، كلّما نجحتَ وجُزتَ في إنجازِ شروطِ السابقِ منها: مِن أهمِّها وعيُ الكاتبِ إلى ذاتِهِ المتواضعةِ، ونفسيّتِهِ السليمةِ، وقدراتِهِ البنّاءةِ، وأدواتِهِ المعقَّمةِ أوّلاً!

وعيُ الكاتبِ إلى محيطِهِ القريبِ والبعيدِ، وتطلّعاتِه إلى الأفضلِ والأجملِ والأملِ بعينٍ مضيئةٍ!

قناعةُ وإيمانُ الكاتبِ بأهمّيّةِ ما يكتبُ، دونَ تشكيكٍ بأهدافِ الرسالةِ بتلميحاتِها، ودونَ استخفافٍ بثقافةِ القارئِ!

اعتمادُ الكاتبِ أسلوبًا مشوّقًا، ترتكزُ فضاءاتُهُ الشاسعةُ على بُعدِ الدلالاتِ بتناقضاتِها، والإيحاءاتِ بنسبيّتِها والاتجاهاتِ دونَ تحديدِها، كي تنفُذَ بقوّةٍ أخّاذةٍ إلى شبابيكِ القلوبِ والعقولِ المُشرَّعةِ للتفاعلِ الإيجابيِّ، وللتأثيرِ القابلِ للتغييرِ إلى الأفضل!

الكتابةُ المسؤولةُ تتشكّلُ، حينَ تعصفُ الهواجسُ والهمومُ بمثيراتِها في لجّةِ نفسِ الكاتبِ، كأنّما تعْبُرُ مِن خلالِ شِباكِ الكتابةِ حواجزَ شائكةً داميةً، دونَ أن تتموقعَ في سِماتِها البارزةِ، بلْ تتلمّسُ بعمقِها إجابةً لإشكاليّاتٍ عالقةٍ بينَ الأمسِ والغدِ، بينَ الواقعِ والمتوقّعِ، بينَ الماضي والقادمِ، بينَ التصويرِ والتشخيصِ.

لماذا أقولُ هذا؟ لأنّ الكلمةَ معادلةٌ لا متناهية مِن التعبيرِ بأشكالِهِ وأساليبِهِ، ومعادلةٌ لا محدودةٌ مِن ثقةٍ تتناسلُ بينَ الكاتبِ والقارئِ!

لأنَّ الكلمةَ تُشكّلُ هارمونيا سائغةً مِن الردودِ والحُلولِ!

لأنّ الكلمَةَ عمادُ الكتابةِ، ومتَّكأُ الجملةِ المَقولةِ والمَكتوبةِ المُموسَقة!

لأنَّ الكلمةِ تتأبّطُ قوّةً سحريّةً وفاعلةً سلبًا وإيجابًا، تدميرًا وتعميرًا! لأنّ الكلمةَ تزهو بألوانِ الطيفِ إنْ لم تتمزّقْ وتتشظَّ، لكنّها تغدو منشارًا حادًّا إن تكسّرتْ في المخروطِ المنشوريِّ الحياتيّ، لتتجزّأَ إلى جزيئاتِ ألوانِها الباهتةِ أو الصارخةِ، فكما أنّ الكلمةَ الصفراءَ والسوداءُ والحمراءُ تُقرأُ وتؤثّرُ سلبًا، إلاّ أنّ الخضراءَ والبيضاءَ والزرقاءَ وألوانُ الحياةِ الهادئةِ، تبعثُ على بثّ الضوءِ والجَمالِ والطمأنينةِ والأمنِ والمحبّةِ!

وبناءً على ذلك، تقعُ مسؤوليّةٌ جمّةٌ على عاتقِ الكاتبِ في توجيهِها قبلَ عتقِها من مكامنِها، فالكتابةُ المسؤولةُ والبنّاءةُ ترقى بالكاتبِ المُدركِ إلى ذروةِ الانسجامِ مع ذاتِهِ الجميلةِ والمُسالمةِ، ومع عناصرِ المجتمعِ وفناتِهِ، مِن أجلِ خلقِ الوعيِ وإدراكِ معايير ومقاييس إنسانيّة أساسيّة، ينحى الإنسانُ الكاتبُ إلى تجسيدِها وغرسِها، من عدالةٍ وحقوقٍ ومحبّةٍ وسلامٍ واعتزاز!

وأتركُ سؤالي الصارخَ في مهبِّ الريحِ: هل الكاتبُ السوداويُّ اليائسُ والناقمُ الحاقدُ، يُمكنُ أنْ يُطفئَ فوانيسَ الحياةِ الثقافيّةِ بكوابيسِ مدادِ قلمِهِ المُرتجفِ، والزاحفِ على سطورِ الوَهمِ واللاجدوى والتزويرِ؟

تمسكُ بجمرِ أجنحتِها أصابعي النّاعسةُ!

كثيرًا ما يقعُ الشاعرُ في همّ الجدلِ العقيمِ حولَ الشعرِ والنصِّ، تحيطُ بهِ قضبانُ قفصِ السجالاتِ للتصنيفاتِ والتقييماتِ والاتهاماتِ مِن كلِّ صوبٍ وحدب، إلى أن يأتيَ خلاصُهُ بتوقيعِ صكِّ غفرانِهِ بإحدى إجاباتِهِ، لو أسعفتْهُ قدرتُهُ على التبريرِ وإثباتِ براءتِهِ، هو الموصومُ بلوثةِ الشعر!

هل تجتمعُ إرادةُ الشاعرِ بالقصيدةِ عندَ كتابتِها، أم أنّ القصيدةَ تقحمُهُ وتسوقُهُ إليها مرغمًا؟ هل تختلفُ الحالُ مِن شاعرٍ إلى شاعرٍ وإلى شاعرةٍ؟

هل لومضةِ القصيدةِ جبروتٌ يُسحرُ الشعراءَ ويخدّرهم بنفسِ القدْرِ؟

هل للشاعر حقٌّ بأن يُحلّقَ في الفضاءِ الكونيّ، فلا يلتفتُ إلى مهمّةِ تأطيرِ نفسِهِ، أو مموقعتِها في خارطةِ الأدبِ المحلّي والعربيِّ الواسع؟

هل يخشى الشاعرُ أن يتجاوزَ مهمّةَ الحركةِ الثقافيّةِ والنقديّةِ والتأريخيّة إن التفتَ، لذا يركنُ إلى صمتِهِ الحكيمِ أو إلى هدوئِهِ الضعيفِ؟

مَن أنتِ مِن القصيدةِ؟ ومَنِ المرأةُ مِنكِ في القصيدةِ؟

أسئلةٌ عديدةٌ أخرى وكثيرةٌ تدورُ على محاورِ الشعرِ القديمِ والحديثِ، الموزونِ والنثريّ، وهذهِ بعضُ نماذج لأسئلةٍ تحومُ في فضاءٍ فضوليٍّ، كأنّما تستبطنُ دواخلَ شاعرٍ قد تكونُ خافيةً عليه، وقد تكونُ واضحةً تمامًا، قد ترمي إلى إشادةٍ بهِ أو إدانةٍ له، إذ لكلِّ شاعرٍ منطلقاتُهُ الخاصّة وتوجّهاتُهُ الفرديّةُ التي تعبّرُ عنه، وبناءً على ذلك تكونُ الأجوبةُ مختلفةً أو مؤتلفة.

هل القصيدةُ هي مفتاحُ الإغواءِ الذي يفتحُ بوّابةَ المستحيل، لتشكّلَ ألوانًا حالمةً وخطوطًا خافيةً، ولتنقشَ لوحاتٍ وضّاءةً في عتمةٍ حافيةٍ، تأتيكَ على عجل، وتتركُكَ في وجل، تدعوكَ بإلحاحِها الغاوي الساحر لحالةٍ منَ التيهِ تغيبُ فيهِ عن صخبِ الحياةِ، فتبدؤُكَ حروفُها بتحليقاتٍ سماويّةٍ باحثةً عن وجهِها في مرآةِ نبضِك المستخرَجِ مِن كهوفِ الضياع والحيرة، وتجعلكَ منذورًا للوعةِ العتماتِ دون سابق انذارٍ، وتنتهي بكَ إليها دونَ نذيرٍ وتقييد!؟

قلتُ: القصيدةُ هي التي تريدُني دومًا، هيَ القصيدة أنا، ذاتُ القلبِ المتلوّنِ بنورانيّة اللحظات الشعريّة، المشتعلةُ باخضرار نارِ الحواسّ، والمتجمّرةُ المتوثّبةُ بدهشةٍ لا تُحَدّ.

هيَ الإشراقةُ، لحيظةٌ وامضةٌ من سويعاتِ العمرِ الغافلِ، تلوحُ في الأفقِ، بإحكامِ تعانقُني، تكبّلُني بقيْدِها الذهبيّ، وفي غمرة مِن عِطرِها الأخّاذ، تسلبُني من صخبِ الفلسفةِ، وطلاسمِ الحياةِ الممنطَقَةِ.

هيَ الومضةُ على أجنحةِ دمعةٍ باسمةٍ مجيدةً، تحلّقُ بي إلى سُدَفِ التأمّلاتِ العشوائيّة، تتوشّحُ بغيماتٍ هائمةٍ حائرةٍ لا واعيةٍ، تومضُ لألاءةً، تحُفُّ هامةَ قلمي بقدسيّةِ ابتهالاتِ الروح، وتسربلُني عباءةً فضفاضةً من سِحْرِ الكلمات.

هيَ العشقُ للحياةِ، هيَ صدى صوتٍ صارخٍ خافتٍ آتٍ مِنْ عُمقِ الإبهامِ، هسيسُ يراعةٍ وضّاءةٍ كاويةٍ تقرصُ أعشاشَ وسادتي، تُقلقِلُ فراخَ منامي، تمسكُ بجمرِ أجنحتِها أصابعي الناعسةَ، لتطبعَ بَصَماتِها السيّالةَ وشومًا ملوّنةً، تداعبُ بعبثيّتِها المطلقةِ إحداثيّاتِ حروفٍ تتعانقُ في فضاءاتِ الخيالِ، وعلى مَراسمِ رهامِ الكلماتِ، وبَرْقِ الحروفِ المنحوتةِ، تشاطرُني غاغئيةُ حواسٍّ لا مفهومةٍ، هزيمَ رعْدِ لوحاتي الشعريّة ، تصطلي الروحُ على نبْضِ موسيقا هادئةٍ، تُراقصُ نوميَ وليليَ حتّى الفجر، وبينَ الغفوةِ والصحوةِ، تتململُ صورٌ وكلماتٌ وجملٌ لا ترابطَ بينَها.

هي الإشراقة، تملؤُني بأرقٍ انسيابيٍّ، وحيثُ نفائس الروحِ تعشّشُ في كهوفٍ ضبابيّةٍ، تسكبُني ألْسِنَةً ناريّةً في عتمةِ النفسِ، تُعَنْصِرُني، تستنطقُني، تنيرُ عيونَ حروفي الساهيةَ بسحرِ غموضٍ ثمِلٍ، تخطفُني من عالمي الأرضيِّ الصاخبِ، وتعتلي بي إلى أرحبِ سمواتِ التجلّي، إلى هياكلَ مقدّسةٍ معلّقةٍ بين جنّاتِ السماء وحدائقِ الأرض، هناك في سكونِها السرمديّ، وبخشوعٍ وورَعٍ، تمارسُني طقوسَ عبادةٍ واعترافٍ، تتضرّعُ بملائكيّتها في تسابيحَ شعريّةٍ، تُرنّمُني مزاميرَ بوحٍ، تُوشّحُ حواسّي بدفءِ الهدوء والطمأنينةِ، ألقٌ قلِقٌ لا يدركُ كنهَهُ العذبَ سوايَ.

هيَ الإشراقةُ، كحُلُمٍ لذيذٍ، يتوالدُ فتيلُ حِبرِها على بياضِ موجةٍ تُزبدُ، أسارعُ إلى تسجيلِ مدِّها، قبلَ أن تمحُوَها ممحاةُ الجَزْرِ، وأحيانًا أخرى، تتوارثُ متسارقةً إلى مناهلِ بياضي ظباؤُها، مهرولةً تتقافزُ، تتواثبُ هادئةً، جافلةً من عبقِ بخورِ فجرٍ يحترقُ في لِحاظِها، وما أن أصحُوَ من سكرةِ حُلُمي الشقيِّ، حتّى أجدني، أتيهُ في برّيّةِ آثارِها المرسومةِ دهشةً، على مرآةِ النفس المطهّمةِ بالحُسْنِ والإبداعِ..

وما المرأةُ الساكنةُ بي سوى إشراقة الحياةِ كإنسانةٍ وأنثى وأمّ، فهي الفقدُ لحلمٍ لا يتحقّقُ ولا أطالُهُ، تصعقُ بُروقُها النابضةُ قلبيَ الناسكَ، تشحنُ سكَناتِهِ، تغمرُ قُدسَ أقداسِهِ برحيقٍ يتدفّقُ ولا ينضُبُ، تتخمّرُ أحبارُهُ المتلجلجةُ في محْرابِ الدواةِ، تتلعثمُ أكاليلُ الضوء في عتمةِ الوجدانِ، يفوحُ بخورُ بوْحِهِ في سكونِ الهدأةِ، فتفتديني بعَبَقِها، وتفتدي وقتيَ الأخرسَ.

لعبةِ الأسماءِ في المجتمع العربيّ؟

الأسماءُ لها أهمّيّتُها، لأنّها الألصقُ إلى الإنسان، تختزلُ كينونتَهُ بحروفٍ تجذبُ انتباهَهُ، تُلازمُهُ في جميع تحرّكاتِهِ منذ لحظةِ ولادتِهِ، فلا يُمكنُهُ مُداراتَها مهما كانَ مردودُها، لِما تحملُهُ مِن علاقةٍ وطيدةٍ وآثارٍ نفسيّةٍ عليه، قد ترمي بثِقلِها على روحِهِ، أو بخِفّتِها على نفسيّتِهِ وشخصيّتِهِ.

أسوقُ طرفة للتّدليل على أهمّيّةِ القصد؛ فقد وصلَ إلى قريةٍ رجلٌ غريبٌ للصلاةِ في المسجدِ، وخطبَ في مجموعةٍ صغيرةٍ وطلبَ استضافتَهُ، فلم يُبْدِ أحدُهم استعدادًا، بل أشاروا عليه أن يذهبَ إلى بيتِ نصر الدين للمبيتِ عندَهُ، وحينَ طرقَ البابَ قال: أنا "صهرُ الله"، فهل تقبلُني ضيفًا لك؟ اِرتدى نصر الدين عباءتَهُ ومضى بالضيفِ في طرقاتِ القرية إلى أن وصلا إلى المسجدِ، ففتحَ البابَ على مصراعيْهِ وقالَ للرجل: "هيا ادخُلْ، فهذا هو منزلُ حَميك"!

لا بدَّ للاسمِ أن يحملَ معنًى ساميًا يُدخلُ السرورَ إلى النفس، ويُشعرَ مالكَهُ بالعزّةِ والفخرِ، بعيدًا عن السخريةِ والتسفيهِ والاستهتارِ والاستهزاءِ المُجافي للذوقِ السليمِ والحِسِّ الرفيع.

الاسم سمةٌ أولى للإنسانِ توجزُهُ وتكشِفُ عنه، وفي ظِلِّهِ تلتئمُ مفاتيحُ أسرارِ سعادتِهِ وتعاستِهِ، فان كانَ حسنًا، فإنّهُ يبعثُ على التفاؤلِ والتيمّنِ والفألِ الحسن، وإن كانَ يُحرجُهُ، فيُسبّبُ له خجلاً ومرارةً وألمًا نفسيًّا وعدم رضا يُبعدُه عن الناس.

هل يكمنُ في الأسماءِ موتٌ وحياة؟ هل للأسماءِ سياسيًّا واجتماعيًّا معانيها ومعاناتُها الفرديّةُ والجماعيّة، خاصّةً في مستنقعاتٍ فكريّةٍ آسنةٍ، تُعشّشُ فيها الطائفيّةُ والقوميّةُ والطبقيّةُ؟ وهل الأمثلةُ كثيرةٌ وطازجةٌ على مدارِ العصورِ في شرْقنا؟ هل تشي الأسماءُ بهُويّةِ حامليها، وتؤدّي إلى تصنيفِهم طائفيًّا ومستقبلِهم قوميًّا، لِما تحملُهُ مِن إرثٍ دينيٍّ، كأسماء مسيحيّةٍ للقدّيسين، إسلاميّةٍ، عربيّةٍ، بدويّةٍ، كرديّةٍ، وأجنبيّةٍ وأسطوريّةٍ وإلخ؟ هل تُعْربُ الأسماءُ عن قبولِ المؤتلِفِ كصديقٍ، ورفْضِ المختلفِ كعدوٍّ، وبتلقائيّةٍ تامّةٍ تهدّدُ الذاتَ الإنسانيّةَ وتُقصيها إلى غياهبِ المجهولِ والعدم؟ لماذا لم تعُدِ الأسماءُ القديمةُ متداولةً ولا يُقتدى بها في كثيرٍ مِن بلادِنا؟ هل لأنّ اللاوعيَ العربيَّ يرفضُ الأساطيرَ والحضاراتِ الغابرةَ؟

كانتِ المفاجأةُ عارمةً والأفكارُ عائمةً، حينَ تسلّمتُ رسالةً مِن صديق زميل، يسردُ فيها أغربَ معاناةٍ بشريّةٍ قد يتعرّضُ لها إنسان، فابنتُهُ إيدا ذات الستّة أشهر شرعيّةٌ، لكنّها لا تحملُ بعْدُ وثيقةَ ميلادٍ رسميّة، وقد تلقّى تحذيرًا مِن أنّها لن تُعطَى التطعيماتِ مِنَ المراكزِ الصحيّةِ أو المستشفياتِ، ما لم يكن لها اسمٌ وشهادةُ ميلاد! منذ متى والأسماءُ تقفُ عائقًا في حقِّ المواطَنَةِ أمامَ الفردِ أو الأهلِ عندَ اختيارِها؟ لماذا تقفُ الدولةُ في وجهِ هذا الاسم كمعضلةٍ تاريخيّة؟

هل هناك قانونٌ يحظرُ على المواطنين تسميةَ أبنائِهم بغيرِ أسماء عربيّة؟ لماذا؟ هل تخافُ حكوماتنا الأسماءَ الأجنبيّة؟ أليسَ يمتلئُ شرقُنا بأسماء بشرٍ يحملونَ أسماءَ حيواناتٍ وطيورٍ وحشراتٍ وأكلاتٍ تيمّنًا وتشاؤمًا وردًّا للعينِ الحاسدة؟ صرصور، فيل، برغوث فار، قط، أبو

البطيخ والمجدّرة وإلخ؟ أليستْ لدينا عائلاتٌ تحملُ حِرَفَها وصفاتِها مِن حدّاد، نجّار، سرسري، خيّاط، أعرج، أعوج، أصفر، أحمر وإلخ من أسماءٍ غريبةٍ، لا زالتْ قائمةً ولا يمكنُ إنكارَها كجزءٍ مِنَ الحضارة؟

لماذا تحوّلَ اسمُ إيدا إلى قضيّةٍ حقوقيّةٍ بهذا الحجمِ المَهولِ؟ أليسَ للوالديْن حقٌّ في اختيارِ اسمِ مولودِهما؟ أليستِ الأسماءُ تدلُّ على ثقافةِ الأهلِ وحرّيّتِهم؟ وما الضيرُ بهذا الاسم إيدا، وهو لا يحملُ إلاّ كلّ مردودٍ جميلٍ مِن تاريخٍ ودلالةٍ؟

إيدا: باللغةِ الآيسلانديّة أُطلقتْ على قصائدِ الملاحم الشعريّةِ النثريّة، وهي أهمُّ مصادرِ تحكي عن الميثولوجيا النورديّة، دامجةً بينَ الأساطيرِ التقليديّةِ والمعلوماتِ التاريخيّةِ الواقعيّة، وقد كُتبتْ في القرن الثالث عشر، بمزايا أدبيّةٍ راقيةٍ وببراعةٍ أدبيّةٍ عاليةٍ وبلغةٍ دراميّةٍ فائقةٍ، دوّنها الشاعرُ الرائدُ والزعيمُ القبليُّ سنوري ستورلوسون، وهي تتكوّن من 29 قصيدة طويلة، منها 11 للآلهةِ الألمانيّةِ، والباقي قصصُ أبطالٍ أسطوريّينَ، مثل سيغورد الأفولسونغ والبطل سيغفريد.

فما هي الحججُ المنطقيّةُ والتبريراتُ الأخلاقيّةُ التي تحُول دونَ تسميتِها؟ ألأنّه غيرُ موجودٍ في قاعدةِ بياناتِ الشرطةِ؟ هل هذا حرصٌ على اللغةِ العربيّةِ ومعاجمِها وأسمائِها؟هل هو جزءٌ مِن سياسةِ الهيمنةِ، وسياسةِ توريثِ الاستعبادِ للطفلِ منذُ لحظةِ ولادتِهِ واختيارِ اسمِهِ؟ هل تحتاجُ الطفلةُ إيدا إلى مناشدةِ السلطاتِ والحكومات، ممَثّلةً بالشرطةِ وإدارةِ الأحوال المدنيّةِ، لإثباتِ وتثبيتِ حقِّها في اسمِها وبكافّةِ حقوقِها الرسميّةِ الأساسيّةِ مِن شهادةِ ميلادٍ، للحصولِ على أبسطِ الخدماتِ الصحّيّةِ مِن تطعيمٍ، وحقوقٍ لاحقةٍ كجوازِ سفرٍ ومواطنةٍ وتعليم، دونَ انتهاكِ حقّها الطفوليِّ والإنسانيّ؟

إذن لماذا لا تتبنّى الدولةُ قانونًا أبويًّا، توزّعُ مِن خلالِهِ أسماءَ للمواليدِ الجُددِ دونَ استشارةِ الأهل، وتتولّى بكاملِ سلطانِها ما ترتئيهِ مناسبًا مِنَ الأسماء دونَ تكبّدِ عناءِ البحثِ والاعتراضِ؟

هل الأهل يتيمّنون بالبروفيسور إيدا بلوم، والتي لها باعٌ طويلٌ مع نساءِ النرويج وأدوارهنّ المكثّفةِ الفاعلةِ في السياسةِ والقطاعاتِ العامّةِ المُشرّفة؟ هل يسعى الأهل بإصرار لتثبيتَ اسم إيدا ليقولوا: إنّنا كبشرٍ نحتاجُ الى الإعلانِ عن هُويّتِنا الإنسانيّةِ والحضاريّةِ القديمةِ، وإنّ مَن لا جذورَ لهُ لا ثمارَ تأتيهِ، وإنّ إيدا هي الحلقةُ المفقودةُ للعدالةِ الإنسانيّة؟

وللاسم إيدا دلالة تاريخيّة: هيكلٌ عظميٌّ أحفوريٌّ للأنثى إيدا المكتمل بنسبة 95%، وهي من فصيلةِ الرئيساتِ الذي اكتشفَ عام 1983 قرب فرانكفورت ألمانيا، عاشت قبل 47 مليون سنة، وتمثّلُ الحلقةَ المفقودةَ والفاصلةَ بينَ فرْعِ تطوّرِنا في الحياةِ وبقيّةِ مملكةِ الحيوان.

وقد قال العالم النرويجيّ في جامعة أوسلو يورن، إنّ هذا الاكتشافَ هو بالنسبةِ للباحثين "بمثابةِ العثورِ على كنزٍ مفقود"، مُشدِّدًا على أهمّيّةِ "إيدا" في فهم تطوّرِ الأجناسِ وأصولِ الكائنِ البشريّ! وأخيرًا.. هل تصلُ مجتمعاتُنا إلى أن يسمّي صاحبُ الشأن نفسَهُ بنفسِهِ لاحقًا حين يكبر، فيبدّل اسمَهُ واسمَ عائلتِهِ المتوارث، والذي لا يتناغمُ ونفسيّتَهُ بل تُهرّبُهُ مِن اسمِهِ ومجتمعِهِ، ليصيرَ اسمُهُ الجديدُ مبعثَ عزّةٍ وأنفةٍ في نفسِه؟

ضمائر مستترة تتجلبب بأسماء مستعارة؟!

حين نذكر الأسماء المستعارة، فنّيا وأدبيّا وسياسيّا وتراثيّا، تتبادر وتلمع في أفق الذاكرة ألقاب انطبعت وطغت على الأسماء الحقيقيّة، وما أكثرها، مثل: العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، كوكب الشرق أمّ كلثوم، الأخطل الصغير بشارة الخوري، أمير الشعراء أحمد شوقي، عميد الأدب العربيّ طه حسين، أدونيس أحمد سعيد، وبدوي الجبل، وشاعر القطرين وإلخ، فالقائمة طويلة تزخر بالكثير والعديد من الأسماء العريقة، التي ما زالت تفخر بها الذاكرة الثقافيّة على مرّ العصور!

هذه الألقاب والأسماء المستعارة شمخت وعلت بأصحابها شأنا، وانتصبت أمام الريح وما اهتزّت، بل وأثبتت حضورها المشرّف المترسّخ والمتأصّل على الساحة الثقافيّة والحضاريّة بجدارة، ولو تتبّعنا مسيراتها الزاخرة بالإبداع، لوجدنا معظم هذه الكائنات بكياناتها، كانت تنأى بعيدًا عن الأنظار، وتشقّ دروبها بشقّ الأنفس، وبمنتهى الثقة والاعتزاز بالنفس، وباحترام المنافسين دون طعن بأخلاقيّات الآخر إلى حدّ ما، وقد وصلت للشهرة وللتقدير، بالصمت والتحرّك السلحفاتي أو الحلزونيّ البطيء!

لكن الأمر اختلف اليوم في غمرة التكنولوجيا الحديثة، من حيث السهولة والسرعة وفرص النشر دون رقابة، فنشهد تصريحات مختلفة الألوان، ترِدُ بشتّى المواضيع، بعضها يفتقر إلى أسماء صريحة، وبعضها يَرِد تحت اسم حقيقيّ، لكن، وفي كلا الأمرَيْن، ومن خلال الطرح والتعقيب، نلحظ ما لا يتعدّى الركاكة وأرنبة أنف الكاتب!

المسيء في الأمر هو تفاقم لغة الحوار غير المُجدي في المواضيع الجيّدة نسبيّا، إضافةً إلى التعقيبات المقنّعة أسفل الطرح، والخروج بعيدًا عن الموضوع، أو انشغال المعقّبين بحواراتهم التسفيهيّة، ممّا يجعل الطرح يفقد رونقه وفكرته الأساسيّة. وتدور الأسئلة في أفلاك الاستغراب وتتلاحق حيرة: لماذا تتخفّى وتتجلبب الضمائر بعباءة الأسماء المستعارة؟

ما هي الدوافع الحقيقيّة التي تقف وراء هذه الضبابيّة؟ هل هذا الأسلوب هو متنفّس للتلميح والتعبير بسبب الخشية من تحمّل مسؤوليّة القلم والفكر، أم هو منهج للتعتيم والتشويه؟ بعض الأسماء الوهميّة أو المستعارة يعشّش سوس البلاء في أفكارها ونواياها، وتعمل من منطلق النقمة أو الكسب بألوانه، وبمنتهى الخطورة وسرعة الانتشار في ترويج الأدب الهابط، وتشويه شخصيّات وجماليّات الثقافة الراقية، وقد يكون مُوجَّهًا بموجة مُعدية ومُعادية، تنخر في هيكل عتيق له قدسيّته الحضاريّة وعلى جميع الأصعدة! هل التستر وراء الأسماء المستعارة هو وسيلة مشروعة تبيح كلّ محظور، في سبيل تحقيق الأهداف والمآرب المجافية للحقائق، أو في بثّ سموم الحقد والنميمة والشرذمة والتفسّخ، من خلال طرح وتعقيبات ناقدة لاذعة غير صائبة وغير موضوعيّة؟

بعض كائنات لها كيانات ممهورة بأسماء مستعارة، تتظلّل وترتكب من تحتها أخطاء وإشاعات وإساءات مهينة في حقّ شرفاء ومؤسّسات وعقائد!

هل لأنّ هذا الأسلوب هو لغة التخلّف، أم التقدّم الحضاريّ "بحسب التأويل"، أم أنّه لغة أسهل تتيح التساهل في التجريح والطعن والإساءة؟

هل هذا أسلوب اختلاسيّ، ينبع من عدم وصول مجتمعاتنا إلى النضوج السلوكيّ والفكريّ، أم بسبب الافتقار إلى آليّات ومهارات في كيفيّة استيعاب الآخر؟

هنالك أيضًا بعض كائنات لها كيانات تختبئ في قوقعة الاستعارة الإيجابيّة، فتفيد أحيانًا وتستفيد، أمّا فائدتها فلا تزوّدك بانطباع مؤثّر في صِدقه وقوّته أو الاعتماد عليه، حتّى وإن كان مُقنِعًا، كونه مَقنَّعًا ومجهول الهُويّة!

لِمَ اللجوء إلى مثل هذه الأساليب؟ هل هذه إحدى طرق التمرّد على واقع متخلّف ومكبوت لا يسمح بالتعبير الصريح؟ هل هذا أسلوب للتحرّر من ضغوطات المناصب أو مراكز حسّاسة يشغلها الأفراد، أم هو لسان قصير يطمح إلى النطق والتحرّر من ضغوطات بيئيّة واجتماعيّة وقيود مفروضة عليه؟

هل بسبب حساسيّة المواضيع المطروحة والناقدة، خاصّة السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، أم بسبب عدم القدرة على مواجهتها وجها لوجه؟

هل هي لغة تنوير من أجل المطالبة بالحقوق الجوهريّة للإنسان العربيّ، أم هي لغة تبرير لخلاصه من الاستبداد والظلم والتهميش؟

هل لأنّ بعض أفراد وأشخاص يعتبرونه دربًا يُواريهم، فيسلكونه في الخفاء من أجل اتّقاء شرور السفهاء، ممّن يطرّزون المقالات بتعقيبات ثريّة بالتهكّمات والسخرية وبعيدًا عن الموضوعيّة، أم أنّهم يفتقدون إلى الجرأة والشجاعة، في توصيل رسالة ناضجة سامية في نقدها البنّاء؟

الأسئلة كثيرة والتساؤلات أكثر، تتفاقس خلال التحليل المخبريّ، وما من مجيب عنها، إلاّ ذاك الواقف أمام مرآة الحقيقة، وما الحقيقة سوى مارد ينتفض عاريًا من وجهِهِ صارخًا: إلى متى تظلّ ضمائرنا متستّرة بعباءة الأسماء المستعارة؟

حولَ التقييم الذكوريِّ للنصوصِ النسويّةِ

ثمّة ظاهرة تكادُ تكونُ كونيّةً، رافقتِ النشرَ الإلكترونيَّ الأدبيّ، استحسنَها بعض ورفضها آخر، وما زالَ قسمٌ ثالثٌ لم يحسمْ موقفَه منها، إذ شهدتِ النصوصُ الأدبيّة النسويّة تعليقاتٍ متباينةً، تراوحتْ بينَ النقدِ الموضوعيِّ، والمدْح المتحيّزِ لتاءِ التأنيثِ على حسابِ الإبداع، حتى باتَ مِن السهل إحصاءُ جملةٍ مِن التعليقاتِ الصادرة عن (نقاد وشعراء وكتّاب)، على نصوصٍ رديئةٍ لغويًّا ونحويًّا وبنائيًّا، بل ولم يتردّدْ بعضُهم في الإعلان صراحةً عن دوافعِهِ الحقيقيّةِ في كتابةِ التعليق!

تقولُ الناقدةُ يُمنى العيد، بأنّ الكتابةَ النسائيةَ هي عمليّةُ تحريرٍ لقدراتِها الفكريّةِ، ومجالٌ لممارسةِ مداركِها ومشاعرِها، ولإنضاجِ رؤاها، كما أنّهُ سبيلٌ لإغناءِ وعيِها، وتعميقِ تجربتِها بالحياةِ، إنّه إمكانيّتها الوحيدة لإقامة علاقةٍ جماليّةٍ مع الواقع، تعطيها فرصةَ الاستمتاعِ بفرحِ الإبداع!

وبناءً على هذهِ المقولةِ أطرحُ الأسئلةَ الأساسيّة: كيفَ ينظرُ المعلّقُ للمرأةِ ولعمرها، ومِن أيّةِ زاويةٍ، أبوَصْفِها كاتبةً أم أنثى أم شابّة أم جميلة أم ... الخ؟

هل تظلُّ الكاتبةُ معَلَّقةً ومرهونةً على اللائحةِ السوداء، إلى أن يُبيِّضَ صفحتَها أحدُ النقّادِ الذكور، وحينَ يرتبطُ اسمُها بلصيقِ اسمِه، يتأتّى لنصوصِها أن ترى النور، وتحظى بشرعيّة بنوّتها لإبداعِها؟

هل يظلُّ وضعُ المرأةِ في عينِ الرجلِ تحتَ المجهرِ وتحتَ عدسةِ ضوئِهِ، مِن أجلِ إتمامِ البحوثِ عنها!؟

هل التعليقاتُ والردودُ فعلاً تُلبّي أهمّيّةَ الحاجةِ إلى التحاورِ الأدبيِّ بينَ الرجلِ والمرأة، مِن أجلِ خلقِ التجاورِ الفنّيِّ للإبداع؟ هل كلُّ الآراءِ في حقيقتِها مُناصرةً للمرأةِ، أم ببعضِها هيمنةٌ خفيّةٌ للذكورةِ؟ وأخيرًا، هل يطولُ أمدُ هذا الصراعِ الثقافيِّ الحضاريِّ، بينَ الذكورةِ والأنوثةِ إبداعيًّا وسلوكيًّا، حتى نصل إلى الأدب الإنسانيّ؟

هناكَ تجارب أدبيّة نسائيّة استطاعتْ أن تلفتَ الانتباهَ إليها بآليّاتِ إنتاجِها المختلفةِ، وبطابعِها الخاصِّ المتميِّزِ، فكانَ لها أثرٌ كبيرٌ، وقد حظيتْ بالإعجابِ على مستوياتٍ عمريّةٍ مختلفةٍ، لِما تتبطّنُهُ مِن التماعاتٍ تستحقُّ الاحتفاءَ بها، ويجدرُ الاهتمامَ بتشجيعِها وتطويرِها، وإتاحةِ الفرَصِ للكاتبةِ من أجل التعلّمِ والتثقّفِ، كي تتنفّسَ بصورةٍ هادئةٍ وسليمةٍ، وهناكَ تجارب أدبيّة تحتاجُ إلى حضانةٍ دافئةٍ ورعايةٍ مؤاتيةٍ مكثّفةٍ، كي لا تمضي التجربةُ بنبرةٍ خفيضةٍ، بل تؤازرُها كي تنضجَ وتتبلورَ وتتألّقَ!

لكن، هناكَ أيضًا تجارب تخلو من التماعةٍ، سرعان ما تتداعى وتنهارُ بينَ الشكّ والظنّ، وينتهي بها الوهمُ بخيبةِ أملٍ، فتنطفئُ السيجارةُ، وتحتجبُ الكاتبةُ عن الساحةِ الثقافيّةِ، أو تظهرُ بأسماءَ مستعارةٍ، أو تتخفّى وراءَ المطالعةِ بعيدًا عن الكتابةِ، أو تهجرُ الحروفَ كتابةً وقراءةً، مشحونةً بكمٍّ لا بأسَ بهِ مِن النقمةِ والندم!

ولو تابعنا مشوارَ المرأةِ النضاليِّ الأدبيِّ، لوجدنا أنّها بإرادتِها تمكّنتْ مِن الوقوفِ في وجهِ التحوّلاتِ التي شاءَها لها الرجُل، وقد تحدّتْ ودخلتْ مختلفَ الميادينِ الثقافيّةِ والأدبيّةِ، وأتاحتْ لنفسِها أن تكتبَ وتُناضلَ ضدَّ قهرِها، مطالِبةً بالعدلِ وبحرّيّتِها، وبما أنّ القاعدةَ مِن تحتِ قدميْها كانتْ متأرجحةً وغيرَ ثابتةٍ، فقد ظهرتْ نماذجُ كثيرة لكاتباتٍ كتبنَ ليسَ بدافعِ استقلاليّتِهنَّ، إنّما لتحقيقِ مشيئةٍ ذكوريّةِ الصياغةِ، فكتبنَ بلغةٍ أنثويّةٍ ضدَّ الأنوثةِ، أو بلغةٍ ذكوريّةٍ ترفضُ الاستسلامَ والرضوخَ، أو خلقنَ نصوصًا أدبيّةً تتساوقُ مع الدعواتِ والأبحاثِ بعيدًا عن كينونتها الأنثويّةِ، دائسةً بذلكَ على عاطفتِها وأنوثتِها بشكلٍ ناقم أو راضخ، لماذا! هل لتخرُجَ عن نظامِ الطبيعةِ المفروضِ، ذاك النظامُ الأبويُّ، والتقسيمُ الطبقيُّ بينَ خضوعِ المرأةِ وسيادةِ الرجلِ عليها؟ هل لتُجاريَ الرجلَ في امتيازاتِهِ التي تُقيّدُها وتُحجّمُها؟ هل لأنّها وقعتْ ضحيّةَ الفخِّ السائدِ، وأرادتِ التمثُّلَ بالرجالِ، لتتجاوزَ بوّابةَ الأدبِ المحظورِ الممنوعةَ مِن دخولِها؟

عبر السنوات الأخيرة، أخذ الوعيُ الأنثويُّ في التزايدِ بعيدًا عن الموروث الذكوريِّ، فجعلتِ المرأةُ تُعرّي المخبوءَ في جواريرِ المحظوراتِ، وتكشفُ المسكوتَ عنهُ مِن التزييفِ، وتُظهرُ الخفيَّ بثنايا إبداعاتِها، ولا زالتْ تُواكبُ مسيرةَ الاستنهاضِ بالمرأة، ثقافيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا، وهي لا تنسى أبدًا، أنّهُ قد يُزَجُّ بها تارةً في خانةِ الإعجابِ والرغبةِ بها مِن جهةٍ، وقد تَدفعُ ثمنَ إبداعِها باهظًا، إن لم تُدركْ قراءةَ خريطةِ الكمائنِ المتربّصةِ بها وببناتِ جنسِها، ليسَ مِن الرجلِ فقط، وإنّما حسدًا وغيرةً مِن المرأةِ أيضًا، ولكن، ومع هذا الإدراك هناكَ ما يدعو للاستغراب:
الأديباتُ، لماذا لا يتكافلنَ ولا يعملنَ معًا بلغةٍ حميمةٍ وثّابة، إلى ما هو أفضل لهنَّ كمجموعٍ لا كأفراد، ليُشكّلنَ معًا الهُويّةَ الأنثويّةَ الثقافيّةَ والحضاريّةَ الراقية، والتي تتوقُ إلى منافسةِ الهُويّةِ الثقافيّةِ الذكوريّةِ بشكلٍ متنامٍ ومتطوّر؟

لماذا لا تعملُ المرأةُ على مساندةِ أختِها في الإبداع والنقدِ، بل وتمارسُ عليها أحيانًا فنونَ القمْعِ، مِن خلالِ مقاطعتِها، أو الغيرةِ منها وحسدِها!

هل لأنّها تشبّعتْ فكريًّا بهيمنةِ الإرادةِ والرغبةِ الذكوريّةِ، أم هيَ محاولة صراعٍ طبيعيٍّ، كي تتجلّى بتميّزِها أمامَ الرجُل؟

وهناكَ مَن يقعُ تحتَ تأثيرِ الإيحاءاتِ الجماليّةِ للصورةِ المرافقةِ للنصّ، فيُسقِطُ مشاعرَهُ على النصّ، بعيدًا عن خصائصِهِ وجماليّاتِهِ، وقد يتمادى حدَّ التحرُّشِ الخارج عن اللياقة الأدبيّة! لهذهِ النوعيّةِ المتحرِّشةِ مِنَ المُعلّقينَ، درجاتُ انخفاضٍ وارتفاعٍ وعدم توازن في حدّةِ الجموحِ الرغبويِّ والمزاجيِّ، تقودُهم خطاها إلى سلوكيّاتٍ شاذّةٍ أحيانًا، لأسبابٍ تكمنُ وراءَ الخطى، فالمرأةُ بالنسبةِ لهم، تُشكّلُ مدلولاتٍ معقّدةً لا تختلطُ ببعضِها، ويُمكنُ أن تعودَ إلى مُكوّناتِها الأساسيّةِ في حالةِ خذلانِها، إن نجحَ هذا الناقدُ في سلبِ إرادتِها وقمعِ طموحِها، وإن تمكّنَ من جعْلِها عاريةً إلاّ مِن أنوثتِها التي قد تكفرُ بها، معتبِرًا، أنّ إبداعَها هو مجرّدُ عتبةٍ، يُمكنُ اجتيازَها فنّيًّا وإنسانيًّا بحذرِهِ وتبصُّرِه الأفعوانيّ.

وبعيدًا عن فكرةِ التعميمِ المُسيئةِ للحركةِ الثقافيّةِ، هناكَ تركيزٌ واضحٌ لبعضِ أصحابِ المواقع، على نشْرِ صوَرِ الفتياتِ وخاصّة الأجمل، لماذا؟ هل هذا التوجّهُ والتوجيهُ يعكسُ حقيقة

المجتمع سلبيّا وإيجابيًّا، أم أنّ الأمرَ منوطٌ بنِيّةِ تشجيع الأقلامِ النسائيّةِ، والشابةِ خاصّة؟ هل من أجلِ استقطابِ عددٍ أكبر منالقرّاءِ من ناحيةٍ، وللترويجِ للموقع مِن ناحيةٍ أخرى؟

ألا يحدثُ أحيانًا كثيرةً، أنّ أحدَهم يُوقّعُ نصَّهُ باسمِ امرأةٍ، ويُرسلُ صورةً لصديقتِهِ الجميلةِ، كي يضمنَ نشرَ نصوصِهِ وترويجِها، وبعدَ فترةٍ يُعلنُ الحقيقةَ المفاجئةَ للملأ، بعكْسِ ما كانَ سائدًا قديمًا في الصحافةِ الذكوريّةِ، حينَ كانتِ الكاتباتُ يُوقّعنَ نصوصَهنَّ بحروفٍ متفرّقةٍ أو باسمِ رجُل؟

كم من مرّةٍ جرتْ عمليّاتُ تمويهٍ أو تزويرٍ، بأن يُرسلَ أحدُهم نصًّا او تعليقًا باسمِ كاتبةٍ معروفةٍ، من أجلِ خلقِ التباسٍ وتشويهٍ للموقعِ وللكاتبةِ، لكن استطاعَ أن يُنصِفَها الناقدُ الحقيقيّ بكشفِ الحقيقةِ بسهولةٍ، في حالِ غيابِ الكاتبةِ، لأنّ مضمونَ النصِّ لا يتناسقُ مع أسلوبِها أو هُويّتِها الأدبيّةِ؟ هل تغييرُ الصورةِ والاسمِ قد يُغيّرانِ مِن قيمةِ النصِّ الحقيقيّةِ نقديًّا؟

هل القيمةُ النقديّةُ الموضوعيّةُ للنصِّ، لها علاقةٌ وطيدةٌ باسم الكاتبةِ إن كانتْ هاويةً أو متمرّسةً؟ هل ينالُ النصُّ نقدًا مماثلاً فيما لو وُقّعَ باسم رجُلٍ أو مجهولٍ؟

هل صوَرُ المرأةِ عامّةً، شبه المتعرّيةِ أحيانًا، أو المُحجّبةِ أحيانًا أخرى، تُثبتُ المرأةُ مِن خلالِها هُويّةَ انتمائِها الدينيّ أو الإقليميِّ أو الجماليِّ؟

هل إبرازُ المرأةِ لمفاتنِها وإظهارُ دلالِها، هو أسلوبٌ تجاريٌّ تسويقيٌّ لأدبِها يُجْدي في الجذب، لتُثبتَ للرجلِ أنّهُ يُمكنُها أن تُبدعَ بما لا يَقلُّ عن جَمالِها، ولتدحضَ اعتقادَ فرويد وتوفيق الحكيم، وتؤكّدَ العكسَ تمامًا، بأنّ المرأة الذكيّةَ والمُفكّرةَ، لا تنشغلُ بأمورِ التجميلِ لمَرافئِ الحياة، لأنّها تنتقصُ الأنوثة، بل ولأنّها كتلةٌ من الجَمال، يمكنُها أن تُضاهي الرجل إبداعًا على إبداع؟

هل عرضُ الصورِ للمرأةِ هو شكلٌ حضاريٌّ آخر مِن أشكالِ القمعِ للمرأةِ، والترويجِ لفكرٍ تجاريٍّ أو دينيٍّ أو ....؟ أم أنّ العكسَ صحيح؟

ورغمَ أنّ هذا اللونَ مِن التعليقاتِ يستهوي الكاتباتِ المبتدئاتِ، ويُشبعُ فيهنَّ غريزةَ التباهي والغرورِ، إلاّ أنّها ظاهرةٌ سلبيّةٌ، تأتي على حسابِ الإبداعِ وتطوّرِ النصِّ الأدبيِّ، وهذا يتنافى مع التشجيعِ المطلوبِ بالقدْرِ الذي يَدفعُ بالشاعرةِ والأديبةِ نحوَ الأمامِ، باتّجاهِ خلقِ نصٍّ أدبيٍّ متميِّزٍ بأسلوبِهِ وقوامِهِ، كما أنّهُ لا يتنكّرُ للتعليقاتِ المتوازنةِ التي هي مساحةٌ للتفاعلِ بينَ القارئِ والكاتبِ.

هناك فعلاً مشكلةٌ عويصةٌ في التعليقاتِ لدى بعضِ القرّاء، وذلك لعدمِ تدرُّبِهِ على تشكيلِ موقفٍ نقديٍّ ممّا يقرأ مِن ناحيةٍ، ومِن ناحيةٍ ثانيةٍ يحتاجُ إلى المطالعةِ المكثّفةِ مختلفةِ الألوانِ، ليتذوّقَ ويتثقّفَ ويستطيعَ التمييزَ بينَ الأفضلِ والأسوأ، ومِن ناحيةٍ ثالثةٍ، قد يكونُ المعلّقُ بحاجةٍ إلى آليّاتٍ نقديّةٍ أوّليّةٍ وسليمةٍ، من أجلِ تأهيلِ ذائقتِه الأدبيّةِ، ومن خلالِ الممارسةِ والمتابعةِ الصحيحةِ. نلاحظ أنّهُ بعدَما غصّتِ الساحةُ الأدبيّةُ بخلطٍ مِن نصوصٍ متعسِّفةٍ ومفكّكةٍ، كأنّما لا فكاكَ مِن سيطرتِها الكارثيّةِ، فقد صارتْ تركنُ بعضُ النصوصِ

الجيّدةِ والمتميّزةِ إلى زاويةِ الخمولِ واللامبالاةِ، وضاعتِ الطاسةُ الذوقيّةُ، وضاعَ الكاتبُ الصالحُ بعزاء الطالح، خاصّةً، حينَ ظهرتْ إشكاليّةُ تقديمِ الردودِ والتقييماتِ على أطباقٍ فضّيّةٍ وذهبيّةٍ وماسيّةٍ، وبعضُها على أطباقٍ هوائيّةٍ مع الصحونِ الطائرةِ، تستدعي تلمُّسَ الإجاباتِ الأكثر قربًا للواقعِ في المثلثِ البرموديِّ الثقافيِّ، بدلاً من افتراضِ علاقاتٍ سببيّةٍ أو تعليقاتٍ وتقييماتٍ ذكوريّةٍ، لنصوصٍ نسويّةٍ لاموضوعيّةٍ؛ قد تكونُ تقليديّةً أو منقوصةً أو منغلقةً، أو حتى غير مؤهّلةٍ للتداولِ، لكن نجدُ مَن يُدافعُ عنها باستفاضةٍ حدَّ التطرّفِ، رغمَ أنّ هذا الدفاعَ فيهِ مِن الإهانةِ والإساءةِ لهُ أوّلاً وللكاتبةِ ثانيًا!

لماذا تكونُ التعليقات فيها الكثيرُ مِن نثرِ البلبلةِ والالتباسِ، ومِن ثمّ التلبُّس بجريمةِ محاولةِ اغتيالِ الحركةِ الثقافيّةِ؟ هل للأمرِ علاقةٌ بالتركيبةِ الفكريّةِ أو بالذاكرةِ أو بالوعي واللاوعيِ الذكوريِّ؟
هل ردودُ الفعلِ للمُعلّقِ والناقدِ تعتمدُ على المنطقِ الذكوريّ أم على المنطق، أم يُفنّدُ رأيًا أو نقدًا ذكوريًّا مِن منطلقِ منطقٍ ذكوريٍّ ضدّ ذكوريٍّ، ليُحقّقَ إرادتَهُ ومشيئتَهُ الخاصّة؟

النقدُ المُراوغُ غيرُ الصادقِ وغيرُ الصائبِ، قد يضعُنا أمامَ إشكاليّةٍ حقيقيّةٍ، تبعثُ على الشكِّ في الذائقةِ الأدبيّةِ أوّلاً، ومِن ثمّ فإنّ بعضَ الكاتباتِ يَعِشنَ وهمًا، فيبْنينَ في الأفقِ قصرًا مِن سرابٍ، وتكونُ هي ونصوصُها ضحيّةَ النفعيّةِ والمصلحةِ، التي لا تصلُ بها إلى سواحلِ الإبداعِ، إنّما توصِلُها إلى ما خُطِّطَ لها، مِن أجلِ اختزالِ استقلاليّتِها وكيانِها وحضورِها الحقيقيِّ!

بالمقابلِ، هناكَ مَن يُقدّمونَ قراءاتٍ انطباعيّةً لأعمالٍ أدبيّةٍ قيّمةٍ تصُبّ في جوهرِ النصِّ، وعلى درجةٍ عاليةٍ مِن الإبداعِ وتشجيعِهِ ولفتِ الأنظارِ إليهِ، لكن لا يقصدُون نفشَ الريشِ أو التسويقَ أو التغريرَ بالكاتبةِ، ولكنّهم يُتّهمونَ بشتّى الاتهاماتِ التي تُشيرُ إلى إساءةٍ له وللكاتبةِ، وللتشبيه المُضمَر على العلاقةِ والنوايا!

واستنادًا إلى ثقافتي المتواضعةِ، بأنّ النصَّ القيِّمَ لا هُويّةَ لهُ، ولا قيودَ ولا حجابَ يُلقى عليه، وليسَ لهُ شفراتٌ أنثويّةٌ أو ذكوريّةٌ، وبناءً على مخزونِ معلوماتي، فلم يسبقْ أن تبادرَتْ معلومةٌ لسمعي مفادُها، بأنَّ النصَّ يُفرزُ هرمونَ التستيرون الخاصّ بالمظاهر الذكوريّةِ، فيظهرُ النصُّ بملامحَ ذكوريّةٍ، فتراهُ مُشْعَرًّا وخشِنَ الصوتِ، أو أنّ نصًّا آخرَ يُفرزُ هرمونَ الأستروجين الأنثويِّ الخاصّ بالمظاهرِ الأنثويّة، فيظهرُ النصُّ أنثويًّا بثدييْن كبيريْن وخلفيّةٍ ثقافيّةٍ!

وإن صحَّ التساؤلُ والتخمينُ، فهل يُمكنُ للنصِّ الذكوريِّ أن يتزاوجَ مع النصِّ الأنثويِّ، ليُنجبا ابنًا شرعيًّا، ندعوهُ نصًّا فذًّا، يُسهمُ في الرقيِّ الفكريِّ والإنسانيِّ والثقافيِّ والحضاريِّ؟

هل حقًّا نصُّ الكاتبةِ يكفيهِ توقيعُ أو إشادةِ أحدِ المشهورينَ مِن الكُتّاب، ليجعلَ منهُ عملاً إبداعيًّا متألّقًا، وليجعلَها مبدعةً خلاّقةً، أم أنّ أمرَ الترويجِ مرهونٌ بعُمرِها الزمنيِّ مع هذا الأديبِ أو الناقدِ؟

هل تحتاجُ المُبدعةُ إلى الاحتماءِ بأديبٍ مضادٍّ للجَرحِ وللنقدِ، وبجرعةٍ واحدةٍ من جرّة قلمِهِ، يمكنُ لنصوصِها أن تتخطّى ذاتها، ويبقى إبداعُها في الذاكرةِ الحيّةِ، أم تحتاجُ إلى تعزيزِ ثقتِها

بنفسِها وبقدُراتِها وملكاتِها الإبداعيّة، وبأنّها تستطيعُ أن تساهمَ في المجالِ الإبداعيّ بشكلٍ حيٍّ وثاقب، إن امتلكتِ المعرفةَ، وأجادتِ استخدامَ الأدواتِ الأدبيةِ الجيّدةِ، دون أن تكونَ ظلاً لأحد، أو إطارًا في ظِلِّ هيمنةٍ وسطوةٍ ذكوريّةٍ بيّنةٍ؟

هل يتعاملُ الكاتبُ الأديبُ مع النصِّ الأنثويِّ، على أنّهُ حالةٌ أقلُّ إبداعيّة مِن النصِّ الذكوريِّ، وبالتالي يتناولُهُ بعطفٍ، أو بأقلِّ قدْرٍ مِن الدقّةِ الأكاديميّة التي تحتاجُ إلى التحليل؟

كثيرٌ مِن النظراتِ النقديّةِ تأتي بحُرّيّةٍ صافيةٍ، مِن أجلِ التقييمِ الأدبيِّ الحقّ، وعلى مَحمَلٍ ثقافيٍّ نظيفٍ دونَ غاياتٍ دونيّةٍ، بل وتخلو كلّيًا مِن الومضةِ الذكوريّة تجاهَ الأنثويّةِ، فتتمكّنُ هذه النظراتُ النقديّةُ الثاقبةُ، مِن إنصافِ الكاتبةِ والنصِّ والناقدِ والثقافةِ معًا!

وهناكَ قلّةٌ من النقّادِ، مَن ينظرُ إلى المرأةِ مِن خلالِ عدسةِ إرثِهِ الثقافيِّ، الذي يشحنُ قلمَهُ السليطَ وذاكرتَهُ، بكلِّ ما يُحقّرُ المرأةَ ويُصغّرُها ويُقلّلُ مِن شأنِها، فيَراها إنسانًا منقوصًا وغيرَ كامل، ويرى في نفسِهِ المنقذَ لها، وأنّ دوْرَهُ يتجلّى في تعبئةِ الثغراتِ، لتكتمِلَ الكاتبةُ والنصّ!

وهناكَ مِن النقّادِ مَن يُحاربُ الكاتبةَ الجيّدةَ من منطلقٍ عدائيٍّ، إن لم تطلْها يدُهُ الدون جوانيّة، فيقودُهُ قلبُهُ الأسوَدُ إلى تشويهِها، وتمريغِ نصوصِها برصاصِ نقدِهِ القاتل واللاموضوعيّ والناقم لكبريائِهِ!

وهناكَ مَن يُقدّمونَ نقدًا يليق بهم ويحترمُ حضورَهم أوّلاً ويُكرّمُ المبدعةَ ثانيًا، إن كانتْ ناشئةً أو متمرّسةً، دونَ تجريحٍ أو مديحٍ لشخصِها وإنّما لنصّها، كنصٍّ جديرٍ بالنقدِ والتعليقِ، مِن حيث إظهارِ الجوانب الجماليّة وتشجيعِها ومؤازرتِها، وكذلك، تصويب ما ينبغي الإشارة إليه، فيكون النقدُ بنّاءً!

هناكَ مَن يتّبعونَ أسلوبَ النقدِ الناقضِ الهدّام، ومن وجهةِ نظر الوصاية على الأدبِ وحمايتِهِ مِن المتأدّبين، وذلك باستخدام أسلحةِ النقدِ القاسيةِ والألفاظِ الفظةِ، والتي لا تخلو مِن تجريحٍ وإهانةٍ وإساءةٍ للكاتبةِ، إيمانًا منهم أنّهُ النقدُ الأسلمُ، وبالتالي، ينكسرُ قلمُ وقلبُ الكاتبةِ الناشئةِ إلى الأبد!

وهناك أيضًا مَن يتّبعُ نفسَ الأسلوبِ الهدّامِ، لكن بأسلوبٍ جميلٍ ومنافقٍ ومراوغ، وهذا النوعُ مِن النقدِ ليسَ أقلّ خطرًا، بل وأسوأ زرعًا، وأمرُّ ثمرًا، وذلك "لغايةٍ في نفسِ يعقوب"، فهناكَ نصوصٌ لا تستأهلُ حتى مجرّد الردّ أو التعليق، لكنّ الناقدَ بمبادرتِهِ الشقيّةِ، أو بمُخاجلةِ الكاتبةِ له ينسى ذاتَهُ، ويكتبُ لها من خلالِ رسالةٍ خاصّةٍ، تسارعُ الكاتبةُ في نشرِها، أو ينشرُ تعليقَهُ المرائي علنًا، رغمَ أنّ تقييمَهُ منافقٌ جاءَ إكرامًا لإرضائِها، أو حياءً، وبذلك يكونُ قد جنى على نفسِه، فيفقدُ مصداقيّةَ رأيِهِ وذائقتِه الأدبيّة، ويخسرُ احترامَ قرّائِهِ، فيَهوي الاثنان معًا في كفّتي ميزان المحاسبةِ والمساءلةِ الثقافيّة، وقد تصلُ إساءةُ المراوِغ بالكاتبةِ، إلى منتهى الوقاحة في الردّ على منتقديها الموضوعيّين في الجوانبِ السلبيّةِ، اعتقادًا منها أنّها وصلت إلى كمالِ تجربتِها وكفاءتِها بشهادةِ تعليقِهِ المزوَّر، وقد لا تصمدُ هذه الكاتبة أمامَ تيّاراتِ الهجومِ عليها فتنهارُ وتندثرُ، أو قد تُعيّنُ مُحرّرةً في أحدِ المواقع، وتُصدّقُ كذبتَها التي لن يغفرَها لا غربالُ الثقافة ولا منخلُ الأدب!

التعليقُ مساحةٌ للتفاعلِ بينَ القارئِ والكاتبِ، فيمكنُ التعاطي مع النقدِ الموضوعيِّ إلى أبعدِ حدودِهِ، فيما لو أتى بأسلوبٍ راقٍ ومقنِع، ليسَ فقط مُظهِرًا الجوانبَ الإيجابيّةَ والسلبيّةَ، بل مقترِحًا بدائلَ تجميليّةٍ أكثر رفعةً أدبية، لأنّ النقدَ البنّاءَ هو أسمى الغايات التي يسعى إليها كلُّ كاتبٍ، بعيدًا عن إسقاطاتِ الناقدِ على النصّ، سواءً كانت تلك الإسقاطاتُ نابعةً مِن عبوديّةِ موروثِهِ التربويِّ والدينيِّ والاجتماعيِّ والثقافيّ، أو انطلاقًا مِن حالتِهِ النفسيّةِ أو المزاجيّة، أو مِن مشاكلِهِ الناتجةِ عن تجاربِهِ الخاصّةِ مع النساء، فيصُبُّ مدى فشلِهِ ونجاحِهِ في تعليقاتِه، وبالتالي، يأتي النقد إمّا بلغة النقمة أو الرحمة بعيدًا عن الموضوعيّة، ليُثبتَ لنفسِهِ أنّ المرأةَ لا تُساويهِ عقلاً وفكرًا وروحًا وجسدًا وطموحًا.

مِن خلالِ تجربتي المتواضعةِ عبرَ سنواتٍ قليلة، ومِن خلالِ اسمي المستعار الذي لم أبُحْ بهِ إلاّ قبلَ فترةٍ وجيزةٍ، فقد تمكّنتُ مِن بلورةِ علاقاتِ صداقةٍ أدبيّةٍ كثيرةٍ، بَعدَ غربلةِ البعض، وقد طفحَ القلبُ بثقةٍ عارمةٍ وباحترامٍ كبيرٍ لكلِّ مَن عرفتُهم، إذ تعاملوا معي ومع نصوصي الأدبيّةِ بمنتهى الموضوعيّةِ والاحترامِ الإنسانيِّ المتبادَل، ودونَ تحسّسٍ مفرطٍ من الكلمةِ الناقدةِ الصادقةِ، فالكاتبةُ يُمكنُها أن تُحدّدَ خطى الرجُلِ في جميع الاتجاهاتِ إليها، وكذلك يُمكنُها تحديد أسلوب التعاملِ والنقدِ معَها، فما أجملها وما أحكمَها حينَ تتقبّل التوجيهات البنّاءةَ دونَ انتقاصٍ من قدراتِها، هذا صحيحٌ فيما لو عرفتْ إمكاناتِها وما تريدُهُ، فيَجدُرُ بها أوّلاً أن تُحدّدَ خطى طموحِها وإبداعِها، فتمشي وتتنقل باتزانٍ وثِقلٍ أدبيّ، فلا تتخبّطُ في أكثرَ مِن اتّجاهٍ، بل تحاولُ أن تتمحورَ في تثقيفِ ذاتِها، لتصِلَ إلى مرحلةِ النضوجِ الفكريِّ والاستقلالِ الأدبيّ قدْرَ الإمكان، وأن تعملَ على الاهتمامِ بتحسينِ أدواتِها الأدبيّةِ، وتصحيحِ نقاطٍ قابلة للتحسين في نصوصِها، كي تلحَقَ بالأرقى مِن الأدب!

لستُ مع حجْبِ التعليقاتِ، بل مع مُراقبةِ التعليقاتِ مِن الكتّابِ ومسؤولي المواقع، ومع حذف المسيءِ منها، لأنّي أومنُ أنّ الكلمةَ الطيّبةَ يُمكنُ أن تُثري النفوسَ المبدعةَ وتُشجّعَها، حتّى وإن لم تكن بكامل موضوعيّتِها، كما يمكنُ أن تخلقَ جدَلاً بينَ المُعلّقينَ، لكن، أهمُّ ما في الأمرِ، ألاّ يخدش النقاش أحدا، وألاّ يخرج عن حدودِ أدبيّاتِه، ولا يصلَ إلى إشكاليّةٍ وتمادٍ وتطاولٍ في الحوار مع ظهور اختلاف في وجهات النظر!

التعليقاتُ يمكنها أن تكشفَ مستوى الموقع وكُتّابِهِ ومحرّريهِ أخلاقيًّا وأدبيًّا، كما تكشفُ نوعيّةَ النصوصِ الأدبيّةِ المختارةِ للنشر والقراءةِ، وتكشفُ نوعيّةَ القرّاءِ وطريقةَ تناولِ النصوصِ والمضامين، كما أنّ التعليقَ يُحدّدُ جوهرَ الناقد أو الكاتبِ أو القارئِ العاديّ مِن ناحيةِ التفكيرِ، ومن ناحيةِ المنطلقاتِ التي ينبعثُ وينبثقُ منها تعليقُهُ، فيكونُ الأمرُ حينها أسهلَ بالتعاملِ معه، ومع الموقع لاحقًا، من حيث الحيطة أو الحذر أو ....أيّ شكلٍ مِن إمكانيّاتِ التعاملِ الأسلم!

إلى عاشق أغلالِه

مُتباهيًا ضاحكًا هتفَ، أنا عبدٌ مِن عبيدِ السيّد! كانت جملةً واحدةً ووحيدة قالها، وتلعثمتْ أمامَ استهجانِ نفوري الجَليّ ضحكتُهُ!

كيف أقتنعُ بحَرفِكَ وفِكرِكَ إن كنتَ عبدًا للسيّد، تكويهِ جمراتُ العبوديّةِ والمادّيّة؟ ولِمَ تضحكُ وتتباهى بعِشقِ أغلالِكَ؟ ما تراها ألوان ضحكتك؟ وكيف بكَ تتمتّعُ بالاستعباد؟

يا العبدُ.. أخبِرْ سيّدكَ أنّ المشروعَ منتهيًا، لأني ما كنتُ إلاّ من سلالةِ الأحرار!

مهاتفةٌ لم تستغرقْ أكثرَ مِن دقائقَ معدوداتٍ، شدّت حزامَ قراري الصارمِ على خصْرِ مشروعٍ نحيلٍ، يُحاولُ أن يَنصُبَ طولَهُ الفارعَ بأحلامٍ مادّيّة، ويُسمنَ عرضَهُ الخاويَ مِن جوهرِ الأدبِ والعِرْض، ليتسلّقَ من خلالي هاماتِ نساءٍ أدبياتٍ زميلاتٍ، لم يعرفنَ إلاّ مسالكَ القلمِ الحُرّ وحِبرَ الحرّيّة!

صوتُهُ النازفُ ذلّهُ الكسيفَ على صفحاتِ زمنٍ رديءٍ، ما تأتّى لهُ أن يُزعزعَ هرمَ كبرياءِ أنثى، لكم تحدّى الموجَ وتصدّى للمدّ والجزر، وظلّ شامخًا لا تهزُّهُ رياحُ النفع، ولا يُثنيهِ صخبُ وضجيجُ الغاية!

ولطالما كانت الحُرّيّة مطلبًا تسعى إليها البشريّة، للتنصُّلِ والتحرّرِ مِن كلّ ما يمتُّ بصِلةٍ بالعبوديّةِ والاستعباد، ولطالما ما مِن عاشقٍ حرّيّةٍ إلاّ ويسعى إلى مشرقِ الشمسِ حافيًا يتلمّسُ النورَ، غيرَ آبهٍ بشظايا حارّةٍ وزوايا حادّةٍ مُدجّجةٍ بالأغلالِ والأكبال، إذًا؛ ليسَ افتراءً أن يكفرَ الحُرُّ بالعبيدِ والمُستعبَدين، مَن يعشقون أغلالَهم ويَرضوْن بها استسلامًا.

وغاصَ القلمُ مصدومًا في لجّةِ حيرةٍ اعتراها كآبة، تتقاذفها بسماتُ وضحكاتُ عبيدٍ اختاروا أقصرَ الطرُقِ إلى لقمةِ عيشٍ ذليلةٍ، مغموسةٍ بزيتِ الخضوعِ وحليب الخنوع لأسيادِهم، مَن يسعَوْنَ إلى الربح الماديّ وحصادِ الشهرة، بالتسلُّق على أكتافِ مبدِعين ومبدِعاتٍ، تحت مسمّياتِ الثقافةِ والإبداع والفنون، والتسابق إلى إقامةِ مشاريعَ مكمومةِ الأفواهِ معصوبةِ الأعين، ممولّةٍ من مؤسّساتٍ مشبوهةٍ غربيةٍ وشرقيّة!

أنتَ يا المبدعُ الحرُّ الماثلُ بخشوعِكَ أمامَ مسؤوليّةِ إبداعِك.. أراكَ أمامَ أهدافٍ ناصعةٍ رقراقةٍ مرسومةٍ في محيطاتِ الوطنِ والوجودِ، تُجاهدُ كي تُحلّق في سماءِ الحُرّيّةِ وتُصافحَ نجومَ الإنسانيّة، وتحاولُ أن تتشبّثَ بتطلّعاتٍ مُؤثّرةٍ تجلو كلَّ وهْمٍ وتكشفُ الحقيقة للبشريّة، بسطورٍ مِن نورٍ وكلماتٍ وألوانٍ كفاحيّةٍ ونغماتٍ سلميّة، تُلهبُ مناخاتِ الوطنِ بأحلامٍ عارمةٍ بالمحبّةِ والوحدة، وآمالٍ طافحةٍ بالمَجد، لتنسجَ مِن شغافِ القلوبِ أشرعة شوْقٍ بيضاءَ نزيهةٍ زاهيةٍ، تتوقُ لنُصرةِ الحقّ والعَفاف!

أنتَ يا المبدعُ.. ألمحُكَ بعيدًا بعيدًا تفردُ جناحيكَ وتحلّقُ، وبشوقٍ ولهفةِ الزنابقِ العطشى للمطر، تُهاجرُ عصافيرُ أفكارِكَ كيفما تحلو لها المشيئةُ مِن أعشاش القلب، لتحطّ على أفنانِ الروحِ، مُزدانةً بياقوتِ الأحاسيسِ وكنوزِ الإبداع، كيفَ لكَ أن تُباعَ وتشرى بحفنةٍ مِن

شهرةٍ زائفةٍ، أو بصُرّةٍ من قروشٍ موبوءةٍ، مدسوسةٍ بأيادٍ مجبولةٍ بالعظامية وبوحلِ الوصوليّة!

وها صوت سارتر يجلجلُ من عُمقِ الماضي: "الحُرّيّة الفرديّة هي المنبعُ الوحيدُ لكلّ القِيم"!

وتهتفُ أعماقُ الروح في متاهاتِ الدروب: ما أجملَ إبداعًا متوهّجًا ممزوجًا بقطراتِ القلب، تبتسمُ فراشاتُهُ بهدأتِها على شفاهِ الوجدان، وأمامَ ذائقةٍ أدبيّةٍ رفيعةٍ يَمرُّ كطيفٍ شفّافٍ نافذِ الرؤية.. يجتازُ عميقا بأغوارِ الروح، منزّهًا عن كلّ غايةٍ في اغتنام فرص الوصول، وخالِصًا مِن كلّ شبهةٍ في اقتناصِ لحظاتِ الاستغفال!

يااه.. ما أقسى أن يُستغفلَ ويُخدَعَ حُرٌّ، ليَسيرَ في جنازةِ حرّيّتِهِ ويَدفنَها بيديْه! وما أشقى مجتمعًا يسكتُ فيهِ الضميرُ، حينَ تُغرقُهُ الأوهامُ وتسوقُهُ الحتميّاتُ والمُسلّمات!

ومن خلفِ ضبابِ المؤامراتِ يتساءلُ الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا"؟

ما أذكى وما أشرَّ سيّدًا يَصنعُ عبيدَهُ مِن أوراقٍ ناريّةٍ، يحرقُ بها القيَمَ والأخلاق، ثمّ يُلقي بعبيدِهِ في أتونِ الصمت وقبورٍ تلتهبُ بعذاب الضمائر!

أليست "الحرّيّة هي وعيُ الضرورة" كما قال أنغلز؟

وهل الضروراتُ الحضاريّة والاختراعاتُ التقنيّة والتسابقاتُ المادّيّة تُعمي العيونَ بحراشفِ بريقِها، فيفقدُ المُستغفَلون البصرَ والبصيرة، بل ويسعَوْنَ إلى الإيقاعِ بمن يقفون على سواحلِ الحرّيّة، لإغراقِهم في مستنقعاتِ العبوديّة؟

إليكَ أيا عاشقَ أغلالِكَ أقول: إنّ الحُرّيّة رحمُ إبداعٍ يدغدغُ الأنفاسَ، ويلدُ أجملَ عشقٍ سحريّ للحياة، وأبدع توقٍ وطوقٍ أبديٍّ للأوطان!

الحُرّيّة تُعبّئُ رئة الخليقةِ بأنسامِ العطف والمَحبّة، لتظلّ تتنفسُ الكرامة، وتعزفُ على قيثارِ الإنسانيّة! الحُرّيّة شموخٌ لا ينبعثُ إلاّ مِن أعماق النفس، كما تنبجسُ عيونُ الأرضِ بالمياهِ والحياة، وكما الضياءُ ينبعثُ مِن عيونِ الشمسِ والسماء، وحينَها فقط، تفيضُ عيونُ الكوْن بالخضرةِ والإبداع والنماء!

أيا ليلاً موغلاً في السُّرى وما هجعَ وجعي في دياجيرِ الليالي، باللهِ.. بلّغْهُ وديعتي، عساها تودعُ في سريرتِهِ راحةً لا تغفو كلماتُها الوصيّة:

عزيزي المبدع..

كن عَلَمَ مجدٍ مضيئًا بالنضوج مغزولاً بالإباء.. كن حجرَ صوّانٍ هادرٍ يُغازلُ مقلاعِ الفنّ.. اِصطدْ ما شئتَ مِن أسرابِ الحرْفِ.. اِكنِز مِن أنواعِ الريش ألوانَه.. حلّقْ في فضاءِ الفِكر وهدهدْ سريرَ الخيالِ على أرجوحةِ العزّة.. خذ مِن إشعاعاتِ السماء والأرض ما يحلو في عينكَ وفنّكَ.. لكن؛ اِحذرْ أن تقربَ مملكةَ العبيدِ، لئلاّ تغدوَ مملوكًا في قبضةِ السيّد.. تُقاسي البردَ في منافي الروح، والهجيرَ في غياهبَ الغربة!

مجْدُ حيفا حنينٌ محفورٌ على حافرِ مأساة!

لا زالَ يافعًا يانعًا، لا تعرفُ أجنحتُهُ الوهّاجة ذبولاً، رغْم أنّهُ محاصرٌ بينَ قضبانِ الاحتراق، في مِرجلٍ تُزوبعُ به متاهاتُ الدروب، وذلك؛ لِما تميّز بهِ مِن عذوبةِ مؤسقتِهِ وشجنِهِ!

كمثلِ حاكورةٍ صغيرةٍ، ملآى بكلِّ أنواعِ الأشجارِ المثمرةِ وأشجارِ الزينةِ بسياج صبّارِها؛ حاكورةٌ ترعرعتْ وسطَ غابةِ الاستبدادِ وأدغالِ الاحتلالِ وأحراشِ القهرِ!

حاكورةٌ نما في أحواضِها الوجعُ، وفي أحضانِها التحدّي، فدُمّرَ كثيرٌ من أعشاشِها، وهُجّر كثيرٌ من أطيارِها دون أرياشِها، في منافي الشتاتِ والضياع والفراغ، بلا أرض ولا سماءٍ وبلا هُويّة!

إنّهُ الشعرُ الفلسطينيُّ في الداخل؛ راسخُ الجذورِ منذ الجيلِ الأوّلِ، وقد اتّجهَ مؤشّرُ بوصلتِهِ صوْبَ مكانةٍ مرموقةٍ في الشعرِ العربيّ والعالميِّ!

الشاعرُ الفلسطينيُّ في الداخلِ امتطى صهوةَ ثقافتِهِ وما ترجّلَ عنها، رغمَ الاختناقِ وضيقِ التنفّس، بل شنّ وعيَهُ وأدواتِهِ اللغويّةَ اللاهبةَ ضدّ مذابح الغزو، وضدّ حصْرِهِ في قواقعِ الطائفيّةِ والأقليّةِ العربيّةِ في دولةٍ يهوديّةٍ، فعايشَ البيئةَ الجديدةَ وواكبَها بالمواجهةِ، وتصدّى لمحْوِ ذاكرتِهِ التراثيّةِ وتاريخِ حضارتِهِ!

الشاعرُ الفلسطينيُّ تفاعَلَ معَ العالم الخارجيِّ، ولم يكن رهينَ شعرِ المقاومةِ، كما أطلقَ الأديبُ غسّان كنفاني، ورغمَ المآسي التي يكابدُها، ما تنازلَ عن ثوابتِ وكواشينِ حواكيرِهِ، ولم يقتصرْ شعرُهُ على الندبِ والشجبِ فحسْب، إنّما أثمرتِ الحواكيرُ الفلسطينيّةُ ما لذَّ وطابَ مِن شعرٍ شعبيٍّ وفصيحٍ بليغٍ، يتحدّثُ فيهِ عن الحنينِ والغربةِ والمقاومةِ والتحدّي، والحُبِّ والعِشقِ وجَماليات الحياةِ والمشاعرِ الإنسانيّةِ، وتعميقِ الحياةِ وتجميلِ الوجودِ وبناءِ المستقبل، من خلالِ مساحاتٍ فكريّةٍ شاسعةٍ، وانتماءاتٍ ثقافيّةٍ مختلفةٍ وبشتّى الرؤى.

الشاعرُ الفلسطينيُّ إنسانٌ اعترَكتْهُ الظروفُ فعايشَ القهرَ، وتدرّبَ كيفَ يعتلي سُحُبَ الخيالِ والتصوّر، ليُحلّقَ بأجنحةِ التصويرِ والإبداعِ، كي يخلقَ عالمًا أجملَ مِن الحقيقة، لذا تفاعلَ معَ البيئةِ والحياةِ وظروفِها وتفاصيلِها اليوميّةِ بمنتهى الحساسيّةِ الإبداعيّة، وكانَ لشعرِ المقاومةِ أن يتصدّرَ المشهدَ الشعريَّ مِن أجلِ التحريرِ والحرّيّة المنشودَيْن، ففرَضَ نفسَهُ إعلاميًّا، وتجلّى بشكلٍ بارزٍ بما يتوافقُ والحالة الراهنة التي استمرّتْ واستدامتْ، وقد تُرجمَ الكثير مِنَ الأشعارِ للعبريّةِ ولغاتٍ أخرى، ولوحِقَ بعضُ أصحابِها، لِما تحملُهُ مِن فِكرٍ وتحريضٍ يُعارضُ سياسةَ التهويدِ المفروضة، وبسببِ الانتماءاتِ الحزبيّةِ، في ظلِّ غيابِ الوطنِ وسيادتِهِ الفلسطينيّة.

مِن شعرائِنا مَن سطعَ نجمُهُم وحضورُهُم في وسائلِ الإعلامِ الحزبيّة، وتركَ بصمةً زيتيّةً في الذاكرةِ الثقافيّة، وأثرًا محفورًا في سنديانِ المهرجاناتِ الثوريّةِ والاحتفالاتِ الشعريّةِ التحميسيّةِ، ومنهم مَن خفَتَ نجمُهم حدَّ البصيص، وما عُرف قدْرُهم وما نالوا حقّهم، فقد

توهّجَ بينَ سُحُبِ السماءِ مَن توهّج، وناسَ بينَ الغيومِ مَن وشّحتْهُ بضبابِها، وقد حوكِم الإبداعُ الأدبيُّ حزبيًّا وسياسيًّا، وبكلِّ أسفٍ ظلّتْ تخضعُ ثقافتُنا للامتحانِ وإثباتِ الوجودِ والحضورِ، وبقيتْ رهينةً تستعطفُ الودَّ العربيَّ حتّى اليوم، ويحاولُ فلسطينيّو إسرائيل العرب أن ينفوا التهمةَ المُوجَّهةَ إليهم، كي يُثبتوا أنّهم أبرياء مِن دمِ المبايعةِ أو التسليمِ والاستسلام، وأنّهم عربٌ أقحاح ما تهوّدوا ولا تطبّعوا ولا تأسرلوا!

وفي ظلِّ التهميشِ العربيِّ للمأساةِ المستديمةِ العليلةِ، غدا فلسطينيّو إسرائيل ضحيّةً مفخّخةً موقوتةً، ومُعلّقةً خارجَ الأحداثِ التاريخيّةِ والخرائطِ الجغرافيّةِ، فهم الضحيّةُ الموصومةُ بختمِ إسرائيليٍّ ينبغي التخلّص منه أو تذويبه، وهكذا؛ بُتِرَ شعبُنا عن شقيقِهِ الآخر في الضفّةِ وغزّة، واستُبعِدَ عن الأمّةِ العربيّةِ وسياساتِها في صُنعِ القرار، كأنّما توقّفتْ عجَلةُ التاريخِ عند شرْخِ النكْبةِ دونَ حَراكٍ عربيّ مُسانِد!

وكانَ للجيلِ الأوّلِ مهمّةٌ شاقّةٌ مِن خلالِ الإبداعِ الفلسطينيِّ، هو خلْق نموذج مقاومة، مِن خلال الكلمةِ الحادّةِ اللاهبةِ، والناقرةِ على شريانِ وجعِ المنكوبِ ونبض معاناةِ الشعب، إلاّ أنّ البعضَ دخلوا في مرحلةِ الاجترارِ والتقليدِ للنموذجِ السابق، والبعضَ لا زالَ قادرًا على تشكيلِ رؤًى فكريّةً ناضجةً مستحدثة، وإبداعيّةً متميّزة بفنّيّتِها، وبمستوًى عربيٍّ عالميٍّ، وتستمرُّ حربُ الحَرْف!

هل يجهلُ المحتلُّ ما للإعلام الوطنيّ بشتّى وسائلِهِ وتقنيّاتِهِ من دوْرٍ رئيسيّ هامٍّ في دعْمِ الهُويّةِ الوطنيّةِ، ومن محاربةِ النزعاتِ الطائفيّةِ، ومن نَشْرِ الثقافةِ المستقِلّةِ وتعزيزِ الثقةِ والانتماءِ الوطنيِّ والقوميّ؟

وهل يخفى على المثقّفِ الواعي تأثيرُ الإعلام، وحضورُه الفعّالُ المباشرُ محليًّا وعربيًّا وعالميًّا، وفي إعطاءِ المبدعُ فرصَ تطويرِ إمكاناتِهِ الأدبيّةِ والإبداعيّةِ، دونَ الولاءِ لجهةٍ ما أو حزبٍ داعم؟

طبعا لا، إنّما حُكم القويّ السائد الجائر حجّمَ وقلّصَ للشعبِ الأعزل إمكاناته التقنيّة التثقيفيّة، لكنّه ما استطاع أن يثبط العزيمةَ والهمّة في النضالِ الواعي، أو يحبطَ التصدّي العنيد، من أجلِ الحفاظِ على الكيانِ الفلسطينيِّ العربيِّ لغةً وحسًّا وانتماءً، دونَ تهجينٍ أو تذويب.

لكن؛ وبسبب توقّفَ الاهتمامُ والإعلامُ العربيُّ فقط عندَ أسماء محدودة مِن أدبائِنا، وعند نماذجَ قليلة مِن شعرائِنا، مَن بيعتْ وسُوّقتْ وتُرجمتْ وانتشرتْ كتبُهم في المكتباتِ العربيّة، ونالَ أصحابُها حصّةَ الأسدِ في تلقّي الدعوات والمشاركةِ والانتشار عربيّا وعالميّا، وبسببِ غيابِ التنظيماتِ الثقافيّةِ والأدبيّةِ الوطنيّةِ المحَلّيّة المُحارَبة صهيونيًّا، فقد تولّدتْ أزمةُ غيابِ النقدِ الحقيقيِّ الموضوعيِّ المَحلّيِّ والعربيّ، فهيّأتْ مناخًا تسودُهُ الشلليّةُ المُتسلّقةُ البارزة، والتي أركنتِ المواهبَ والتجاربَ الأدبيّةَ المتميّزةَ في هوامشِ الإبداعِ، فكساها غبارُ الإهمالِ والإحباطِ دونَ تسويقٍ، بل عمدتْ على ترويجِ الرديءِ بدلاً مِنَ الأجوَد.

وها هي واحةَ الشعرِ الفلسطينيّةِ الزاهيةِ لا زالتْ تزهرُ وتُثمرُ وتُظلّلُ، وتفوحُ أزاهيرُها في صحراءَ تكثرُ فيها الرمالُ المتحرّكة لتبتلَعها، حيثُ تنعقَ فيها الأبواقُ المشبوهةُ والهِممُ الوصوليّةُ، التي تنعفُ الرمالَ الحارّةَ في عيونِ المبدعينَ والمثقّفينَ والقرّاءِ والبسطاء.

إضافةً إلى الشبكةِ العنكبوتيّةِ التي لعبتِ دوْرًا هامًّا في كسْرِ الحواجزِ الجغرافيّةِ والحدودِ السياسيّةِ المفروضة في السنواتِ العشرِ الأخيرةِ، كما وساعدتْ في انتشارِ الثقافةِ الرديئةِ والجيّدة، ولكن على مستوى فرديٍّ وليس جماعيٍّ ووطنيٍّ، وهذا شقٌّ آخر من المأساةِ التي توالتْ أكثرَ من ستّة عقود!

وتاريخيًّا؛ ابتدأتْ معاناةُ الوسطِ الثقافيّ المَحلّيِّ منذ أحداثِ النكبةِ، بعدَ إغلاقِ المؤسّساتِ الثقافيّةِ الفلسطينيّةِ في حيفا ويافا، اللتيْن كانتا محطّتيْنِ هامّتين أسوةً بالعواصم العربيّة، ففي حين استقطبتا أمّ كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش والكثيرَ مِن الأدباءِ والمثقفين والفنّانين، وزخرتا بالمقاهي الأدبيّةِ والفنادقِ والمطابع والصحفِ والمسارحِ والنشاطاتِ الثقافيّةِ المختلفةِ، وعلى مستوى عربيٍّ يُضاهي بغدادَ والشامَ والقاهرة ثقافيًّا وحضاريًّا وتجاريًّا، فقد هُجِّرَتْ نُخَبُ شعبِنا المقتدرة ثقافيًّا وماديًّا، وهُدّمتِ المراكزُ الثقافيّة، واعترى البلادُ شللٌ مؤسّساتيّ ثقافيٌّ وتفكّكاتٌ تنظيميّة، وصارتْ بلادُنا عبارةً عن قرى صغيرةٍ وكبيرةٍ، تفتقدُ إلى معالم المُدنِ المدنيّةِ والإبداعيّة، وتفتقرُ إلى مؤسّساتٍ وطنيّةٍ ثقافيّةٍ متطوّرة!

فهل يُعيدُ الفلسطينيّونَ مجْدَ حيفا العتيق ومناخ عكّا المائج وميناءَ يافا الغابر؟

كيف؟ متى؟ ومِن أيّةِ منطلَقاتٍ يمكن أن تتجاوزَ المِحنة؟

مشاركتي في كلّيّة القاسمي/ باقة الغربية/ بتاريخ 10-5-2010

بندوةٍ عنوانها/ ملامحُ واتجاهاتُ الأدبِ الفلسطينيّ في إسرائيل

الإيروتيكيّةُ مفهومًا- مَبعثا وتاريخًا

هل اللغةُ الإيروتيكيّةُ هي لغةٌ مستحدَثةٌ، تحملُ نسَقًا ثقافيًّا جديدًا ومُغايرا؟ وهل تأتي الكتاباتُ الإيروتيكيّةُ العربيّةُ في تفاصيلِها الدقيقةِ على نسقٍ غربيٍّ وأوروبيٍّ حديثٍ؟ هل خلا تاريخُ الأدبِ العربيِّ من أدبِ الجنسِ والوطءِ والشذوذِ واللواط؟ هل ثقافتُنا ترفضُ الأدبَ الآيروسيّ، وتتناولُهُ كمحظور اليوم؟

هل هناكَ فروقُ تمييزٍ بين الثقافةِ الجنسيّةِ والبورنوغرافيا؟ وهل الإيروتيكا لغةٌ صفراءُ هدّامةٌ، أم خضراءُ بنّاءة؟ ما هي مقاييسُ تقييم النصّ الأدبيّ؟ إيروتيكيّته، صوفيّته، طُهرُه، موهبتُه، أم دوْره التوجيهيّ ومهمّته التربويّة؟ وهل وزنُ الإبداع بتشكيلاتِهِ؛ كلمةً- رسمًا- نحتًا- صورةً- أعلى مِن الأخلاق، أم موازيًا، أم..؟

مبعثُ كلمةِ إيروتيكيّة؛ آيروسيّة/ ومعناها: آيروس في الميثولوجيا الإغريقيّةِ هو إلهُ الحُبِّ والرغبةِ الإباحيّةِ والجنس والخصوبة والسعادة، وكانَ ملازمًا لأفروديت أمّه، وراصدًا لتجلّياتِ الجنسِ عبْرَ الحضاراتِ البشريّةِ، فصُوّرَ أعمى لا يرى عيوبَ المعشوق، أو بجناحيْنِ في زرقةِ السماء، أو عازفًا على قيثارة، أو ممتطيًا ظهْرَ دولفين، كما ظهرَ في الفنِّ القبطيِّ والمصابيح، والكلمةُ إيروتيك erotic مشتقّةٌ مِن الكلمة اللاتينيّة eros؛ أي جنسيّ وشهوانيّ، يُماثلُهُ في الميثولوجيا الرومانيّة كيوبيد، والمَحاورُ التي تدورُ في فلَكِها الآيروسيّةُ هي الرغبةُ الجنسيّةُ العارمةُ والجامحة، والجسدُ والانتشاءُ ما بينَ خمرٍ ومُجونٍ طائشٍ، وتجاربُ جنسيّةٌ عابثةٌ ظامئةٌ، تتلوّى على وترِ الشرهِ والافتتان.

الإيروتيك ومنذ عهدِ الكهوف والأساطير هو جزءٌ مِن الثقافةِ العتيقةِ، والتي تنطوي على مُجملِ الفِكرِ بشرائعِهِ وعاداتِهِ وتراثِهِ المكتوبِ والشفهيِّ والمُصوَّر، والتي تناولَها المفكّرونَ والمبدعونَ شرقًا وغربًا، فالأساطيرُ بوحشيّتِها العنيفةِ الضاريةِ، وبأشعارِها الفاحشةِ وحكاياتِها الشبقةِ، ولوحاتِها الجداريّةِ الجنسيّةِ الماجنةِ، كانتِ الشاهدَ على الظروفِ التراجيديّةِ والطقوسِ الحياتيّةِ لتلكَ العصور، التي لا يُراودُها أيُّ إحساسٍ بالذنبِ أو الخطأ، لعدمِ تمييزِها بينَ البهجةِ والفزعِ آنذاك!

ثمّ تبلورتْ فكرةُ الإيروتيك في العصورِ الحديثةِ ما بعدَ عام 1300 م، في التماثيلِ الإغريقيّةِ ولوحاتٍ تصويريّةٍ لمايكل أنجلو وليوناردو دافنشي، فانتقلتِ الآيروسيّةُ الإغريقيّةُ اليونانيّةُ إلى الإمبراطوريّةِ الرومانيّة، ومِن طوْرِ الحيوانيّةِ الغريزيّةِ الشبقةِ والنشوةِ الفزِعةِ، إلى طوْرِ الافتتانِ بأعضاءِ الجسدِ والفرح الآيروسيّ، فعجّتْ جدرانُ البلاطِ الرومانيِّ البورنوغرافيّة، وغرفُ نومِ الإمبراطور، بلوحاتِ المومساتِ للرسّام اليونانيِّ بارازيوس، ولاحقًا اختفتِ اللوحاتُ وطُمِرتْ بينَ رُكامِ الإثمِ والفزع، لماذا؟ هل كقول أفلاطون: "الفزعُ أوّلُ هديّةٍ يُقدّمها الجَمال"؛ جمالُ التمييز والإدراك والتقييم؟

عادَ التنقيبُ عام 1763 ليُظهرَها ثانيةً في "ديوان اللقى الداعرة"، في عهد غاريبالدي، تحت مسمّى "مجموعة البورنوغرافيّة".

وفي الأدبِ الهنديّ "كاما سوترا"، أي عِلمُ الحبِّ والعشقِ الإلهيّ!

كما ظهرتْ في فترةِ الازدهارِ الثقافيّ، بينَ القرن الأوّل والسادس بعد الميلاد، ووضعَها الفيلسوف فاتسيايانا، وهي نصٌّ هنديٌّ قديمٌ يتناولُ السلوكَ الجنسيَّ لدى الإنسان، وكلمةُ كاما تعني الحبَّ والرغبةَ، وكلمةُ سوترا تُشيرُ إلى سلسلةٍ مِن الحِكَم، حيثُ يتضمّنُ نماذجَ مِن أوضاعٍ جنسيّةٍ كانتْ تقدّمُها البغايا في المعابدِ الهندوسيّةِ، حيثُ الجنسُ عُدَّ جزءًا مِن طقوسِ العبادةِ في ذلك الوقت.

في الأدبِ الصينيِّ الكلاسيكيِّ ظهرتْ روايةُ "اللوتس الذهبيّ"، للمؤلّف وانغ شيه- شنغ، كأشهرِ روايةٍ آيروسيّةٍ صينيّةٍ حولَ الحُبِّ الجسديِّ، وأنماطِ نشاطاتٍ جنسيّةٍ بأسلوبٍ تصويريٍّ دقيق.

أمّا تاريخُ الكتاباتِ العربيّةِ، فمنذ الأدبِ الجاهليِّ احتوى الكثيرَ مِن الآيروسيّةِ بجرأةٍ فاحشةٍ، في زمن الجاحظِ والتوحيديّ وابن حزم، وألف ليلة وليلة، والتيفاشيّ والتيجانيّ والإمام السيوطي المتوفّى عام 911 للهجرة كتبٌ جنسيّة، والنفزاوي الطبيب الفقيه مؤلّف كتاب "الروض العاطر في نزهةِ الخاطر"، وهناك موقع ألكترونيٌّ مستوحًى مِن شخصيّةِ هذا العالِم المغربيّ، وهناكَ كتبٌ فقهيّةٌ لم تَخْلُ مِن معالجاتٍ جريئةٍ لمواضيعَ جنسيّةٍ بحتة، كآدابِ النكاحِ وأنواعِ الجنسِ وأوضاعِهِ، ومُعلّقةُ امرئ القيس تحتشدُ بالكثير مِن الألفاظِ الفاحشة، وأبو نوّاس في شعرِهِ الآيروسيِّ، والعقد الفريد للراغب الأصفهانيّ تضمّنَ رواياتٍ جنسيّةً وصورًا جنسيّةً وكلماتٍ أيروتيكيّةً كثيرة، وقد اختفت الكتاباتُ والألفاظُ الصريحةُ بعدَ ذلك.

وعودةٌ متسائلةٌ لتلكَ العصور؛ هل كانَ ذاكَ المجتمعُ أكثرَ تسامحًا، وهل كانتْ أمورُ الحياةِ تُناقَشُ بحرّيّةٍ واستفاضةٍ أكبرَ ودونَ تورّعٍ أو تهيّبٍ، أم أنّ هناكَ حساباتٌ أخرى قامَ عليها ذاكَ الانفتاح آنذاك، مَردُّهُ الاستفادةُ لا الإثارة؟

إذًا؛ لماذا تقلّصَ وجودُ الإيروسيّةِ مع نهايةِ القرن التاسع عشر في ثوبِها الضيّقِ المحدودِ، ثمّ عاودتْ ظهورَها والجنسَ الضبابيَّ والمكشوفَ في الروايةِ بالقرنِ العشرين؟

أليسَ هناكَ لغةٌ بمبناها ومعناها وإبداعِها الفنّيّ، عبّرتْ عن بشاعةِ الواقع والظواهر السلبيّةِ، وعن الجسدِ بما يختلجُهُ مِن مشاعرَ إنسانيّةٍ، بلغةٍ ساميةٍ راقيةٍ، وبلغةٍ متواريةٍ وبإشارةٍ عابرةٍ لا تخدُشُ الحياءَ، كما فعلَ ماركيز وغسّان كنفاني، دونَ أن يخوضا في تفاصيلِ وصْفِ العلاقةِ والمضاجعة، إلاّ بأسلوبٍ مرهَفٍ دونما إسفافٍ، ودونما استعمالٍ لكلامٍ مؤذٍ للبصرِ والسمع والذوق والحواسّ؟

هل بالإيروتيكيّةِ مرجعيّةٌ حقيقيّةٌ لانحطاطٍ وجوديّ، ولواقعٍ همجيٍّ مقشّرٍ من إنسانيّتِهِ، وعارٍ إلاّ مِن قيَمِهِ المزيّفة وتناقضاتِهِ الهستيريّة؟ أهو نوعٌ من التوْقِ الجارفِ للتحرّرِ مِن ثِقَلِ المكبوتِ التاريخيِّ الرازخِ على فِكرِ المرأةِ والرجل معًا؟

هل الاستسلامُ الكلّيُّ للجسدِ الشبقيِّ وفتنتِهِ وغوايتِهِ القاتلةِ، يُقدّمُ للكاتبِ وللمجتمعِ الدفءَ والحنانَ والاحتماءَ الوجوديّ، ويوفّر الأمانَ والإحساسَ بالحياةِ الحقيقيّةِ الفاضلةِ، ويَصنعُ الحياةَ بشخصيّاتٍ سويّةٍ تعي واجباتها وحقوقَها في إعادةِ التوازن؟

اللغة الإباحيّةُ المغموسةُ باللذةِ (الآيروسية)

هناكَ لغةٌ بورنوغرافيّةٌ ماجنةٌ فاحشةٌ خليعةٌ، تحدّثتْ عن الغرائزِ والاحتياجاتِ الحيوانيّةِ الطينيّةِ، والسقوطِ في هوّةِ الجسدِ المسكونِ بالمجهول والعتمة، فهل تمكّنتِ الكتابةُ الجامحةُ الموغلةُ في الإباحيّةِ الجنسيّةِ، مِن تدنيسِ طُهْرِ الأدبِ الجامعِ للحضارةِ، ولكلِّ مكتسباتِ الإنسانِ مِن معرفةٍ وثقافةٍ، أم أنّ القياسَ والمقاييس نسبيّة مِن وجهةِ التفكيرِ والتكفيرِ، لا تخضعُ للتعميم أو التخصيص؟ وهناكَ لغةٌ إباحيّةٌ رقيعةٌ فيها مِن مجانيّةِ الابتذالِ والاستفزاز، ما يجعلُ الكاتبَ يعتلي أمواجَ الوصفِ الجامح والتعريةِ المدوّيةِ الجريئة، والإخبارِ والإمتاع بكلماتٍ حسّاسةٍ صريحة، فتُسقِطُهُ في الإسفافِ وتُغرقُهُ، ثمّ تطفو به في مرافئِ البورنو، دونَ أن يَحملَ في جعبتِهِ محاراتِ ابتكارٍ فنّيّ يبعثُ على الدهشة، فهل يفتقرُ كثير من الإيروتيك لزخّاتٍ روحيّةٍ على جسدِ الطريقِ الابتكاريّةِ والدهشة؟

يقولُ أرسطو اليونانيّ: "الدهشةُ هي بدايةُ المعرفة"، فهل نعتبرُ الكتابةَ والفنون فعلاً ماليًّا يُدهشُ القارئَ، وتوصلُهُ للمعرفةِ والغوصِ في جوهر الواقع، مِن خلال مبنًى جميلٍ ومعنًى لذيذٍ، بعيدًا عن ألفاظٍ مقزّزة وأوصافٍ مثيرةٍ للاشمئزاز؟ لدينا كاتباتٌ كثيراتٌ يمتلكنَ ناصية السردِ والرواية والشعر، وهُنّ على ثقافةٍ واسعةٍ، يزخرُ إبداعُهنَّ بمَلَكةِ اللغةِ والأدواتِ والأسلوب الإبداعيّ، وبحسٍّ مرهفٍ ومعالجةٍ أدبيّةٍ راقيةٍ للأشياء، بقالبٍ دراميٍّ فنّيٍّ جميلٍ مقبولٍ، فجماليّة الآيروسيّة الضبابيّة وتناولِ الجسد بجمالِهِ وقدسيّتِهِ وكُنْهِهِ الجميل، تلجأ إلى كونيّةِ الأحاسيسِ العميقةِ الرزينة، وتستلهمُ أبعادَها مِن جزيئيّات قوالبِ الحياة، وتفتحُ مداركَ واسعةَ الرؤى، بعيدًا عن الاستهتارِ والتناقضاتِ التي تشوّشُ وضوحَ الرؤى، وتدعو ضمنيًّا لمعالجةِ قضايا اجتماعيّة شتّى.

بونٌ شاسعٌ ما بينها وبينَ قِحة الآيروسيّة محدودةِ الفِكر، كبدعةٍ تخلو من المحاسن اللغويّة والفكريّة، والتي تعتمد على الالتباساتِ والانشطارات الذهنيّةِ والصراعاتِ الفكريّةِ النفسيّةِ، واستثارةِ الشهواتِ الكامنة، بعيدًا عن وعيِ الإنسانِ العقلانيِّ لاكتشافِ المعرفة؛ وترسيخ تصوّراتِ الوعي ضدّ تخيّلات اللاوعي.

غوتة يقول: "ليسَ هناكَ مِن شيءٍ أكثر رُعبًا من جَهْل ناشط"! فكم بالحري لو كانَ ذاك الناشط كاتبًا أو فنانا، يُحرّكُ الراكدَ الجميلَ دونَ درايةِ الأبعادِ ومعرفتِها، ويستنطقُهُ بفظاظةٍ وجهلٍ، كما لو كان حقيقة؟ في العقودِ الأخيرةِ تجرّأتِ المرأةُ العربيّةُ على كسْرِ المُحرّمِ الجنسيِّ، والخروج بعيْن حَرفِها عن تضاريسِ اللغة ونتوءاتِها الراقية، وتمادتْ بالتحليقِ الفاضحِ في فضاءٍ يتشاسعُ برؤيةٍ آيروسيّةٍ شبقة، وأفكارٍ شهوانيّةٍ موغلةٍ بالمراوغةِ الأنثويّةِ والإغواءِ الجنسيّ، وشهوانيّةٍ مفرطةٍ بالمباشرة، والوصف الدقيق في سردِ مواضيع حبّ وتجارب غراميّة خليعةٍ، وقسمٌ كبيرٌ من إنتاجِها بعيدٌ كلّيًّا عن البُنيةِ الفنّيّة! كما أنّ هناك مواقعَ إلكترونيّةً ثقافيّةً تتباهى بالإيروتيكيّةِ كجزءٍ طاغٍ فيها.

هل الجسدُ صوتٌ صارخٌ في برّيّة الحرّيّة الفوضوية، يحملُ بمدلولاتِهِ الإيروتيكيّة ما قد يُسيء إلى حرّيّةِ الجسدِ بتفاصيلِهِ البريئةِ، أم أنه يَعجنُ بأناملِهِ المرهفةِ اعترافاتٍ شهوانيّةً، تتناقضُ

بينَ المفاتنِ والمعرفةِ الأنثويّةِ لدقائقِ دفائنِها؟ هل اللغةُ الإباحيّةُ المغموسةُ باللذّةِ الأنثويّة، هي نوعٌ مِن إسقاطاتِ المجتمع، تُشكّلُ خطابًا تراكميًّا مُريبًا يكشفُ عوراتِ المجتمع، ويُهدّدُ خرابَهُ العابثَ بمقامِها، أم هي لغةٌ متمرّدةٌ تجتهدُ حروفُها النحيلةُ في فكِّ الخناقِ عن كيانِها جسدًا وروحًا، للتخلّصِ مِن التحجيمِ الميدانيّ والتهميشِ الفكريِّ والتأطيرِ الاجتماعيّ؟

هل هي لغةٌ تكشفُ عن نرجسيّةِ جسدِ أنثى عارمٍ بالمخبوءِ السافر في أناها، أم لغةٌ تسعى إلى تحقيقِ رؤى فلسفيّةٍ جماليّةٍ تعيدُ للأنثى هدوءَها الروحيَّ ورفاهيّتَها الأنثويّة؟ هل هذه اللغةُ تحملُ برمزيّتِها مجازًا يَعْبُر مِن اللفظِ الكلاميِّ إلى أبعادِ المعنى الذي ترمي إليه، مِن خلال سطوةِ الجسدِ، وتذكيرِ الرجلِ بعقليّتِهِ الموروثةِ، ومفاهيمِهِ المحدودةِ بجسدِها، أم تحاولُ أنِ تؤنسنَ أسَدَها وتخرجُهُ من عرينِ وحشيّتِهِ إلى مملكةِ العدْلِ الإنسانيّة؟ وبالتالي؛ هل هي حقًا بذلك، تُنصِفُ نفسَها وانتقالَها من ربّةِ خدرٍ إلى ربّةِ حبٍّ، أم تُؤكّد دونيّتَها واضطهادَها لنفسِها بنفسِها؟

هل تُكتبُ النصوصُ الإيروتيكيّة حين يكون الكاتبُ في ذروةِ هياجِهِ الجنسيّ، فتخرجُ النصوصُ بوَحْي الغريزة، وتتناكحُ الحروفُ والكلماتُ تعاشقًا تُنتهكُ فيه حرمةُ الأدبِ الأخلاقيِّ السائد؟ هل الآيروسيّةُ تقومُ على فكرةِ الماورائيّات، فتبلورُها بلغةِ الجسدِ والإيحاءِ والتأمّل والتصوّرِ الفكريّ، مِن خلال التجرّدِ الروحيِّ وتحريرِ الجسدِ الساكنِ، من أجل بعْثِ روحِ السعادةِ المغايرة فيهِ، أم نوعٌ مِنَ التخديرِ الحسّيِّ يصلُ إليهِ الكاتبُ، لاستنباطِ فكرةٍ يكتبُ عنها لأنّهُ يفتقرُ إليها؟

هل اللغة الإيروتيكيّة هي بوّابةُ المسكوتِ عنه في العالم العربيّ واللامفكر فيهِ، وهي المَعْبَرُ الشبقُ المتمسِّحُ بالتحرّر، ومنهُ يَنْفَضُّ إلى فضاءاتِ اللهو والمجون والفساد؟ أما مِن طريقٍ آخرَ ولغةٍ أخرى يُمكنُهُما تجاوزَ المكبوتِ والمقموع؟ هل النصوصُ الإيروتيكيّةُ المتشدّقةُ بالشهوانيّةِ، وبالخطابِ الإباحيِّ البورنوغرافيِّ، تعكسُ حقيقةَ المجتمعِ المأساويِّ في ضياعِهِ، بمجموعِ محمولِهِ الدينيِّ والأسطوريِّ والثقافيِّ والاجتماعيّ، وبمدلولاتِهِ الرمزيّة المُتوّجةِ بالتخلّفِ والغربةِ والفسادِ وعلاماتِ الاستفهام؟

هل مردُّ الإيروسيّةِ دوافعُ الكاتبِ الغريزيّةِ المادّيّةِ المفصولةِ عن الروح تمامًا، بتطرّف ودونَ اعتدال، ممّا تهبطُ بمستوياتِ طاقتِهِ الروحيّةِ، وتهيمنُ الكآبةُ معربدةً نتيجةَ للنقصِ الروحيِّ، والحوافزِ المولّدةِ للفكرةِ الديناميكيّةِ، ومن واعزٍ شخصيٍّ بعيدٍ عن طبيعةِ المجتمع؟ هل في شبكةِ إحداثيّاتِ الآيروسيّةِ تكمنُ عناكبُ تغزلُ مصائدَ لمصائبَ، كلغةٍ تعويضيّةٍ عن إفلاسِ الكاتبِ وسأمِهِ وفشلِهِ، وعجزِهِ في تحرّكِهِ السليم، بسببِ هشاشةِ القاعدةِ الفكريّةِ والحسّيّةِ التي يقفُ عليها، أم بسببِ اهتزازِ رؤاهُ وخيالِهِ الخصبِ بالشبق والرغبة بالجنس؟ هل هي نوعٌ مِن الإدانةِ الصريحةِ لعولمةِ الجسدِ، وتدميرِ صورتِهِ البشريّةِ بلغةٍ استهلاكيّةٍ مأزومة؟

لماذا انتقلت الإيروتيكيّةُ مِن لغةِ المجازِ البلاغيِّ للجسدِ والمضمرِ في تأويلاتِهِ، للمباشرة المقزّزة؟ وهل العبثيّةُ السائبةُ بينَ عالمِ الانغلاقِ وعالمِ الانفتاح، دونَ حصانةٍ ومسؤوليّةٍ، ودونَ قيودِ قيمٍ أخلاقيّةٍ ومناعةٍ حضاريّةٍ، تؤدّي إلى تفشّي الخرابِ وتدهورِ الكيانِ الحضاريّ، أم البناء الوهميّ، أم إلى ...؟

تحرير الجسد إبداعيًّا!

هناك عدد من كاتباتِ الإيروتيك الثقيل والمُستفزّ في الجرأةِ والوصْفِ الدقيق للجنس بإسهاب، وهناك أخريات ممّن كتبْنَ الإيروتيك الخفيفَ والمهذّبَ قياسًا، وبشكلٍ محافظٍ نسبيًّا للإنتاج الجديد: (أترك التقييم للقارئ):

نجوى عزيز، عفاف البطاينة في "خارج الجسد"، ليلى الأطرش في "مرافئء الوهم"، حزامة حبايب في "أصل الهوى"، ليلى العثمان في "صمت الفراشات"، عالية ممدوح في "الغلامة" و"المحبوبات"، سلوى النعيمي، فضيلة الفاروق في روايتَيْ "تاء الخجل" وَ"اكتشاف الشهوة"، عالية شعيب، رجاء الصانع في "بنات الرياض"، إلهام منصور في "أنا هي أنت"، علويّة صبح في "مريم الحكايا ودينا"، غادة السمّان، نوال السعدواي، أحلام مستغانمي، فاطمة المرنيسي وأخريات.

وهناك عدد من كُتّاب الإيروتيك المتراوح بين الثقيل الصارخ برؤية بورنوغرافيّة وعبثيّةٍ جنسيّة مباشرةٍ، وبينَ الخفيفِ المحافظِ نسبيًّا، بأسلوبِ الإشارةِ والإضمارِ والتكنيةِ والتلميح: (أترك التقييم للقارئ):

عادل وصفي، د.سامي محمود رزق، الثنائيّ خالد وميّادة، محمّد شكري في "الخبز الحافي"، الشاعر شاكر لعيبي، إسماعيل العثمانيّ، ميمون الحسني، مصطفى الحسني، عمرو القاضي، عبد الرحمن الماجدي، أحمد أبابري، العبّاس الخليفي، محمّد الأشعريّ، خالد قدّومي، حسين الطاهري، ميمون ج. كبداني، وأدونيس في "المسرحِ والمرايا" ابتكر صورَ إيروتيكيّة موغلة في الرمزيّة، والأخطل الصغير أوغل في نعت تفاصيل الجسد الأنثويّ بصفات الطبيعة، وعبد الحكيم أمعيوة في "بعيدًا عن بوقانا"، ورشيد الضعيف، وصنع الله إبراهيم، وعلاء الأسواني في "عمارة يعقوبيان"، وسهيل إدريس في "ذكريات الحبّ والأدب"، وشريف حتاته في "نوافذ مفتوحه"، وإحسان عبد القدّوس، وألبرتو مورافيا، والأديب البريطانيّ "دي إتش لورانس" في "نساء عاشقات"، والشاعر حسين حبش في "أعلى من الشهوة وألذّ من خاصرة غزال"، والقائمة لا يمكننا حصرها هنا..

هل الإيروتيك يعبّر عن علاقةٍ إنسانيّةٍ أم حيوانيّة في الطرح؟ وهل هو لغةٌ لخلقِ معادلاتٍ تطلقُ عنانَ الفِكرِ، من أجل علاجِ الشهوةِ بينَ الذكرِ والأنثى، وإعادةِ بناءِ الكيانِ الإنسانيِّ؟ أم....؟

مِن غرائبِ الكتابة الآيروسيّة والتي استوقفتني، ما جاءَ عن عبد القادر الجنابيّ؛ الشاعر العراقيّ المقيم في باريس؛ ففي عام 1973- 1982 أصدرَ مجلّة سورياليّة ثقافيّةَ اجتماعيّة، تحتَ عنوان "الرغبة الإباحيّة"، وكانَ قد كتبَ قصائدَ برائحةِ الفرج، طبعَ مِن قصيدتِهِ هذهِ خمسينَ نسخة على ورقٍ ورديّ، وضمّخَها بعطرٍ له رائحةُ الأناناس، التي يقال أنّها الرائحة الأصليّة للفرج (جنسيًّا)، ووضعَ القصيدةَ في ظرْفٍ أسود، وأرسلَها الى أصدقائِهِ، وأعادَ نشرَها عام 1994.

أسئلةٌ تحومُ في سَرابِها مُستهجِنةً على أجنحةٍ ضبابيّةٍ، ففي ظِلِّ الانحسارِ القرائيِّ المريرِ الذي تُكابدُهُ الكتبُ مِن إهمالٍ وغبار، فما الدواعي إلى تفجيرِ حملةٍ تُناهضُ كتاباتِ الإيروتيك هذه الأيّام بالذات، وبالذات كتابات المرأة، في حين، لو وجّهنا أبصارَنا وفِكرَنا إلى دواخلِ بيوتِنا، نجد الحرفَ والعيْنَ والأذنَ والنفَسَ والحَواسّ غدتْ مرهونةً بالإيروتيك وبموافقتِنا؟

أتُحدّدُها الفضائيّاتُ، الفيديو كليبات، الأفلامُ، اللوحاتُ، المسلسلاتُ، الأغاني، أم عالمُ النتّ بزخمِهِ؟

هل هو خشيةٌ على انزلاقِ طبقةِ المُثقّفينِ المُوجّهينَ في هاوياتِ الفحشاء؟

إذًا؛ مِن أيِّ منطلقٍ نُقيّمُ درجاتِ الخللِ والانزلاقِ، وأيُّ طبقةٍ من المجتمع تحكُمُ وتُحدّد؟

هل ينحصرُ الإنتاجُ الإيروتيكيُّ للمرأةِ فقط في الحرْفِ والكتابِ، أم تَعدّاهُ إلى مجالاتٍ شاسعةٍ أخرى؟

أليسَ الصوتُ والصورةُ أسرعُ من الحرفِ إلى الانطباعِ في الذهنِ والسلوكِ، حتّى لذاك الطفلِ والأمّيِّ الذي لا يحتاجُ إلى القراءةِ؟

وعلى مستوى الأغنيةُ الماجنةُ بإيحاءاتِها في الفيديو كليبات مثل هيفاء وهبي ونانسي عجرم وروبي وبوسي سمير ونيلي مقدسي ومروى ونجلا ودانا والقائمة طويلة.

أما على مستوى الرقص وعرض الأزياء والتمثيلِ والتصميمِ، والإخراجِ الإيروتيكيّ واستخدام الجنسِ المكثّف، هناك مُخرجاتٌ عديداتٌ كالمخرجةِ اللبنانيّةِ نادين لبكي في فيلم "دنيا"، ومي المصري، وكاملة أبو ذكرى في فيلم "ملك وكتابة"، والمصرية إيناس الدغيدي وساندرا نشأت، والسعوديّة هيفاء المنصور في "نساء بلا ظلال".

هل الآيروسيّةُ لغةٌ أفرزتْها الذكوريّة، وأنتجتْها الفحولةُ بأنساقِها الثقافيّةِ المختلفةِ، فاتّخذتْها المرأةُ كشكلٍ متناغمٍ للتمرّدِ والاستخفافِ بالرجل واستمالتِهِ، والإيقاعِ بهِ في جُبِّ ضعْفِهِ (الجنس)؟

هل هي إفشاءٌ مراوغٌ يلامسُ وعدًا مؤجّلاً نحوَ الفِعل الجسديّ، أم هو مجرّدُ مادّةٍ تخيّليّةٍ بإيحائِها، تطغى على الأحاسيسِ بسِحرِ شهوانيّتِها؟

هل الإيروتيكيّةُ المهذّبةُ فعلاً تحتضنُ المعنى الإنسانيَّ العميقَ للجنس، بوصْفِهِ أساس الوجود الإنسانيّ، وبعيدًا عن الإباحيّةِ التي تُطلقُ العنانَ الغريزيَّ للجنس بشكلٍ حيوانيٍّ دونَ حبّ؟

هل الجماليّةُ المتوهّجةُ تكمنُ في اللغةِ الآيروسيّةِ الضبابيّةِ الملغوزةِ، وبظِلالِ الرمزِ والإيحاءِ، أم بلغةٍ مباشرةٍ وفظّةٍ تُشعلُ الغريزةَ الجنسيّةَ؟

مَن المُهلّلُ والداعم والمُروّجُ والمشجّع للإنتاج الإيروتيكيّ النسويّ؟ ما الدوافع والأهداف والأبعاد، رغمَ ركاكةِ اللغةِ والافتقارِ لأدواتِ الإبداعِ وفنِّ السردِ في كثيرٍ منها؟

ومنطقيًا؛ كيف لامرأةٍ في مجتمعٍ محافظٍ تعاني القهرَ والاضطهادَ والتمييز، أن تكتبَ بإباحيّةٍ وبأفقٍ شاسعٍ دون محاسبةٍ وملاحقةٍ؟

هل استخدامُ الألفاظ الرخيصةِ وشطحاتٍ لغويّةٍ برّاقةٍ وعَلمانيّةٍ تتنصّلُ مِن الدين والقيمِ والعاداتِ الاجتماعيّةِ، والخروجُ عن نمطيّةِ الكتابةِ الراقيةِ والنزيهةِ المترفّعةِ عن الإسفاف، واللجوءُ إلى هويّةٍ مغايرةٍ تحت مسمّى "الأدب الآيروسيّ"، دلالةٌ على ثقافةِ انفتاحٍ أدبيّ وتحرّرٍ فكريٍّ؟

وهل الانفتاح الفكريُّ يكون في بؤرةِ زاويةٍ محدّدةٍ، أم في رؤيةٍ معمّقةٍ متعدّدة الزوايا؟

إذًا؛ لماذا ينزعُ بعضُ الكتّابِ لاستخدام الإيروتيك بتدرّجِهِ للإفصاحِ عن طقوسِ غرفِ النوم والجسد؟

أذاكَ بدافعِ الجرأة، أم بدافعِ هواجسَ محقونةٍ تتفجّرُ مِن مساماتِ حروفِهم؟

هل توظيفُ الجنس النهمِ وتكريسُهُ بتميّزٍ في النسيج الإبداعيّ، حتّى وإن وصلَ حدَّ الإسفافِ والتقزّزِ والغثيان، هو وجهٌ آخرُ للتعبيرِ عن الكبتِ في أبهى تجلّياتِهِ؟

هل يعبّر عن صورةٍ نفسيّةٍ مشوّهةٍ، أم هو دغدغةٌ ذكيّةٌ للمشاعرِ الرخيصةِ، مقابلَ أن يلفتَ النظَرَ إليهِ حينَ يُصدَمُ القارئُ والناقدُ، ومِن ثمّ يحصدُ شهرةً مزيّفةً آنيّةً لاسمِهِ، ومبيعًا أكبر لكتابِه، خاصّةً إن كان محظورًا؟

هل سيلُ الرواياتِ الإيروتيكيّة الجريئةِ هو مبعثُ اطمئنان للنبش في الرغبات الجنسيّة، أم هي مجرّد لغط ثقافيّ بعيدًا عن الإبداع، سرعان ما يُزبدُ مع أوّلِ موجةِ انتشارٍ وترجمةٍ ويندثر؟

في الحقلِ الإيروتيكيِّ الملغوم، هناكَ من يَعبُدونَهُ ومَن يُكفِّرونَه، فهل النصوصُ هي ترجمةٌ تحريضيّةٌ للممارساتِ النظاميّةِ والدينيّةِ الخاطئةِ؟

هل هي إحياءٌ لنزعاتٍ شيطانيّةٍ خبيثةٍ وإستثارةُ الشهواتِ الكامنة، أم تلميحٌ عن اضطرابٍ وشبقٍ وانحرافٍ جنسيٍّ للكاتبة؟

وهل هي ردُّ فعلٍ عكسيٍّ مناوئٍ للنظرةِ الذكوريّةِ، تناكفُ فحولتَهُ وتساومُها، أتراها تُراضيهِ أم تُعاديهِ؟

هل للدين نظرةٌ متحفّظةٌ في الإيروتيك كما قال سبينوزا: "الدين يجعلُ العالمَ معقولاً"...؟

هل للدينِ دوْرٌ في الحفاظِ على القيَم وإنسانيّةِ الرجلِ والمرأةِ ككيان (جسدًا وروحًا)؟

وإن كانَ الدينُ عبوديّةً ينبغي الانفكاك منهُ، والتحرّر مِن وصايتِهِ، فهل تمكّنَت الإيروتيكيّةُ مِن تحريرِ الجسدِ من تعفّنِهِ، واستعبادِ الغرائز له في طريقِهِ الأقصر نحوَ الضياع؟

هل الأسنانُ مرآةُ القلب والعقل ومصفاة الجسم؟

مشاكلُ الأسنان وعلاجُها وتقويمُها هي مِن أصعب المشاكل المُكلفة التي تواجهُ الإنسانَ منذ الطفولة في مشوارِ حياتِه، والأسنانُ وتقليعُها يؤثرُ على هيئةِ الوجهِ وتغيير ملامح الجسم ظاهريًّا، فيبدو الفردُ هَرِمًا، وقد تغنّى العربُ بجَمالِ المراة، فوصفوا عيونَها وكمالَها وسِحرَ شَعرِها، وملاحةِ فمِها ومبسمِها ولؤلؤ أسنانِها، فها البحتري يقولُ:

آتٍ نديمًا حتى الصباح/ أغيد مجدول مكان الوشاح/ كأنما يضحكُ مِن لؤلؤ منظم أو برد أو أقاح!

ويردُّ الأخطل: وقد سقتني رضابًا غيرَ آسن كالمسكِ ذرّ على ماء العناقيد مِن خمر ميسان صرفا فوقها حبب شيبت به نطفه مِن ماء يبرود!

قالت وقد فتكت فينا لواحظها/ كم ذا أما لقتيل الحبّ من قود/ وأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت/ وردًا وعضّت على العنّاب بالبرد/ ليزيد بن معاوية، وتُنسب للوأوأ الدمشقي

ولكن، جمال الجسم الممشوق والقلب النيّر والمُحيّا المتورّد والمبسمُ الضاحك والعيونُ المُشعّة والأسنان اللؤلؤيّة، سرعان ما يشوبُها خللٌ طارئ مُباغت.. كيف ولماذا؟

قال الطبيب الأمريكيّ مايكل رويزن في خبر نُشر في سي إن إن: إنّ عدم تنظيف الأسنان يؤثرُ على الصحّة العقليّة والنشاط الذهنيّ ويُضعفُ الذاكرة، لأنّ غشاء البكتيريا (البلاك) العالق بين الأسنان ينعكسُ على شرايين القلب، ويمنعُ وصولَ مغذيات ضروريّة للخلايا الدماغيّة!

وفي دراسةٍ علميّة أخرى، ورَدَ أنّ تساقط الأسنان قد ينجمُ عن إصابة النساء بارتفاع ضغط الدم الشريانيّ في مرحلة اليأس، ممّا يزيد من خطر الإصابة بالبدانة وارتفاع كوليسترول الدم والشحوم الثلاثية، والإصابة بالأمراض الوعائية كمرض القلب التاجيّ، واضطرابات الأوعية الدماغيّة.

والبروفيسور الياباني أكاشي وادا من جامعة جيكي في طوكيو، أكّد مِن خلال بحث أجراه على 14 ألفا من أشخاص في منتصف الأربعينات؛ ممّن يتمتعون بقوام رشيق ويميلون إلى غسل أسنانهم بالفرشاة بعد كلّ وجبة، أنّ تنظيف الأسنان يلعب دورًا في الحفاظ على الصحّة ويمنع السُّمنة.

أمّا البحث الأمريكيّ فأكّد وجود علاقة واضحة بين البدانة وزيادة معدلات الإصابة بأمراض الأسنان، وخصوصًا الأفراد الذين تتراوح أعمارُهم بين 18 - 34 عامًا.

كما أفاد خبراء ألمان عن جمعيّة أبحاث القلب والدورة الدموية في كولون: "الأسنان السليمة ربّما كانت من العوامل التي تساعد على تجنب الإصابة بأمراض القلب"!

وأكّد كريستوف نابر الأستاذ المساعد في مركز القلب في غرب ألمانيا في اجتماع للجمعيّة: "دراستنا أثبتت أنّ ذوي الأسنان السليمة لا يُعانون من حالات مُقلقة في الدورة الدمويّة."

وأكدت دراسة في جامعة مينيسوتا الأمريكية: أنّ تنظيف الأسنان يحمي القلب من الأمراض أيضا وليس فقط يحافظ على صحّة الفم والأسنان واللثة، وأثبتت وجود ارتباط وطيد ومباشر بين البكتيريا المسبّبة لالتهابات الأسنان واللثة في الأفواه، وبين تصلب وسماكة الشرايين السباتيّة، التي تؤدّي إلى سكتات دماغيّة وأزمات قلبيّة وأمراض القلب الوعائية.

ما التفسير؟ ظاهرة نظرية الإنتان المُركّز أو البؤريّ التي وضّحها وفسّرها الأطباء في مجلة سيركيوليشن، تشير إلى أنّ وجود نسبة بكتيريا كبيرة في الفم تُسبّب أذى كبيرًا، يزيد في احتمالات تضييق الأوعية الدمويّة المؤدّية إلى القلب والدماغ، وهذه البكتيريا تسبّب إنتانات اللثة المزمنة وتدخل إلى الدورة الدمويّة، ممّا تشكّلُ سببًا رئيسيًّا في إصابة القلب، وتساهمُ بشكل فعّال ونافذ في إصابة أعضاء الجسم الحيويّة بالأمراض!

مؤثّرات سلبيّة على صحّة الأسنان كمرض السكر ووجوده في الجسم دون انضباطٍ وعلاج، وكذلك نقص الكالسيوم، ونقص فيتامين "سي" المتوفّر في الحمضيات؛ مثل البرتقال والليمون والجوافة، كما أن استعمال معجون أسنان يحتوي على مبيّض للأسنان، أو بايكربونات الصوديوم الذي يعمل على تآكل طبقة المينا واللثة، كذلك عدم إزالة الجير المتراكم وملاحقة التهابات اللثة وعلاجها بمتابعة طبيّة.

إذن؛ كيف يمكن الحفاظ على أسنان سليمة؟

هل طرق وقاية الأسنان تتمّ بالتنظيف المفرط بالهوس، الذي يدعو إلى تآكل طبقة المينا وانحسار اللثة؟

ولأن ثقافة العناية الصحيحة بالأسنان وكيفية تنظيفها وطرق تفريشها ضحلة نسبيًّا، نجد أنّ مشاكل الأسنان في تفاقم، فيمكن أن نتقنها بانتظام وبدون مضرة، فقط مِن خلال استشارة طبيب الأسنان وتعليماته والمراجعة الدوريّة، فلا بدّ من استعمال الفرشاة والمعجون المناسبيْن قبل النوم وبعد الاستيقاظ، بانتظام وبطريقة صحيحة لتنشيط الدورة الدمويّة في اللثة، ممّا يحافظ على صحّتها وصحّة الأسنان، ولا بدّ من استخدام فرشاة ناعمة لا تضرّ اللثة، فاستعمال فرشاة أسنان مناسبة لها فعاليّتها المدروسة والمرجوّة ذات الشعيرات الناعمة وبانتظام، وتغييرها كلّ ثلاثة شهور، ليمنع تراكم الجير على الأسنان، لأن الجير يسبب تسوّس الأسنان والتهاب اللثة، كما أنّ استخدام الخيط السني بين الأسنان، وغير المشمع هو الذي يُنصح به للاستخدام العاديّ في جميع المناطق البينيّة للأسنان.

من المفضل دعك الأسنان بالملح أو بعسل النحل لاكتساب البياض للأسنان، أو وضع السواك في الفم لمدة خمس دقائق لقتل البكتيريا في الفم وإعطاء رائحة منعشة للفم، عملاً بقول الرسول "السواك مرضاة للرب مطهرة للفم"، ولا بدّ من اتباع الحمية ضدّ التسوس، الحمية من نكاشات وأعواد الأسنان العاديّة، والحمية من المشروبات الغازية للتهضيم والمواد الحمضية والنكهات المشهيّة، لأنّ جميعها يؤثر في تآكل الطبقة الخارجيّة للأسنان، فلا يجوز فرك الأسنان بعد الأكل مباشرة، إنما بعد أكل الفواكه كالتفاح والموز، لمعادلة الأحماض في الوسط الفمي، وبعدها غسل الفم والمضمضة، ومن ثمّ فرك الأسنان.

هل التذوّق الموسيقيّ موروثٌ بالولادة؟

الموسيقا لفظ يونانيّ يُطلقُ على الصّوت الخارج من آلاتِ العزف، وعِلمُ أحوالِ النغم والإيقاعات، فاستلهمَ الإنسانُ موسيقاهُ مِن تواصلِهِ مع الطبيعة؛ حفيف الشجر، خرير الماء، صفير الريح، تغريد العصافير، أصوات الحيوانات وإلخ!

قالَ الفقيه الأديب ابن عبد ربّه الأندلسي (939/860 م)؛ صاحب "العِقد الفريد": "قد يتوصّلُ بالألحان الحِسان إلى خير الدنيا والآخرة، فمِن ذلك أنّها تبعث على مكارم الأخلاق مِن اصطناع المعروف، وصِلة الأرحام، والذوذ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب".

وقال كونفوشيوس: "الموسيقا هي مرآة حضارة الشعوب"! أمّا روبرت شومان فأضاف: "إذا أردتَ أن تتعرّف على أخلاق الشعوب فاستمع إلى موسيقاها".

وعقّب أفلاطون: "إنّ النفسَ إذا حزنت خمدَ منها نورُها، فإذا سمعتْ ما يُطربُها اشتعلَ منها ما خمد، وهذا العلم لم يضعْه الحكماء للتسلية واللهو، بل للمنافع الذاتيّة ولذة الروح والروحانية، وبسْط النفس وترويض الدم، وليس للهو واللعب والترغيب في لذة شهوات الدنيا والغرور بما فيها".

فيضيف أرسطو: الموسيقا أسمى من أن تكون أداة للهو والسرور والتسلية!

وردّ بيتهوفن: "الموسيقا وَحْيٌ يعلو على كلّ الحِكم والفلسفات، فهي الجمال المسموع والحلقة التي تربط الروح بالحسّ".

وفي فترة العصر الذهبيّ للإسلام وُلدَ ابن الهيثم في البصرة عام 965م، وله مخطوطةٌ حولَ تأثير الأنغام على أرواح الحيوانات، تُعدُّ أقدم مخطوطة عن تأثير الموسيقا على الحيوانات، إذ أجرى تجاربَهُ على الطيور والخيول والزواحف، وأكّدَ أنّ سرعة الجمل تزداد وتقلّ مع استخدام الحِداء والغناء.

وجعلت التجارب والأبحاث منذ القرن 19 تثبت وجهة نظر ابن الهيثم، وتأثير الموسيقا على الإنسان والحيوانات، فنشرت مجلّة العلوم السيكولوجيّة العلميّة مقالة أشارت فيها؛ أنّ الدجاج يتمتعُ بموهبة الاستماع إلى الموسيقا المتناغمة دون النشاز، وتساعدُهُ في التأقلم ووضع كمّيّة بيوض أكبر! وأكّدت أنّ غالبيّة الطيور تُميّز الألحان المتناغمة عن غيرها، وتستخدمُ ألحانًا للتواصل فيما بينها.

وقد أفادَ العالمان تشينزيا كينياديتي وجورجيو فالورتيغارا من جامعة ترينت الإيطالية، بأنّ فراخ الدجاج تُفرّق فطريًّا بين الألحان المتناسقة والنشاز بدون أدنى تواصل مع الدجاج، إذ أشرفا على عزل الصيصان عن الدجاج، ووضعا سمّاعتين في إحدى ممرّات المختبر، إحداهما تُخرج أنغامًا متناسقة والأخرى أصواتًا مزعجة، فلاحظا اقتراب الصيصان من سمّاعة الألحان المتناغمة!

وبعودة للدجاج: هل صياحُ الديك فيه تناغم موسيقيّ يجعله مفضّلاً لدى الدجاج على الديوك الأخرى؟

كذلك أثبتت أبحاث علميّة أنّ للموسيقا تأثير على البقر، تجعله يُدرُّ حليبًا أكثر عند سماع الموسيقا، كما تجذب الأسماك الى مصدرها وتُسهّل اصطيادها، وتؤثر النغمات على سير الغزلان والجِمال وتجعله أكثر انتظامًا وانصياعًا لأوامر السائق!

أمّا الموسيقار روبنشتاين فقد رأى عنكبوتا على بيانو كان يعزف عليه، ترسل خيوطها في الجهة التي يصدر منها الصوت، ولمّا انتهى عزفه انسحبت العنكبوت وتوقفت عن نسج خيوطها.

وفي أبحاث أجريت في الاتحاد السوفييتيّ، تبيّن أن عزف الموسيقا العذبة في الحقول يُسرّع نموّ النباتات، ويزيدُ إنتاج القمح والشعير، فاهتزازات الموسيقا تؤثر على طبقاتِ الجوّ وتُخلخله، وتنتقل طوليًّا إلى سطح أوراق النبات، فيتجدّدُ الهواء الموجود في منطقتها بشكل منظم، ويساعدُ على زيادة عمليّات الاستقلاب والتمثيل الكلوروفيلي!

فهل سيتمّ عزف الموسيقا في الحقول والحظائر بشكل رسميّ وقانونيّ؟

الموسيقا غريزة فطرية وحاجة أساسيّة كالشراب والمأكل والنوم، لا زالت تُشغل البيولوجيّين مدى العصور لتأثيرها على النفس البشرية عامّة، وإيقاظ المشاعر في استدرار الدمع وإثارة الخوف واستلهاب العواطف، كما نلمسُها في الموسيقا التصويريّة؛ أهمّ عناصر التأثير فى الأفلام الوثاقيّة والدراما وترجمة الأحداث.

وقد توصّل الباحثون أنّ جذورَ أعماقنا البيولوجية تؤثر في تذوّقنا الموسيقيّ ومزاجنا، وردّ فعلنا العفويّ والانعكاسيّ على الأنغام، بغضّ النظر عن الأصل الإثنيّ أو الثقافيّ.

فيقول ثوماس فريتز من معهد ماكس بلانك في ليبزيج الألمانيّة: "لا يوجد أيّ شكّ في أنّ الموسيقا جزءٌ مركزيٌّ في العوامل التي تجعلنا بَشرا".

قام فريتز ببحثه والتجوّل مع فريقه في أدغال إفريقيا الوسطى في جبل ماندارا في الكاميرون، وعثر على شعب المافا الذين لم يسمعوا موسيقا غربيّة، فوافق 21 شخص منهم على الإنصات الى قطعة موسيقيّة تعزفها 42 قطعة موسيقيّة غربيّة، تحتوي على موسيقا كلاسيكيّة كالروك والبوب والجاز، خُصّصت لإثارة المشاعر الأساسيّة: الفرح، الأسى والخوف، وبكلّ قطعة موسيقيّة أشاروا إلى صورة تعكس تعابير المشاعر الناشئة لديهم، وربط الأنغام مع الوجه الصحيح بنسبة 60%، ليؤكّد أنّ الموسيقا قادرة على تجاوز الحدود الثقافيّة وإيقاظ المشاعر الإنسانيّة.

وأُجريَت دراسة على أطفال أعمارهم أقلّ من عام، أظهرت أنّ الأطفال يملكون القدرة على التذوّق الموسيقيّ ومتابعته، إذ وُضعت إليكترودات على رأس 14 طفل رضيع ينصتون فيها إلى مختلف المقطوعات الموسيقيّة لقرع الطبول، وتقوم الإليكترودات بتسجيل ردّات فعل تتطابق مع ما يحدث، ليستنتج استيفان وينكير أنّ "تذوّقنا الموسيقي موروث بالولادة".

أمّا العالمة إيزابيل بيريتز العاملة في مجال التصوير الدماغي، فبرهنت أنّ الإصابة بصمم النغم الموسيقيّ والعجز على التذوّق الموسيقيّ المنتشر بنسبة 4%، له خلفيّة عصبيّة تختصّ بالموسيقا وحدها فقط دون القدرات الأخرى، كالرئيس الأمريكيّ روزفلت والثوريّ تشي غيفارا.

ثمّ؛ إن كانت الموسيقا لها خاصّيّة إنسانيّة في التذوّق والإنتاج، فكيف نفسّر رقص الببغاء الأبيض من نوع كاكادو على موسيقا الباكستريت بوي وكوين، برفع رجله فوق رأسه والهزّ برأسِه، وتنظيم حركة جسمه مع السرعة ليثير إعجاب الكثيرين؟ هل بدافع الإحساس بالنغم الموسيقيّ، أم..؟

وأخيرًا.. مِن عالم الأحياء والحشرات والأسماك والنباتات والطيور أعودُ إلى الإنسان، وإلى زماننا هذا الذي يضيع فيه صالح الموسيقا العذبة المتناغمة، بطالحها المرّ الباعث على الاشمئزاز والنشاز، فما بال بعضُ البشر لا يميّزون بين أنواع الموسيقا المتناغمة والمزعجة؟

هل بسبب خلل وراثيّ في التذوّق الموسيقيّ؟

هل للتربية الموسيقيّة وتذوّقها أثر في تهذيب وتشذيب ذائقة البشر؟

وهل ما ينطبقُ على الأحياء من نتائج يمكن أن يُدرجَ على البشر؟

رحلةُ القهوةِ على جناح التاريخ!

القهوةُ خمرُ الحبّة في اللغةِ العربيّة تمّ اقتطاعُها مِنَ البُنّ، وكمصطلح تمّ اشتقاقُها مِن منطقةِ كافا في غرب أثيوبيا حيثُ كان يُزرعُ البُنّ! وقد كانَ منقوعُ القَهوةِ مِن أسماءِ الخمرة، فيقولُ العلاّمةُ الفخر أبو بكر بن أبي يزيد، في كتابة "عمدةُ النخوة في حلّ القهوة"، إنّ القهوةَ مِنَ الإقهاء أي الإكراه، لأنّها تُقهي شاربَها عن الطعام وتُقلّلُ شهيّتَهُ، وبعضَ الفقهاءَ الذينَ حلّلوا شُربَ القهوة قالوا: إنّ منقوعَ البنّ هو القِهوة، وليسَ القَهوة بمعنى الخمرة!

القهوةُ في غالبِ مجتمعاتِنا العربيّةِ مِن أساسيّات الضيافة، فهي رمزُ الكرَمِ والنخوةِ والشهامةِ والنُّبل، ومشروبُ الأفراحِ والأتراح في المجالسِ العربيّة والديوانيّة، تُشكّلُ رمزًا للحربِ والسلم عندَ أهل البادية، وفناجينُ القهوة ثلاثة: فنجانُ الضيفِ وفنجانُ الكيفِ وفنجانُ السيف!

هناكَ عاداتٌ وتقاليد متعارفٌ عليها في شربِ القهوة، فالضيف الذي يُنحّي فنجانَهُ جانبًا ولا يشربُهُ مباشرة، تكون لديه حاجةٌ، إن قضاها المضيفُ شربَهُ! وكما أنّ فنجانُ القهوةِ رمزٌ للسلمِ والصلحِ بينَ القبائل، إلاّ أنّه نذيرُ شرٍّ وحربٍ وقتال، فيما لو رفعَ أحدُهم فنجانَهُ أمامَ العشيرة، وتعهّدَ بقتلِ عدوّها الذي هدَرَتْ دمَه!

للقهوةِ طرقٌ متنوّعةٌ في فنون إعدادِها ومذاقِها وغليِها وتقديمِها، إمّا مِن خلال هزّ الفنجان أو بقولِهِ "أكرم" أو "كافي"، كما أنّ لها أدواتِها ومُعدّاتِها كالغلاّية والدلّة والقمقوم والكانون والمهباج والمحمص والزعفران والهيل والبنّ والموقد والنار والنجر، وقد ذكَرَ الطبيب الرازي البنّ في القرن العاشر للهجرة، وكذلك الطبيب ابن سينا في كتابِه "الحاوي" في لائحةِ الأدوية! ولكن ما مدى صحّةِ استخدام القهوةِ المطحونةِ في الوصفاتِ الشعبيّةِ، ووضْعِها فوقَ الجروح؟ هل تمنعُ التسمّم وتخفّفُ الآلامَ وتساعدُ في رتق الجرح!

في كثيرٍ مِن المجتمعاتِ لعبتِ القهوةُ أدوارًا هامّة، في الاحتفالاتِ الدينيّةِ في اليمن وإفريقيا، ومنعتها الكنيسةُ الأثيوبيّة حتى عهد الإمبراطور الأثيوبي منليك الثاني، وكذلك مُنعتْ في العهد العثمانيّ في القرن السابع عشر، لأسبابٍ سياسيّةٍ متمرّدةٍ في أوروبّا، ويعتبرُ البنّ الأخضرُ ثاني أكثر السلعِ تداولاً في العالمِ بعد النفطِ الخامّ، إذ يعتبرُ كمحصولٍ حيويٍّ سلعةَ تصديرٍ هامّة، كونهُ مِن المشروباتِ الأكثر شعبيّة في العالم، ويُشكّلُ العمودَ الفقريَّ لدى دول العالمِ الثالث والبلدان النامية الافريقيّة، ومصدرُ دخلٍ لأثيوبيا وأوغندا وبوروندي ورواندا، ولكثيرٍ من بلدان أمريكا الوسطى، لكنّ البرازيلَ تظلُّ الرائدةَ عالميًّا في إنتاجِهِ، تليها فيتنام وكولومبيا.

إنَّ أوّلَ استخدامٍ للبنّ سُجّلَ في القرن الـ 14، في اليمن جنوب شبهِ الجزيرة العربيّة، وتحديدًا في الأديرةِ الصوفيّة، ومنها انتقلَ إلى مصر وأثيوبيا، وأرمينيا وبلاد فارس بالقرن الـ 15، ثمّ إلى الحجاز وبلاد الشام في القرن الـ 16 عن طريق الحجّاج، ومن العالم الإسلاميّ عن طريق التجارةِ المزدهرة بين البندقيّةِ وشمال إفريقيا ومصر والشرق الأوسط وصلتْ إلى إيطاليا والقارة الأوروبيّة.

دراساتٌ وأبحاثٌ مختلفةٌ أجريتْ حولَ القهوة، في العلاقةِ بين استهلاكِها والصحّة في تناولِها، ولا زالَ الجدلُ قائمًا بين آثارِهِ الإيجابيّة العامة والسلبيّة، فتوالتِ الهجماتُ.. لماذا؟ هل لأنّها تحتوي على الكافائين وتسبّبُ الإدمانَ عليها؟ أم تسبّبُ رفعَ ضغطِ الدم وأزماتٍ قلبيّةً، وسوءَ هضْمٍ وفقدانَ شهيّة، وانعدامَ الخصوبةِ وتشوّهاتٍ خلقيّةً للأجنّةِ وأمراضًا سرطانيّةً متعدّدة؟

الأبحاثُ الأخيرةُ لخبراءِ التغذيةِ أكّدتْ أنّ شرْبَ القهوةِ باعتدالٍ له جوانب إيجابيّة كثيرة كمثل: تنشيطِ المخّ وزيادةِ التنبيهِ والتركيز واليقظة، كما تخفّفُ شدّةَ التوتّرِ، وتقلّلُ مِن حدّة الشعورِ بالكآبة، وتقلّلُ مِن نسبةِ المُقبِلين على الانتحار، وتنشّطُ الطاقةَ المخزونةً في الجسم، وتخلّصُهُ مِنَ الإرهاقِ والتعب والإنهاك!

القهوةُ تمنعُ ترسّباتِ الحصى في المرارةِ لدى النساء، وتمنعُ جفافَ الجسم رغمَ أنّها تزيد مِن إدرارِ البول!

القهوةُ تُستخدمُ في صناعةِ مستحضراتِ التجميل، إذ تمنعُ التجاعيدَ، وتُعالج السيلولايت، وتُفتّتُ الأكياسَ الدهنية، وتُستخدمُ كمركّبٍ أساسيٍّ في أدوية الربو، إذ تساعدُ في حالاتِ ضيق التنفّس، وتخفّف من أزماتِ الربو، وتفتحُ الممرّاتِ الهوائيّةَ في الرئتيْن!

وقد بيّنت الأبحاثُ في السويد وإيطاليا أنّ القهوةَ تحمي مِن سرطان القولون! وبيّنَ معهدُ دراسات البنّ في جامعة فاندربيلت الأمريكيّة، أنّ الكافائين ينشّطُ الجهازَ العصبيّ المركزيّ، كما يُستخدمُ في صناعةِ الأدويةِ المُخفّفة للألم، فيحدُّ مِن الشهيّة المفرطة والنعاس ونزلات الربو، وأنّ مضادّاتِ التأكسد الموجودة في البُنّ تساوي أربعة أضعاف الموجودة في الشاي، فعندَ تفاعل الأوكسجين مع الموادّ الكيماويّة في الجسم، يتكوّنُ ما يُسمّى بالجزيئاتِ الشاردة التي تهاجمُ خلايا الجسم وأنسجتَهُ بشكلٍ عشوائيّ، وتُسبّبُ أمراضَ القلب والأوعية الدمويّةِ والسرطان والمياهِ الزرقاء في العيون، وتؤدّي إلى ضعفِ المناعةِ والجهاز العصبيّ، لكن القهوةَ تشكّلُ حمايةً لها.

أمّا في دراسةٍ فرنسيّةٍ في معهد دراسات مرض الزهايمر، فجاءَ أنّ القهوةَ تحمي قدراتِ النساءِ العقليّةَ من التدهور مع تقدّم السنّ، أو تبطئ الإصابةَ بالخرَفِ عند النساء، كما تُعتبرُ درعًا واقيًا مِن سرطان الكبد، ومن شلل الرعاش (باركينسون)، الذي ينتجُ عن نقص في إفراز الناقل العصبيّ "الدوبامين"، والذي يُسبّبُ اضطرابًا في بعض وظائفِ المخّ، وبالتالي في حركةِ الإنسان!

وفي جامعةِ هارفارد الأمريكيّة أظهرَ البحثُ أن الرجالَ الذين يشربونَ القهوة، يُخفّضونَ نسبةَ الإصابةِ بسرطان البروستات بنسبة 60%، وأنّ شرْبَها يوميًا يقلّلُ من الإصابةِ بمرض السكّر بنسبة تصل إلى 50%. وفي معهد الدراسات ياهاشيب من جامعة أوتاه في مدينة سالت ليك سيتي الأمريكيّة، توصّلَ الباحثون إلى أنّ القهوةَ تمنعُ الإصابةَ بسرطان الدماغ والرقبة!

وأخيرًا، القصائدُ العربيّة التي تغنّت بصفوةِ القهوة وحثالها، وتغزّلت بأدواتها وإعدادِها وتوابلها، هل جاءتْ مِن عبَث، أم أنّ الفراسةَ العربيّةَ توصّلتْ إلى فوائدِ القهوةِ وصلاحِها قبلَ معاهدِ البحوثِ والدراسات الغربيّة؟

رقصةُ قهوةِ الشرقِ على أوتارِ الغرْب!

القهوةُ في لغةِ الكِيف والانبساطِ والاستئناسِ خمرةٌ مشروعة، ومصدرُ افتخارٍ واعتزازٍ لمَن يتحلّقونَ حولَ نكهتِها في المجالِس والدواوين، وفي لغةِ الطبِّ الشعبيِّ القهوةُ عقاقيرُ شفاءٍ متداوَلة، وفي الأساطيرِ والرواياتِ تأرّختْ القهوة في كلام النبيّ داوود الملك، حين ذكَرَ غرسَها وقطفَها في اليمن وخواصَّها مِن قوّةٍ ونشاط!

وفي قصّة أخرى ورد، أنّ الراعي كلداي الأثيوبيّ عام 850 م انتبهَ إلى انتعاشِ وابتهاج قطيع أغنامِهِ بعدَ أن أكلَ حبوبَ القهوةِ، فأصابَهُ مِنَ السعادةِ والنشاطِ والمرح ما أصاب القطيعَ حين أكلَ منها، وهكذا عرفها الأحباشُ، وغلَوْها وأكلوها نيّئة حتّى أواسطِ القرن التاسع الهجريّ!

مِن ثمّ شاعَ منقوعُ البنّ في اليمن، بواسطةِ الشيخ الإمام جمال الدين بن سعيد الذبحانيّ، بحسب ما وردَ في كتاب "عمدة الصفوةِ في حلّ القهوة"، للفقيه الشيخ عبد القادر بن الأنصاريّ الحنبليّ، إذ وُصفتِ القهوةُ له كدواءٍ يُخفّفُ الدماغ وينشّطُ البدن ويُذهبُ النعاسَ والكسل.

أمّا في كتاب "الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة" للغزالي، فأبو بكر الشاذلي مرّ بشجر البنّ المتروك، وعلى عادةِ الصالحين اتّخذهُ قوتًا وشرابًا فيهِ تنشيطٌ للعبادةِ واجتلابِ السهر، ثمّ ظهرتْ القهوةُ برواقِ اليمن في الجامع الأزهر في مصر، في ليلةِ الذكرِ والخميس!

ومِنَ العرب انتقلتْ القهوة إلى إسطنبول في عهدِ السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر، ومنه إلى إيطاليا، فحازت القهوةُ على قبولٍ واسعٍ بعدَ أن تمَّ اعتبارَها مِنَ المشروباتِ المسيحيّة عام 1600.

دخلت القهوة عالم إنجلترا وفرنسا عام 1657، وإلى النمسا عام 1683 بعد معركةِ فيينّا، وانتقلت إلى هولندا وأوروبا، وإلى أمريكا عام 1717 باسم كوفي العربي، وبدأتْ صناعةُ البنّ البرازيلي مِن تهريب بذورِهِ من باريس عام 1727، وازدادَ الطلبُ على القهوةِ في أمريكا الشماليّة خلالَ الحرب الثوريّة، بسبب عدمِ توفّر الشاي، إذ قامت إنجلترا عام 1812 بقطع واردات الشاي، فارتفعَ الطلبُ والسعر للقهوة خلالَ الحرب الأهليّة الأمريكيّة، ومنذ ذلك الحين صارت القهوةُ سلعةً مهمّةً وأساسيّة!

ظلّ اليمن المصدر الأساسيّ لشجرِ البنِّ حتّى القرن السابع عشر، لكنَّ الهولنديّينَ تحَدّوْا الحظرَ العربيَّ لتصدير نباتاتِ وبذورِ البنِّ غير المحمّصة، فقام بيتر فان دين برويك بتهريب شتلاتِ البنّ مِن عدن إلى أوروبا، والمحصولُ تمَّ زرعُهُ في جاوة وسيلان، وبدأ التصديرُ عام 1711 من أوروبا، وانتقلتْ زراعةُ البنِّ إلى سيريلانكا عام 1658، وإلى أندونيسيا عام 1696، وإلى هاييتي عام 1715، وإلى سورينام عام 1718، وإلى جزر المارتيك عام 1723، وإلى كوبا عام 1748.

عرف الأمريكان أشجار البن عام 1723، فقام الضابط البحري الفرنسي "جابريل دي كليو" بنقل حبوب البن لجزيرة "مارتينيك"، وفي عام 1777 زرع حوالي 1920 مليون شجرة بن على هذه الجزيرة، وفي المكسيك زرع البن عام 1790، وفي جزر هاواي عام 1825، وفي السّلفادور عام 1840.

ومع ازديادِ الطلبِ على القهوةِ المنعِشةِ، افتُتحتْ محلاّتٌ خاصّة ببيعِها للناس وللصفوةِ مُعَدّةً جاهزة، وسُمّيتْ هذه الأماكنُ "بيت القهوة" ومن ثم بالـ "مقهى"، وقد ارتبطتِ المقاهي بالموسيقا وبفتياتٍ عاملاتٍ لجذبِ الزبائن، كما اقترنت بالبقشيش أو التيبس Tips، من أجل الحصول على خدمةٍ أسرع ومكان أفضل.

كان أوّل مقهى (مدرسة العلماء) في إسطنبول عام 1577، افتتحَهُ رجلان مِن حلب ودمشق، وكانَ يأتيهِ الأدباءُ والأعيان.

وافتتح أوّلُ مقهى أوروبيٍّ في إيطاليا عام 1645، وعام 1652 افتتحَ أوّل مقهى إنجليزيٍّ في لندن "بيتي يونيفيرسيتيز"؛ ترجمتُهُ جامعة بمصروفات، وليست مجانية، وكدليلٍ على أنّه مغايرٌ عن الحاناتِ والباراتِ، ثمّ كانَ مقهى إدورارد إليودز عام 1688 في لندن، والذي تحوّلَ فيما بعد إلى شركةِ تأمين.

وفي فيينا عام 1683 كان أوّلُ مقهى بعدَ هزيمةِ الأتراك، الذين تركوا في مخزون هزيمتِهم البنّ، وأوّلُ مقهى في بوسطن أمريكا كانَ عام 1689.

أمّا الملكُ الفرنسيّ لويس الرابع عشر فقدِ اتّخذ شجرة البنّ رمزًا له، فأُنشئَ أوّلُ مقهى عام 1713، وفي برلين كان أوّل مقهى عام 1721.

في عام 1750 انتشرتْ فروعٌ للمقاهي مِن بلدٍ لبلد، منها مقهى "جريكو"، وهو مِن أوائلِ المقاهي التي أنشئتْ في أوروبّا، وفُتحَ فرعٌ لهُ في روما، وفي عام 1763 أصبحتْ فينسيا تمتلكُ ما يزيد عن 2000 مقهى.

في عام 1995 تحوّلتِ القهوةُ مِن أهمِّ السلع اليوميّةِ والعالميّةِ في الاستهلاكِ، وعلى مستوى العالم بأسرِهِ، فهو مِن المشروباتِ المشهورة والمستهلكة والمنتشرة، فتعدّدتْ أسماؤُها مع التاريخ، فبدأت القهوة العربيّة المُرّة بغلْيِها بالماءِ بإضافةِ الزنجبيل والهال والقرفة، ثم كانتِ القهوةُ التركيّة التي أضافتْ لها السكَّر، والقهوةُ المصريّةُ بسُكر زيادة أو على الريحة، ومن ثمّ القهوة الإفرنجيّة في أوروبا وأمريكا.

في كلِّ رقعةٍ جغرافيّةٍ للقهوةِ طرقٌ خاصّةٌ في الإعدادِ والشرب، وقد يشربونَها مسلوقةً، مغليّةً، ساخنةً، باردةً أو مُثلّجةً، أو صافيةً بالماء أو مضافًا إليها الحليب وموادّ أخرى.

القهوةُ مرّتْ عبْر التاريخِ بسلسلةٍ من الاضطهاداتِ والتحريم على حواجزِ القبول والرفض، وذلك لأسبابٍ تنوّعتْ رؤاها، مِن روحيّةٍ واجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ وعقائديّةٍ وطبّيّة، فاستُعمِلتْ في الاحتفالاتِ الدينيّةِ، وكانت البديلَ للخمور بعدَ الإسلام في الطقوس الروحيّة، ولكن، وبمرسومٍ عثمانيٍّ أوقِفَ استهلاكُها وتمَّ حظرُها، ثمّ اعتُبِرتْ مشروبًا إسلاميًّا، فمُنِعتْ مِن قِبلِ مسيحيّي

أثيوبيا حتى عام 1889، كما وحُظرتْ في إنجلترا لأسبابٍ سياسيّة وأخرى طبّيّة وإعلاميّة، وتظلُّ القهوةُ تتلاعبُ بها رحمةُ الإعلام.

القهوةُ تُباعُ وتُشرى في الأفران، كسلعةٍ قابلةٍ للتداول بينَ المستثمرينَ والمُضاربين، ولحبوبِ القهوةِ المُحمّصةِ شروطُ تخزينٍ مُحكمٍ، وبأماكنَ باردةٍ لئلاّ تفسدَ نكهتُها، بسببِ الرطوبةِ والهواءِ والحرارةِ والضوء.

طحْنُ القهوة الناعمُ والخشنُ يتمُّ إمّا في المنازل أو المحامص وبالمطحنةِ الكهربائيّة، أو بسحْق الحبوبِ بالهاون والمهباج أو الطاحونةِ اليدويّة، ويختلفُ مُحتوى الكافائين المختلفة مِن وجبةٍ لوجبة، بحسبِ طرقِ التحميصِ والتخزينِ والتحضير.

وإنْ كنّا نتحدّثُ عن شروطِ التخزين، فماذا عن الفائضِ مِنَ البُنِّ وكسادِهِ؟ عام 1938 قامتْ شركة نستلهNestle باشتقاقِ مشروبٍ مِنَ القهوة "نسكافيه"، لتساعدَ الحكومةَ البرازيليّةَ في حلِّ مشكلةِ الفائض!

وأخيرًا.. هل الإفراطُ بشُربِ القهوة، يمكن أن يؤدّي إلى نقصِ الحديدِ وفقرِ الدم لدى الأمّهاتِ والأطفال؟

وهل حقّا رائحة القهوة كفيلةٌ باستعادةِ الشهيّةِ بعدَ الطهي؟

أنعام الزيت بأنغام الزيتون!

ما أجملَ الأصابعَ الضاحكةَ تُحلّبُ الأفنانَ المُتهدّلةَ في انحناءاتِ كبرياءٍ، كأنّما تَحثّ قاطفيها على أعمالِ البرِّ والرحمةِ، وتُعِدُّ زارعيها لملكوتٍ أبديّ المُشتَهى، يُعلنونَ فيهِ سِرَّ اشتياقِهم، تُمَرِّشُ حبّاتِها برقصاتٍ مُداعِبةٍ، لتتوالى متسارعةً متراكضةً تترندحُ وتصدحُ، كأصواتِ ملائكةٍ هبطتْ على الأرض بأنغامٍ مجهولةِ الأصداءِ والإيحاءِ، يُتوّجُها بالغبطةِ حنينٌ فيروزيٌّ يُصلّي خاشعًا: شجر أراضيك سواعد أهلي شجّروا/ وعاشوا فيك مِن مية سِنة/ مِن ألف سِنة/ ومِن أوّل الدني/ حلّفتك خبِّرني كيف حال الزيتون/ واللوز والأرض وسمانا/ هو هنّي بلدنا وهوانا/ اِحكيلي عن بلدي حكاية/ وعن جار الطفولة حكاية طويلة....

ياه وطني؛ ما أكثرَها حكاياكَ الموجوعة، وما أشوكَها أحلامكَ المقلوعة، وما أشقى بَنيكَ مَن طُرِحوا في الظلماتِ الخارجيّة، حيثُ القلاقل والمرارة والأحزان، لكن؛ حتّى وإن بُتِرَت الألسنةُ الماسيّةُ، واجتُثّتْ حجارتُكَ الكريمة، وإنْ جُفّفت الأصواتُ النديّةُ والأصداءُ الشجيّة، والأقلامُ إن أخذَتْها رِعدةٌ على أعتابِ الهَلاكِ والخطايا والتهاون، فأشجارُكَ وأحجارُكَ هُويّةُ المُتعَبينَ لا تَضِلُّ، وتُراثكَ وتُرابُكَ لا يتيهُ، يظلُّ يُضيءُ الحواسَّ المُتبتّلةَ بالوداعةِ والصلاح، وينتهرُ المُتذمّرينَ والمُجَدّفينَ، ويُوشوشُ نسائمَكَ بآمالِ العودةِ لأحضانِكَ مزاميرَ حنينٍ يَقِظٍ، يُطوّبُ الأجيالَ ويُزوْبعُها بإيمانٍ حيٍّ بخلاصٍ آتٍ!

زيتُكَ الذهبيُّ المسكوبُ كطيبٍ في قوارير الحياة، يُنعشُ رجاءَ مَن أُعِدّتْ لهم الغربةُ وجعًا وإرْثَ ضياع، وملكوتًا مُعلّقًا على صليبِ التيهِ! نعودُ لنتباركَ بروحِكَ المُكلّلةَ بالثمارِ، ونُعاينَ بهاءَ مجْدِكِ النقيِّ "يا زْغَيَّر ووِسْعِ الدني يا وطني"، يا مَن كنتَ مهبطَ الدياناتِ السماويّةِ، ولم تغفلْ آياتُكَ عن مباركةِ الزيتونِ ومكانتِهِ في الوجدانِ الحضاريِّ والتراثيِّ والوطنيِّ والتاريخيِّ العريق!

عَرفَ الإنسانُ القديمُ نِعَمَ الزيتونِ أوراقًا وثمارًا وزيتًا فباركَها، واعتُبِرَ ثروةً لِما لهُ مِن فوائدَ اقتصاديّةٍ وبيئيّةٍ، وقيمةٍ غذائيّةٍ صِحّيّةٍ عظيمةٍ في الطبِّ الوقائيّ، وقد انتشرَ في دولِ حوضِ البحرِ الأبيضِ المتوسّط الذي يُشكّلُ ما نسبتُهُ 95% من الإنتاجِ العالميّ: أكثرها إنتاجًا إيطاليا وإسبانيا، سوريا، المغرب، الجزائر، سورية، فلسطين، الأردن، لبنان، تونس، اليونان.

في القدس في جبلِ الزيتون يُقدّرُ عمْرُ أشجارِهِ المُعمّرةِ بألفَيْ عام؛ وجذوعُها الملتويةُ كثيرةُ العُقَدِ، تُكسِبُ خشبَهُ عروقًا جميلةً، مِمّا يجعلُهُ فخمًا في صناعةِ الأثاثِ والتحَفِ، وتُستخدَمُ النوى في صناعةِ المسابح، أمّا تِفلُ النوى المتبقّي بعْدَ العصرِ، فيُستخدَمُ لتسميدِ الأرضِ وكعلفٍ للحيواناتِ والوقودِ.

أوراقُ الزيتونِ تُستعمَلُ عندَ مضْغِها خضراء في معالجةِ أمراضِ اللثّةِ والأسنان وبياضِها، والأوراقُ المغليّةُ تُخفِضُ درجةَ حرارةِ الجسم ومستوى السكّرِ بالدم، وتقتلُ أنواعًا مِنَ الميكروباتِ والفطريّاتِ والفيروسات، وتمنعُ تكاثُرَها خاصّةً فايروس هيربس، وتقوّي وتنشّطُ جهازَ المناعة، وتُكافحُ الالتهاباتِ ووهنِ الأجسادِ الضعيفةِ، وتُخفّفُ الآلامَ المُبرحةَ

للأمراضِ الخطيرةِ كالسرطان والإيدز، وتُعالجُ أمراضَ الرشحِ والانفلونوزا، لاحتوائِها على حامضِ البنزوييكِ وأوليفيل وسكَر ومعادن كثيرة مثل الكاليوم وخمائرَ وفيتامينات ا، ب1، ب2، وموادّ قاتلة للفيروسات والبكتيريا.

ثمار الزيتون تؤكلُ بعدَ تخليلِها، أمّا الزيتُ فيُضافُ إلى كريماتِ الوجهِ والصابونِ والأدويةِ والعقاقيرِ في معالجاتِ الجِلدِ والدهون، لفوائدَ جمّةٍ أثبتتْها الدراساتُ الحديثة، فقد أكّدت دراسةٌ نُشِرتْ في مجلّة "بي إم سي كنسر" قدرةَ أحماض الكربوليك على وقف سرطانِ الثدي، وأوضح خافيير منديز مِن معهدِ عِلم الأورام في كاتالونيا مِن جامعة غرناطة، أنّ النشاطَ البيولوجيَّ لأحماضِ الكربوليك، تُحاربُ الخلايا السرطانيّةَ في الثدي! والزيتُ يُؤكلُ كطعامٍ نيّئٍ ومطبوخٍ ويُستخدمُ في الطهي، لكنّهُ يفقد خواصّهُ المفيدةَ عندَ الغلي، ولمُكوّناتِهِ خاصّيّةٌ تتميّزُ بموادٍّ طبيعيّةٍ مختلفةٍ ذاتِ مفاعيل هامّةٍ لجسم الإنسان، ويُضافُ إلى السلطاتِ والأطعمةِ لإضفاءِ نكهةٍ شهيّة.

الزيتُ يتكوّنُ مِن موادّ كربوهيدراتيّةٍ وأحماضٍ دهنيّةٍ أحاديّةٍ عاليةٍ تصلُ إلى 83%، ومِن بروتينات، موادّ سُكّريّةٍ سيسليلوز، بوتاسيوم، كالسيوم، مغنسيوم، فوسفور، حديد، نحاس، أملاح معدنيّة، فيتامينات وخاصّةًفيتامين E.B والكاروتينل

فوائدُ الزّيت: فاتحٌ للشهيّةِ، مُضادٌّ للإمساك، يُعالجُ عُسرَ الهضم وأمراضَ الجهازِ الهضميِّ والاضطراباتِ المعويّة، والقرحةَ والحموضة.مُقوٍّ للطاقةِ الجنسيّةِ لِما يحتويهِ مِن فيتامينَيْ A E .. يُقوّي البصرَ ويمنعُ ارتخاءَ الجفونِ والعِشى الليليَّ لاحتوائِه فيتامين A. يحمي الجسمَ مِن أمراضِ القلب ويُنظّمُ ضرباتِهِ، يُنقصُ مِنَ الكوليسترول الضارّ ويُحافظُ على الكوليسترول المفيد، ويمنعُ تخثّرَ الدمِ وتَصلّبَ شرايين القلب، ويَقي مِنَ الجلطاتِ والنوباتِ القلبيّة.

يُستعمَلُ الزيت مُستخْلَبًا كجزءٍ مِن غذاءٍ خالٍ مِنَ البروتين، فيُحافظُ على مستوى سكّرِ الدم عندَ مرضى السكّر، لأنّهُ يحتوي على كميّاتٍ مِنَ الكبريت، ويُعالجُ داءَ النقرس وآلامَ الرأس. يزيدُ مِن إنتاجِ البروستاسيكلين، ويُؤدّي إلى هدوءِ الأعصابِ وانخفاضِ ضغطِ الدم المرتفع. يُطرّي الجلدَ ويُهدّىءُ السطوحَ المُلتهبةَ والمُتكسّرةَ، ويُعالجُ تشقّقَ الأرجلِ والأيدي والقشورَ الجلديّةَ الناجمةَ عن الإكزيما وداءِ الصدَف، يُزيلُ الاحتكاكَ ويُعالجُ السماطَ وضربةَ الشمسِ وحروقَ النار، ويُلطّفُ ويُنَعّمُ البشَرةَ، وهو مادّةٌ مُزلقةٌ للمَساج والحقنِ الشرجيّةِ.

الزيت دهون مفيدةٌ للشعْرِ ونموِّهِ، يمنعُ تساقطَهُ ويُقوّيهِ ويُعطيهِ لمعانًا ونشاطًا ويمنعُ قشرةَ الرأس. يُعالجُ أمراضَ الروماتيزم وتشنّجِ العضلاتِ والتهابِ المفاصلِ وآلامِها والالتواءِ والتورّم وهشاشة العظام. يعالجُ آلامَ المجاري البوْليّةِ والحصواتِ المراريّة، لأنّهُ مُدِرٌّ للبوْلِ، ويُساعدُ على إخراجِ الحصى والرملِ مِنَ الكِلى عبْرَ البوْل، وليسَ لهُ تأثيرٌ ضارٌّ على المرارة. يُعالجُ حَبَّ الشباب وأمراضَ الصدرِ، ويُستعملُ في أمراضِ التيفوئيد والحُمّى القرمزيّة والطاعون. يُعالجُ تشمُّعَ الكبدِ فيُنشّطُهُ، ويَزيدُ إفرازَ العصارةِ الصفراويّة. يُقوّي الذاكرةَ ويَقي مِن فقدانِها عندَ بلوغ الشيخوخة، يُقوّي عظامَ الحاملِ والمُرضع وعظامِ الجنين، ويُنشّطُ نموَّ مُخّ الجنين والأطفالِ الرضّع بعْدَ الولادة، ويساعدُ على تشكيلِ الخليّةِ الدماغيّةِ وشبكةِ الأعصاب لدى الأطفالِ بعدَ الولادة.

أوّلُ شعلةٍ أولمبيّةٍ كانتْ غصنَ زيتونٍ مشتعلٍ!

جماعاتٌ وأسَرٌ مِنَ القرويّينَ يتوافدونَ إلى الجبالِ والسهولِ وأحضانِ الطبيعةِ هذهِ الأيّام بلهفةٍ، بملابسَ متواضعةٍ تليقُ بالأرضِ وبأشجارِها المباركةِ، محتفلينَ بعيدٍ ليسَ ككلِّ الأعيادِ، في احتفالٍ سنويٍّ بموسمِ جنْيِ الزيتونِ والبَرَكة!

ما أجملَ السياراتِ الخاصّةَ تتزيّنُ بغلالٍ مِن أكياسِ الزيتونِ عندَ الغروب، كأنّما تزفُّ عروسًا إلى بيتِ الزوجيّة، وعيني القابضةُ أهدابُها على هذا المشهدِ الرائع، يجولُ في أفقِها دبيبُ دمعةٍ، كأنّما تغسلُ غبارَ الاحتلالِ عن لوحةٍ تركنُ في ذاكرةٍ مألومةٍ، تلكَ المُسنّةُ التي تحتضنُ جذعَ زيتونةٍ بصرخةِ رعبٍ وباستماتةِ دفاعٍ مدوٍّ، ومِن خلفِها الجرّافاتُ تقتلعُ أشجارَ كرْمِها، كوسيلةٍ أخيرةٍ مُعبّرةٍ بقسوةٍ، اِقلعوني مِن الحياةِ كما تقتلعونَ زيتونَ كرمي مِن الوجود!

كم مِن آلافِ كرومِكِ بلادي اقتُلِعتْ دون أن يرتعشَ قلبُ جرّافة، أو يرتدعُ آثِمٌ عن إثمِهِ؟ وكم مِن عائلاتٍ هُجّرتْ مِن بلادِها وكرومِها، وحُرمَتْ مِن أن تلتئمَ في احتفالِها الغضّ لتتباركَ بزيتِكِ؟ أيُّ طوفانٍ حلَّ بكَ يا الشرقُ، وما عادتْ بعْدُ إلى سفينةِ نوح حمامةُ سلام، تحملُ في منقارِها غصنَ زيتونٍ تنبئُ مهدَ الحربِ بالسلام؟

يا الحوضُ الأبيضُ المتوسّط، يا موطنَ الزيتونِ والمُلوكِ الممسوحينَ بزيتِكَ المقدّس، أشجارُ زيتونِكَ الخالدة رفضتْ أن تكونَ ملكاتٌ تحكُمُ الأشجارَ، كي لا ينضبَ عطاؤُها وزيتُها الذي باركَهُ الربُّ، بل تألّقتْ في خُضرتِها المُعمّرةِ أكثرَ مِن خمسةِ آلاف عام، وأثمرتْ أكثرَ مِن ألفَيْ عام، وما عاثَ بأخشابِها التلفُ والسوسُ ولا أعداؤُها مِنَ النملِ والحشراتِ، بل احتملتِ الجحودَ والإذلالَ في قرانا المُهجّرةِ دونَ رعايةِ مالِكيها المهجّرين، لكنّها ما خذلتْ إيمانَهم بصمودِها، فتلألأتْ حبّاتُها مُشرقةً تندَهُ قلوبَهم إلى شموخِها.

وها النبيُّ موسى شدّتهُ التسابيحُ الملائكيّةُ عندَ الشجرةِ المشتعلة، التي لم تكن الخضرةُ تُطفئُ نارَها، ولا النارُ تحرقُ خضرتَها في جبل طورسيناء، وعندَ اقترابِهِ منها سمعَ صوتًا يقولُ: "إنّي أنا ربّك، فاخلعْ نعلَيْكَ، إنّكَ بالوادي المقدّس طوى" سورة طه 12.

هل هذا يؤكّدُ أنّ منطقةَ طورسيناء هي الموطنُ الأصليُّ لأشجارِ الزيتون، التي تمّ انتشارُها في منطقةِ البحرِ المتوسّط، استئناسًا بقولِهِ تعالى: "وشجرة تخرجُ مِن طورسيناء تنبتُ بالدهن وصبغ للآكلين"؟ هل المقصودَ هو طورزيتا (جبل الزيتون) في القدس بجوار بيت المقدس، حيثُ لا زالت هناكَ أشجارٌ مِن زمنِ السيّد المسيح، أم أنّ بلادَ الشام زرعَها الساميّون بالزيتون قبلَ خمسة آلاف عام ق. م، وفي العهودِ اليونانيّة والرومانيّةِ والبيزنطيّة، ومن ثمّ استمرّت في العهودِ الإسلاميّة والعثمانيّة؟

إنّ منشأ شجرة الزيتون عبْرَ التاريخ لا زال يتراوحُ ما بينَ الاحتمالاتِ والثقافاتِ والدياناتِ والبلدان الأولى، التي عرفتها كرمزٍ للخصوبةِ والسلام والحياةِ والأبديّة، وكمؤشّرٍ حضاريٍّ في العالم!

هناكَ مَن يُثبتُ أنّ آثارَ ووثائقَ وجرارَ إيبلا في الموقع الأثريّ في سوريا منذ 4000 سنة ق.م، تدلُّ على أنّها أوّلُ حضارةٍ عرفتْ زيتَ الزيتون، حينَ قدّمتْهُ سائلاً ذهبيًّا للآلهة!

لكن ظهرَ فريقٌ فرنسيٌّ يؤكّدُ أنّ هضيب الريح في منطقة رم جنوب الأردن، هي أقدمُ منطقةٍ في العالم زرعتْ أشجارَ الزيتون منذ 5400 سنة ق .م في العصرِ النحاسيّ، وذلك، مِن خلال تحليلِ رمادِ المواقد واستخدامِ خشب الزيتون في الطبخ والإنارة!

أمّا الكتاب المقدس فيؤكّدُ أنّ شجرةَ الزيتون عُرفتْ في فلسطين منذ القِدم، قربَ حبرون والسامرة وتابور، وجاءَ ذِكرُها في سفر (اشعياء النبي 41: 19):

"أجعلُ في البرّيّة الأرزَ والسنطَ والآس وشجرَ الزيت، وأجعلُ في الصحراءِ السروَ والسنديانَ والشربين جميعًا". ووردَ ذِكرُها أيضًا في سِفر (يشوع 24: 13):

"وأعطيتُكم أرضًا لم تتعبوا فيها، ومدنًا لم تبنوها لتسكنوها، وكرومًا وزيتونًا لم تغرسوها لتأكلوها".

عُرفتْ شجرةُ الزيتونِ في بلادِ آشور حيثُ وَرَدَ ذِكرُها في (2 ملوك 18: 32)، في حديثِ ربشاقا قائد جيش ملك آشور، عندما أرسلَهُ إلى حزقيا ملكِ اليهود حيثُ قالَ مِن فم الملك الآشوري: "حتّى آتيكم وآخذكُم إلى أرضٍ تُشابهُ أرضَكم، أرضٌ كثيرةُ الحنطةِ وكثيرةُ الخمر، أرضُ الخبز والكروم، أرضُ الزيتون والعسل".

وقد انتشرتْ فنونُ زراعةِ أشجار الزيتون في مصر بواسطةِ الإلهة آيزيس، ومِن ثمّ انتقلتْ مِنَ الأراضي الفينيقيّةِ إلى اليونان، ثمّ روما ودول العالم الغربي، وفي القرونِ القليلةِ الماضية وصلتْ إلى الأمريكيّتيْنِ وأستراليا وجنوب إفريقيا.

وعبْرَ الحضاراتِ والثقافاتِ كان للزيت استخدامات عديدة:

استُخدِمَ الزيتُ لدى المصريّينَ في بناءِ الاهرامات، ووُجدَتْ عبواتٌ منهُ في القبورِ القديمةِ.

أمّا اليونانيّون فقد استخدموه في تدليكِ الأجسام والرياضيّينَ خاصّة.

وفي التبادلِ التجاريِّ بينَ ميناء أوغاريت - سوريا ودول حوض المتوسط.

أمّا الإغريقُ فاعتقدوا أنّ أثينا الإلهة فازتْ على كلّ الآلهة، لأنّها قدّمتْ شجرةَ الزيتون أكثر الهدايا فائدة للإنسان، كما كانوا يجدلونَ أغصانَ الزيتونِ الغضّة، أكاليل يزينون بها هاماتهم كرمز للقوّةِ الأبديّة.

واليومَ عالميًّا، فإنَّ منظّمةَ الفاو للأغذيةِ والزراعةِ الدوليّةِ التابعةِ للأممِ المتّحدةِ والمجلس الدوليّ لزيتِ الزيتون، جعلتْ منذُ ثلاثةَ عقودٍ تتابعُ إصدارَ كلّ ما يتعلّقُ بالزيت والزيتون، مِن حيث الجودة، النوعيّة، الكمّيّة، التحاليل الكيماويّة، الإكثار، التسميدِ، الوقاية، الريّ، عمليّات القطاف وأبحاث الزيت، كي تُسهمَ في زيادةِ الزراعةِ والإنتاج، وذلكَ للأهمّيّةِ الصحّيّة والاقتصاديّة والبيئيّةِ والاجتماعيّة، فهناك 400 صنفٍ مختلفٍ مِن أشجارِ الزيتونِ في أنحاءِ العالم.

قداسةُ الزيتِ والزيتونِ في الدياناتِ والحضارات!

لقد بلغَ اهتمامُ الإغريقِ بالزيتونِ حدَّ القداسةِ، وكانَ لهُ مكانةٌ رفيعةٌ في كتاباتِهم، ولا يُسمَحُ بزراعتِهِ إلاّ للعذارى والرجالِ الأطهار، وكانتْ تُمنَحُ أغصانُ الزيتون كجوائزَ للفائزينَ بالألعابِ الأولمبيّةِ، وعندَ الفراعنةِ وُجدتْ رسومٌ على الأضرحةِ، وتُوّجَ بأغصانِها الملوكُ "توت عنخ آمون"، وقُدّمَ الزيتُ كهدايا للملوكِ وأبطالِ الرياضةِ والمعابدِ، ولا زالتْ معاصرُ الزيتونِ المنحوتةِ في الصخرِ والجرارُ أدلّةً على الأهمّيّةِ العظمى للزيتونِ في حضاراتِ وديانَاتِ الشرق.

عندَ بني إسرائيل يعقوب صُدِّرَ الزيتونُ واستخدُمَ خشبُهُ في عملِ الكروبين فوقَ غطاءِ التابوت، وفي صُنع مصراعيْ باب المحرابِ والأثاث في هيكل سليمان، لِما لهُ مِن قيمةٍ كبيرةٍ في أشغالِ النجارةِ، واستخدمَ بكثرةٍ كوقودٍ للتدفئة.

لشجرةِ الزيتونِ رموزٌ مجازيّة: تُشير إلى النجاح والبَركةِ الإلهيّةِ، وخضرتُها الدائمةُ رمزٌ للصالح المُبارك من الله: "وتمتدُّ أغصانُهُ ويكونُ بهاؤُهُ كالزيتونة"(هوشع 14: 6)، و"امرأتُكَ مثلَ كرمةٍ مثمرةٍ في جوانبِ بيتِكَ، وبَنوكَ مثلَ غروسِ الزيتونِ حولَ مائدتِكَ"، ورمزٌ إلى الحكمةِ الإلهيّةِ "الحكمةُ تمدحُ نفسَها مثلَ الزيتونِ النضيرِ في البقاع" (يشوع بن سيراخ 24: 19)، ورمزٌ للسلام حيثُ أنّهُ بعدَ الطوفانِ أطلقَ سيّدنا نوح الحمامة، "فأتتْ إليهِ الحمامةُ وقتَ المساءِ، وإذا ورقةُ زيتونٍ خضراءَ في فمِها" (تكوين 8: 11).

ولوفرةِ الزيتِ دلالاتُ فرحٍ وبهجةٍ ورخاءٍ وازدهارٍ، واختزانُهُ يدلُّ على الحكمةِ والاستنارة، "ويأتونَ ويترنّمونَ في جبلِ صهيون، ويجتمعونَ إلى خيراتِ الربّ على الحنطةِ والخمرِ والزيتِ ونتاج الغنمِ والبقر، وتكونُ نفوسُهم مثلَ جنّةٍ ريّا ولا يعودونَ يضوون أيضًا"(31: 12)، كما ترمزُ إلى الحُبّ والصداقةِ وسعادةِ العلاقةِ الأخويّةِ والخلاصِ والنعيم وتكريمِ الضيوف: "أنتَ لم تدهنْ رأسي بزيتٍ، وهذهِ دهنتْ بالطيبِ قدَميَّ". (لوقا 7: 46).

أمّا القحطُ فهو رمزٌ للعقاب: "أنتَ تزرعُ ولا تحصدُ، أنتَ تدوسُ زيتًا ولا تدهنُ بالزيت" (ميخا6: 15)، وقد شَبّهَ سِفرُ الأمثالِ المُنافقَ بالزيتونِ الذي يَنثرُ زهرَهُ، وحديثَ المرأةِ الأجنبيّةِ اللطيفِ بالزيت، "لأنّ شفتي المرأةِ الأجنبيّةِ تقطران عسلاً، وحنجرتَها ألطفُ مِنَ الزيتِ، ولكن عاقبتَها مُرّةٌ كالعلقم ومرهفةٌ كسيفٍ ذو حدّيْن". (أمثال 5: 3 – 4).

استُخدِمَ الزيتُ في مسْحِ الملوكِ والكهنةِ ورؤوساءِ الكهنةِ، وخيمةِ الاجتماع والتابوتِ والمائدةِ والمذبحيْن والمنارة والمرحضةِ وقاعدتها عند بني إسرائيل، وتُرَشُّ التقدماتُ والقرابينُ بالزيتِ قبلَ استعمالِها.

واستخدِمَ الزيت كعطرٍ تُدهنُ وتُطيّبُ بهِ أجسامُ النساءِ لتطهيرِها (استير 2: 12)، وكي يقوّي الأعضاء: "فغسلتكِ بالماء ونَقّيتُكِ مِن دمكِ ثمّ مسحتكِ بالدهن". (حزقيال16:9).

استخدِمَ الزيتُ في دهْن الأجسامِ والرؤوسِ بعدَ تعطيرِهِ بالعطورِ الشرقيّة، لا سيّما في الاحتفالاتِ والمواسم، كدليل فرحٍ وغبطة، أمّا عندَ استخدامِهِ بغيرِ العطورِ فكانَ دليلاً للحزن والأسى.

وردَ استخدامُ الزيتِ لتكفينِ الموتى وتطهيرِهم في البرديات المصريّة القديمة، وفي العهدِ القديم لليهودِ، وأشارَ إليها العهدُ الجديدُ عندَ دفن السيّد المسيح.

واستخدمَ في دهنِ الرأسِ والأطرافِ للحفاظِ على نعومةِ الجلد وفروةِ الرأس عندَ العرب في الصحراءِ، ولوقايةِ الجسم مِنَ البرْد كما ذكَرَ هوميروس وبليني.

واستخدمَ الزيتُ في معالجةِ الجروح: "مِن أخمصِ القدمِ إلى الرأسِ لا صحّةَ فيهِ، بل جراح وقروح وضرباتٍ طريّةٍ لم تُعصرْ ولم تُعصّبْ ولم أليَّنْ بالزيت" (اشعياء 1: 6)، "وأخرجوا شياطينَ كثيرةً ودهنوا بالزيتِ مرضى كثيرين فشفوهم" (مرقس 6: 13)، واستخدمَ السامريُّ الصالحُ الزيتَ حين رأى جراحاتِ الإنسان الذي وقعَ بينَ اللصوص، "فدنا منهُ وضمّدَ جراحاتِهِ وصبَّ عليها زيتًا وخمرًا" (لوقا 10: 34)

أمّا الكنيسةُ فاستخدمتْ زيتَ الزيتونِ المقدّس في طقوسٍ خاصّةٍ تعودُ إلى أيّامِ الرسُل، كزيتِ مسحةِ الميرون لتثبيتِ المُعَمّدِ في الإيمانِ المسيحيّ، وكتتميمِ أحدِ أسرارِ الكنيسةِ السبعةِ المقدّسةِ، وهناك زيتُ القرن- الخلاص يُمسَحُ بهِ مَن يَجحدُ إيمانَهُ ويتوبُ، وهناكَ الزيتُ المحفوظُ يُستخدَمُ في صنعِ خبزِ القربان كرمزٍ للهواءِ والروح مِن أجلِ تقديسِهِ بسِرِّ الذبيحةِ الإلهيّةِ، كما يستخدمُ لصُنعِ الخميرةِ المقدّسةِ يومَ خميس الفصح، وفي تكريسِ المذابحِ بعدَ تقديسِ الزيتِ مِن قِبلِ الأسقف، أمّا زيتُ مِسحةِ المرضى فيُكرّسُهُ الأسقفُ بصلاةٍ خاصّة، يُرشَمُ بهِ المرضى لينالوا الشفاء، كما وردَ بأنّ التلاميذَ كانوا يَمسحونَ بالزيت مرضى كثيرين، وكانوا يُشفونَهم بطريقةٍ إعجازيّة (مرقس 6: 13).

وقد استخدمَ الزيتُ في إضاءةِ المصابيحِ والسُّرُج لإنارةِ وإضاءةِ المذبحِ المقدّس والأماكنِ المُقدّسةِ، وكثُرت تقدِماتُ الزيتِ والنذورُ، وأضيئتْ أضرحةُ القدّيسين بالزيت والمشاعلِ والقناديلِ، وشبه المسيح رسله بالنور قائلا: "أنتم نور العالم، لا يمكنُ أن تُخفى مدينةٌ موضوعةٌ على جبل، ولا يوقدونَ سراجًا ويضعونَهُ تحتَ المكيال بلْ على المنارة، فيضيءُ لجميع الذينَ في البيت، فيُضيءُ نورُكم هكذا قدّامَ الناس، لكي يرَوْا أعمالكم الصالحة، ويُمجِّدوا أباكُم الذي في السماوات" (متى 5/14-16) .

أما في سورة (النور: 35) فقد وردَ في نفسِ السياقِ قولُهُ تعالى: "اللَّهُ نُورُ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء.." وفي سورةِ (النحل 11): "يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزيْتُونَ وَالنخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ". وقد ذُكِرَ الزيتونُ في القرآنِ سبع مرّات.

كما أنّ هناكَ شواهدَ كثيرةً لاستخدامِ الزيتِ كوسيلةِ تجميلٍ وكدواءٍ وعلاجٍ نافعٍ، في المراجعِ الطبّيّةِ مِن عصورِ الأدبِ المصريّ القديم، حتّى كتابات العرب في العصور الوسطى.

"أنا أفكّر.. إذًا؛ أنا مفقود"!

هي.. عنوانُ ربيعٍ مُزهرٍ ينضوي تحتَ رايةِ حياةٍ دائمةِ النضرة، تتجدّدُ باخضرارِ تهاليلِ آذار،وفوْحِ عِطرِهِ وألوانِ أعيادِهِ وأفراحِهِ! تتزامنُ معَ الأعيادِ الآذاريّةِ والربيعيّةِ، فتنثرُ الجَمالَ والعطاءَ في حقولِ الإنسانيّةِ النبيلةِ، والتي طالما وشمَتْ درْبَها دماءُ جرائمِ الحُروبِ والإباداتِ الجماعيّة!

هي مَن جعلتْ منذُ قرنٍ عدساتِ الأبصار والأقلامِ والقلوبِ تتّجهُ إليها مِن كلِّ حدبٍ وصوْب، وباتتْ تُشغِلُ الأذهانَ والألبابَ والحكوماتِ والمنظّماتِ والأحزابَ والمؤسّساتِ، على اعتبارِها نقطةً مركزيّةً في فلَكِ هذا الكيانِ الآدميّ!

هي اليومَ مَن تقفُ عالميًّا وروحيًّا في بؤرةِ لبناتِ العُمقِ الإنسانيّ الشفّاف، بعدما كانتِ المجتمعاتُ المستبدّةُ وأنظمةُ القوى الظلاميّةِ في القرونِ الوسطى وما قبلها وما تلاها، تحُطُّ مِن قدْرِها وقيمتِها إنسانيًّا، وتنتهكُ حقوقَها المشروعةَ بحُكم القوى السائدةِ وغيابِ القانون.

هي مبعثُ فخْرٍ واعتزازٍ لأمّةٍ متحضّرةٍ تُقدّرُ قيمتَها، أفلا ينبغي انعتاقها وتحريرَ المجتمعِ فكريًّا ممّا سبق، واستحقاقها يومًا دوليًّا وعالميًّا في 8 آذار من كلّ عام؟

استحقاقها؟ ودوليًّا وعالميًّا؟ ماعلاقةُ المرأةِ الشرقيّةِ بالغربِ وبالعالميّةِ؟

هل توقّفتْ مآسيها ومعاناتُها مِن مظاهرِ وأشكال العُنفِ والتمييزِ والأمّيّةِ والتزويجِ المبكّر والمُكرَهِ وتقريرِ المصيرِ وختانِ البنات، كي تُتَوِّجَ أيّام عامِها بهذا العيد؟

كيفَ وهي ما زالت تُساقُ إلى مصيرِها المحتوم؟

هل هو يومُ تكريمٍ يتيمٍ في العام، وازدراءٌ واستغلالٌ لها باقي أيّامِه؟

أليستْ هناك أمورٌ كثيرة لا زالتْ مُعلّقةً ومُشرّدةً ومُغيّبةً في كثيرٍ مِن الأطُرِ الاجتماعيّةِ المُتزمّتة في العديد مِن مجتمعاتِنا؟

كيف تتيقّظُ الشرقيّةُ لنهضةِ المرأةِ العالميّةِ وهي ما انفكتْ تَغُطُّ في سباتِها العميق؟ مَن المسؤولُ عن ديمومةِ غفوتِها وتخديرِها وما المصلحة؟

ولو افترضنا النيّةَ الطيبّةَ في إيقاظِها للحاقِ بدوْرِها الرائدِ عالميًّا، فكيفَ السبيلُ لذلك؟ كيفَ يمكنُ أن نَحيدَ عن استخدامِ أساليب التعاملِ الفظّ مِن أمْرٍ ونهْيٍ وإخضاعٍ وقمْعٍ، وتَخطّيها إلى نقاشٍ وإقناعٍ مبنيٍّ على أخلاقٍ عادلةٍ، يُخفّفُ وطيسَ تمرّدِها وانفجارِها؟

هل يمكنُ للشرقيّ أن يَخرجَ مِن قشورِ التربيةِ القديمةِ، واستهلاكِ المرأةِ كمُجرّدِ سلعةٍ بعيدًا عن السطحيّة، ليلبسَ فِكرًا جديدًا، له دوْرٌ أساسيٌّ في تعميق احترامِ حقوقِ الإنسان وحقوقِ المرأةِ خاصّة؟

كيفَ يتأتّى لها تحقيقُ دوْرِها الوطنيِّ الإيجابيِّ؟ هل مِن خلال الصحافة والإعلام؟

هل بحرّيّةِ التعبيرِ عن الرأيِ وبناءِ أحزابٍ ومنظّماتٍ تَرعى شؤونَها، وتُضيفُ لحضورِها رصيدًا نوعيًّا إيجابيًّا؟

هل بتوفيرِ سيادةِ أجواءٍ وبيئاتٍ ثقافيّةٍ مُتحرّرة؟

قال "جون ستيوارت مل" البريطانيّ في القرن 19: "لا ينبغي النظر إلى قضيّةِ المرأةِ على أنّ الحُكمَ قد صدَرَ فيها مُقدَّمًا، عن طريق الواقع القائم والرأي العامّ السائد، بل لا بدَّ مِن فتْحِها للنقاشِ على أساس أنّها مسألةُ عدالة"!

8 آذار؟ ما هذا التاريخُ الذي تدخلُهُ المرأةُ فجأةً من أوسعِ أبوابِهِ، ومَن يقفُ وراءَ هذه المُسمّيات؟ هل مَرَدُّ هذا التاريخ يعودُ إلى تاريخ اليهودِ وإستر في بابل، أم إلى الاشتراكيّةِ أم إلى.. ؟

هل بهذهِ الحركاتِ والنداءاتِ ما هو مُنافٍ للتراثِ والأديانِ والعقليّاتِ والمجتمعات؟ وهل تُرفضُ الفكرةُ لمجرّد أنّها مِن صُنْعِ فِكرٍ مُغايرٍ أو معادٍ؟

ثمّ؛ ما هي أهدافُ المناقشاتِ حول الحرّيّاتِ والمطالبةِ بالمزيد مِن التقدّم والنموّ للمرأة؟

وما هو سلاحُها النقّاذُ المتطوّرُ زمكانيًّا، إضافةً للمعرفةِ والدين والعِلم وحمايةِ القانون؟

وهل لهذا كلِّهِ دوْرٌ أساسيٌّ فعلاً في دفْعِ عجلةِ السلامِ الدوليّ والعالميِّ كما رُسِم وخُطِّط؟

ها المرأةُ الناضجةُ سعَتْ مِن خلالِ عِلمِها وعَملِها خارجَ إطارِ البيتِ إلى الكفاحِ والنضالِ والتطوير، مِن أجلِ تحسينِ الأوضاع المعيشيّة والاقتصاديّة للأسرة؟

وهل دأبت التشكيلاتُ النسويّةُ العاملةُ بالاحتجاجاتِ إزاءَ تغييبِها وتهميشِها، والمطالبةِ بالتحرّر مِن الظروفِ التعسّفيّةِ والتفرقةِ العنصريّةِ والطبقيّةِ والجنسيّة، فاهتمّتْ بصياغةِ دستورِ تنويرٍ وتنظيمٍ يُحقّقُ العدالةَ الاجتماعيّةَ والنِدّيّة، وكرامتَها كإنسانٍ يثبتُ أحقيّتَهُ في الوجودِ ككيان؟

هل ساهمتْ في الدفاع عن حقوقِها المسلوبةِ والتوعيةِ والمساواةِ والتكافؤ مع الرجُل، وذلك برفْع أجرِها في المصانع، وتحسين ظروفِ العمل، وعدم استغلالِها أو التعاملِ معها بدونيّةٍ!

وهل كانتِ المرأةُ تحتاجُ إلى وضْعِها على محكّاتِ الحروبِ العالميّةِ والأوضاعِ الاقتصاديّةِ المُزريةِ والمُتردّيةِ، لتعي حقيقةَ وجودِها وحقِّها بالحياةِ الكريمةِ، ومِن ثمّ التمرّد على التقاليد؟

عام 1857 كانت أوّلُ مظاهرةٍ نسائيّةٍ في الولاياتِ المتّحدة، حيثُ اعتصمْنَ في أحدِ المصانع مطالباتٍ بحقوقهنَّ في رفْعِ أجورِهنَّ، وكانَ نصيبُ 72 منهنَّ الحرْقَ بالمعمل، لكنّ مطالبَهنَّ التي رُفعتْ لم تُحرَقْ ولم تترمّدْ، إنّما أينعَت الخمسونَ عامًا نشاطا نسويًّا جبّارًا وحثيثا، تخلّلتْها مسيراتٌ وإضرابٌ ثوريٌّ طويلٌ، من أجلِ الالتحاقِ بالوظائفِ العامّةِ وتحسينِ ظروفِ العملِ والعاملاتِ والأجورِ وتغييرِ الواقعِ السائد، وتلتْها ندواتٌ تنويريّةٌ ومؤتمراتٌ نضاليّةٌ ومظاهراتٌ سلميّةٌ لعشراتِ آلافِ العاملاتِ في نيويورك عام 1908 و1909، ومنذُها، تنبّهَ العالمُ إلى حقوقِ المرأةِ والطفلِ والعملِ والمساواةِ والأجور، وعام 1910عُقدَ أوّلُ اجتماعٍ في الدنمارك/ كوبنهاجن بدعوةٍ مِن الأممِ المتّحدة، لتُعلنَ الألمانيّةُ كلارا فيتكين عن 8 آذار عيدًا

لجميعِ نساءِ العالم، وصارَ يومَ ثورةٍ تشريعيّةٍ للحقوق، يؤرّخُ حركةَ المرأةِ العاملة فكريًّا ووجدانيًّا، ويؤكّدُ عطاءَها في الحياة الخاصّةِ والعامّة، وقد انبثقتِ الفكرةُ مِن الدولِ الاشتراكيّةِ الصين وروسيا وكوبا بمظهرٍ احتفاليٍّ عارمٍ، كتقديرٍ واحترامٍ وتميّزٍ لأدوارِ وإنجازاتِ وطموحاتِ المرأة ودوْرِها الوطَنيِّ الفاعل، وكمقياسٍ أساسيٍّ في تطوّر وتقدّم المجتمع مدنيًّا وصناعيًّا وحضاريًّا وإنسانيًّا!

وفي عام 1977 وجّهتْ جمعيّةُ الأممِ المتّحدةِ نداءً يدعو كافّةَ الدولِ في العالم، تخصيصَ 8 آذار كيوم المرأة العالميّ للاحتفالِ بحقوقِها على جميعِ الأصعدةِ الوطنيّةِ والأسريّةِ والاقتصاديّةِ والتنموية والثقافيّةِ، فمُنحت النساءُ الهدايا والمِنح والاجازةِ وحقّها في الاقتراعِ والتصويت!

وها ديكارت يطالعُنا بمقولتِهِ: "أنا أفكر.. إذًا؛ أنا موجود"!؟

وها المفكّرُ سليم البستاني انتقد الوضعَ العربيّ في القرن18 قائلا: إنّ الشعبَ الذي يحاولُ ذكورُهُ التقدّمَ دونَ نسائِه، كالشخصِ الذي يُحاولُ السفرَ ماشيًا برِجْلٍ واحدة".

والمفكّرُ قاسم أمين قبلَ مئةِ عام إلى التنبّهِ لشأنِ المرأةِ العربيّةِ اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، إلاّ أنّ صوتَهُ انتهى دونَ صداهُ في مجتمعاتٍ تقوْلَبتْ في عاداتِها وتقاليدِها.

لكن.. كيفَ يُعامِلُ المجتمعُ الشرقيُّ مفكّرينا، وخاصّةً المرأةَ حينَ تسيرُ بعكسِ التيّارِ فكريًّا، وتُطالبُ بالتغييرِ وتثبيتِ حقوقِها، كالكاتبةِ ليلى العثمان والباحثة نوال السعداوي؟

هل جعْلُ المرأة تغرقُ في أمّيّتِها هو نوعٌ مِن أنواعِ السياساتِ المبرمَجةِ والمُتعمَّدةِ؟ هل ما زالت العقولُ الشرقيّةُ مُغلّفةً بضبابٍ كثيفٍ مِن القُوى السائدةِ، والتي تَحجُبُ فِكرَها ومنطقَها، وتُشكّلُ ديمومةَ أزمةٍ رافضةٍ متعصّبةٍ لا تلينُ، فلا يمكنُ اختراقُ واجتيازُ هذهِ الحُجب الدينيّة والتراثيّة والتاريخيّة؟ لماذا؟

هل لأنّ الإنسانَ الشرقيَّ لازالَ محتلاً فِكريًّا، ولا يمكنُهُ التحرّر مِن تاريخِهِ وعقليّاتِهِ الموروثةِ المُكبّلةِ بالعاداتِ والتقاليد، أم أنّه يخشى اهتزازَ عرْشِ سيادتِهِ على المرأة؟

هل لأنّهُ يملكُ مفاتيحَ الفِطنة لفتْحِ أقفالِ الحكمةِ، دونَ أن يخدشَ أو يَكسِرَ قِيَمَ المجتمع الذي يسعى إلى تطوّرِهِ ورِفعتِهِ المنشودة، أم أنّ ثرواتُ شرقِنا حقًّا تعملُ على تكريمِ المرأةِ إنسانيًّا، وتنعيمِها حياتيًّا، وعلينا أن نكُفَّ عن ترديدِ الشعاراتِ الغربيّةِ كي لا نُزيّفَ واقعَنا؟

الأنثى بين زواج وعنوسة!

ذاك اليوم، كان وقعُ خبرِ فصلِها ضربةً ما بعدها وهلة، جعلَ الكلَّ في ذهولٍ وحيرةٍ يتهامسون ويتساءلون: ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟ لماذا فُصلت؟

في الصباح وقف المديرُ أمامَ طوابيرِ الطلاب الصباحيّة، وأعلن أمامَ الجميع أنّ جدران المدرسةِ تحوي الطلاب للتعليم فقط، وليست صالون للتجميل ولعرض الأزياءِ وللقاءِ الأحبّة، وأن حقائب الطلاب ينبغي أن تحوي الكتب الدراسيّة والموادّ القرطاسيّة اللازمة، وليس المرآة والمشط وعلبة المكياج وعلبة الدخان، ومَن يريد غيرَ ذلك فمصيره الفصل، وليبحث عن ضالّتِه في مكان آخر!

كانت هدى فتاة جميلة جدًّا، تلفت الأنظارَ ببسمتها وقدّها الممشوق وجمالِها العربيّ الساحر، ولم تمضِ شهور قليلة على فصلها إلاّ وتمّت خطوبتها، وفي غضون شهورٍ أخرى أتمّت الثامنة عشر وتزوّجت، وظلت هدى مضربَ مثلٍ يتداوله الطلبة والأساتذة وعبرةٍ لمَن يعتبر، حول أهمّيّة العلم وخاصّة للفتاة، ومخاطر الزواج المبكّر، وأهمّيّة دور الأهل في توجيهِ آفاق الفتيات واهتمامتهنّ صوبَ العلم أوّلاً.

بعدَ سنواتٍ طوال وقفت إيمان صديقة هدى أمام طالباتها، لترى في معظمهنّ صديقتها هدى، بتسريحة شعورهنّ وتلوينها، يتغاوينَ في مشيتهنّ كعارضات أزياء، يتجمّلن ويتمكيجن على مرأى من أهاليهنّ وأساتذتهنّ، وليس هناك مَن يُحرّكُ ساكنًا لتوجيههنّ أو لفصلهنّ من المدرسة. بألم يعتصرها تبلغُ ذكرياتها، وتقضمُ لسانها لئلا يعترض على ما وصلَ إليه حالُ بعض العائلات، مَن يسمحون لفتياتهنّ بالظهور في المدرسة على هذه الشاكلة، والسماح لهنّ ببناءِ علاقاتٍ غراميّة!

مأساتُها أنّها تعدّت الأربعين، وقد طالَت قلبَها همهماتُ حبّ لم يكتملْ بزواج، وهذا الذي يكسرُها أمام بعض تساؤلاتِ الطالبات والأمّهات عندَ توجيهِ بعض طالباتها، ولم تتورّع إحدى الأمّهات بتعييرها بعنوستها وبغيرتها من طالباتها.

هذا المسلسلُ المأساويُّ وبكلّ أسفٍ آخذٌ في ازديادِ رصيدِ جُهّالِهِ مِن الأهل، الذين يسعَوْنَ إلى التباهي بفتياتهنّ اللواتي يتسابقنَ في إبراز أنوثتهنّ مُبكّرا، وتخطيبهنّ وتزويجهنّ في سنّ مبكّر خوفًا من العنوسة، وتحت مبرّرات طائلة: "ظِلّ رجل ولا ظل حيط"، و"همّ البنات للممات"، وأسوأ ما في الأمر هي العلاقة المطّردة بين الزواج المبكّر ونسبة الطلاق الآخذة في الارتفاع، لتعودَ المطلقة طليقة الحال كسيرة الجناح والخاطر مع أولادِها إلى حضن والديها.

لماذا تحملُ الأنثى وجعَ زواجها الفاشل وطلاقِها وعنوستِها، وكأنّها وحدَها المسؤولة عن كلّ ما آلَ إليه حالُها؟ وهل كلُّ أنثى غيرُ مطلقة هي في سعادة ممّا هي فيه؟ كيفَ يمكن للأنثى أن تتعايش مع مُتعاطي كحول؟ متعاطي مخدّرات؟ لاعب قمار؟ وأصنافٌ أخرى من أزواج لا يولون الأسرة والزوجة دورًا مهمّا من اهتماماتهم الأوليّة؟

كيف يمكنها أن تستمرّ بعلاقةٍ أسريّةٍ سليمة مع رجل؛ لا يتورّعُ في ضربها وشتمها وإهانتِها؟ لماذا على الأنثى أن تتحمّلَ ألم زواجِها الخجول، وتُهشّمَ حياتها بمطارقِ الخوفِ على مستقبلها، فتداري أحزانها كي لا يشمتَ بها المجتمع المُجحف، ويُعاتبها ويُحاسبها على فشلها؟

لماذا على الأنثى أن تدفعَ حياتها فاتورة عاداتٍ وتقاليدَ أدخلتها في مزاد الزواج والطلاق والعنوسة؟ لماذا يبقى مصيرُ الأنثى مُعلّقا على خطأ قد يكونُ قسريًّا؟ وهل الزواج هو المحطة الأخيرة للأنثى ومرتع راحتها؟

من الذي يستهويه أمر انتهاك حرمة روح الأنثى ومحميّتها التراثيّة التاريخيّة، ليدفعَ بها إلى الارتباك والإرباك، ليجعلَ قاموسَها الحياتيّ مقصورًا على مهازل زواج وإنجاب وأمومةٍ تعيسة، لا يمكن الفكاكُ مِن أخطبوطها؟

مجتمعاتنا الشرقية؛ لماذا تفتح أبواب مدنها الأنثويّة المغلقة على مصاريع الانفتاح العالميّ شكليًّا، في حين أنّ نوافذ الأفكار وطاقاتِ العقليّات لا زالت محدودة بمنظوماتها، ما بين تناقضاتِ التخلّف والتحضّر، وبالتالي تقعُ الأنثى ضحيّة بين أسنان منشارِ العذاب والعقاب؟

الأنثى كزورق يطفو على وجهِ بحيرة، وأمانُ هذا الزورق مرهونٌ بالرياح والأمواج التي تعصفُ بهِ، وبرحمةِ مناهج الطبيعة ومسالكِها، وهي الأنثى تظلُّ رهينة عاداتٍ بيئيّةٍ وتقاليدَ اجتماعيّة، قد تمسكُ بيدِها وتنشلُها من الغرق، وقد تبترُ يدَها وتسعى في إغراقها.

بحسب الدراسات فان 50% من الشباب السوري أعزب، و60% من الفتيات السوريّات عازبات، أمّا مصر فيبلغ عدد العوانس 6.5 مليون، وثلث سكّان الجزائر عوانس وعُزاب، ونسبة العُزاب 20% في كلٍّ من السودان والصومال، وفي الأردن 5%، وفي الإمارات 68%، و26% في السعودية وقطر، وعلى أثر الحرب العراقية انتشرت العنوسة لتبلغ 85%.

ماهي أسبابُ العنوسة وعواملها الأساسية؟ الظروف الاقتصاديّة وارتفاع نسب البطالة وغلاء المهور والبيوت وتكاليف العرس؟ الظروف السياسيّة والحروبات التي تقصف أزهار وأعمارَ الشباب؟ هجرة الشباب المثقف والزواج مِن أجنبيّات، في حين إبقاء الفتيات العربيّات دون زواج من قوميّاتٍ أخرى وطوائف وديانات أخرى؟

هل ارتفاع مستوى المرأة علميًا ومهنيًّا يؤثر على زواجها وعنوستها؟ متى وأين وكيف ولماذا؟ لماذا يعيّرُ المجتمعُ العانسَ مَن لم تخضع لضوابط سنّة الحياة وأصول سنّة النساء أن يحملن ويلدن، احترامًا لنفسِها وإكراما لكرامتِها؟ وهل يُنظرُ لرجل العانس كما يُنظر للأنثى العانس؟ ما هي النتائج الإنسانيّة للعنوسة، وتأثيراتها النفسية والاجتماعيّة على الفرد في أنماط حياته، وعلى المجتمع في تقلّباته وتغيّراته؟

هل مِن حلولٍ جذريّةٍ للعنوسة، يكونُ للأنثى القدوة ودوْرٌ أساسيّ في اتخاذ القرار والتغيير، خاصّة ممّن عانيْن مرارة وشقاء العنوسة، ولهنّ القدرة على ملامسةِ الوجع وتحديده، والمساهمة في علاجهِ على مستوى اجتماعيّ؟

الأنثى بوصلةُ المَسارِ والمَصير!

حواء.. أيّتها الأنثى.. أيا روحَ الحرّيّة ويا قلبَ الحياةِ النابض بالحُبّ! كم يروقُ لي الحديثُ عنكِ ومعكِ، حين تدركين قدْرَكِ! وكم تنتشي بكِ الحياة وتنتعشُ، حين تَسحرينَ العيونَ بحُسنِكِ والأفئدةَ بخصالِكِ، وتُكلّلينَ الحضارةَ بفِكرِكِ وإنسانيّتِكِ، وتَغمرينَ الوجدانَ بحنانِكِ! وكم تطربُني أقوالٌ مأثورةٌ تعكسُ رؤى أدباء وفلاسفة أشادوا بك وتغنّوْا.. فها كونفوشيوس يقول: "المرأةُ أبهجُ شيءٍ في الحياة!"

وتردّ ميّ زيادة متباهيةً: نعم، "المرأةُ أنشودةُ الرجُل، فقلبُها موضعُ اعتمادِهِ، وعذوبتُها مستودعُ تعزيتِهِ، وبسمتُها مكافأةُ أتعابِه." فيعترضُ أنيس منصور: لكن.. "قلوبُ النساءِ مناجمُ ذهب، فحْم، غمّ، و..."، فيُقاطعُهُ الشيخُ مصطفى عبد الرازق بقولِهِ: "المرأةُ هي المنبعُ الفيّاضُ بما في الحياةِ الإنسانيّةِ مِن حُبّ". ويتدخّلُ صميلز ليُحددَ الأدوار: بل "المرأةُ قلبُ الإنسانيّة، والرجُلُ هو الرأس."

ومِن بعيدٍ يُسمَعُ صوتُ إبراهيم نوّار هاتفًا: "المرأةُ حديقةٌ، لكنّها تتحوّلُ أحيانًا إلى صحراءَ لا تصلحُ إلاّ لزراعةِ الصبّار". لماذا تتحوّلُ المرأةُ إلى صحراء؟ ومتى؟ فيقول جوزي فيرر: صحيح أنّ "المرأةُ مخلوقٌ مليءٌ بالحنانِ والرقّة، لكن؛ عندما يشاء". وإن لم يَشأ هذا المخلوقُ أن يَرِقَّ ويَحِنّ، فماذا تكون النتيجة؟ حرب؟ مَن يُرشدُها إلى الصواب؟

يُسارعُ المثلُ البرازيليّ إلى القوْل: إرادةُ المرأة إن كانت حازمةً لا تحتاجُ إلى إرشاد." لماذا لا تحتاجُ إلى إرشاد؟

يجيبُ "أناتول فرانس: لأنّ "المرأة هي مُكوّنةُ المجتمع، فلها عليهِ تمام السُّلطة، لا يُعمَلُ فيهِ شيءٌ إلاّ بها ولأجلِها". ويؤكّد لاوتسو قائلا: فعلاً، "إرادةُ زوجتي الحَسَنة تُقصّرُ عليّ الطريق." ويُضيف إميل زولا مؤكّدًا: "المرأةُ تحملُ في ثنيّاتِ ثوبِها مصيرَ كلّ فرْدٍ مِن أفرادِ عائلتِها."

آراءٌ عدّةٌ تتوازى وتتلاقى وتتقاطع، ومعها تأخذني إلى مظلّةِ الحقوقِ المدنيّة، حيثُ تاهَت إناث في ظلال أدغالِها، وتحدّثنَ عن الحرّيّة والمساواة بنهجٍ متعصّبٍ مُتشنّج مُتمرّد، فساقتْهن اللغة العنجهيّة بعيدًا عن أنوثتهنّ، وأسأنَ إلى أخواتهنّ مِن حيث لا يدرين، وبالمقابل، كنّ أخرياتٌ يعملنَ بهدوءٍ مِن خلال اتّساعِ مداركهنّ وآفاقِ وعيهنّ، وكان لصدى صمتهنّ وإنجازاتهنّ تغييراتٌ جذريّةٌ، في مجرياتِ التشريع والقانونِ والتاريخ والحضارة وقلبِ موازين الإجحاف، وتحقيق مكاسب ثقافيّة وأسَريّة وشخصيّة واجتماعيّة، فتقلّدنَ مراكزَ إداريّة ومناصب ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة وقضائيّة.

أيّتُها الأنثى.. لِمَ تجعلينَ مِن قضيّةِ حرّيّتِكِ صراعًا متواصلاً في كلّ الاتجاهات مع الرجُل، لا يُرضيكِ فيها إلاّ انتصارُكِ دونَهُ، وكأنّكِ بذلك تعزلينَهُ عن عرْش استبدادِهِ؟ ألا ينبغي لكِ أن تتكاتفي معَهُ جنبًا إلى جنبٍ بروحٍ يسودُها الاحترامُ والتعاونُ والمحبّة، دونَ المساسِ بمكانتِهِ، لتصمدا معًا في وجهِ مَن يُسيّر حياتكما نحوَ الهاوية، ولاستردادِ كرامتِكما وأمنِكما، وليتأتّى

لشعوبِنا أن تنعمَ بالحرّيَةِ وبخبزٍ طازجٍ غيرَ عفِن؟ لِمَ لا تناصرينَ أختَكِ بالمنطق، وتدعمينَها في بلورةِ حقوقِها، دونَ انتقاصٍ مِن حضورِها الفعّال وقدراتِها المحدودة في فسيولوجيّتِها، أو الاستهانةِ بجبروتِها وصمودِها، وكلُّ إنجازٍ ينعكسُ إيجابيًّا على سائرِ بناتِ حواء؟

حالاتٌ استثنائيّة نتعايشها ونتكبّد شقاءَها، تبعثُ في النفس شعورًا بالتوجّس والرهبة، ولا يتأتى لنا الخلاصُ منها إلاّ بالهروب أو بالتصدّي لها، والنزوحُ الإنسانيّ بكثافتِهِ، يَهوي إلى دركاتِ الجريمة والعنصريّة بوحشيّةٍ حضاريّةٍ عشوائيّة.

"ممنوع دخول القطط والكلاب والرجل الأسود!" عبارةٌ عُلّقت على أبواب المطاعم والمحال، عايشها السود بمنتهى التحقير والازدراء بحسب القانون الأمريكيّ، فهل يُساوَى السود بالحيوانات؟ هل يمكنُ قهر المستحيل؟ كيف؟ بالحرب؟ وهل تكفي المبادرة؟ ما الذي يُعزّزها؟ الإيمان بالقدرة على التغيير؟ القوّة العنيفة؟ القوّة الهادئة؟ هل يمكن للإنسان أن يصنعَ العالم الذي يحيا به؟ هل القوانين هي الحلّ الجذريّ العادل بالمُطلق؟ ألا يتمّ التحايل على القانون، والتسلّق فوق الأعراف والقفز مِن على الشرائع؟

في ظلالِ الكلمات المكتوبة وهسهسة الحروف المكتومة، راودت روزا لويس باركس حكايةَ الحرّيّة بصمْتٍ تثويريّ تعبويّ، فسياسة القوّة الهادئة لا تحتاج لبوارج وأساطيل كي تتجاوز الإشكالات، بل لبوارق آمالٍ متفائلةٍ تلوحُ في أفق النفوس الواثقة، كأحد أشكال المجابهة والمقاومة، والإصرار على البقاء ووقف استنزاف الكرامة المهدورة.

عام 1955 انفجرَغضبُها ضدّ الأعراف اللاّحضاريّة المُجحفة، فرفضت أن تقفَ لسيّدِها الأبيض لتُجلسَهُ في الحافلة، وتمرّدت على قانونٍ يمنعُ منعًا باتًّا جلوسَ الرجل الأسوَد وسيّده الأبيض واقف، ممّا عرّضها للمحاكمة، وتغريمها ب $15 نظيرَ تعدّيها على حقوق الغير! ويثورُ غليان السود في سماءِ وأرض الولاياتِ الأمريكيّة، وبعد مدّة 381 يومًا متواصلاً مِن مقاطعةٍ شاملةٍ للمواصلات، خرجت المحكمة بإلغاءِ القوانين العنصريّة ضدّ السود!

روزا تجاوزت الإجراءاتِ الرسميّةِ بإصرارِها ضدّ شرائع المعاناةِ والاستعبادِ والانتقاصِ وتردّي الأوضاع، ونسجتْ حكايةَ الحرّيّة لتتمرّدَ على الظروفِ القائمة، وتتدخّلَ في تغييرِها وتحديدِ مصيرِها. إيمانُها بإرادتِها وبدوْرِها الرائد في بعْثِ الحرّيّة وترسيخ الثورة ضدّ الظلم، حفّزَ ثقةَ السودِ في مسيرةِ تحديدِ المصير، وألقى بظلالِ خنوعِهِ كوابيسَ خانقة على البِيض! عاشتْ روزا (4-2-1913 – 24-10-2005)، وحازتْ على وسام الحرّيّة وأهدتْهُ لبني جنسِها، وعلى الوسام الرئاسيّ للحرّيّة عام 1996، والوسام الذهبيّ للكونجرس عام 1999، وهو أعلى تكريم مدنيّ في البلاد، وهي المرأة الوحيدة التي يرقدُ جثمانُها بأحدِ مباني الكونغرس، مِن بين 30 جثمان لوجوه بارزة ورؤساء.

ما أجمل المرأة حين تعتدُّ بنفسها.. حين تحفر بصماتها على جذع التاريخ وعلى ذاكرة الكفاح والحرية. إن أرادت نجحت، حين تجعل المثابرة مفتاح الحلول لمحاولاتِها مهما كانت بائسة. هي الأنثى.. تحرّك القلوبَ اليائسة لتجعلها تؤمن بهُويّتها الإنسانية.. هي حواء.. متى تحرّض المنطقَ الغافي والوعي النائم لينتفضا على الصمت!؟

جاذبيّةُ الأنثى وجاذبيّةُ الأرض!

منذ الأزلِ وكتاباتٌ وأمثالٌ شعبيّةٌ وحِكَمٌ وأقوالٌ ترِدُ في ذِكرِ الأنثى، وبكلِّ مراحلِ عُمرِها، منذ ميلادِها حتّى لحظةَ تُسْلِمُ بها الوديعةَ روحَها لباريها، وقد أعجبَتني موسوعةُ أقوالِ الفلاسفةِ والحكماءِ في عالمِ النساءِ، مِن إعدادِ سيّد صدّيق عبد الفتاح، الذي جمَعَ بينَ دفّتيْهِ أكثرَ مِن 15 ألف معلومةٍ عن عالم النساء، بآراءَ متعدّدةٍ مِن 3000 مُفكّرٍ وفيلسوفٍ وقائدٍ وطبيبٍ وفنّانٍ وعالِم، فما الذي جعَلَ هؤلاء يَخصّونَ الأنثى بهذا الاهتمامِ الحافلِ بتقديرِها، والرفعِ مِن قدْرِها وقيمتِها الاجتماعيّةِ والثقافيّةِ والحضاريّة؟

ممّا لا شكَّ فيه، أنّ الأنثى كائنٌ رقيقٌ وجميلٌ يتدفّقُ حنانًا، فهي لا زالتْ تُشغلُ فِكرَ الحكماءِ في جميعِ بقاعِ الأرض، وتأسرُ الفلاسفةَ والشعراءَ والأدباءَ بغموضِ أنوثتِها، لتغمرَ أقلامَهم وأفئدتَهم بحُبٍّ وحنانٍ ينسابُ حكمةً ورأفةً وتكريمًا لكينونتِها، وإقرارٍ بسِرِّ أهمّيتِها في الوجود، وقد استوقفتني مقولةُ فيلسوف في غايةِ الإيجازِ والاقتضابِ والفصْل مفادُها: "في الأرضِ قوّتانِ تتحكّمانِ في الأشياء، جاذبيّةُ الأرضِ وجاذبيّةُ المرأة"!

كلُّنا يدركُ أهمّيّةَ جاذبيّةِ الأرضِ فيزيائيًّا وعِلميًّا على أرضِ الواقعِ، وأثرَ علاقتِها معَ الكواكبِ الأخرى، فهل جاذبيّةُ الأنثى تُوازي جاذبيّةَ الأرضِ في فعلِها الخفيّ؟

ما لغزُ جاذبيّةِ الأنثى، وما هي مقوّماتُها وعناصرُها؟ وأينَ تكمن؟

هل في ثقتِها بالنفسِ وتقديرِها لذاتِها موضوعيًّا وبشكلٍ سليم؟

هل في قدرتِها على التكيّفِ والتأقلمِ معَ الوسطِ الاجتماعيِّ، ومواجهةِ صعوباتِ الحياةِ والتصدّي لها؟

هل في سِعةِ ثقافتِها ومداركِها وإلمامِها الفكريّ الرحب، أم في رجاحةِ عقلِها وتدبيرِ أمورِها؟

هل في أمومتِها الطاغيةِ وحنانِها العميقِ، وعطائِها وتفانيها الذي تغمرُ بهِ أُسْرتَها؟ هل في جمالِها الجسديِّ المُستأثِرِ بالإعجابِ والإغراءِ فحسْب، أم بأنوثتِها الخفيّةِ وجمالِ روحِها الآسرِ وعطرِ حيائِها الفوّاح؟

لا يمكنُ أن ننكرَ أنّ للصوتِ وللنظرةِ اللمّاحةِ وللزيِّ آثارٌ بالغةٌ في التأثيرِ المباشرِ وغيرِ المباشر، كما للجرأةِ في التعبيرِ أيضًا صدًى، قد يكونُ سلبيًّا وإيجابيًّا بحسبِ المعاييرِ الاجتماعيّة، ولكن؛ هل يمكنُ لجاذبيّةِ الأنثى أن تتناغمَ معَ كلّ هذهِ العناصرِ في إطارِ شخصيّةٍ أنثًى واحدة؟ كيف؟ ومتى؟

الجاذبيّةُ سلاحٌ ذو حدّيْن، قد يأتي على الأنثى بما لا تُحمَدُ عقباه، إن لم تُحْسِن استخدامَهُ في المكانِ والزمانِ المناسبيْن، فلكلِّ مقامٍ مقال، ومسألةُ التكيّفِ مع البيئةِ والتأثيرِ بها تحتاجُ إلى حنكةٍ وتعقّلٍ، إن لم يكنْ إلى دهاءٍ!

هل مِن عبثٍ حذّرَ بعضُهم مِن دهاءِ المرأةِ؟ ثمّ؛ هل الجانبُ الفيزيقيّ الجسمانيّ هو عاملٌ رئيسيٌّ ومُحرّكٌ أساسيّ، أم أنّ الإنسانَ كانَ ذكرًا أم أنثى، هو كتلةٌ متحرّكةٌ ومُتحفّزةٌ مِنَ المشاعرِ والأحاسيسِ، والفكرِ الديناميكيّ المُتبدّلِ والمُتغيّرِ الطامحِ إلى إثباتِ الوجودِ والحضورِ المتميّزِ؟

ورَدَ بجريدةِ "المصريّ اليوم"، أنّ "كاريمانز" وفريقٌ مِن العلماءِ مِن جامعةِ "رادبوت" في مدينة "نيمجن" شرقيّ هولندا، قاموا بإجراءِ دراسةٍ على 50 طالبًا و60 طالبة بالجامعة، حيث تركوهم في البدايةِ يتجاذبونَ أطرافَ الحديث، ثمّ خضعوا بعدَ ذلك للإجابةِ على امتحان، وذلكَ مِن أجلِ مراقبةِ مقدرةِ الأداءِ الذهنيِّ للطلاّبِ، بعدَ وقتٍ قصيرٍ مِن تجمُّعِهم مع زميلاتٍ يتمتّعنَ بقدْرٍ كبيرٍ مِنَ الجاذبيّة، فلاحظوا أنّ الرجُلَ ليسَ لديهِ القدرة على التفكيرِ بشكلٍ واضحٍ أثناءَ وبعْدَ وقتٍ قصيرٍ مِن مقابلتِهِ لسيّدةٍ جميلة، ولكن في المقابل، لاحظوا أنّ ذلك لا يَحدثُ تمامًا مع السيّدات، في حالةِ مقابلتِهنّ رجال يتمتّعون بالجاذبيّة، وذكَرَ رئيسُ فريق البحْثِ "جون كاريمانز"، أنّ تلك الدراسةَ تفسّرُ تأخّرَ نتائجِ الرجالِ في المراحل التعليميّةِ العليا مقارنةً بزميلاتِهم، إذ إنّ الرجالَ الذينَ شملتْهم الدراسة، انشغلوا إلى حدٍّ كبيرٍ بزميلاتِهم الجذّابات، الأمر الذي جعلَهم يستنفدونَ طاقتهم الذهنيّةَ على الأرجحِ في لفتِ أنظارِهِنّ، وعلى العكس مِن ذلك، فلم يؤثرْ حضورُ الرجال "الذين يتمتّعونَ بالأناقة"، على إعاقة القدرةِ التفكيريّةِ لدى السيّدات!

هل هناك مِن تفسيرٍ فسيولوجيٍّ وبيولوجيٍّ لهذا الفارقِ في التأثّر والتأثيرِ على القدرةِ الذهنيّةِ والفكريّةِ لدى الجنسَيْن؟ وهل الأنثى الجذّابة تُشكّلُ دافعًا للمغامرةِ والمجازفةِ عندَ الرجال؟

في دراسةٍ أخرى نُشرَتْ في مجلّة "علم النفس الاجتماعيّ والشخصيّة" جاء، أنّ باحثيْن استراليّيْن مِن جامعةِ كوينزلاند قاما ببحثٍ علميّ، إذ طلبَ ريتشارد روناي ووليام فون هيبل مِن رجال راشدين شبّان القيامَ بخدعٍ سهلةٍ وصعبةٍ على لوحاتِ التزحلق، المَرّة الأولى بوجودِ رجل، والثانية بوجود امرأةٍ شابّة جذّابة، وعندما عمدَ المتزحلقون إلى المجازفة، فقد كانوا يقومون بمخاطراتٍ أكبر بوجودِ امرأةٍ جذابة، على الرغم مِن أنّهم يعرفون أنّ ثمّةَ خطر بالاصطدام أو السقوط، كما أظهرت الدراسة أنّ معدّلات التستوسترون عندَ هؤلاءِ الرجال كانتْ أعلى بوجود المرأة منها عندَ وجودِ الرجل!

لوحةٌ باهرةٌ، قد تنقشعُ سحُبُ الانبهار والاعجاب عنها، وتمضي بها الرياحُ إلى آفاقِ الغموض، لكنّ أمورًا حتميّة ما فتئتْ تخضعُ إلى الارتقاءِ والالتقاءِ في نقطةٍ سرّيّة، لتلفّها التأويلاتُ والتحليلات، ولا زالتْ تبحثُ فنّيّتُها عن أُطُرٍ فريدة، إنّها الأنثى.

الأنثى هي ملحُ الحياةِ ولغزُ الوجودِ المُتعفّفِ إنسانيًّا، الذي يسعى البَشرُ إلى حلِّهِ، ولكن لم تأتهِ الجهودُ بمفتاحِ الحُلولِ على طبقٍ مِن ذهب، لأنّ ديناميكيّةَ المجتمعاتِ وتداخلَ الحضاراتِ واختلافاتِ الطبائع والتربية، جعلتِ البوصلةَ متأرجحةً على غير ثباتٍ في تحديدِ الجهاتِ والوجهات، ولكن بكلِّ الأحوال، فالرجلُ لا يسعُهُ إلاّ أن يستأنسَ بها وبوجودِها، رغمَ تخوّفِهِ مِنَ المجهولِ ومِن دهائِها وغموضِها، في حالِ لجوئِها إلى المكْرِ والخبثِ عندَ استضعافِها، في المجتمعاتِ المتخلّفةِ الهمجيّةِ والمُجحفةِ بحقّها.

"إنّها لخطيئةٌ حقيقيّةٌ ألاّ يكونَ المرءُ سعيدًا"

الإنسانُ حيويٌّ بطبعِهِ ومُحِبٌّ للحياةِ بنزعتِهِ، لذا يدأبُ بحفاوةٍ جاهدًا في الوصول إلى الشعورِ بالسعادة، وذلكَ مِن خلالِ تحقيقِ أهدافِهِ التي يَرسمُها، وإحرازِ النجاح المُثقلِ بالتعب ووعورةِ الوسائلِ وصعوبتِها، لأنّ السعادةَ تزوّدُهُ بإيحاءاتِ البهجةِ والغبطةِ والراحة بعيدًا عن الاكتئابِ واليأسِ، وما التخطيطُ لها إلاّ مُنشّطاتٌ مُحفّزةٌ للاستمرارِ شبهِ المتوازن في الحياةِ!

قالَ مكس مللر: "إنّها لخطيئةٌ حقيقيّةٌ ألاّ يكونَ المرءُ سعيدًا".

كيفَ يكونُ المرءُ سعيدًا؟ وما هي السعادةُ ودلالاتُها؟ هل هي حظّ، أم توافقٌ بينَ المبادئِ والسلوكِ؟ يقولُ جبران خليل جبران:

"وَما السعادَة في الدنيا سِوى شَبح يُرجى/ فإن صارَ جِسمًا ملّهُ البَشَرُ/ كالنهرِ يَركضُ نَحوَ السَّهل مكتدِحًا/ حَتّى إذا جاءهُ يبطي ويعتكِرُ/ لمْ يَسعدِ الناسُ إلّا في تَشوُّقهم/ إلى المَنيعِ فإن صارُوا بهِ فتروا/ فإن لقيتَ سَعيدًا وَهوَ مُنصَرِفٌ عَنِ المنيعِ فقلْ في خُلقهِ العِبَرُ"

هل السعادةُ هي لذّةٌ عقليّةٌ سامية، أم لذّةٌ جسديّةٌ بدنيّةٌ بهيميّة؟ هل السعداءُ يتفاضلونَ بعضُهم عن بعض؟ كيف؟ هل السعادةُ تتمثّلُ في المنافعِ الحِسّيّةِ المادّيّةِ، مِن مالٍ وأبناءٍ ونجاحٍ، مِن صحّةٍ وطولِ عمرٍ وصيتٍ طيّب؟

يردّ لافونتين: "السعادةُ قناعةٌ، فلا الذهبُ ولا العظَمةُ يجعلاننا سعداء"!

أمّا شيلدون فقد قال: "طالما أنتَ على هذهِ الأرض، فتمتّعْ بما فيها مِنَ الصالحات، لأنّك لأجلِ ذلك خُلِقتْ، ولا تكتئبْ ولا تبتئسْ، بل احسبْ نفسَكَ في السماء"!

كيفَ يتأتّى للبَشرِ أن يَسعَدوا، وتذوُّقُ السعادةِ يتباينُ مِن فردٍ لفردٍ، بتفاوتِ العمرِ والأحوالِ والمكتسباتِ الشخصيّةِ، وبحسبِ مهارةِ الإنسانِ في إتقانِ دوْرِهِ في أداءِ فنّ الحياة، وفي قدرتِهِ على ترسيخِ تصوُّرٍ عادلٍ في نفسِهِ عن الحياةِ والوجود، بعيدًا عن القلقِ بصروفِ الدهرِ ونوائبِهِ وإحباطاتِهِ وتقلّباتِهِ؟

يردُّ غاندي قائلاً: " تتوقّفُ السعادةُ على ما تستطيعُ إعطاءَهُ، لا على ما تستطيعُ الحصولَ عليهِ"!

فهل السعادةُ فرديّةٌ تتعلّقُ بالفردِ وانعزالِهِ وانطوائيّتِهِ، أم جماعيّةٌ تتعلّقُ بالمجتمعِ ككلّ، أم ترتبطُ بكليْهما؟ هل تتحقّقُ السعادةُ بالإدراكِ العقليّ، أم بإلهامٍ باطنيٍّ حدسيّ؟ هل لدينا كتبٌ تُرشدُنا عن كيفيّةِ الحياةِ بسعادةٍ وتُنيرُ دروبَنا؟

كانتْ سُنّةُ أهلِ أثينا القدماء قتْلَ كلِّ مَنْ حملَ شمعةً، ومنعَ غيرَهُ أن يقتبسَ مِن نارِها ونورِها، فهل للإنسانِ اليومَ إلاّ ما خلّفَتهُ لنا الرسالاتُ السماويّةُ والحكماءُ والفلاسفةُ، الذينَ جازوا بإشراقاتِهم الروحيّةِ وبحكمتِهم عتمةَ قلوبِنا فأضاءتْ نفوسَنا؟

ما موقفُ الفلاسفةِ والمتصوّفةِ مِن السعادة؟ وكيف يمكنُ تحصيلُ السعادة؟

مسكويه يقول بأنّ السعادةَ تتجلّى لدى الإنسانِ، في بلوغِ الكمالِ النظريّ مِن خلالِ المعرفةِ والعلوم، وبلوغِ الكمالِ العمَليّ العقليّ الأخلاقيِّ، من خلالِ إخضاعِ قوى النفس للعقلِ، فليستْ الفضائلُ إعدامًا، بل هي أفعالٌ وأعمالٌ تَظهرُ عندَ مشاركاتِ الناسِ ومُساكنَتِهم، وفي المعاملاتِ وضروبِ الاجتماعاتِ، ونحنُ نُعلّمُ ونتعلّمُ الفضائلَ الإنسانيّةَ التي نُساكِنُ بها الناسَ ونخالطُهم، لنصلَ منها وبها إلى سعاداتٍ أخرى"!

أمّا الفارابي فيرى أنّ الإنسانَ وُلدَ بطبعِهِ محتاجًا إلى غيرِهِ، لذا فالسعادةُ الفرديّةُ مستحيلةٌ دونَ السعادةِ الجماعيّة، والمدينةُ الفاضلةُ هي المجتمعُ الذي يلتفُّ حولَ رئيسِهِ، وتتراتبُ فيهِ المراكزُ الاجتماعيّةُ تفاضلاً، حيثُ نجدُ في أسفلِ المراتبِ مَن يَخدمُ ولا يَخدمُهُ أحدٌ، فيكونُ أفرادُهُ متعاضدينَ متعاونينَ، بحيثُ تتوزّعُ الوظائفُ بينهم بحسبِ الأهليّة، وأصْلُ الشقاءِ فيها هو الاعتناءُ باللذّاتِ الجسديّةِ، والنزواتِ الفرديّةِ، والتفكيرِ في المصلحةِ الخاصّةِ قبلَ المصلحةِ العامّة"!

هل متطلّباتُ السعادةِ ومقاييسُها تختلفُ مِن شخصٍ لآخر؟ وهل تحقيقُها يعتمدُ على الفردِ نفسِهِ، أم على المجتمعِ الذي يعيشُ فيهِ؟ هل سعادةُ المجتمعِ يمكنُ أن تنعكسَ على الفرد، حينَ تتوفّرُ البواعثُ النفسيّةُ الخيريّةُ المُريحةُ المتوازنةُ في الأخذِ والعطاء، مِن تأمينِ فرصِ عملٍ وترفيهٍ ورفاهيّةٍ، وخدماتٍ اجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ ورياضيّةٍ تُواكبُ الحضارةَ وتخدمُ الإنسانيّةَ، فيتقاسمُها أفرادُ المجتمعِ بحقٍّ دونَ أنانيّةٍ وتمييزٍ؟

وهل يمكنُ أن تتوفّرَ السعادةُ الجماعيّةُ والفرديّةُ إلاّ في أجواءِ سلامٍ أمنيٍّ واقتصاديٍّ يَعمُّ البلادَ؟

الفارابي يرى السعادةَ في بلوغِ الحِكمة، مِن خلالِ الاتصالِ بالعقلِ الفعّال، وما تفيضُ عنهُ الصورُ الصافيةُ غيرَ مشوبةٍ بمادّة، وهذا يُقرّبُنا مِن فِكرِ المُتصوّفة، ومِنَ الحِكمةِ القائلة: "عينُ الجودِ يأتي مِنْ بذْلِ المجهود"، أي أنّ الزهدَ يُطهّرُ النفسَ البشريّةَ ويُهيّءُ لها السعادة، مِن أجلِ استقبالِ التجلّي الإلهيّ، ليحيا الزاهدُ نشوةً روحيّةً بإلهامٍ يغمرُ قلبه!

ومِنَ الإنسانِ إلى الإنسانيّةِ ينطلقُ المُفكّرُ المُتصوّفُ مُحيي الدين بنُ عربيّ، الذي تبنّى فكرةَ وحدةِ الأديان، ودعا للتسامحِ والتعايش، وهوَ مَن أسّسَ نظريّةَ "وحدة الوجود"، التي تنتهي إلى أنّ الوجودَ واحدٌ، حيثُ لا يوجدُ إلاّ الله، وما العالمُ إلاّ تجَلٍّ للذاتِ الإلهيّة، وما العالمُ المُجسّمُ إلاّ صفات اللهِ، وسُموّ الإنسانِ في الوجودِ يتمثّلُ في أنّهُ منبعُ الفيضِ الإلهيّ على الموجودات، لأنّ الإنسانَ بمثابةِ إنسانِ العينِ (البؤبؤ)، الذي يرى اللهُ مِن خلالِهِ مخلوقاتِهِ فيرحمُها، فقال ابنُ عربيّ:

كنتُ قبلَ اليوم أُنكرُ صاحبي/ إذا لم يكنْ ديني إلى دينِهِ دانِ/ لقد صارَ قلبي قابلاً كلّ صورةٍ/ فمرعى لغزلانٍ وديْر لرُهبانِ/ وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائف/ وألواحُ ثوراةٍ ومصحفُ قرآنِ

أخيرًا.. يُجمِعُ الفلاسفةُ والمُتصوّفةُ على أنّ السعادةَ لا ترتبطُ بتحصيلِ اللذاتِ الجسديّة، إنّما تُدرَكُ بالعقل، لكن كيفيّةَ تحقيقِ السعادةِ تختلف بينهما، فالسعادةُ لدى الفلاسفةِ تتحقّقُ بتحقيقِ مجتمعٍ مُتآزرٍ ومُتعاون، أمّا لدى المُتصوّفةُ فتحقيقُ السعادةِ يتمُّ بالخلاصِ الروحيِّ للفرد!

هل المرأةُ سرُّ السعادةِ؟

السعادةُ قبسٌ نورانيٌّ ممتدٌّ مِن كائنٍ إلى آخر، ومن جيلٍ إلى جيل، لمواصلةِ مسيرةِ الحياةِ، وهو مُخبّأٌ في لالئَ تُشعُّ طاقةً عاشقةً للمستقبل، تُنعشُ الأحلامَ والطموح، وتهتفُ بها ألْسِنةُ البَشرِ ومُقلُ الحالمين، فكُلٌّ يَودُّ أن يشتمَّ عطرَها وأن يتذوّقَها، ليُواريَ قلقَهُ ويبقى أسيرَها، فتكونُ صمّامَ أمانِ حياتِهِ.

يقولُ هادي المدرسي: "أنتَ لا تحتاجُ إلى البحثِ عن السعادة، فهي ستأتيكَ حينما تكونُ قد هيّأتَ لها موقعًا في قلبك، ولو كانت السعادةُ تعني الحياة بلا قلق، لكانَ المجانينُ هم أسعدُ الناس، فالتعساءُ يتخيّلونَ مشاكلَ لا حقيقة لها، ويُناطحونَ أعداءَ لا وجودَ لهم، بينما السعداءُ يتعاملونَ معَ المشاكلِ الموجودة، وكأنّهم مِن عالم الخيال، ومع الأعداءِ وكأنّهم مُحايدون، فالناسُ يبحثونَ عن السعادة، أمّا السعادةُ فتبحثُ عمّن يستحقّها، فإنّ عروسَ السعادةِ لا تُزَفُّ، إلاّ إلى مَن يدفعُ مَهرَها مِن كدِّ يمينِهِ وعَرَقِ جبينِه".

ما هي السعادة؟ ومَن هو المستحقُّ لها؟

"ريكله": هي ذلك الشعورُ المُريحُ الذي يَغمرُكَ، عندما تُدخِلُ البهجةَ إلى قلوبِ الآخرين! فيأتي ردُّ سنيكا: "لا سعادةَ تُعادلُ راحةَ الضمير".

ويقولُ صموئيل سميل: السعادةُ كالشمس، كلّما تقدّمْنا منها، ألقتْ بظلِّ متاعبِها خلفَنا".

بينما يقول د. جيمس باري: "إنّ سرَّ السعادةِ ليسَ في أن يعملَ المرءُ ما يُحبّ، بل في أن يُحبَّ ما ينبغي أن يعمل".

ويردُّ شكسبير: "إنّ تاجي هو في قلبي وليس على رأسي، فإنّ تاجي يُدعى القناعة، إنّهُ تاجٌ قلَّما يستمتعُ بهِ الملوك"، وهذا كلامٌ يُوافقُ الحكمةَ "القناعةُ كنزٌ لا يفنى"!

أمّا الإمامُ جعفر الصادق فيقول: "ما كلُّ مَن أرادَ شيئًا قدِرَ عليه، ولا كلُّ مَن قدِرَ على شيءٍ وُفّقَ له، ولا كلُّ مَن وُفّقَ أصابَ له موضعًا، فإذا اجتمعت النيّةُ والقدرةُ والتوفيقُ والإصابةُ، فهناكَ تمّت السعادة".

أمّا تعريفُ الطبِّ النفسيِّ فيقول: السعادةُ هي الشعورُ بالأمانِ الصحّيّ النفسيّ، والرضا عن الذاتِ الإنسانيّة، والاستقرارِ الفكريّ والوجدانيّ.

ولكن؛ هل تدومُ السعادة؟

يردُّ الشريفُ المرتضي: ألا لا تَرُمْ أنْ تستمرَّ مسرّةٌ عليكَ فأيّامُ السرورِ قلائلُ/ ولا تطلبِ الدنيا فإنّ نعيمَها سرابٌ تراءى في البسيطةِ زائلُ

أينَ نجدُ السعادة؟ وكيف يَراها كلٌّ من الرجل والمرأة؟

تولستوي: "إنّنا نبحثُ عن السعادةِ غالبًا، وهي قريبةٌ منّا.

ويردُّ بيكنسفيلد: "إنّ الرجلَ يتصوّرُ السعادةَ، ولكنّ المرأةَ هي التي تقودُهُ إليها".

فتوجزُ الأمثالُ الفرنسيّة: "المرأةُ منبعُ السعادةِ والأنسِ والسرور، فالرجلُ يتمنّى السعادة، ولكنّ المرأةَ تصنعُها".

أمّا شيلي ونترز فيقولُ: "مهما كانَ نجاحُ المرأةِ في عملِها، فإنّ الحياةَ السعيدةَ لن تُواتيها إلاّ بجوارِ رجلِها".

ويردُّ جبران خليل جبران: "إنّ سعادةَ المرأةِ ليستْ بمجدِ الرجلِ ولا بكَرَمِهِ وحِلمِه، بل بالحُبّ الذي يَضمُّ روحَها إلى روحِهِ، ويجعلُها معهُ عضوًا واحدًا في جسمِ الحياةِ الواحدِ، وكلمةً واحدةً على شفتي الإلهِ الواحد".

فيعترضُ شكسبير مُفنّدًا: "إذا كانتْ سعادةُ الإنسانِ مرهونةٌ بوجودِ شخصٍ معيّنٍ، أو بامتلاكِ شيءٍ مُحدّد فما هي بسعادةٍ، أمّا إذا عرفَ الإنسانُ كيفَ يقفُ وحدَهُ في موقفٍ عصيبٍ، مُؤدّيًا ما يجبُ عليهِ مِن عملٍ بكلِّ ما في قلبِهِ مِن حبٍّ وإخلاص، فهذا الإنسانُ قد وَجَدَ إلى السعادةِ سبيلا".

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقولُ: "إنْ أحببتَ أن تكونَ أسعدَ الناسِ بما عملتَ، فاعملْ"!

فيردُّ حكيم: "سعادةُ الناسِ في أنْ يستريحوا، وراحتُهم في أن يعملوا".

لكن؛ كيفَ يكونُ الإنسانُ سعيدًا؟ بالمالِ؟ بالجنسِ؟ بالأخذِ؟

ردّ المثلُ الإنجليزيّ: "السعيدُ الحقيقيُّ هو الذي يُسعِدُ الآخرين".

وعقبّتْ سومرست موم: "ننشأُ وفي اعتقادِنا أنّ السعادةَ في الأخذ، ثمّ نكتشفُ أنّها في العطاء"!

أمّا إبراهام لنكولن: "وجدتُ أنّ نصيبَ الإنسانِ مِن السعادة، يتوقّفُ غالبًا على رغبتِهِ الصادقةِ في أن يكونَ سعيدًا".

وردُّ سينيكا: إذا أردتَ أن تُسعِدَ رجلاً، فلا تعملْ على زيادةِ ثروتِهِ، ولكن حاولْ أنْ تُقلّلَ مِن رغباتِهِ"!

كيفَ يمكنُ موازنة أهواء المرءِ والسيطرة على رغائبها؟

يقول حكيم: "كلُّ شيءٍ يَنقصُ إذا قسمناهُ على اثنيْن، إلاّ السعادة، فإنّها تزيد".

كيف؟ هل بالاختيارِ المُوفّقِ لشريكِ الحياةِ؟ بالعمل؟ بالوعيِ الدينيّ؟ بالالتزامِ الخُلقيّ؟

كيف يمكنُ للإنسانِ أن يجعلَ مِن كلّ شيءٍ مصدرَ سعادةٍ؟ هل بالنيّةِ والرغبةِ والاستعدادِ لها بتفاؤلِه؟

وهل للسعادة فصولٌ مُؤجّلةٌ ومرحلةٌ عُمريّةٌ معيّنة، كما قالَ جبران خليل جبران: "السعادةُ أنشودةُ طائرٍ مُحَلّقٍ في بدءِ ربيعٍ متأخّر"؟

دراسةٌ أمريكيّةٌ حولَ السعادةِ استمرّتْ 45 عامًا، خلُصَ علماءِ النفس فيها إلى أنّ السعادة (سِرّ الاستقرار) للإنسان، سواءً كانَ رجلاً أم أنثى، تكمنُ في الرغبةِ بالاستمتاعِ بالحياةِ، ومع تقدّمِ العُمرِ يزدادُ الإقبالُ على الحياةِ وترتفعُ الروحُ المعنويّة، ونسبةُ سعادةِ المرأةِ وإقبالِها على الحياة تزدادُ، بعدَ بلوغِها مرحلة الثلاثينيّات مِن العمر، فيتساويان في درجةِ حبّهما للحياةِ، وإحساسِهما بالبهجةِ والسعادةِ".

هل لسعادةِ المرأةِ علاقةٌ بنضوجِها الانفعاليّ والتفكيريّ والوجدانيّ، أم بظروفِ الحياةِ والمجتمع؟

هل سنُّ استقرارِ المرأة هو بتحديد هويّتِها الشخصيّة، وبلورةُ مستقبلِها في العمل، والارتباط وإنجاب الأبناء والاستقرار الأسريّ، أم باستكمالِ رسالتِها الأسريّةِ مِن خلال إنتاجها وعطائِها ومنجزاتها؟

وماذا عن الترويحِ النفسيّ، وتنميةِ قدراتها الدفينةِ الإبداعيّة في أجندةِ اهتماماتِها الخاصّة؟

هل يختلفُ الإحساسُ بالسعادةِ مِن مجتمعٍ إلى مجتمع، ومِن طبقةٍ إلى أخرى، بحسبِ العاداتِ والتقاليدِ والمعاييرِ الاجتماعيّة، أم بالانفتاحِ على العملِ والحُرّيّة، دونَ الخضوعِ للرقابةِ، ولطمسِ الرأيِ والتعبير، أم بالمستوى التعليميّ والثقافيّ؟

الأمومة أجمل كلمة اختزلت الوجود منذ الأزل وإلى الأبد!

الأمومةُ كلمة نالتْ تبجيلاً مُتميِّزًا في سطورِ الحياةِ، وتميُّزًا في المجالِ اللغويِّ والمجازيِّ فقالَ العربُ: رآه بأمِّ عينِهِ، أو ضرَبَهُ على أمِّ رأسِهِ، وأمُّ القوْمِ أي رئيسُهم، وأمُّ الكِتابِ الفاتحةُ، وأمُّ القُرى مكّة، والقدس أمُّ الشعوبِ، والكنيسةُ أمُّ المؤمنينَ المسيحيّين، وحوّاءُ أمُّ البشرِ والأحياءِ!

أمّا على ضفافِ التاريخِ، فقد اعتُبِرَت الأمُّ والدة الأُمَّة الكاملة، وحظيتِ الأمومةُ بالتفاتةِ أقلامِ أدباء وشعراء، فخصّتْها على مرِّ العصورِ بأقوال تُشيدُ بها وبدوْرِها الإنسانيِّ، فها هي ماري هوبكنز تشيد بها قائلة: "الأُمومَة أعظمُ هِبَةٍ خَصَّ الله بها النساء"، أمّا جوبير فيقول: "لو جرّدْنا المرأةَ مِن كلِّ فضيلةٍ، لكفاها فخرًا أنّها تُمثّلُ شرفَ الأمومةِ"، فيَرُدُّ أمين سلامة: الأمومةُ أنصعُ رمزٍ لنجاحِ المرأةِ في دنيا البقاء والوجودِ"! وأضيفُ: إنّ الأمومةَ أجملُ كلمةٍ اختزلتِ الوجودَ منذُ الأزلِ وإلى الأبدِ".

الأمّ هذا الكائن الأرفعُ خلقًا وإبداعًا، جعلَ اللهُ الجنّةَ مِن تحتِ أقدامِها (الحديث الشريف)، وجعلَ الأمومةَ تاجًا متفرِّدًا على هامتِها، تتزيّنُ به وتتجلّى في ملكوت الأمومةِ، كاعتقادِ العربِ قديمًا، أنّ الهدهدَ أبرُّ الطيورِ بأمِّهِ، إذ جعلَ قبرَ أمِّهِ على رأسِهِ، فكافأهُ اللهُ بتاجِ الحبِّ والتفاؤلِ يكلّلُ رأسَهُ، فهل يُعتبرُ عيدُ الأمّ مفهومًا مُستحدَثًا ومُستنسَخًا مِن الحضارةِ الغربيّةِ؟ ألم يكنْ قائمًا في الحضاراتِ الشرقيّةِ مِن قبْل؟

الأمومةُ قدّسَها الأقدمونَ في أساطيرهم، وكانتِ الإلهةُ سيبيل ابنةُ السماءِ والأرضِ أوّلَ مَن كرّمَها أهلُ فريجيا بآسيا الصغرى، حوالي 250 سنة قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام، وعند اليونانيّين كانتِ الإلهة (الأمّ رهيا)، والرومانيّون قدّسوا الأمّ العظيمة (ماجنا مات)، بتاريخ يوم 18/15 آذار من كلّ عام بمهرجان هيلاريا، حيثُ تُجلبُ الهدايا وتوضعُ في المعبدِ، وكلُّ الأعيادِ كانتْ تُقامُ في عيدِ الربيع.

لكن، بمجيءِ المسيحيّةِ فبُدِّلتْ هذهِ العادةُ مِن قِبَلِ الكنيسةِ، وخُصِّصتْ فقط باحتفالاتٍ لتوقيرِ وتبجيلِ السيّدة مريم العذراء، في أحدِ نصفِ الصومِ الكبير في إنجلترا!

أمّا في العصورِ الوسطى، وبسببِ ظروفِ العملِ والتعليم، فقد كانَ يعودُ الأطفالُ في إجازةٍ مَرَّةً في العام، وهو الأحدُ الرابعُ مِنَ الصوْم الكبير لرؤيةِ ذويهم، وقد أُطلِقَ عليه أحدُ الأمّهات، ثمّ توقّفتْ هذهِ الاحتفالاتُ بسببِ الحربِ والغزوِ في الغربِ وأمريكا.

في الولايات المتحدة عام 1870 عادت ثانيةً النداءاتُ بالمطالبةِ بإحياءِ هذا الاحتفالِ السنويّ، على يد الكاتبة جوليا ورد الناشطة الاجتماعيّة، والتي استوحتِ الفكرةَ مِن يوم الأمّ البريطانيّ، فقد وجّهتْ دعوةً بعدَ الحربِ الأهليّةِ الأميركيّةِ، مِن أجلِ توحيدِ النساءِ للسلامِ ضدّ الحرب، والمطالبةِ بنزعِ السلاح، وكانتْ آن آرفيس الأبالشيّة في فيلادلفيا قد سبقتها عام 1858، بفكرةِ تنظيمِ "يوم الأمّ للعمل" في الحربِ الأهليّةِ، لتحسينِ المرافقِ والظروفِ الصحيّةِ لدى الجانبيْن، وفي العام 1868، بدأتِ العملَ على التوفيقِ والتوحيدِ بينَ الجيرانِ، وبعدَ

وفاتِها تتالتْ نداءاتٌ عديدةٌ وحثيثةٌ لتجديدِ فكرةِ الاحتفالِ في الولايات المتّحدةِ الأمريكيّة، فتابعتْ المشوارَ ابنتُها آنا جارفيس (1864-1948)، وقد كانتْ فتاةً ضريرةً، شكّلتْ والدتُها عالمَها الخاصَّ والآمِن، لكن بعد وفاتها في 9-5-1905 بدأ عهدُ ألمِها، فجمعَتْ صديقاتِها وطلبتْ منهنَّ كتابةَ رسائل وخطابات لجميع الوزراء ورجال السياسة، وقالت في رسالتِها: "عشتُ عمري كلّهُ ولم أشعرْ بأنّي ضريرة أو ينقصني شيء، حتّى حلّ يومٌ لاقت فيه أمّي ربّها". قام المسؤول عن ولايةِ فيرجينيا بإصدار أوامر بإقامةِ احتفالٍ لعيد الأمّ 1907/5/12، وقامت الكنيسة بتكريمها غرب فرجينيا وفلادلفيا وبنسلقانيا، ثمّ هبّتْ حملاتٌ واسعةُ النطاق، شملتْ رجالَ الأعمالِ والوزراءِ ورجالِ الكونجرس؛ لإعلان يوم عيد الأم عطلةً رسميّةً في البلاد، ومع عام 1911 كانت كلّ الولايات المتحدة قد احتفلت بهذا اليوم، ودخلت كل من المكسيك، كندا، الصين، اليابان، أمريكا اللاتينية وأفريقيا، ثمّ وافق الكونجرس الأمريكيّ رسميًّا على الإعلان عن الاحتفال بيوم الأمّ، وذلك في 1913/5/10، واختير يوم الأحد الأول من شهر مايو للاحتفال بعيد الأمّ. وقد تحمس للفكرة الرئيس الأمريكيّ ويلسون في عام 1914، وقرّر أن يكون عيد الأمّ عيدًا قوميًّا، وبعد فترةٍ صارَ يوم 21 مارس عيدًا عالميًّا للأمّهاتِ، تحتفلُ به أكثر من خمس وأربعين دولةً غربيّةً وعربيّةً.

أمّا في ألمانيا، فيُقال إنّ هتلر جعل من عيد ميلاد والدتِهِ مناسبةً عامّةً لعيدِ الأمّ، مِن أجلِ تشجيعِ النساءِ على الإنجابِ.

أمّا أحدُ أهمِّ مظاهرِ الحضارةِ الفرعونيّة فقد كان المكانةَ الخاصّةَ بالمرأةِ في نظام المجتمع المصريّ القديم، وخاصّة الأمّ والزوجة، فكانوا يحتفلون بها في احتفالات شبيهة بعيد الأمّ.

أمّا عندَ الأقباط فقد أصبحَ الاحتفالُ يُقامُ على شرف (الكنسيةِ الأمّ)، في الأحدِ الرابع مِن الصوم الكبير، واستمرّ الاحتفال به سنويّا.

وكانت مصر أوّل دولة عربيّة احتفلت به رسميًّا بـ 21 /3 /1956م، مِن أجلِ نشرِ الشعورِ باحترامِ الأمومةِ في الأسرةِ المصريّة، وذلكَ باقتراحِ الأخوَيْن "مصطفى وعلي أمين"، مؤسّسي دار أخبار اليوم الصحفيّة، بتكريس يوم 21/ آذار وهو أوّلُ أيّام فصلِ الربيع؛ ليكونَ رمزًا للتفتّحِ والصفاءِ والمشاعرِ الجميلةِ، ومِن منطلق علي أمين القائل: "لأنّني أحببتُ أمّي، مِن أجلِها أحببتُ كلَّ نساءِ العالم". وقد تبلورتِ الفكرةُ مِن خلالِ رسالةِ أرملةٍ تشكو جفاءَ أبنائِها لها ونكرانِهم لجميلِها، ومِن ثمّ انتشرتْ هذه الفكرةُ في سائرِ الدولِ العربيّة، وفيه يُخصّصُ تكريمُ الأمّهاتِ المثاليّات اللواتي عِشنَ قصصَ كفاحٍ عظيمةٍ، مِن أجل أبنائهنّ في كلِّ صعيد.

أيُّ نوعٍ مِنَ الأمّهاتِ هو المقصودُ والمخصَّصُ في عيد الأمّ؟ أليست هناكَ إناثٌ سويّاتٌ تدفعُهُنَّ الأمومةُ إلى مزيدٍ مِن الرحمةِ والحبِّ، وأخرياتٌ مجرّداتٌ مِن أدنى أسس الرأفة والحنان؟ فهل نُساوي بين هذه وتلك؟ هل الأمومةُ الحقّةُ فائقةُ المعنى والمغزى، تقتصرُ فقط على التشكّلِ في الرحمِ وعلى الولادةِ الجسديّةِ؟ وذاكَ الرحمُ؛ الأحشاءُ الأموميّةُ، أما سُمِّيَ رحمًا مجازًا للرحمةِ والحنانِ؟ لكن، كم مِن ابن ينتمي لأمِّهِ اسميًّا، مع تأمينِ كلِّ مستلزماتِهِ الأساسيّة، غير أنّه مُجرّدٌ مِنَ الحنانِ الحقيقيِّ والبسيطِ، ومِن أيِّ عمقٍ إنسانيٍّ؟ وكم مِن أمّهاتٍ روحيّاتٍ لم يلدنَ

ولم يعرفنَ رجلاً، وربّيْنَ ونلنَ مِن حظّ الأمومةِ ما يفوقُ الوالداتِ، فغذّينَ أطفالاً وأجيالاً مِن ثديِ العقلِ والحنانِ والحكمةِ والبرِّ والرحمةِ!

قال شوبير: ليستْ هناكَ في الحياةِ امرأةٌ واحدةٌ تهَبُ كلَّ حياتِها وكلَّ حنانِها وكلَّ حبِّها، دونَ أن تسألَ عن مقابلٍ إلاّ الأمُّ! وقيل أيضًا بأن أعمقَ عاطفةٍ في المرأةِ هي الأمومة، لكن، هل كلُّ امرأةٍ والدةٍ تتأجّجُ عاطفةُ الأمومة لديها، فتَتهلّلُ وتفرحُ بثِمارِها، وترعاها بقلبها الخافق بالحبّ والرحمةِ والتقوى؟ ألا يحدثُ أحيانًا كثيرةً وغامضةً أن تمتلئَ تلكَ الأحشاءُ الأموميّةُ بالنقمةِ المرعبة بدلَ النعمةِ، لتغدوَ هذه الفسائلُ مدعاةً للحَرامِ وَضحايا مجتمعٍ لا يرحَمُ؟

قال بيتشر "قلبُ الأمّ مدرسةُ الطفلِ"، إذًا؛ كيف نفسّرُ امتلاءَ حاوياتِ نفاياتِ الحياةِ بغرباءَ مجهولي النسبِ والهُويّةِ؟ وأيُّ قلوبٍ هذهِ التي جنَتْ على لقطاءَ، بإتيانهم إلى مدرسة التشرّدِ والضياع، فكيف تراهم هؤلاء الضحايا يشعرونَ في يوم عيد الأمّ، تجاهَ أمّهاتٍ وآباءَ لا تربطُ قلوبَهم بالأبوّةِ والأمومةِ صِلةٌ إنسانيّةٌ، ولا حتّى أدنى صلةٍ حيوانيّةٍ؟ وكم مِن أبناء تخرّجوا مِن مدرسةِ الحياةِ موتى، يحملونَ شهاداتِ استبعادٍ واستعبادٍ لأُسسٍ وحِججٍ واهيةٍ، تتعلّقُ بمجرّدِ عاداتٍ وأعرافٍ أوجدَها المجتمعُ دونَ الرأفة بهم؟

استوقفتني مقولة مفادها، أنّ الأمَّ التي تهزُّ السريرَ بيدٍ، وتهزُّ العالم باليدِ الثانية، حين كنتُ أطالعُ مقالاً عن مجلّةِ لو سوسيال الفرنسيّةِ المعنيّةِ بشؤونِ الفلسفةِ والاجتماعِ، في عددِها الصادرِ في شهر أكتوبر 2008، نشرَت المانشيت الرئيسيّ، "إلى أينَ نذهبُ يا أبي، فنحنُ مجرّد لقطاء"، وذلك، بناءً على بحثٍ يُؤكّدُ أنّ عددَ اللقطاءِ ومجهولي النسَبِ في فرنسا وصلَ إلى مليون ونصف المليون تقريبًا، والمفجع، أنّ عددَ اللقطاءَ في أوروبا يتعدّى 10% مِن سكّان العالم! المأساةُ الحقيقيّة هي، إن كانَت النسبة هذه عن قارّةِ أوروبا وحدَها، فماذا عن سائرِ قارّاتِ العالم؟ هل مِن بحوثٍ توضحُ حقيقةَ البشريّةَ، وعلى أيّةِ درجةٍ مِن درجاتِ سُلّمِ الإنسانيّةِ تقف؟ هل قدَرُ المرأةِ أن تظلَّ متفرّعةَ الأغصانِ والأحلامِ المزهرةِ، تمتدُّ جذورُ انتظارِها في ثرى الزمنِ، إلى أن تُصبحَ أُمًّا، وقد تكون الأمومةُ نعمةً لها أو نقمةً عليها؟ مَن الذي يُحدّدُ المقاييسَ والموازينَ لدرجةِ الأمومةِ هذهِ؟ يردّ عبد الله بن المقفع: مستقبلُ المجتمعِ بينَ أيدي الأمّهاتِ، فإذا كانتِ المرأةُ سببَ ضياعِ العالمِ، فهي وحدها تستطيعُ إنقاذَهُ!

هل هي وحدها المسؤولة؟ وكيف يتأتى لها أن تنقذ المجتمع وبأيّة الوسائل؟ أما قيل: "الأمّ تلد الأمّة"، لكن؛ ماذا عن مجتمعٍ يسودُهُ تمَزُّقٌ اجتماعيٌّ قد يكونُ ظاهرًا أو خفيًا، فهل تنشأ أمّةٌ ملأى بالثقوب، يتساقطُ منها على الطرقاتِ وفي الظلماتِ أطفالٌ، لا يجدونَ مكانًا لإيوائِهم، فيَجعلونَ بيوتَهم أرصفةَ الشوارع، ويلجؤون للكثير ممّن يحنّون ويتعطّفون عليهم مِن المُستغلّين لهم، بأعمالٍ لا مشروعة كالدعارةِ وتجارةِ المخدّراتِ والسرقةِ والنهبِ والعمل مع عصابات؟

فيردّ جميل الزهاوي قائلا: ليسَ يَرقى الأبناءُ في أمّةٍ ما لم تكنْ ترَقّتِ الأمّهات! وحافظ إبراهيم يؤكّدُ دوْرَ المجتمع في تقديرِ الأمّ وأدوارِها البنّاءة قائلا: "الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددْتَها أعددْتَ شعبًا طيّبَ الأعراقِ". فهل تلتفتُ البشريّةُ بمجتمعاتها ومدارسِها إلى حياةِ الإنسانِ ككائنٍ وكيانٍ له تقديرُهُ، دونَ أن تهتمّ بالرمزِ شكليًا وظاهريًا، لئلاّ ينهارَ الرمزُ والإنسانُ جوهريًا، وبالتالي تسقطُ الإنسانيّةُ قشرةً ولُبًّا؟

مستقبلُ المجتمعُ بينَ أيدي الأمّهات!

حدودُ المرأةِ لم تقتصرْ فقط على تسميتِها بأسماءِ الطبيعة: شمس، قمر، نجوم، أنهار، زهرة، نرجس ..الخ، بل تعدّتها إلى الحياةِ، فالأنثى حالفتْ دورةَ القمرِ بدورتِها الشهريّةِ وباكتمالِ البدْر، وعُدّ جهازُها التناسليُّ "الحيا" منبعَ الذرّيّةِ ووالدَ الحياةِ في الطبيعة، لذا هابَها الإنسانُ، وجعلَ معظمَ معبوداتِهِ أنثويّةً قبلَ ظهورِ الرسالاتِ السماويّةِ، وفي زمنِ المجتمعِ الأموميِّ ألّهَها وعبَدَها كما عبَدَ الطبيعةَ، ولكنّهُ حينما تمكّنَ منها بثقافتِهِ وسيطرَ عليها، نالَ مِنَ المرأةِ ما نالَهُ مِنَ الطبيعة، واختفى المجتمعُ الأموميُّ، فصارتْ بعضُ الأمثالِ الشعبيّةِ الشرقيّةِ والغربيّةِ تنتقصُ مِن قدْرِ المرأةِ وتحُطُّ مِن شأنِها عقلاً وديناً وقيمةً بشكلٍ مُجحِفٍ، وهيمَنَ المجتمعُ الذكوريُّ على زمامِ الأمور، فأتى قولُ جورج صاند: "المرأةُ سماءٌ صافيةٌ تتلبّدُ بالغيومِ حينَ تُمَسُّ كرامتُها".

ويَردُّ د.جوليان بيزنسون ناقدًا: "مِنَ المستحيلِ أن تُحِبَّ المرأةُ الرجلَ الذي يضعُها دائمًا في منزلةٍ أقلّ"!

لقد ورَدَ في أحدِ الأمثالِ الشرقيّةِ: "إنْ كانَ الرجلُ بحرًا، فالمرأةُ تكونُ جسرًا"، فرَدَّ المثلُ الإنجليزيُّ، لكن، "النساءُ والجسورُ تحتاجُ دومًا إلى ترميم"!

مَن يرمّمُ النساءَ وكيف؟ هل بثقافةِ الرجل؟ هل يستبدُّ الرجلُ بالمرأةِ، كما استبدّتْ ثقافتُهُ بالطبيعةِ وبتغييرِ معالِمِها الأولى؟

هل يكونُ ترميمُ المرأةِ بعمليّاتِ التجميلِ بمختلفِ أنواعِها التي نشهدُها اليوم، مِن شدِّ عضلاتِ الوجهِ والبطن، إلى تصغيرِ المعدة وتكبيرِ الأثداء، وتغييرِ ملامحِ وجهٍ وأنفٍ وشفاهٍ ومظهرٍ وشكلٍ ولونِ العينيْنِ والشعرِ بحسب الفصول؟ هل تتجدّدُ المرأة وترمّمُ بترقيعِ غشاءِ البكارةِ، وإجراءِ عمليّاتِ ترميمٍ لأعضاءِ النساءِ المختّنات والمعنّفاتِ المشوّهات، أم بترميمِ جهْلِها مِن خلالِ تنويرِها وتعليمِها وتثقيفِها؟

فولتر يقول: "الزوجةُ المُتعلّمةُ هي مفتاحُ البيت"، ويقولُ مصطفى لطفي المنفلوطي: "علّموا المرأةَ لتجعلوا منها مدرسةً يتعلّمُ فيها أولادُكم قبلَ المدرسة، ويتربّى في حِجْرِها المستقبلُ العظيم"، فيُجيبُ فان هرست: "إذا علّمتَ رجلاً فإنّكَ تُعلّمُ فردًا، وإذا علّمتَ امرأةً فإنّكَ تُعلّمُ جيلاً"، أمّا ابنُ المُقفّعِ فيقول: بل، "مستقبلُ المجتمعِ بينَ أيدي الأمّهاتِ، وإن ضاعَ العالمُ، فهي وحدَها تستطيعُ إنقاذَهُ".

كيف؟ وماذا تحتاجُ المرأةُ إضافةً إلى العِلم؟ يقول غلادستون: "أعظمُ مخلوقٍ هو المرأةُ لو عرفَتْ قدْرَ نفسِها"؟ وكيفَ تعرفُ المرأةُ قدْرَها إلاّ بتعزيزِ ثقتِها بنفسِها؟ يقولُ هوراس: "المرأةُ الواثقةُ بنفسِها تقودُ الآخرين"، ويؤكّدُ بلزاك" بقوله: "المرأةُ الواثقةُ بنفسِها في كلِّ مراحلِ عمْرِها امرأةٌ جديدة"!

وتؤكّدُ الملكةُ سميراميس: "نعم، لقد صوّرتني الطبيعةُ امرأةً، ولكنّ أعمالي في مجتمعي فاقتْ أشجعَ الرجال".

كيفَ كانَ لها ذلك؟ وهل المرأةُ يمكنُها أن تتألّقَ فيما لو أُتيحتْ لها فرَصُ العملِ والإدارةِ والسياسةِ؟ يقولُ أناتول فرانس: "المرأةُ هي مكوّنةُ المجتمع، فلها عليهِ تمامُ السُّلطةِ، لا يعملُ فيهِ شيءٌ إلاّ بها ولأجلها"، فكيف لو اجتمعَ في المرأةِ علمٌ وثقةٌ وارادةٌ وتقديرٌ للذات؟ فيردُّ بلزاك: "المرأةُ دائمًا في طليعةِ كلِّ نبوغٍ ومهارةٍ وعبقريّة"!

هل النساءُ أوطانُ الرجالِ اللامحدودة في خارطةِ الكوْن؟ المرأةُ جوهرةُ الزمكانِ الثمينةِ، لا يُدركُ قدْرَها إلاّ صاغةٌ مهَرَةٌ، إذ تُشكّلُ مناخَهُ العاطفيَّ، وتُرصّعُهُ بالحضورِ السرمديّ وبالسمو، وتُطرّز روحَهُ بالسعادة والنور، لأنّها تحملُ في روحِها فصولَ الطبيعةِ، وفي كيانِها ألوانَ الحياة، وقد يستغربُ بعضُنا جوابَ الأميرِ الإنجليزيِّ، حينما سُؤلَ عن ليلةِ زواجِهِ الأولى مِن أميرةٍ إسبانيّةٍ فقال: "لقد قضيتُ ليلةَ أمس ليلةً كاملةً في إسبانيا"، وحينَ سألوهُ عن دخلتِهِ على الأميرة، أشارَ إلى أنّهُ رأى بجسمِها كلَّ تفاصيلِ إسبانيا.

هناكَ بعضُ أمثالٍ أعلتْ مِن شأنِ المرأةِ وأنصفتْها، حينَ جعلتْ مِنَ المرأةِ طبيعةً جميلةً مُتجدّدةً، فكيف تُمثّلُ المرأةُ الطبيعةَ بفصولِها؟ قيلَ في الأمثالِ البولونيّة: "الربيعُ عذراء، والصيفُ أمّ، والخريفُ أرملة، والشتاء زوجة"! حينَ يفوحُ أريجُ أنوثتِها تتألّقُ شمسُها الدافئةُ لتنضجَ فواكهُها، وحينما تعصفُ أحزانُها بشبابِها، ينوءُ بخجَلِهِ ويُوَلّي على استحياءٍ إلى حكمةٍ مُبطّنةٍ، لتروي بحنانِها وحُبِّها عاطفةً دفينةً!

يقولُ فولتير: "المرأةُ شعاعٌ مِن أشعّةِ السماءِ"، فيجيبُهُ إليوت: بل "المرأةُ عندما لا تستطيعُ أن تكونَ نجمةً في السماءِ، تكونُ شمعةً في بيتِها". نعم، هي المُشعّةُ بدفْءِ الزمانِ وأناقةِ المكان، كواحةٍ غنّاءَ في صحراءَ جدباء، تُزهرُ ربيعًا وتضوعُ عطرًا وخضرةً، فيستظِلُّ بفيْءِ حنانِها المُحبّونَ والأطفالَ عندَ هجيرِ الصيفِ، لتُواجهَ العواصفَ والريح الزمهرير خريفًا، ثمّ تتجدّدُ شبابًا وجمالاً وإخلاصًا وعطاءً في الشتاءِ الماطرِ القارس!

أمّا الشاعرُ السوريُّ محمّد إبراهيم حمدان فيقول: "المرأةُ كونٌ يتجلّى الربيعُ في جمالِها، والصيفُ في دفْئِها، والشتاءُ في غضبِها وقسْوتِها، والخريفُ في عطائِها، وهي المرأةُ التي نرى انعكاسَ ذواتِنا مِن خلالِ شفافيّةِ أطيافِها، وعندما تتوهّجُ قناديلُ العشقِ في أعماقِنا، تتجلّى المرأةُ عبْرَ إشراقاتِ الضوءِ وانكساراتِ الظلالِ حُلمًا شهيًّا، ووعدًا نديًّا، ورغبةً تمتاحُ مِن نسْغِ الأزلِ شوقًا يُفتّقُ رتقَ الروحِ في روْضِ الأبد، فالشعورُ بالحاجةِ إلى المرأةِ ترجمةٌ حقيقيّةٌ لشعورِنا بالحاجةِ إلى الحياةِ، ولهذا أُحِبُّ في المرأةِ سكونَها وجنونَها، أُحِبُّ جمالَ الروحِ في نزقِ الجسدِ، وبراءةَ الشوقِ المُعتّقِ بالنقاءِ، وأسْكَرُ مِن تسابيحِ ذكائِها".

ويردُّ ميشليه: "المرأةُ بالنسبةِ لنا كالسماءِ بالنسبةِ للأرض، فهي فوق وتحت ومِن حولِنا، منها نستمدُّ الحياةَ وهي تكتنفُنا، نستنشقُها، فهي الفضاءُ وسِرُّ القلبِ والحياةِ"!

وأخيرًا.. في حساباتِ شرقِنا، هل الطبيعةُ الخلاّبةُ المُسمّاةُ امرأةً، تتحلّى بأنوثةٍ فائقةٍ، وتتجلّى بمكانةٍ آسرةٍ مِن جَمالٍ وذكاءٍ وعطاءٍ وحُبٍّ يُشعُّ بكبرياءٍ هادئٍ على حواشي الزمان، وتقفُ بعنادٍ كجبلٍ صنديدٍ لتنفضَ عناءَ السنينِ الذابلةِ عنّا بأنفاسِها؟

المرأةُ دموعٌ تعزفُها أوتارُ قيثارةٍ جريحةٍ!

المرأةُ والدموعُ قيثارةُ المُحبّينَ وربابةُ ذوي القلوبِ الجريحةِ، عزفَ على أوتارِها الشعراءُ، دموعَ الأطفالِ البريئة والمرأةِ الرقيقةِ، دموعَ الوفاءِ الجميلةِ والانتصارِ العظيمةِ، دموعَ التوبةِ والعزاءِ الحزينةِ، دموعَ الفرحِ السعيدةِ والألمِ القاسيةِ، فقطّعتْها دموعُ التماسيح!

دموعٌ تسلّلتْ إلى حصونِ أعتى الرجالِ الأشدّاءِ المنيعةِ، فذاك نابليون بونابرت ودّعَ أهراماتِ مصرَ الشامخةَ بدموعٍ قبلَ رحيلِهِ إلى فرنسا، وهتلر غزَتْ حدَقتيْهِ الدموعُ حينَ عزمَ على الانتحارِ مع جميلتِهِ إيفا براون، ولا زالَ عطرُ الدموعِ ينفطرُ دونَ اسئذانٍ في معركتِهِ الخاسرةِ الرابحةِ!

هل الدموعُ لغةٌ تعلّمَها الإنسانُ ليُمارسَها في لحظاتِ قهرٍ وحرجٍ، ألمٍ جسديٍّ يزلزلُ جسمَهُ، بلحظةِ رعبٍ من مرضٍ عضالٍ ويأسٍ مِن شفاء، ندمٍ واكتئابٍ، موتٍ وفِراقٍ، فقدِ عزيزٍ كسرابِ عمرٍ ضاعَ في هباء؟

هل البكاءُ عيبٌ، أم استجابةٌ طبيعيّةٌ لانفعالاتٍ بشريّةٍ لكلّ الأعمارِ والأجناس، أم تعبيرٌ عن شخصيّةٍ ضعيفةٍ؟ هل البكاءُ لعبةُ المرأةِ، "تبتسمُ عندما تستطيعُ وتبكي عندما تريد" كقول بيسون، أم "تبكي بلا ألمٍ والرجلُ يتألّمُ بلا بكاء"؟

يُعقّبُ أنيس منصور: "لكي تنجحَ مع المرأةِ، إذا ابتسمَتْ لكَ، فكُنْ شمعةً تذوبُ، وإذا بكَتْ، فكنْ صخرةً لا تلين"!

هل يقصدُ دموعَ التماسيح الخادعةَ الزائفةَ الوصوليّة؟ وماذا عن مقولةِ سافييل: "نظراتُ المرأةِ أقوى قانونٍ، ودموعُها أصدقُ برهانٍ"؟

هل "الدموعُ تغسلُ عينَي المرأةِ وتمزّقُ قلبَ الرجل"، لِما لها مِن تأثير باستدرارِ العاطفةِ، وكقول أوجست كونت: "لا تلبثُ دموعُ المرأةِ أن تسقطَ على قلبٍ متحجّرٍ، حتّى تحفر فيهِ أخاديدَ التبكيتِ"؟

هل فعلاً المرأةُ التي تبكي دونَ خجلٍ، هى امرأةٌ وصلتْ إلى قمّةِ النضجِ النفسيِّ والذهنيِّ كما ورد في الدراساتِ النفسيّة؟

هل في الدموع داءٌ أم دواء؟ هل بها فوائدُ للنفسِ أم للجسدِ؟

يرى الباحثونَ في كبتِ الدموعِ مضارًا تؤدّي إلى طفحٍ جلديٍّ، قرحةِ المعدةِ، إصابةِ القولون والجهازِ التنفسيِّ، فالدموعُ تحمي النساءَ مِن إصابةِ المرارةِ بالحصى، كما تساهمُ في زيادةِ متوسّطِ أعمارِهنَّ على الرجال، لسهولةِ الانخراطِ في نوباتِ البكاء، فيقول سقراط: "تستطيعُ الشمسُ أن تجفّفَ مياهَ المحيط، ولكنّها لن تستطيعَ أن تجفّفَ دموعَ المرأةِ"، لأنّ المشاعرَ الدفينةَ تجدُ قنواتٍ عبْرَ مجرى الدموع! فهل حقا.. "الصابونُ لجسمِكَ والدموعُ لروحِكَ"؟

الدموعُ تحتوي على هرمونات و25% بروتينات وجزءٍ مِن المعادن منها المغنيسيوم السامّ، يتخلّصُ منهُ الإنسانُ بالبكاءِ، والأندروفين مُسكّنُ ألمٍ طبيعيّ، يطردُ الموادَّ السامّة منَ الجسمِ ويُخفّفُ حدّةَ الضغطِ النفسيِّ، فتُريحُ النفسُ المحتّقنةَ وتؤمّنُ التفريغَ النفسيّ مِن توتّرِهِ العاصفِ بالصحّة.

يقول د. بيل فري مِن مركزِ أبحاثِ الدمع وجفافِ العين فى ولاية ميناسوتا الأمريكيّة: أن 85% مِن النساءِ و73% من الرجال يشعرونَ بالارتياح بعدَ البكاء، فالدموعُ تخلّصُ الجسمَ مِن الموادِّ الكيماويّةِ المتعلّقةِ بالضغطِ النفسيّ، لأنّ التركيبَ الكيميائيّ للدمع يحتوي على كميّةٍ كبيرةٍ مِن هرموني "البرولاكين" و"آي سي تي أتش"، اللذيْنِ يتواجدانِ فى الدم في حالِ التعرّضِ للضغط. لكن؛ هل "المرأةُ أسرعُ مِنَ الرجلِ في البكاءِ وتذكّرِ الأشياء التي مِن أجلِها ذرفتْ دموعَها" كقول إبراهيم المصريّ؟

وهل حقا "لا تخدعْكَ دموعُ المرأة ، فقد درّبتْ عينيْها على البكاءِ" كقول الكسندر دوماس؟

الدموعُ سمةٌ مِن سماتِ أنوثةِ المرأةِ وتفوّقِها على الرجل، تنشأُ مع تكوينِها الهرمونيِّ، فتجعلُ مشاعرَها جيّاشةً تزيدُها رقّةً وجمالاً وأمومةً، ونسبةُ بكاءِ النساء خمسةُ أضعافِ الرجالِ علميًّا، بسببِ هرمون البرولاكين المسؤولِ عن إفرازِ الحليب، والمتواجدِ لدى النساءِ بكميّاتٍ أكبر. ولكن؛ ألا يليقُ بالرجلِ أيضًا أن يُعبّرَ عن مشاعرِ ألمِهِ علانيّةً، أم يُعتبرُ ذلك انتقاصًا مِن رجولتِهِ؟

د. بريان روت مؤلّفُ كتاب "مكان آمن للبكاء" يقول، إنّ تقاليدَ التنشئةِ تحثُّ الرجالَ على كبْح جماحِ الرغبةِ فى البكاءِ، و"لسببٍ ما قرّرَ المجتمعُ التعبيرَ عن المشاعر بهذهِ الطريقةِ غيرِ الصحّيّة، في حين أنّ التعبيرَ عن العواطفِ أفضلُ بكثيرٍ مِن كبتِها".

الدموعُ أداةٌ وقائيّةٌ للعينِ مِن الجراثيمِ الموجودةِ في الهواءِ، إذ تحتوي على أملاحٍ وإنزيماتٍ تقتلُ الكائناتِ الدقيقة، وتُطهّرُ العينَ مِن موادّ مُهيّجةٍ كأبخرةِ البصَلِ والفلفل والدخانِ والغبارِ وملوّثاتٍ أخرى، فتُعيدُ شفافيّةَ وألقَ القرنيّة، ووضوحَ الرؤيةِ وقوّةَ ودقّةَ الإبصارِ، وتُكسبُ العينَ رطوبةً وتحميها مِنَ الجفافِ، وتُسهّلُ عليها الحركةَ بمرونةٍ في التجويفِ، إذ تفتحُ وتغمَضُ العينُ بشكلٍ لا إراديٍّ بمعدّل 20 مرّة فى الدقيقة.

لطالما تُعدُّ الدموعُ رمزًا للنُّبلِ الإنسانيِّ، وعلاجًا شافيًا وصحّيًا يهدّئُ ويُروّحُ عن الإنسانِ، فما قولُ الدينِ والأدبِ بدموعِ الرجال؟

في سورة مريم: آية (58) (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّدا وبُكيًا). وفي سورة البقرة آية 92 "تولوا وأعينُهم تفيضُ مِنَ الدمع ألاّ يجدوا ما ينفقون". وفي الحديثِ المأثورِ عن النبيّ (صلعم) عندما حزنَ وبكى على فقدانِ ابنِهِ إبراهيم قال: "إنّ العينَ لتدمعُ، وإنّ القلبَ ليحزنُ، وإنّا لفراقِكَ يا إبراهيم لمحزونونَ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون".

والإمامُ عليّ بنُ أبي طالب قالَ: ما بكتْ عينٌ إلاّ ووراءَها قلبٌ ولجمالِ العينِ التي تجليها"، فهل يعكسُ المثلَ الفرنسيّ، "اتّبعْ قلبَكَ دائمًا لكي يلمعَ وجهُكَ طوالَ فترةِ حياتِك"، أم تؤكّد المثلَ العربيّ، "لن يكونَ للقلبِ قوسُ قزح إذا جفّتِ الدموعُ مِنَ العيونِ؟

قالَ نزار قبّاني: إنّي أحبُّكِ عندما تبكينا وأحبُّ وجهَكِ غائمًا وحزينا/ الحزنُ يصهرُنا معًا ويذيبُنا مِن حيثُ لا أدري ولا تدرينا/ تلكَ الدموعُ الهامياتُ أحبُّها وأحبُّ خلفَ سقوطِها تشرينا/ بعضُ النساءِ وجوهُهُنَّ جميلةٌ وتصيرُ أجملَ عندما يبكينا.

وقال ابنُ زيدون/ بنتمْ وبنّا، فما ابتلَّتْ جوانحُنا شوقًا إليكم ولا جفّتْ مآقينا وقال محمّد علي السنوسي: دموعُك يا حسناءُ تغري بي الهوى فعيناكِ مينائي وقلبي قد رسا/ لقد كنتِ لو تدرينَ منديلَ راحةٍ يُجفّفُ إحساسي دموعَكِ والأسى.

والشاعر القرويّ: ورحتُ كطفلٍ يلتقي الأُمّ باكيًا وعند لُمي أنّني أتباكى/ فأجفلَها دمعي كوردٍ بصدرِها تنثّر أثناءَ العناقِ وشاكا/ وقالتْ: فِدى عينيْكَ ألفُ لميةٍ! لتبكِ عيونُ العالمينَ عداكا/ أمثلُكَ يبكي؟ قلتُ: لو يسعدُ البكا! فقالت: حبيبي مُرْ جعلتُ فداكا/ عيوني تبغي أم خدودي أم فمي؟ فقلت لها: هذي وتلكَ وذاكا.

ولكن؛ هل ننسى أنّ الدموعَ قد تنعقدُ وتتحجّرُ أحيانًا في حين حاجتِنا الماسّةِ لها؟ وأنّ هناكَ دموعًا مَرَضِيّةً، تسيلُ بشكلٍ متواصلٍ عندَ انسدادِ مجرى الدمع، ممّا يؤدّي إلى تليينٍ في الجفنِ الأسفل، والاضطرارِ إلى عمليّةٍ جراحيّةٍ تجميليّة؟

بصمات عازفة!

يقولُ أرسطو: "الإنسانُ هو أصْلُ كلِّ ما يفعلُ"، وكلُّ عملٍ لا بدَّ أن يخضعَ لميزانِ النجاح والفشلِ، ويقولُ مارك لوتن: إذًا "إفعلِ الشيءَ الصحيح، فإنّ ذلكَ سوفَ يجعلُ البعضَ يكونُ مُمتنًّا، بينما يندهشُ الباقون".

حينَ نطالعُ قصصًا أُقيمتْ على أسسٍ متينةٍ مِنَ النجاحِ ننذهلُ، وتمتلئُ الروحُ بغبطةٍ حالمةٍ، فيها مِنَ التقديرِ والتبجيلِ لجرأةِ أبطالٍ حقّقوا أحلامَهم، بقدرِ ما فيها مِن جوانبَ إنسانيّةٍ تفوّقتْ في مسيرةِ الحياةِ العمليّة، لتتركَ بصماتٍ محفورةً على جذوعِ الحياةِ الاجتماعيّة، وعطرَ اعتزازٍ وافتخارٍ فوّاحٍ بهذهِ النخبِ المتميّزةِ، التي تمكّنتْ مِنَ المحافظةِ على السيطرةِ على النفسِ، والاتزانِ في الاضطراباتِ والطوارئِ، فشقّتْ أصعبَ الطرُقِ، وتخطّتِ الصعابَ ومطبّاتِ الفشل، لتتبوّأ عرْشَ النجاح.

فهل كقول بروانبخ: "نحنُ نسقطُ لننهضَ، ونُهزمُ في المعاركِ لنُحقّق نصرًا أروعَ، تمامًا كما ننامُ، لنصحوَ أكثرَ قوّةً ونشاطًا"، أم أنّ لدى هؤلاءِ الناجحينَ مؤهّلاتٍ خارقةً وميزاتٍ فذّةً مِنَ الذكاءِ، أم قوّةَ إرادةٍ خاصّة؟

قيلَ: "إنَّ أرفعَ درجاتِ الحِكمةِ البشريّةِ هي مسايرةُ الظروفِ وخلقُ سكينةٍ وهدوءٍ داخليّيْن، على الرغمِ مِنَ العواصفِ الخارجيّة"!

يقول توماس كارليل: "إنسانٌ بدونِ هدفٍ كسفينةٍ بدونِ دفّةٍ، كلاهُما سوفَ ينتهي بهما الأمرُ على الصخور"!

ويضيفُ روبرت شولر: "ليستِ الأهدافُ ضروريّةً لتحفيزِنا فحسْب، بل هي أساسيّة فعلاً لبقائِنا على قيدِ الحياة"!

فهل تستحقُّ الحياةُ أن تتفتّقَ حيويّةً وديناميكيّةً وطاقةً في سلسلةٍ مِن مغامراتٍ جريئةٍ، تهدفُ إلى الخروجِ عن المألوفِ والمعتادِ؟

وهل يستطيع كلُّ فرْدٍ أن يخرجَ بقراراتٍ تحملُ العزمَ بالفوزِ وعدم الرضوخِ للهزيمة؟

وها قولُ شاعرُنا أبو قاسم الشابي يُعندلُ للحياةِ: "ومَنْ يتهيّبُ صعودَ الجبالِ يَعِشْ أبَدَ الدهرِ بينَ الحُفَر"! فهل تتّسعُ قممُ الجبالِ لكثيرٍ مِنَ الناجحينَ المتميّزين؟

وإنْ كانَ لا بدَّ مِن تغييرِ الحياةِ وتحسينِ ظروفِها إلى الأفضلِ، فهل لا بدَّ أيضًا أن يُزامنَ القرارَ جهدٌ وثقةٌ بالنفسِ وإيمانٌ بالنجاح، مهما كانتْ عددُ المحاولاتِ الفاشلة؟ وكيفَ يكونُ الردُّ على الهزيمةِ؟

يقولُ ونستون تشرتشل: "إنّ الإجابةَ الوحيدةَ على الهزيمةِ هي الانتصارُ"، لأنّ الفشلَ هزيمةٌ مؤقّتةٌ، تخلقُ دوافعَ وفرصًا أكبرَ للنجاح، والهروبُ مِنَ المحاولةِ دليلُ فشلٍ ذريعٍ يُلازمُهُ شعورٌ بالمرارةِ والتعاسة!

لكن، يقولُ روزفلت: "السعادةُ تكمُنُ في متعةِ الإنجازِ ونشوةِ المجهودِ المبدع"، فليستْ قصصُ النجاحاتِ المذهلةِ تقومُ إلاّ بتحضيرٍ مسبَقٍ مدروسٍ، وبرؤيا حكيمةٍ تتكهّنُ المستقبلَ دونَ تخوّفٍ، يتخلّلُها عملٌ جادٌّ واجتهادٌ ومثابرةٌ، فبالمثابرةِ يمكنُ تخطّي كلّ الحدودِ لأبطالٍ يحقّقونَ أحلامَهم، خاصّةً، إذا الإنسانُ عرفَ إمكاناتِهِ وقدراتِهِ!

يقولُ رالف وامرسون: "إنّ العالمَ يُفسحُ الطريقَ لمرءٍ يعرفُ إلى أين هو ذاهبٌ"!

فهل النجاحُ نتاجُ فرصةٍ أم حظٍّ أم ظرْفٍ؟

هل هو سليلُ إرْثٍ أم وليدُ صدفةٍ، أم مخطّطٌ عصاميٌّ؟

هل الاستسلامُ والإحباطُ والانتكاساتُ كلُّها عتباتُ كآبةٍ تودي إلى بوّاباتِ الفشل، وتقفُ عقباتٍ أمامَ النجاح؟

إذًا؛ ما هي الأسرارُ الخفيّةُ التي تضيءُ دروبَ النجاحِ ومحطّاتِ الفشل؟

هل يأتي النجاحُ دفعةً واحدةً، أم مُتدرّجًا على خطى الإيمانِ المستمرّةِ في البحثِ وتحقيقِ الإنجازِ دونَ توانٍ؟

ولماذا يُحارَبُ الناجحونَ وتُقزّمُ وتحجَّمُ نجاحاتُهم؟

كيف تُقيّمُ النجاحاتُ وما هي مقاييسُها ومعاييرُها؟ هل هي نسبيّةٌ أم مُطلَقةٌ؟ كيفَ ومتى؟

كوكو شانيل غابرييل بونور شانيل الفرنسية (19.8.1883 – 10.12.1971)، وليدةُ علاقةٍ لا شرعيّةٍ، عاشتْ طفولةً كئيبةً في دارِ أيتام، وبتصميمٍ عنيدٍ وجريءٍ استطاعتْ أن تخرُجَ مِن واقعِها المرير، مثّلتْ في فيلميْن، وغنّتْ في إحدى الحانات، ثمّ أصبحتْ سيّدةَ مجتمعٍ تُجسّدُ حياةَ امرأةٍ ناجحةٍ وعملاقة الموضة، ومن أهمّ الشخصيّاتِ العالميّةِ في القرن العشرين في عالم تصميم الأزياء، إذ دخلتْ قصرَ الإنسانيّةِ مِن باب التاريخ الضيّق، بإنجازاتِها النسويّةِ المتميّزةِ المُبدعة، وعبْرَ مسيرةِ نضالِ امرأةٍ رسمتْ أهدافَها، فأدخلت البساطةَ الراقية في تصميمِ ملابسِ المرأة، وكانَ لها أثرٌ كبيرٌ في التغييرِ وبنمطِ التفكيرِ في مجتمعٍ تقليديٍّ يحاصرُها، فتحتْ محَلَّ غناء Music Hall، واحتوى على ملابسَ غريبةٍ وجريئةٍ غير مألوفةٍ وجذّابةٍ لافتةٍ للأنظار، وهي صاحبةُ فكرة البنطال للنساء، فحوّلت الزيّ الرجاليّ إلى نسائيّ Uni-sex Fashion، ابتكرتْ زيَّ العملِ النسائيّ Female Business Suits، وصمّمتِ القبّعاتِ الريشيّةَ المتنوّعة، والفستانَ الأسودَ الصغير Little Black Dress، باستعمالِ اللؤلؤِ والمجوهراتِ والقصّاتِ الخفيفة، والأثواب المزركشة الضيّقة، ثمّ توسّعتْ في مجال المجوهراتِ والعطور، ومن أشهرها هوChanel N.5 ، كانَ رقمُها في دار الأيتام، وقد ذكرتْهُ أحلام مستغانمي ومارلين مونرو كدليلٍ على يُتمِهما، فهذهِ المرأةُ صوّبتْ أنظارَ العالم إليها، وصارتْ شخصيّةً عالميّةً في عالمِ النجاح والمتميّزين.

هل للنجاحِ علاقةٌ بذكاءٍ خارقٍ؟ أم بإدارةٍ حكيمةٍ، أم بإرادةٍ وعزيمةٍ وإصرارٍ؟

هل لنجاحاتِ المرأةِ نكهةٌ خاصّةٌ تختلفُ عن نكهةِ نجاحِ الرجل؟ لماذا؟

المخترعُ توماس أديسون حينَ كانَ طفلاً شكا معلّموهُ مِن استيعابِهِ البطيء، فدرّستْهُ والدتُهُ في البيت وكان مولعًا بالعلوم، أعدّ مختبرَ كيمياء في منزلِهِ في العاشرةِ مِن عمرِهِ، وانتهى بهِ المطافُ إلى مخترعٍ لأوّلِ فونغراف ومشغّلِ اسطوانات وناسخة، كما طوّرَ جهازَ الهاتفِ والشريطِ السينمائيّ، وأهمُّ اختراعاتِهِ المصباحُ الكهربائيّ، وقد تمكّنَ بعدَ آلافِ المحاولاتِ مِن صنعِهِ، ولم يعتبرْها محاولاتٍ فاشلةً، بل أضافَها إلى رصيدِهِ المعرفيّ كمحاولاتٍ غيرِ ناجحةٍ لصنع بطارّية!

يقولُ أديسون: إنّ ثمارَ ما حقّقهُ مِن اختراعاتِهِ تعودُ الى 1% من الذكاء، و99% من الجهدِ والمثابرةِ، وفي السابعةِ والستين مِن عمرِهِ احترقَ مختبرُهُ ودُمّرَ بأكملِهِ عام 1914، فتبسّمَ وطلبَ حضورَ زوجتِهِ قائلا:

"لن تشهَدَ منظرًا كهذا ما حييتْ"! وكانَ يراقبُ اللهيبَ بهدوءٍ قائلاً: "هناكَ فائدةٌ عظيمةٌ لِما يحدثُ، لقدِ احترقتْ كلُّ أخطائِنا، والآنَ يمكنُنا البدءَ مِن جديدٍ"!

فهل تصرّفٌ كهذا يؤكّدُ مقولتَيْ كونفوشيوس: "إنّ ما يسعى إليهِ الإنسانُ السامي يكمنُ في ذاتِهِ هو، أمّا الدنيء فيسعى لِما لدى الآخرين"، أم "إنّ الرجلَ العظيمَ يكونُ مطمئنًّا مُتحرّرًا مِنَ القلق، بينما الإنسان ضيّق الأفق عادةً ما يكونُ متوتّرًا"؟

المرأة بين الماضي والحاضر!

لمحة وجيزة عن دوْرِ المرأةِ عبرَ العصورِ أسوقُها، كمَدخلٍ إلى ما آلَ إليه حالُها هذه الأيّام، ليسَ من منطلقِ التحيّزِ إلى فكرةِ التمييزِ بينَ الجنسينِ، وما أتمنّاه، أن لا يُحمَلَ كلامي على محمَلِ ظاهرِهِ المتمرّدِ، إنّما يفترضُ حُسْنَ النيّةِ في الطرح، فلا يخالفُ إمكانيّةَ التأويلِ الإيجابيّ!

في المجتمعاتِ البدائيّةِ (الأموميّة)، للمرأة كانت السُّلطة العليا والسطوة، في صياغةِ الشرائعِ المتعلقة بأنماطِ الحياة، وتشكيلِ تفاصيل الأدوارِ على اختلافاتها! لكن، تبدّلتِ الأحوالُ والأفعالُ، فبعدَ أن كانتِ المرأة هي الفاعل الأساسيّ والمباشر في جميع أدوارها وقراراتها، صارت نائبَ فاعل، أو مفعول به على الأغلب، فقد انقلبتِ الموازين والآيات، وباتت هي المغلوبة على أمرها، دون تمكّنها من المجابهة والمواجهة، أو حتى الاعتراض ورفع رأسها!

سرعان ما انتقلتِ السلطة ليدِ الرجُلِ، فتقلّدَ المناصبَ العليا، ووقفَ في وجهِ العنصرِ النسويّ بشدّةٍ وقسوةٍ وسطوةٍ ناقمةٍ غير محدودة، بعدما ساهمَ في كبْحِ جماحِها، ومنع نهوضها ثانية، وصارَ يُشرّعُ القوانينَ ضدّها، ويُنفّذُها ويُطبّقها بمفهوم ثقافةٍ ذكوريّةٍ، وأضحتْ حوّاءُ أشبهَ بكائنٍ دونيٍّ، تستوجبُهُ الحياة المفروضة تلبية مهمّاتٍ محدّدةٍ دونَ اعتراض، فهي ناقصة العقل والفِكر، محصورة مهمّاتُها الأساسيّة في المطبخ والمنزل، وخدمة الزوج وإنجابِ الأطفال. عاشتِ المرأة في العصورِ الإغريقيّة مسلوبة الإرادةِ والحقوق والمكانةِ، ومُنع عنها التعلّم، لكن بالمقابل، كانتْ حقوقٌ كثيرة تتمتعُ بها الجواري، مِن ممارسةِ الفنّ والغناءِ والفلسفةِ والنقاش في مجالس الرِّجال!

أمّا في إسبارطة، وبسبب انشغالِ الرجال بالحروب والقتال، فقد أعطيَت المرأة مكانةً أرفعَ، مِن حيث التجارة والبيع والوراثة والامتلاك والتوريث!

أمّا الوضع عندَ الفراعنة، فقد احتلّتِ المرأة سلطةً قويّةً في البيتِ والحقل والعملِ، ولمكانتِها الرفيعة، كانتْ تقدَّم الأجمل منهنّ كضحيّةٍ للنيل، مِن أجل نيْلِ رضا الآلهة!

الجمالُ يغمرُكَ بشعورٍ غامضٍ طافح بالبهجة، فلماذا يُعاقبُ الجَمال وتُعاقبُ الجميلة!

أمّا في الصّين فكانَ يُنظرُ للمرأة كحيوان معتوهٍ حقيرٍ ومُهان، وكانت المرأة في الهند تُدفن أو تُحرَق مع زوجها حينَ يموت!

بَعدَ هذه اللمحةِ عن التباعدِ الزمكانيّ، ماذا حلّ بالمرأة في أيّامِنا الأخيرةِ القريبةِ؟

مع ظهور ما يُسمّى بحقوق المرأة، واعتبارِها إنسانًا يملكُ كفاءاتٍ وقدراتٍ كالرجل أو أدنى أو أكثر، فقد حظيَتْ بما لم يكن لها ببال، ولم تعُدْ ذاك الظلّ دونَ صوتِهِ!

ففي الغرب وقبلَ عقودٍ معدوداتٍ، أخذ الرجلُ على عاتقِهِ فكرة التكفير عن بني جنسِهِ بحقِّ المرأةِ، وتغيير التوجّهِ والفِكر والظروفِ الاجتماعيّةِ القائمة والسائدة، حولَ دوْرِها ومكانتِها،

فأتاحَ لها أن تخرجَ مِن صمتِها الأبكم الجامد، إلى حيّز الصوتِ والظهور، بعدَما قادَ حركة تثقيفيّة تُمكّنُها مِن النهوض، وسعى إلى إزالةِ الحواجز الماثلة أمامَ تقدّمِها، وقد آمن بضرورة إسهامِها بدوْرٍ فعّال، لتحقيق حضورِها واستقلاليّتِها الاقتصاديّة واستقرارها المعنويّ والماديّ!

لكن... وبما أنّ الغربَ هو السابقُ والشرقَ هو اللاحقُ على الأغلب، فكان لا بدّ للشرق أن تطالهُ يدُ العدوى، لكن هل طالته الجدوى وبنفس الأسلوبِ والقدْر؟

هل استطاعَ الرجلُ حقًّا أن يَضعَ يدَهُ، ويُؤشّرَ بإصبعِهِ على مكامِن قضايا المرأة من أجلِ حَلِّها؟ أم أنّ تبايُنًا جليًّا في العمل والبيت، برز بينَ خطوطِ نجاحاتِها وإخفاقاتِها؟

مَن المسؤولُ الحقيقيّ عن مدى النجاحاتِ وحقيقة الإخفاقات هذه؟

هل هي المرأة أم الرجل؟ أم كلاهما معا؟

هل المجتمع يحتاجُ إلى تثقيفٍ مغايرٍ يناصرُ المرأة، كي يَكسرَ الجدران الزجاجيّة لفروضاتٍ عالقةٍ، وفرضيّاتٍ تتناقضُ وطبيعة حياة المرأة بشكل عام لا الخاص، وميولِها ودوْرِها في الأسرة؟

الحديث يَدورُ عن تفاوتٍ ملحوظٍ وكبيرٍ بينَ المجتمعات! لكن ومع هذا، فلو تابعنا الأبحاثَ والنِّسَبَ في العالم كلِّهِ، وفي مجالاتٍ عديدةٍ للمرأة، لوجدنا نجاحاتها ما زالتْ تتصدّرُ مجالَ التعليم بنسبةٍ فائقةٍ مثلا، بينما أخفقتْ في مجالِ البحوثِ والسياسةِ والقياداتِ وغيرها، فكانت النِّسَبُ ضئيلة قياسًا بالرجل، رغم حصولِها على شهاداتٍ تُؤهّلُها للعملِ فيه! لماذا؟ وما هي الأسباب التي أدّتْ إلى هذا التباين بين النظريّ والتطبيقيّ؟

هل بناءُ الأسْرَة هو الوازعُ الرئيسيّ في هذه المسائلِ، فيختلف الأمرُ بالنسبة للعزباء والزوجة والأرملة والأمّ والمطلقةِ؟هل علينا أن نطرحَ الأسئلة الموضوعيّة والحقيقيّة على المرأة نفسها، لأنها تعكس واقعَها وطبيعتها وطموحاتها، ومن وجهة نظرها هي، وليس كما يَرسم ويُخطّط ويُحدِّد لها الرجل؟

هل المرأة يمكنُها أن تحدّدَ وتؤطرَ الأجوبة بمصداقيّةٍ، (إن أعطِيتْ لها الفرصة أو أخذتها بمجهودِها)، باعتبارِها هي الأقدرُ على تحديدِ مساراتها؟

هل المرأة تستطيعُ فعلا أن تتخطّى المنعطفاتِ الخطرةَ في اتّخاذِ قراراتِها واختياراتِها، أم أنَّ التخطيط والتعيينَ ما زالا يخضعان لأهواءِ الرجلِ على الغالبِ، بما يخدمُهُ أوّلا، ومن ثمّ بما يَخدم المرأة لاحقا؟

تنصَفُ الأنثى أم تُنسَفُ؟

هي الأنثى.. كيانٌ سامٍ تحاولُ أن تتشبّثَ بأسمى معاني الحياةِ وأرقاها، وتذهبُ إليها بخاطرِها وإرادتِها ولا تُؤخَذُ إليها، كي لا تتقاذفَها أمواجُ الأعرافِ المُجحفةِ القاسيةِ في بحرِ الجهل، وكي لا تُلقي بها على شواطئِ الحياةِ شظايًا أُسريّةً واجتماعيّةً واقتصاديّة، حين تخذلُها خيوطُ الآمالِ المبتورةِ الخانقة!

لا تخلو حياةُ الأنثى مِن معاناةٍ وظلمٍ خلالَ مراحلِ حياتِها، فيعتريها الحزنُ والألمُ والحرمانُ بصمتٍ ورضوخ، ولا تملكُ أن تستمتعَ بالحياة كونَها أنثى، بل عليها أن تتقبَّلَ قدَرَها باستسلامٍ، دونَ أن تفكّرَ بمجرّدِ الاعتراضِ أو التمرّد، لتسلمَ هي ومَن في عُهدتِها ووصايتِها.

لكن؛ وفي هذا الزمان المُتحضّرِ المُتطوّرِ المُحوْسَبِ المُتكَنلِج، كيف للأنثى أن تعيشَ الحاضرَ، وتتعلّمَ مِن تجاربِ الماضي بعيدًا عن الهموم والمشاكل؟

الأنثى بفيْضِ أنوثتِها، بصفاءِ روحِها، بنقاءِ سريرتِها، برقّةِ قلبِها، وبشاشةِ وجدانِها المعطاء الذي لا يجفُّ ولا يُثمّنُ، تُواسي المجتمعَ وتمسحُ دمعَ الحياةِ وعذاباتِها، فمَن يُواسي الأنثى حين يُسلَبُ فرحُها وسعادتُها؟

حنايا الأنثى مرصوفةٌ بحنانٍ شفّافٍ يؤهّلُها أن تخاطبَ الكونَ بالدهشة، فيستمدّ منها طاقةً إيجابيّةً تبثُّ دواخلَهُ بالبسمةِ الطريّةِ وبالتفاؤل المُزهر بالأمومة دون مساومة، تلكَ الكلمة الهامسة الورعةُ ينبضُ بها قلبُ الأنثى ويستطيبُها ويلجأ إليها، ليرفعَ مِن مكانتِها اجتماعيّا..

لكن؛ كيف تكون الأمومةُ في غيرِ أُطرِها العُرفيّةِ والدينيّة وبالاً وهلاكًا على المجتمع؟ وعلى الضحايا الجُددِ مِن لقطاء قادمينَ رغمَ أنفِ أصولِ المجتمع؟ وعلى الأنثى التي يُطاردُها الوجعُ والدمُ والخوفُ أينما حلّت في بقاع الأرض؟

الأنثى تحملُ شهادةَ ميلادِها وموتِها، جزاءَ الأخطاءِ المرتكَبةِ بحقِّها دونَ رحمةٍ أو تبرير، ولا يمكنُها التخلُّصُ مِن مخاوفِها المزمنةِ التي تُلاحقُها! لماذا؟

يقول كلوديو كوردوني؛ القائم بأعمال الأمين العام لمنظّمةِ العفو الدوليّة:

"إنّ الفجوة في نظامِ العدالةِ الدوليّةِ تؤدّي إلى تفشّي القمْع والظلم، ممّا يدفعُ بملايين البشرِ إلى هوّةِ الانتهاكاتِ والاضطهادِ والفقر، وينبغي على الحكوماتِ أن تضمنَ ألاّ يكونَ هناكَ أحدٌ فوقَ القانون، وأن تكفلَ لكلِّ إنسانٍ سُبلَ اللجوءِ إلى العدالةِ، للانتصافِ مِن جميع انتهاكاتِ حقوقِ الإنسان، وإقرارُ العدالةِ يُوفّرُ الإنصافَ والحقيقة لمَن عانوا مِن الانتهاكات، ويُمثّلُ رادعًا يَحولُ دونَ وقوعِ مزيدٍ مِن انتهاكاتِ حقوقِ الإنسان، ويؤدّي في نهايةِ المطافِ إلى عالمٍ أكثر أمنًا واستقرارًا".

ولكن كيفَ يتمُّ الاستقرارُ، وتقريرُ منظّمةِ العفو الدوليّة للعام 2010، وحالة حقوق الإنسان في العالم، يُوثّق الانتهاكاتِ في 159 بلدًا، وبعضُ الحكوماتِ القويّةِ ذاتِ النفوذ تُعيقُ التقدّمَ

في مجالِ العدالةِ الدوليّة، بإصرارها على البقاءِ فوقَ القانون فيما يتعلّقُ بحقوقِ الإنسان، وبدأبِها على حمايةِ حلفائِها مِن الانتقادات، وبإحجامِها عن التحرّكِ إلاّ في الحالاتِ التي تراها ملائمةً لها مِن الناحيةِ السياسيّة؟ ولماذا لا تخضعُ حكوماتُ العالم للمُحاسبةِ على أفعالِها وآثامِها في المحكمةِ الجنائيّةِ الدوليّة، وبموجبِ القانون الدولي؟

وبعودةٍ إلى الأنثى؛ نبضُ الفرح ونجوى الروح، مَن تُراقصُ الحزنَ والوجعَ حين يحتلُّ مساحاتِها اليأسُ القاتم، وتضيقُ بها فسحاتٌ ملوّنة، فكيف نُنصِفُها ولا نَنسُفُها؟

منذ منتصفِ شهر حزيران 2011، أخذ الإعلامُ يتداولُ موضوعَ مكافحةِ جريمةِ اغتصاب المرأة والاعتداءاتِ على الأطفالِ وحمايتِهم في أوغندا، كوْنَ هذه الجريمة الأكثرَ انتشارًا وتوطّنًا ومُعدّلاً في الدولة!

وقد أفادَ تقريرٌ صادرٌ عن الأمم المتحدةِ، أنّ جيشَ الرب في أوغندا في صراعٍ معَ الحكومةِ الأوغنديّة، منذ منتصفِ الثمانينات، وقام باختطافِ نحو 25.000 طفل خلالَ النزاع، واستخدمَهم مُرغَمين كمُحاربينَ وخدَمٍ وحمّالين، وأنّ هؤلاء الأطفال والفتيات يتعرّضون للعُنفِ والاغتصاب!
تقولُ الشرطة الأوغنديّة في تقرير عام 2010، إنّ حوالي 709 حالاتِ اغتصاب، و7564 حالة اعتداء جنسيّ على الأطفال أُبلغَ عنها، ويشيرُ خبراء إلى حالاتٍ كثيرةً لا يُبلّغُ عنها.

كيف يمكنُ لفِرقِ العملِ التابعةِ لبعثاتِ الأممِ المتحدة أن تُتابعَ وترصدَ شرائحَ الأطفالِ والنساءِ المخطوفين في أوغندا، كي تضعَ استراتيجيّةً متعاونةً وفعّالة للإبلاغِ عن التجاوزات، في حين تعطّلت الاتّصالاتُ المباشرةُ بينَ الأمم المتحدة وقيادةِ جيش الرب، وتجمّدت محادثاتُ السلام بينَ جيش الرب والحكومة، بسببِ رفْضِ زعيمِ الجيش جوزيف كوني التوقيعَ على اتّفاقِ السلام النهائيّ؟ وكيف يمكنُ مكافحةُ آفةِ الاغتصابِ المتفشّية في أوغندا؟

فجأةً يعلو صوتُ رونالد كيبولي؛ وزيرُ الدولة لشؤون الشباب والأطفالِ في أوغندا مستبشِرًا ومبشِّرًا: إنّ الحكومةَ الأوغنديّة تتعهّدُ بمنْحِ الفتياتِ بخّاخاتٍ مجانيّة مِن رذاذِ الفلفلِ الحارّ، من سِن 15 - 18 عامًا لحمايتِهنّ مِنَ الاعتداء، وللنساءِ بين 18 و30 عامًا لتجنّبِ خطرِ الاغتصاب، وتدريبِهنّ بكيفيّةِ استخدامِ هذا السلاح الذي يَحرقُ عيونَ المُعتدينَ ويُشغلُهم بآلامِهم، وبذلكَ تفلتُ الضحيّةُ مِن الاعتداء! هل هو سلاحٌ قانونيٌّ قد يخدمُ المجتمعَ فعلاً في أنحاءِ العالم للدفاعِ عن النفس؟ كيفَ يتمُّ تصنيعُ سلاح الفلفل الحارّ؟

سلاحُ الفلفلِ الحارّ هو رذاذُ مسحوقِ الفلفل، يحتوي على خلاصةِ الموادّ الحارّةِ مِن الفلفلِ الأحمرِ والفلفلِ الأسود، وعن طريقِ وضْعِ مسحوقِ الفلفلِ فى كوب وإضافةِ الكحول إليهِ بمقدار 1: 2 سم، و 0.5 - 1سم مشن زيتِ الأطفال، ومزْجِهِ وتحريكِهِ جيّدًا، ثمّ فلترة الخليطِ وسكْبِ محتوياتِهِ في بخّاخ، واستخدامه في مواجهةِ المُتحرّشين والمُعتدين!

هل سلاحُ الفلفلِ الحارّ هو حلٌّ جذريٌّ لمعضلةِ الاغتصابِ وآفةِ الاعتداءاتِ الجنسيّة، وجرائمَ أخرى لا تقلُّ سوْءَتُها على المُستضعَفين، أم أنّ هناكَ مُضادات ستكونُ في الفترةِ القادمة، لإبطالِ مفعولِ مُخطّطِ حكومةِ أوغندا وسلاحِها الحارّ؟

ثرثرةُ النساءِ داءٌ أم دواءٌ؟

على ضفافِ نهرِ الوجودِ وقريبًا بعيدًا مِن مجرى الحياةِ، تستلقي مستنقعاتُ ثرثرةٍ يَركدُ فيها كلامٌ ساخطٌ آسنٌ، تنبعثُ روائحُهُ العفنةُ، لتتجاذبَ ذبابَ التشويهِ والافتراءِ والإشاعاتِ، فيتغذّى بجراثيمِهِ بعوضُ المُحاباةِ والنفاقِ والأقاويلِ، ويتخدّرُ الضميرُ بسوءِ الظنِّ والنميمةِ والعبثِ والسُّخفِ، وتُزمجرُ أنفاسُكَ المزكومةُ برائحةٍ كريهةٍ لا تستدلُّ حقيقتَها.

هل مِنَ الحماقةِ أنْ يعزفَ الإنسانُ قلبَهُ على أوتارِ لسانِهِ، ويستفيضَ بحديثٍ مُطوّلٍ يُفضي بما في جوفِهِ؟ هل مِنَ الحِكمةِ أن يضبطَ الإنسانُ أفعوانَ لسانِهِ على إيقاعِ قلبِهِ الخافتِ ليحيا سالمًا، عملاً بالحكمةِ: "لسانُكَ حصانُك، إنْ صنتَهُ صانَكَ وإنْ خنتَهُ خانَكَ"، و"إن كانَ الكلامُ مِن فضّةٍ فالسكوتُ مِن ذهب!" ما الفرقُ بينَ الفضفضةِ والثرثرةِ بأنواعِهما؛ سياسيًّا، اجتماعيًّا، وجدانيًّا، رياضيًّا، إخباريًّا.. الخ؟ وكيفَ نُوظّفُ كلًّا منها؟ متى؟ وأين؟

هل الثرثرةُ طبعٌ أم تطبيعٌ وسلوكٌ مُكتسَبٌ منذُ التنشئةِ والطفولة، أم انحرافٌ سلوكيٌّ ينتجُ لطوارئَ لها علاقةٌ بالعمرِ والأدويةِ والظروفِ؟ هل الثرثرةُ تعبيرٌ أنانيٌّ وعشقٌ للذاتِ، ورغبةٌ في الاستئثارِ بدفّةِ الحديثِ وحبِّ الظهور، أم هي بديلٌ لحاجةٍ نفسيّةٍ وتعويضٌ عن نقصٍ، كأنّما يُسلّمُ مفاتيحَ الأسرارِ بأيدي انتهازيّينَ يستغلّونَ الأبوابَ وفتْحَها بسهولةٍ؟

للثرثرةِ أثمانٌ وأضرارٌ كثيرةٌ؛ يدفعُها المستمعُ حينَ يهدرُ وقتَهُ وأعصابَهُ ورصيدَ جوّالِهِ، ويدفعُها الثرثارُ على المستوى الشخصيِّ بنفورِ وامتعاضِ مستمعيهِ، مِن ثرثرتِهِ التي تتحوّلُ إلى عبءٍ صحّيٍّ ونفسيٍّ مزعجٍ، وعلى مستوياتٍ أخرى، تزعزعُ وتقوّضُ البنيانَ الأسَريَّ والمجتمعيَّ والطائفيَّ والأمنيَّ بعمالةٍ مجّانيّة !

هل يُجدي هواةَ الرغي والثرثرةِ دعاءُ (مزمور 140): "يا ربِّ اجعلْ على فمي حارسًا، وأبوابًا حصينةً على شفتيّ"؟ أو قولُ الرسول (صلعم): و"إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله"، أو "هل يكبُّ الناس في النارِ على وجوهِهم إلاّ حصائد ألسنتِهم"؟ وهل تزيدُ الثرثرةُ مِن مداركِ التفكيرِ، أم تُثيرُ النفوسَ بتلميحاتٍ مِن شأنِها أن تؤدّي إلى ضياعٍ وتشويش؟

الثرثرةُ صفةٌ منبوذةٌ غيرُ حميدةٍ، وتهمةٌ ولعنةٌ ملازمةٌ للمرأة، مؤداها تشويهُ صورتِها التي تغلّفتْ بأقوالٍ أطلقَها القدماءُ، فبعضُ الأقوال المجحفةِ بحقّها: "لا تُودِعْ سرَّكَ لامرأةٍ، فلسانُ المرأةِ يتأرجحُ مثلَ ذيلِ الحمارِ، وإذا كانتِ الثعالبُ كلُّها ذيلًا، فالنساءُ كلُّهنَّ لسانٌ"!

لماذا الحطُّ مِن قدْرِ المرأة، وبلورتِها في قالبٍ هشٍّ قابلٍ للانكسارِ ضيمًا وظلمًا؟ هل هناكَ حقيقةٌ علميّةٌ تؤكّدُ صحّةَ المقولة، أنّ العصبَ تحتَ اللسانيّ عندَ المرأةِ أكبر منهُ عندَ الرجل، أم هو ترسيخٌ لمعلومةٍ مخطوءةٍ، تبعثُ على فكاهةِ الانتقاصِ منها؟ ماذا عن الثرثرةِ الرجّاليّةِ المعسولةِ والمُطعّمةِ بشتّى السمومِ والإيقاعِ بالنساءِ، والنشرِ بالأعراضِ بسرعةٍ صاروخيّةٍ زمنيّةٍ نفّاثةٍ؟ ألا تعتلي الخطاباتُ السياسيّةُ عرشَ الثرثرةِ المُعطّرةِ بالوعودِ الحالمةِ، وتذهبُ أدراجَ الرياح، ويغطُّ المواطنونَ في أنهارِ الكلامِ المعسول، ويُحَلّقونَ مُخدّرينَ بالأحلامِ الورديّةِ

والأوهامِ العصريّةِ؟ وهل ننسى خطبةَ الرئيسِ الكوبيّ السابق "فيديل كاسترو"؛ صاحب الرقم القياسيّ في أطولِ خطبةٍ عصماءَ لمدّة ثماني ساعات؟

إن كانتِ "الثرثرةُ حِليةٌ مِن حلي المرأةِ البرّاقة، تجذبُ الانتباهَ وتُسرّي عن النفوس"، كما قال برنارد شو، فلماذا راندي أزيز 33 عامًا مِن ولايةِ بروكلين سنتر، أقدَمَ على قطعِ لسانِ زوجتِهِ الثرثارة، كما ورَدَ في صحيفةِ مينابوليس ستار تريبيون، والمحكمةُ أطلقتْ سراحَهُ بكفالةِ 500 ألف $؟

وإن كانت الثرثرةُ ماكينةُ الرغي والكلامِ الفارغِ مِن مضمونٍ مفيدٍ، وتُعرّضُ الثرثارَ لإرهاقٍ جسديٍّ ونفسيٍّ وتنفّسيّ، فهل للثرثرةِ صبغةٌ ذكوريّةٌ، أو رائحةٌ أنثويّةٌ؟ وهل للثرثرةِ علاقةٌ بالتكوينِ الفسيولوجيِّ والبيولوجيِّ عندَ المرأةِ والرجل؟

وردَ في نشرةِ "ديلي تلغراف" أنّ هناكَ هرمون أوكسيتوسين لضبطِ المزاج، تُفرزُهُ الغدّةُ النخاميّةُ لدى الجنسيْن، ولكن بكميّةٍ أكبر لدى السيّداتِ، خاصّةً عندَ المساج البدنيّ والذكرياتِ الجميلةِ تزيدُ نسبتُهُ، ووظيفتُهُ عندَ الإناثِ هو انقباضُ الرحمِ عندَ الولادةِ، وتدفّقُ الحليبِ عندَ الإرضاعِ، وهذا الهرمون يدفعُ المرأةَ للثرثرة، فيزيدُ هرمونُ الأنوثةِ الأستروجين فاعليّتَه، بينما يُخفضُهُ هرمونُ الذكورة التستتيرون!

المرأةُ ليستْ أكثرَ ثرثرةً مِنَ الرجل، هذا ما يُؤكّدُهُ فريقٌ مِن الباحثينَ في جامعةِ تكساس وأريزونا، تُنشرُ نتائجُ أعمالِهم في مجلّةِ "ساينس".

وأفادَ باحثونَ مِن جامعةِ كاليفورنيا، بأنّ الثرثرةَ ليستْ صفةً نسائيّةً، فالمرأةُ تتفوّه 16215 كلمةً في اليوم، والرجلُ 15669، فالرجالُ ثرثارونَ، وأكثرُ ثرثرةٍ مِنَ النساء، ولكن ذلكَ يعتمدُ على المكانِ والزمانِ والموقف.

وانتهى الباحثُ كامبل ليبر مِن خلالِ الأبحاثِ التي أجريتْ حول الثرثرةِ منذ عام 1960، إلى أنّ الرجالَ يتحدّثونَ أكثرَ وعلى مهلٍ، للسيطرةِ واستعراضِ مهاراتِهم العقليّة، لكنّ النساءَ يتحدّثنَ أسرعَ عن المشاعرِ والأطفالِ والهموم! وقد أظهرَ بحثٌ علميٌّ جديدٌ بثّتْهُ محطّةُ شانيل2000 الأمريكيّة، أنّ أطفالَ الأمّهاتِ الثرثاراتِ يملكونَ كمًّا مِنَ الكلماتِ والألفاظِ في عمر20 شهرًا، أكثر مِن أطفالِ الأمّهاتِ الهادئات، وهم أكثرُ سعادةً وتفاعلًا مع الأشخاصِ والمؤثّراتِ الخارجيّة!

أمّا مركزُ البحوثِ الاجتماعيّةِ في لندن، فطالعَنا ببحثِهِ حولَ فائدةِ الثرثرةِ المحمودةِ والمحدودةِ بإطالةِ العمر، كوسيلةٍ صحّيّةٍ للتغلّبِ على الفراغِ اليوميّ والفكريِّ والاجتماعيِّ والثقافيّ الذي يُعاني منهُ الفرد، ويوسّعُ العلاقاتِ الاجتماعيّةَ، ويُخفّفُ مِن حدّةِ الضغوطاتِ والمتاعبِ النفسيّةِ المتراكمةِ والتوتّراتِ والتشنّجات، ولكن؛ هل العلاجُ النفسيُّ يستمرُّ مع الطبيبِ على مدار 24 ساعةً يوميًّا؟

هل الثرثرةُ داءٌ مزمنٌ أم دواءٌ ممكنٌ؟ أين تكمنُ الحدودُ الإيجابيّةُ في الثرثرةِ، والخطوطُ الحمراءُ السلبيّةُ والمُسيئة؟ ومَنْ يُحدّدُها؟ هل يُدركُ الثرثارُ أهمّيّةَ تمتّعِهِ بالذوق، كي يتمكّنَ مِن اختيارِ المكانِ والزمانِ المناسبَيْنِ لثرثرتِهِ، والإنسان المُستعدِّ لسماعِهِ؟

سُلطةُ المرأةِ وتمثيلُها البرلمانيّ!

إيمانًا منّي أنّ المرأةَ هي الكائنُ الأجملُ، والأقدرُ على الحبِّ والعطاءِ والبناءِ، جعلتُ أترصَّدُ تحرُّكاتها وتطوُّراتها وأدوارَها البنّاءة، مِن خلالِ متابعاتي لشؤونِ المرأةِ في عالمِنا الكلِّيِّ والعربيّ، خاصّةً وبعدما قرأتُ ما جاءَ في مُلخّصِ تقريرِ المرأةِ في البرلمان العالميّ، في نهاية عام 2007، ليُدلي بالنتائج التالية:

مِن 112 دولة هناك 97 دولة اتّبعتْ نظام كوتا، (أي نظام الحصص للمرأة في الأحزاب، وترشيحها بنِسَبٍ معيّنة)، وقد وصلَ تمثيلُ المرأةِ إلى نسبةِ 19.8%، بضِمنِها بعضُ الدول العربيّة:

نالت الإمارات العربية 28% حيث تشغل المرأة 9 مقاعد من أصل 40 مقعدا، (1انتخابا و8 تعيينا)، ثمّ العراق بنسبة 25.5%، وتونس 22.8%، وموريتانيا 17.9%، والسودان 14.7%، وجيبوتي 13.8%، وفلسطين 12.8%، وسوريا 12%، والمغرب 10.5%، والصومال 7.8%، والجزائر7.7%، والأردن 6.4%، ولبنان وليبيا 4.7%، ثم مصر 2%. ويأتي بعد مصر كلّ من اليمن والسعودية والكويت وسلطنة عمان وقطر!

أمطرَني فضاءُ هذهِ الشبكة العنكبوتيّة بزخّاتٍ شديدةٍ مِن علاماتِ استفهامٍ رئيسيّةٍ ومتشعّبةِ التساؤلات، حين ساقني حبُّ استطلاعي الشرهُ، إلى البحث الدقيقِ ما بين ثنايا التقارير البرلمانيّةِ في الدول العربيّة لأخلُصَ إلى:

ما هي العواملُ والتحدّيات التي دعتِ المرأةَ للدخولِ في المجالِ السياسيِّ؟ هل النساءُ هنَّ الأكثرُ تعرّضًا للمعاناةِ ولمآسي الحرب، أو الأكثرُ تضرُّرًا بمساوئِ ومخاطرِ النزاعاتِ المُسلّحةِ، في شتّى أنحاءِ العالم؟ هل فعلاً يمكنُها أن تُشكّلَ درعًا سلميًّا واقيًا ومُغايِرًا للرجُل، عبْرَ آليّاتٍ دستوريّةٍ وقانونيّة؟ إذن، كيف نُفسّرُ استقبالَ العام 2009 بمجزرةَ غزّةَ الأخيرةَ، والتي تقودُها امرأة، أو بالأحرى امرأتان؟

ولطالما اعتبرْنا العقودَ الأخيرةَ مرحلةً تحضيريّةً للإصلاح في جميع الميادين، وقد كانتْ ولا زالتِ المرأةُ ميدانًا أساسًا في هذا الإصلاح، فهل أتتِ الديمقراطيّة بمفهومِها الحقيقيّ، لإنصافِ أنصافِ الشعوبِ أيضًا، وجعْلِها مساهمةً في صُنع القرارِ والحُكم، مِن أجلِ خلْقِ مواطنةٍ صالحةٍ، تحافظُ على المساواةِ وحقوقِ الإنسان، وعلى حقوقِ المرأةِ، على اعتبار أنّها تُساوي الرجُلَ في الواجباتِ والحقوق؟

هل نجحتِ الديمقراطيّة بتوصيلِ مشروع رسالتِها في كلّ أو معظمِ دولِ العالم فعليًّا، أم أنّها كانتْ مجرّدَ غلافٍ مُوَحَّدٍ، لهديّةٍ مختلفةِ المضامين والجوهر، تحملُ قنابلَ موقوتةً قد تنفجرُ في أيِّ آنٍ، أو براكينَ هامدةً قد تُثارُ؟ أم أنّ بعضَ سياساتِ بعض الدول تمكّنت مِن إبطال مفعول القنابل مؤقّتًا، أو إبطاء مفعول البراكين مع الزمن؟

ها قد أُعْطِيَتِ المرأةُ الحقَّ في الانتخابِ، ولاحقًا حقَّ الترشيحِ في المجالسِ البلديّةِ وفي البرلمانِ، وقد طالَ شرقَنا الحبيبَ عدوى تحريرِ المرأةِ، على اعتبار أنّها إنسانةٌ ومواطنةٌ لها حقِّ الاقتراع والترشيح والتمثيلِ في البرلمان، لتساهمَ بشكلٍ فعّالٍ ومسؤولٍ في صُنعِ القرارِ!

(يا جايب الذُّبّ لِكَرْمك).. ما الذي يدعوكَ ويدعو توجُّهاتِك الفكريّةَ أن تُصوِّبَ أنظارَها إلى المرأة بشكلٍ خاصّ، حتى في مجالِ السّلطة؟ أليستِ السّلطةُ والسيادة (رغم تأنيثهما) هما مصطلحان ذكوريّان؟

أجاب بثقةِ المؤمنِ بتوجّهاتِهِ الإصلاحيّة: إنّ مشاركةَ المرأةِ الفعّالة في مختلفِ مرافئِ الحياة، هي أهمّ العناصر الرئيسيّةِ لتقدُّمِها ونهضتِها، وبالتالي هي مقياسُ رقيٍّ وتطوُّرٍ للمجتمع!

لكن، هناكَ مُعوِّقاتٌ كثيرةٌ تقفُ أمامَ وصولِ النساءِ العربيّاتِ إلى المراكز القياديّة، وتساؤلاتٌ أكثر تدور في فلكِ التجارب، وإلاَّ!..

كيف تفسّرُ، أنّ نسبةَ تمثيلِ المرأةِ البرلمانيّةِ تزدادُ في الدولِ التي تأخذ بنظام الكوتا والتمثيلِ النسبيّ، حسبَما تسجّلُ التقاريرُ، في حين أنّ علاماتِ استغرابٍ تكشفُ النقابَ، عن تطوّرٍ بطيءٍ جدّا في شؤونِ المرأةِ العربيّة، والتي لا زالتْ تتعرّضُ حقوقُها للمصادرة؟

هل هذهِ التقاريرُ تؤكّدُ أنّ المرأةَ العربيّةَ عاجزةٌ عن الانخراطِ في صناعةِ القرارِ السياسيِّ، أم أنّها مُسيّسةٌ ومحدودةُ الخطواتِ؟

كيفَ تُفسِّرُ، أنّ تمثيلَ المرأةِ البرلماني أثبتَ فشلَهُ في بعض الدولِ العربيّةِ، ولم يكنْ مُجدِيًا، وما حصدت ما زرعتْ؟ فهل التقاريرُ تؤكِّدُ أنَّ سُلطةَ المرأة العربيّةِ وهْميّةٌ في بعض/ أو كثير من الأحيان، لأنّها تظلُّ معزولةً أو مُحَدّدةً، أو مرهونةً باحتواءِ أنظمةٍ وسُلطةٍ ذكوريّةٍ أعلى منها، أم تؤكّدُ أنَّ مشاركتَها لا زالتْ غيرَ جوهريّةٍ، بل شكليّةً وغيرَ فعليّةٍ، تقتصرُ على تولّي حقائبَ وزاريّةٍ يُحدّدُها الرجال، وما تعدّاهُ يخضعُ لأهواءِ الرجال؟

أينَ يَكمُنُ الخللُ الحقيقيِّ في التمثيلِ البرلمانيّ للمرأةِ؟ أهو بالمرأة، أم بالمجتمع، أم بالقوانين، أم بالأحزاب، أم بالنظام السياسيِّ ككلٍّ، أم أنّ الأمرَ أعمقُ ممّا ذُكِر؟

هل حقًّا يغلبُ على المرأة العربيّةِ الطابعَ العاطفيِّ، فيمنعُها مِن اتّخاذِ القرار أو تطبيقِه؟ لماذا؟ هل بسببِ الأمّيّة وعدم تعلّمِ المرأةِ سابقًا، أو بسببِ تهاوُنِها في المطالبةِ بأخذِ حقوقِها لاحقًا؟ هل بسببِ غيرةِ المرأةِ من المرأة، أو الخوفِ منها، أو عدم الثقة بقيادتِها وسيادتِها؟

هل بسببِ التأثير العشائريِّ والعائليِّ والطائفيِّ والحزبيِّ والدينيِّ السائدِ؟ هل بسببِ تبعيّةِ صوتِ المرأة للرّجُل؟ وهل تحتاجُ المرأةُ أوّلاً إلى مسيرةٍ لتحريرِ صوتِها مِن التبعيّةِ؟ هل بسببِ استغلالِ سوءِ الأوضاع الاقتصاديّةِ وشراءِ الأصواتِ؟

هل بسببِ عدم معرفةِ الجمهور للمرشّحاتِ، أو بسببِ عدم الثقة بهنّ، أو بسببِ رفضِ الفكرةِ أساسًا؟ هل بسببِ الموروثِ الاجتماعيِّ والثقافيِّ، والاعتقادِ السائد، أنّ السيادةَ والقيادةَ والسُّلطةَ، كلُّها مجتمعةً، تشكّلُ قطاعًا رجّاليًا استحوذَ على الثقة؟

هل هناك حاجةٌ لمسيرةٍ تثقيفيّةٍ عامّة، لتعديل الفكرِ الإجتماعيِّ المبنيِّ على تقاليدَ وعاداتٍ، تُرَسِّخُ فكرةَ سلطة وتسلّطِ الرجُل؟

هل هناكَ حاجةٌ إلى تعديل القوانين التي تصبُّ في صالح المرأة بمرونةٍ، وبشكل يتلاءم بآليّتِه مع مغايرةِ الأدوارِ المتغيّرة، دونَ صدامٍ مع الموروثِ العامّ، لتمكينِها مِن حضورِها في مختلفِ مَواقع القرارِ، ومِن أجلِ تعزيزِ التجربةِ الديمقراطيّة؟ وهل تسعى الحكوماتُ العربيّةُ حقًّا وبجدّيّةٍ، إلى تعزيزِ المشاركةِ النسائيّةِ في مراكز القرارِ، مِن مُنطلقِ إيمانٍ بذلك، أم تلبيةً لنظامٍ أعلى؟

جاءَ في مُلخّصِ تقريرِ المرأةِ في البرلمان العالميّ في نهاية عام 2007، أنّ تمثيلَ المرأةِ في المجالسِ التشريعيّةِ العالميّةِ في نهاية عام 2007 قد بلغ نسبة 17.7%، وأنّ عدد المنتخَبات في 63 دولة بلغ 1880، وعدد المُعيَّنات بلغ 133.

مَن الذي عيّنهنّ، وما هي أهدافُ التعيين؟

هل استطاعَ الغربُ أن يُصدّرَ للشرقِ فكرةَ حريّةِ المرأة، لكن الشرقَ صادرَ الفكرةَ وحرّيّةَ المرأةِ، جاعلاً مِن مشاركتِها لافتةً، أو مجرّدَ ديكورٍ يُزيّنُ قائمةَ مُرشّحي هذا الحزبِ أو ذاك، أو شعارًا، أو عمليّةً تجميليّةً في بعضِ الميادينِ السياسيّةِ، أم أنّهُ اعتبرَها إطارًا فاخرًا يَعمدُ إليه الرجُلُ، لتحسينِ صورةِ الأنظمةِ للرائي؟

هل تكتفي المرأةُ شكليًّا، بالتمثيلِ التزييني للمشهدِ السياسيِّ الذكوريِّ، وذلك، بتخصيصِ أو حجزِ مقاعد لها في البرلمان؟ ما الهدفُ من الوصولِ إلى التمثيلِ البرلمانيِّ؟

هل التمثيلُ البرلمانيُّ هو وسيلةٌ، لتثبيتِ حقوقِ المرأةِ ومشاركتِها الفعّالة والبنّاءةِ الحقيقيّة، أم هدف بحدِّ ذاتِهِ؟

هل لا زالتْ هناكَ فجوةٌ بينَ القانونِ المنصوصِ عليه وبين تطبيقِهِ وتنفيذِه، في تمكينِ المرأةِ مِن ممارسةِ دوْرِها السياسيّ؟

هل تسعى الحكوماتُ العربيّةُ إلى البحثِ الحثيثِ عن آليّاتٍ مُغايرة ومُساندةٍ للمرأةِ، تساهمُ في استثمارِ المرأةِ بشكلٍ مُجْدٍ وجيّدٍ، لرفعِ مستوى تمثيلِها البرلمانيّ؟

ما هي المقوِّماتُ الأساسيّةُ المطلوبة بالمرأةِ، كي تُؤهّلَها وتُمكّنَها مِن دخولِ المجالِ السياسيِّ وبجدارة؟

هل تستطيعُ المرأةُ المواءمةَ بينَ حياةِ الأسرةِ والسياسة؟

هل للعمرِ الزمنيِّ والحالةِ الاجتماعيّةِ للمرأةِ تأثيرٌ، يتراوحُ مداهُ في إنجاح وإفشالِ أداءِ دوْرِها في التمثيلِ البرلمانيِّ؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى الدفعِ والحثِّ والتخجيلِ لخوْضِ الانتخاباتِ، أم يجب أن يتوفّرَ لديْها الاستعدادُ بمشاركتها، والإيمانُ بقدرتِها على رفع المستوى بحقّها، وتثبيت إنجازاتِها، مِن خلالِ تحقيقِ تنميةٍ مستدامةٍ تُحسّنُ مستوى الحياة؟

هل يمكنُ للمرأةِ العربيّةِ أن تُحقّقَ اختراقًا حقيقيًّا في الحياةِ السياسيّةِ لصالحِها، كيف؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى تشريعِ قوانين جديدة وبمساهمتِها، أو تعديل قوانين تمّ تشريعُها وإقرارُها سابقًا بعقليّةٍ ذكوريّةٍ؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى توفيرِ مناخ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ داعم بالقانون للمرأةِ ولأدوارِها، يساهمُ في تنميةِ سياقِ المجتمع العام الذي تُعيّنُ في إطارِهِ؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى تأسيسِ أحزابٍ نسائيّةٍ منفصلةٍ، أم من خلالِ أحزابٍ مختلطةٍ، تُمكّنُها من تجنبِ إضافة تمييزاتٍ وانتهاكاتٍ جديدةٍ أخرى ضدَّها، تتلاعبُ بمكتسباتِها؟

هل تحتاجُ المراةُ إلى تواجدِها في مراكزِ الانتخاباتِ، وتطوّعِها ومساهمتِها في إنجاح العمليّاتِ الانتخابيّة؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى تواجدِها في أطرِ السلطاتِ المحليّةِ المصغّرةِ، ممّا يُكسبُها التمثيل الأوّلي، وحينَ تُبرهنُ على قدراتِها الحقيقيّةِ للناخبين، يتعزّزُ ترشيحُها ومشاركتُها في التمثيل البرلمانيّ؟

هل مشاركتها في بعض الاستبيانات والدراساتِ المتعلقة بشأن الانتخاباتِ والترشيحاتِ، يمكنُ أن يُعزّزَ قدراتِها ومهاراتِها السياسيّةَ النشيطةَ مع الوقت، ممّا يزيدُ من إمكانيّةِ تقبّلِ الأحزابِ لها وتأييد ترشيحِها؟

هل يجبُ على المرأةِ أن تشاركَ بالعملِ الحزبيِّ قبل الترشيح للانتخاباتِ، وبتمثيلِها في المستوياتِ التنظيميّةِ للأحزابِ السياسيّة خلالَ فترةٍ أطولَ، ممّا يزيدُ من تطوّرِها الحقيقيِّ في أداءِ أدوارِها القياديّةِ، وفي اتخاذِ وصنع القرارِ، واكتسابِ الخبرةِ والمهارةِ في الحزبِ ذاتهِ؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى إدراجِ أسماء النساء اللواتي لديهنّ أكبر فرص بالفوز، محلّيًا وبرلمانيًّا؟

هل تحتاجُ المرأةُ إلى حملاتٍ إعلاميّةٍ مكثّفةٍ، تتابعُ نشاطاتها وإنجازاتها، كي يكونَ لها التأثيرَ الإيجابيَّ المباشرَ على المواطنينِ والمواطناتِ، لا أن تَرصُدَ هفواتِها البسيطة مِن أجلِ إحباطِها؟

هل تتمكّنُ السياساتُ العربيّة من إيصالِ المرأةِ إلى مواقعَ قياديّةٍ، راسخةِ الجذورِ وباسقةِ الأغصان، دونَ أن تُلصقَ أغصانًا نسويّةً على جذورٍ ذكوريّةٍ، كي يتسنّى لهذه الأغصان أن تنموَ وتكبُرَ، دونَ أن تسقطَ أوراقُها، ونظلّ نتغنّى بعرائِها وإخفاقِها؟

وأخيرًا جاءَ في مُلخّصِ تقريرِ المرأةِ في البرلمان العالميّ، في نهاية عام 2007، أنّ هناك 35 امرأة ترأّسْنَ 35 برلمانًا عام 2007 وأوائل 2008

هل يمكنُنا حقًّا اللحاقَ بما فاتَنا، أم لا زالتْ تفصِلُنا هوّةٌ كبيرةٌ من الإيمانِ والتحدّي، عمّن بادروا بتنفيذِ مخطّطاتِ الإصلاحِ وتطبيقِها وإنجاحِها!

وسؤالي البعيد القريب، هل يُمكنُ أن تصلَ المرأةُ العربيّةُ ذاتَ أفقٍ إلى السُّلطةِ؟

ظاهرةُ العنفِ ضدّ الأنثى

ظاهرةُ العنفِ ضدّ الأنثى قد يكونُ أصحّ تعبيرًا مِن ظاهرة العنف ضدّ المرأة، إذ إنّ الأنثى في جميع مراحلِ عمرِها تُواجهُ القهرَ والاضطهادَ في بعضِ المجتمعات، ومنذ سنواتِ تشكّلِها الأولى حتّى الممات، ففي الجاهليّةِ والعصورِ القديمةِ، وما قبل الميلادِ، وما قبل ظهورِ الرسالاتِ السماوية، كانتِ الإناثُ أكثرَ العناصرِ والكيانات تعرُّضًا للأذى، في الحياةِ اليوميّةِ عامّة، وفي المُلمّاتِ والغزواتِ والحروبِ خاصّة، فإمّا كنَّ يتعرّضنَ للوأدِ، أو للقتلِ في حالِ المقاومةِ، أو للسبي والاغتصاب، أو للاتجار وتجارة الجنس، ولبيعهنّ كجَوارٍ في الأسواق، في زمنِ الجواري والإماءِ والرقيق، ولكافة أنواع التسليع وترويج البضائع بمختلف الأشكال. وإنْ كنّا نتحدّثُ عن المرأةِ في الشرق، فهذا لا يعني أنّ نساءَ الغربِ خلُصْنَ تمامًا مِن نيرِ التخلّف، لكنّ الثغراتِ والعيوبَ تبرزُ وتتكشّفُ بشكلٍ جليٍّ وواضحٍ في المجتمعاتِ الشرقيّة، وتشيعُ في الشرقِ الأوسطِ والهندِ وباكستان، وبعضِ المجتمعاتِ الإسلاميّةِ الأخرى، وخاصّةً المتخلّفة!

لكن، ما المقصودُ بالمجتمعاتِ المتخلّفةِ؟ ومَن الذي يُطْلقُها، ومِن أيِّ منظورٍ ومقاييس تُنعَتُ تلك المجتمعاتُ بصفةِ التخلّف؟ هل هو التخلّفُ عن مراكبِ العِلم؟ عن الدين؟ عن اللحاقِ بمراكبِ النورِ والتكنولوجيا، والالتصاق بدلاً منها بحنطورِ الظلام والظلم؟

وهل ظاهرةُ العنفِ تتجلّى اليوم بنفسِ الأنماطِ القديمةِ، أم أنّها تتبدّى وتظهر وتتدكور بتصاميمَ عصريّةٍ متحضّرةٍ، أكثرَ زركشة وديباجة وإغراء، وباستغلالٍ غربيٍّ مدسوسٍ وفاحشٍ في بعضه أو معظمه وفي الخفاء، وبكلِّ وجعٍ، تُروّج لجزءٍ منها بعض الدول المنعوتة بالمتحضّرة؟

ولو عدنا ثلاثة عقودٍ للوراء زمنيًّا، لوجدنا أنّ هناك 165 دولة من أصل 188 دولة في الأمم المتحدة، التزمتْ باتفاقيّةِ القضاءِ على ظاهرة التمييز ضدّ المرأة عام 1979، إلاّ أنّه وفي ظلّ هيمنة الدول القويّة على المستضعَفة فكريًّا ومادّيًّا، فقد ازدادت أساليبُ العنفِ والتمييز، بل وأخذتْ أشكالاً عدّة في التفنّن، فتطوّرتْ وتنوّعتْ وتبدّلتْ، وتجلّتْ بصُوَرٍ وصبغةٍ شبه شرعيّة في الاحتيال والاحتلال، وتفاقمَ الحالُ سوءًا في جميع الشرائح الطبقيّةِ والثقافيّة، وقد تتالت المؤتمراتُ والقراراتُ والتوصيات، ولكن الأمر لا زال عالقًا عالميًّا، ولا زال يتنامى بإغراءاتِهِ وفنونه، ويتجلّى خاصّة بشكلٍ بارزٍ في دول الهندِ وباكستان وكثيرٍ مِن دول الشرق الأوسط! لماذا؟ ومَن المستفيدُ من وراء كلّ ذلك؟

هل الرسالاتُ السماويّة تتوشحُ بطونُها بينابيع الإنسانيّة الحقّة، وهل هي كافيةٌ في بلورةِ شكلٍ ونمطٍ وصبغةٍ جديدة للمجتمع؟ ومتى يكون لها ذلك؟ وهل فعلاً أتتْ لترفعَ الإنسانَ مِن الدونيّة الحيوانيّة، وترتقي به إلى درجاتِ الإنسانيّةِ الأعلى والأمثل، من خلال التشريع والتنظيم، وتحديد الحقوق والواجبات، وكيفيّة التعامل الأسلم، ومن خلال فرْض قيم أخلاقيّة جديدة تلغي سابقاتها، وفيها مِن الرحمةِ والرأفةِ والمحبّة والإنسانيّة، الوازعَ الأكبرَ لاستمراريّةِ الكيان البشريّ بشكلٍ راقٍ، أم أن هناك عوائق حالتْ دونَ تحقيق هذه الأهداف السامية؟

أما كانَ للمسيحيّةِ وللإسلام في الشرقِ شأنٌ كبيرٌ، في رفع شأن الأنثى والمرأة العفيفةِ، والحثِّ على إعطائِها حقوقها الإنسانيّةِ، والحضّ على احترامِها وتبجيلِها وتكريمِها في مراحلِ عمرِها الزمكانيّةِ قاطبة؟

أليسَ لنا من آياتِ الإنجيل والقرآن أروعها، بما ينيرُ لنا دروبَنا، فيما لو عملنا به كمؤمنين: إنّما النساءُ شقائقُ الرجال، ما أكرمَهنَّ إلاّ كريمٌ، وما أهانهنَّ إلاّ لئيم"، و"أكرمْ أباكَ وأمَّكَ كي تطولَ أيّامُكَ على الأرض"، و"قضى ربُّكَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاهُ وبالوالدينِ إحسانًا"؟

وحين سُؤلَ الرسولُ عن أحقِّ وأفضلِ الناسِ بحُسنِ الصحابةِ: "قال أمُّكَ، قالَ ثمّ مَن، قالَ أمُّكَ، قالَ ثمّ مَن، قال أمُّكَ، قال ثمّ مَن، قال أبوك". ولأمِّ المسيحيّين المؤمنين مريم العذراء قال: "يا مريمُ، إنّ اللهَ اصطفاكِ وطهَّرَكِ واصطفاكِ على نساءِ العالمين"، وقيل: "طوبى للبطنِ الذي حَمَلَكَ وللثديِ الذي أرضَعَكَ"، وقيل": "استوصوا بالنساء خيرا"، و"عاشروهنَّ بالمعروف"!

أوَليسَ لنا في أمثالِنا وحِكمِنا وأشعارِنا العربيّةِ ما يعكسُ ويُشرّفُ التربيةَ والمجتمَعَ حين قيل: "الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها أعددتَ شعبًا طيِّبَ الأعراق، و"كلُّ رجلٍ عظيمٍ وراءهُ امرأةٌ عظيمة"، وهناك العديد من الشواهد التي تثري مجتمعاتنا؟ إذًا؛ أينَ الخلل؟ ثمّ، هل جميعُ أبناء المجتمعاتِ الغربيّةِ والمجتمعات المتحضّرةِ يتعاملونَ مِن منطلقٍ دينيٍّ مسيحيٍّ أو يهوديٍّ أو إسلاميّ؟ أليس هناك جماعات واسعة تتبنّى حركات لا دينيّة، وهناك حركاتٌ ملحدةٌ تمامًا، ولكن في الوقت ذاته، تُعَدُّ في مصاف الدول المتطوّرة والمتحضّرة، تحترمُ أطفالَها ونساءَها، وتُطالبُ بحقوقٍ إنسانيّةٍ رفيعةٍ وعادلةٍ بين الجنسيْن؟ فمن أين استمدّتْ قِيمَها؟

اليومَ، وعلى فرْضِ أنّ المجتمعاتِ المعاصرةَ الغربيّة والشرقيّة بمعظمِها، قد تشكّلتْ في زمنٍ بعيدٍ عن العصورِ القديمةِ السالفة، وأنّها لبستْ ثيابًا جديدةً مِنَ التديّنِ والتحضّرِ والعِلم، فلِمَ هذهِ الثيابَ ضاقتْ ذرعًا ببعضِ مَن لبسَها نفاقًا، ولِمَ تمزّقتْ إرَبًا، وظهرتْ عيوبُ المجتمعاتِ بحقائقِها المشوَّهةِ بدرجاتٍ متفاوتة؟

هل بسبب الحروبِ والجوع والأمّيّة والجهل؟ هل بسبب الأعرافِ الموروثةِ والعاداتِ المُتجذّرة والتقاليدِ الراسخة، وبالتالي، ظلّ الدين قولاً لا فعلا"، أي؛ ظلَّ في إطارِهِ الاسميّ يكابدُ حُلمَهُ، ولم يتمكّن مِن التأثيرِ والتغيير في تحضُّرِ بعض المجتمعات فعليًّا، ولذلك، ظلتْ ركائزُ المجتمع واهيةً، تُسيّرُها الشرائعُ القبليّة، والدين على حالِهِ، مركونٌ في اسمِهِ وكتابِهِ وحروفِهِ الخرساء لمَن لا يفقهُها ولا يعملُ بها؟

الحاضرُ الشرقيُّ في بعضِهِ وبكلِّ أسفٍ يتجرّعُ حقيقةً مُرّةً.. فبعيدًا عن الحضارةِ المسيحيّةِ والعربيّةِ والإسلاميّة، هناكَ ثقافاتٌ مَحلّيّة وعاداتٌ وتقاليد متوارثة منذ عصورٍ قديمة، ومن خلال التربية والحياة اليوميّة، عبّأت العقولَ بثقافةِ التمييز ضدّ المرأة، وصقلتْ العقليّات بتربيةِ الترهيب ضدّ الأنثى، وليس باستطاعةِ المرأة أن تَخرجَ عن العُرف السائد، إلاّ بإذنٍ مِن الرجل ومن الفِكرِ الذكوريّ، لذا؛ لم يتمكّن الدين ولا حركاتُ الإصلاح الفكريّ ولا الإصلاح الاجتماعيِّ بتغييرِها، وليس أمْرُ التغييرِ سهلاً كما نتصوّرُهُ، في ظِلِّ الأعرافِ والتقاليدِ المتوارثة والعقليّات المتصلّبة، وإنّما يحتاجُ هذا الأمرُ العَصيُّ إلى تربيةٍ جديدةٍ، ووقتٍ طويلٍ، وجهدٍ دائبٍ يكفلُ فيه التغيير التدريجيّ!

مهامّ المنظّماتِ النسائيّة!

قبلَ أن تقعَ على كواهلِ وعواتقِ المنظّماتِ النسائيّة مهمّاتٍ إصلاحيّةً وتصحيحيّة، يتبادرُ إلى أذهانِنا عدّةُ أسئلة: هل وزاراتُ شؤونِ المرأةِ في العالمِ الشرقيّ والعربيّ لها مكانتُها الفعليّة، ولها حضورُها المؤثِّرُ البنّاءُ والفاعل في المجتمع شكليًّا وعمليًّا؟

هل استطاعتْ فكرةُ المنظّماتِ النسائيّة فرْضَ حضورِها وقبولِها في الواقع الاجتماعيِّ وبشكلٍ محترَم ومقبول، كي تتمكّنَ مِن إرساءِ أسسِ التعامل الإنسانيّ الراقي، وأركانِ العدالةِ الاجتماعيّة؟

لا شكّ أنّ المنظّماتِ النسائيّةِ مسنودةٌ مِن الحكوماتِ المَحلّيّة، ومدعومةٌ من الأنظمة والمنظّمات الدوليّة، والتي من المفروض أن تكون رقيبةً على سيْر أداء الحكومات، كي تعبّئ الثغرات في القضايا المدنيّة والمجتمعيّة، في جميع مفاصل حقوقِ الإنسان، خاصّةً وأنّ معظمَها منبثقٌ مِن منظّماتٍ دوليّة، تمارسُ عملها بموجب "اتفاقيّةِ جينيف الرابعة"، والمتعلقة بحقوق الإنسان، لكن، هل هذه المنظّمات النسائيّة المحلّيّة تعمل بجدارةٍ وكفاءة، ولديها جداول أعمالٍ علميّة مدروسة، واستراتيجيّاتٌ قابلةٌ للتنفيذِ والتطبيقِ والمتابعةِ الجدّيّةِ والقانونيّة، تتناسبُ وثقافة البيئة نفسها؟

هل تسعى بإيمانٍ ثابتٍ إلى التغييرِ الإيجابيِّ للمجتمع ككلّ دون كللٍ، رغمَ الصعوبات والمواجَهات، أم أنّ هذه المنظّماتِ هي جزءٌ مِن الديكور الذي يُزيّنُ خريطةَ النظام الحاكم والمنظّمات الدوليّة؟

هل المنظّمات النسائيّةُ مجرّد تزرعُ ثرثرةَ أوراقٍ رسميّةٍ، لتحصدَ بالتالي خيبةَ المواطن، أم أنّها بمؤهّلاتِها وكفاءاتِها وإمكاناتِها المتاحةِ، تعملُ فعلاً على وضعِ أصابِعِها لملامسةِ أوجاعِ المرأةِ، ومعالجتِها بالشكلِ المُجدي والمُفيد؟

هل ترعى الواقعَ الراهنَ من خلال دستورٍ موحّدٍ، يَجمعُها ويعكسُ أطيافَ البلد الملوّنة بحزمةٍ ضوئيّةٍ واحدة، لتعلو على أعرافٍ متنازعةِ الوجهاتِ الحزبيّةِ والدينيّة والطبقيّة؟

هل المنظّماتُ النسائيّةُ تقومُ بالأبحاثِ العمليّة، والإحصاءات العلميّة، والدراساتِ المعمّقةِ الصادقةِ، لتعكس حقيقةَ الواقع بشرائحِهِ المتعدّدة، كي تتناولَ الصورةَ الكاملةَ والمتكاملة للقضايا، والاحتياجاتِ النسويّة شاملة الحقوق والواجبات، من أجل علاجها؟

وهل تعملُ على توزيعٍ سليمٍ لمسؤوليّاتِها المُحدّدة في كلّ جانبٍ وآخر في مؤسّساتِها المختصّة، فتُلبّي الحاجةَ المرجوّة عند لجوءِ النساءِ إليها؟

هل المنظَّماتُ النسائيّةُ حقًّا مكشوفةٌ على المواطن البسيط، ويَسهُلُ الوصول إليها دونَ عوائق جغرافيّة أو إداريّةٍ أو تمويليّة، تضمنُ لها الحمايةَ والأمان، وفي وقتٍ لاحقٍ، لا تكون بؤرةَ تهديدٍ للنساء المعنَّفات، ممّن كانوا السببَ في تعنيفهنَّ سابقًا؟

المهامُّ الملقاة على عاتق المنظّمات النسائيّة، أن تحُدَّ وتخفّفَ مِن ممارسةِ أشكالِ العنفِ والتمييز ضدّ الأنثى في الحياةِ اليوميّة، وأن توفّر الأمان لها، وتؤمِّنَ الملاجئَ لأفرادِ الأسَرِ المعنَّفة مؤقّتًا ولاحقًا، وتوفّرُ دعمًا مادّيًا، وتأهيلاً في العمل والعِلم، كي لا تتحوّلَ هذه الشريحة إلى عالةٍ على المنظّماتِ النسائيّةِ وعلى الدولة!

أن توفِّرَ فرصَ عملٍ للعاطلاتِ عن العمل بكرامةٍ وحقوق محفوظة، وحمايتهنّ من التهديدِ بالفصلِ القسريِّ والتمييزِ والإقصاء والاستغلال والأشكال الأخرى!

في المنظّماتِ النسائيّةِ العملُ شاقٌّ بينَ المحور النظريّ والمحورِ العمليّ، وهناكَ محاور رئيسيّة وفرعيّة لكلّ منظّمة تنشأ وتسعى في التغيير، وعليها أن تتماشى مع سُلّمِ أولويّاتٍ مدروسِ الخطواتِ المتّئدةِ والراسخةِ في العمل التدريجيّ، كي تبنيَ مشروعَها على أرضٍ صلبةٍ لا رمليّةٍ ولا هوائيّةٍ ولا مائيّة، لتصلَ بثباتٍ مِن أسفلِ القاعدة إلى رأس الهرم على الوجهِ الأكمل والأنجع، وأهمُّ هذه المحاور:

منهجيّةُ عملٍ يُخطَّطُ لها بشكلٍ مدروس وبعيد عن العشوائيّة، يتلاءم مع البيئةِ الجغرافيّةِ المُحدّدة نفسها، وذلك بسبب تعدّدِ الثقافاتِ والانتماءاتِ والشرائح والأجيال، وكذلك مِن أجل تخطّي المشاكل التي قد تتعرّض لها الأبحاث أحيانًا.

التركيز على الدراساتِ المستحدثةِ والأبحاثِ المستجدّة والإحصاءاتِ المتجدّدة، ومقارنتها بسابقاتها، وفحص مدى النجاح والفشل، أو التقدّم والتأخر في تنفيذ المشروع، من أجل اتخاذِ إجراءاتٍ أنسب!

توفيرُ أدواتِ بحثٍ وأجهزةِ عملٍ متطوّرةٍ، تملكُ من الكفاءةِ بما يُؤهّلها ببحوثِها، على جمْع المعلوماتِ الصادقة والشفافةِ من عدّةِ مصادر!

تأمينُ فريقٍ وكادرٍ مؤهّلَيْن لدراسةِ المشاكلِ وأسبابِها المباشرةِ وغيرِ المباشرة، ومِن ثمّ تحليلها، واستخلاص النتائج!

وضعُ توصياتٍ للجهاتِ الداعمةِ والمانحةِ ولصانعي القرارِ في المنظّمات النسائية، حولَ كيفيّةِ التخطيط وسياسةِ العمل لاحقًا، بحسب سلّم الأولويّاتِ لاحتياجاتِ الفئاتِ المستهدَفة، ومِن أجل تحديدِ مسؤوليّاتِ المؤسّساتِ النسائيةِ في اتّجاهاتِها السليمةِ وتوجّهاتِها الصحيحة!

أنواعُ العنفِ وآثارِه على الأنثى بشكلٍ خاصّ

إنْ كنّا نتحدّثُ عن العنفِ كظاهرة، فهذه الظاهرة متفشّيةٌ في البلدان المتقدّمة والمتحضّرة والنامية على حدٍّ متزامن، بأشكالٍ تتنوّع، ولكن بتفاوت، والعنفُ انتهاكٌ خطيرٌ لحقوق الإنسان، وتمييزٌ متعسّفٌ ضدّه.

قد يؤدّي العنفُ جسديًّا بأشكاله إلى إعاقةٍ أو تشويهٍ أو موت، والأنثى منذ الولادةِ وحتّى الممات، في السلم والحروب، تتلوّنُ أشكالُ الانتهاكاتِ التقليديّةِ بحقّها في عدّة حلقاتٍ تتشابكُ وتتداخلُ، مِن وأدِ البنات، وختان البنات، من ابتزازٍ وتهديدٍ بالقتل والخطفِ والفضائح، وملاحقة ومطاردة وتجويع وحبس، أو القتل تحت شعار شرف العائلة، أو الضرب والعضّ والخنق والحرق والتنكيل، وممارسة العقاب بأشكاله الجسديّة والنفسيّة والصحيّة والاجتماعيّة والماديّة!

ومن ثمّ ننتقل إلى العنفِ الاقتصاديِّ والفقر، الذي يدفعُ بالوالدِ إلى العنفِ التعليميّ، فيمنعُها من التعلّم، بل ويُكرهها على العمل، ومن ثمّ الاستيلاء على دخْلِها، ويليهِا العنفُ النفسيُّ وتوجيهُ الشتائمِ والتهم والإشاعات والتسبّبُ في إحراجها.

ثمّ العنفُ الاجتماعيُّ ومنعها من القيام بأدوارِها تجاهَ أهلها وصديقاتها وجيرانها، ويجعلها منبوذةً معزولةً عن المجتمع القريب إليها، ويحرمُها مِن المشاركة في اتّخاذ أبسط قراراتٍ تخصّها وتخصُّ مصيرَها.

ومن ثمّ العنفُ الجنسيُّ من زواج مبكّر، واغتصاب واستغلال في الجنس، واتّجار بها في أسواقِ الدعارة، واتّجارٍ بأعضائِها وبيْعها، والإكراه على ممارسةِ الدعارةِ والتعقيم، أو الرق الجنسيّ، أو التعرّض للإجهاض الانتقائي، فأجنّة الإناث تُجهَض، ويُكتَب لأجنّة الذكور البقاء، كما حدثَ في آسيا، فخسرتْ ستّين مليون أنثى.

الآثارُ التي تتركُ بصماتِها على حياةِ المرأةِ المعنَّفةِ، وعلى أسرتِها ومجتمعِها سوداويّةُ سلبيّةٌ وقاتمةٌ عميقةٌ، فمِن ناحيةٍ، قد تتعرّضُ المرأةُ المُعنَّفةُ للطلاق، وتتضرّر أُسرتها وتتفسّخُ وتتفكّك، ويُعاني أطفالُها مِن العدوانيّةِ وعدم الاتزان والتنظيم، وربّما إلى الجنوح والتسرّب، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ امتهانَ حقوق المرأةِ والحطِّ مِن كرامتِها وتهديدِ سلامتِها، يُشعِرُها بالتوجّس والتخوّفِ وعدم الأمان والاستقرار، بل تظلُّ مغلّفةً بإذلالها وإحساسِها بالمهانةِ والإحباطِ والعجز، ممّا يوصلُها إلى وضعٍ صحّيٍّ سيّءٍ وجسديٍّ مُتردٍّ، بسببِ فقدانِ الشهيّةِ وسوءِ التغذية، كشكل مِن أشكالِ العقاب الذّاتي والانتحارِ البطيء.

ومن ناحيةٍ ثالثة، قد يُرافقُ المرأة المُعنّفةَ اضطرابٌ في الصحّةِ النفسيّة، فتلازمُها حالاتُ اكتئابٍ شديدٍ، ربّما تودي بها إلى الانتحار، أو الانخراط في سِلك المخدّرات والدعارة، وبالتالي إلى نقلِ الأمراض الجنسيّة المُعدية والخطيرة كشكلٍ من أشكال الانتقام من المجتمع ككلّ، أو أنّها قد تتعرّضُ لصعقاتٍ نفسيّةٍ حادّة غير واعية، تدفعُها لارتكاب جرائم بحقّها وحقّ أفرادِ أسرتها!

ولو تابعنا جيّدًا ما يدورُ في الشرق (محور النزاعات وبؤرة المطامع)، ورغمَ ازديادِ المنظّماتِ والمراكزِ والجماعاتِ النسويّةِ التي تدافعُ عن المرأة، إلاّ أنّنا نلاحظ أنّ مأساةَ المرأةِ مستمرّةٌ، وأنّ حالاتِ القتل والانتحارِ والحرقِ لم تتوقّفْ، لماذا؟

العنفُ السياسيُّ هو أقسى أشكالِ العنفِ والتمييز ضدّ المرأة، فهي المستضعَفةُ في النزاعاتِ المُسلّحةِ إذ لا سلاحَ لديها، وممارسةُ العنفِ السياسيِّ والإرهابِ الحربيِّ القاسي ضدّها، يسوقُ إلى ضياعِها وإلى اهتزازِ روحِها المعنويّة، وبالتالي إلى ضياعِ جيلٍ بأكملِهِ إنْ لم يكنْ أجيال!

بريقُ السلامةِ وعطرُ الكرامةِ لا يُوفِّرهُما إلاّ الأمنُ والأمان، وبالتّالي؛ وجودُ المنظّماتِ النسويّةِ لن يكونَ فاعلاً وناشطًا، طالما أنَّ هناكَ انفلاتًا أمنيًّا لا زالَ متفشّيًا في البلاد، وطالما أن ليسَ هناكَ أمانٌ على سلامةِ النساءِ في تحرّكاتِهنّ وتنقّلاتِهنّ، بل هناكَ أطرافٌ تتخبّطُ بشكلٍ عشوائيٍّ، لا تأبهُ بالقانون ولا تحترمُهُ، بل وتعلو عليه، ودونَ تمييزٍ تهدرُ دمَ هذا وكرامةَ ذاك، ممّا يجعلُ مِنَ المنظّماتِ النسائيّةِ مجرّد مكاتب تغرقُ في سُباتِ الفجائعِ المتلاحقةِ، والخوفِ المستفِزِّ الذي يُلاحقُ النساءَ، للاختباءِ مِن عيونِ القراصنةِ، والتصفياتِ التي تعصفُ وتحومُ في كثيرٍ مِنَ الأماكن!

الضغوطاتُ النفسيّةُ والاقتصاديّةُ والاجتماعيّةُ التي تلمّ بالمرأةِ إثْرَ الحربِ والفقْدِ لأحبّائِها ولأهلِها ومعيلِها، إضافةً لشعورها بالخوفِ والعجزِ، يَدفعُها إلى الانتحارِ بشتّى أشكالِهِ والتخلّص ممّا هي فيه، وبناءً عليه، تُحتّمُ مسؤوليّة المنظّماتِ الوصولَ إليهنّ ومساعدتَهنَّ قبلَ فواتِ الأوان، إن كان مِن ناحيةِ جلساتٍ وعلاجٍ نفسيّ وإرشادٍ واستشارةٍ وتوجيهٍ، وإن كانَ مِن ناحيةٍ اقتصاديّةٍ، وتوفيرِ دورِ رعايةٍ ومخصّصاتٍ وإعاناتٍ للأراملِ والأيتامِ والمطلّقات والعازباتِ، ودمجهنّ بالحياةِ والعملِ لاحقا!

من الصعب جدًّا استئصال آفة العنف، ووأد هذه الظاهرة، لتنتهي وتنمحي كليًّا عن وجه البسيطة، فقد ظهرتْ بأشكال كثيرةٍ منذ الأزل، ومن الصعب تتبّع خطواتٍ ثابتة وعامّة، إنّما ينبغي التماشي مع خطواتٍ ديناميكيّة مدروسة، وقابلة للدراسة والتحسين والتغيير بما يتلاءم مع البيئة نفسِها، من أجل الحدّ مِن هذه الظاهرة وتخفيفها تدريجيًّا، وطبعًا، هذا لن يكون إلاّ؛ إن توفرت النيّة والإرادةُ والإيمان بجدوى ذلك، لأنّ (الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم)، فالتغيير لن يكون جذريًّا، ومن الخطأ الفادح أن يأتي مُلزمًا من الخارج، أو بفرض القانون والإجبار المؤقت والترهيب، وإلاّ كانت الردّة أصعب.

التغيير يحتاج إلى أن ينبعَ مِن حاجةِ المجتمعِ نفسِه ومن الداخل، ويحتاجُ إلى إيمان واقتناع بضرورة التغيير للأفضل، لو كان القانون فعلا يسعى إلى الأفضل، كما يجب وضع استراتيجيات حكوميّة ومؤسّساتيّة، وبرامج عمل، ويَلزمُ النجاحُ متابعةً متلاحقةً على أرضِ الواقع العمليِّ لا الشكليِّ والورقيّ، وذلك؛ من خلال تجنيد طواقم عمل وكوادر مؤهَّلة، وميزانيّات داعمة لهذه المشاريع البنّاءة، والساعية في اتّجاهِ المصلحةِ العامّة للمرأة المواطِنة، فلا تكونُ مصلحةُ المنظّمات النسويّة والنساءِ العاملاتِ فيه، على حسابِ النساء المعنَّفات.

تأثيرُ الأوساطِ والإعلامِ في مكانةِ الأنثى

الأوساطُ البيئيّةُ والجغرافيّةُ والطبقيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، كلّها مجتمعةً تؤثّرُ في تكوين المجتمع، وبما أنّ الفردَ ابنُ المجتمع، يتشبّعُ ويتشرّبُ بكلِّ العواملِ المحيطةِ به والمؤثّرةِ فيه، فأيُّ خللٍ في وسطٍ ما، يؤدّي إلى خللٍ في الاتزان الكلّي، والأنثى جزءٌ أساسيٌّ في المجتمع!

الأوضاعُ السياسيّة والحروب والنزاعات الداخليّة والخارجيّة لها آثارٌ سلبيّةٌ على المجتمع، اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وأمنيًّا وسلوكيًّا، وحين يكون الوضعُ لا أمانَ ولا استقرار فيه، يظلُّ المواطنُ عرضةً للاستغلالِ والنزاع، يتأبّط أنفاسَه صوبَ مصيرٍ مجهولِ الهُويّة!

الأوضاع الاقتصاديّة المتدنّية والبطالة المتفشّية، لها آثارٌ مضنيةٌ وشرسة على المجتمع، ومحفِّزةٌ للتوجّهِ إلى المخدّرات والدعارة وتجارة الرقّ، والأثرُ يكونُ أسوأ على الطبقاتِ المسحوقة خاصّةً، واللاهثة وراءَ رغيفِ الخبزِ الهاربِ على الدوام، ممّا يضطرّ أفرادُهُ إلى التنازلات الفادحة، والتصرّف بطرق أقربَ إلى الهمجيّة والسوقيّة، مُتّخذينَ من العنف منهجًا من مناهج الدفاع عن الذات، وحقّ الوجود في حلبةِ صراع البقاء، فيسلكون أقصرَ الطرقِ التي توصل إلى نبعِ الأمان الواهم، ألا وهو العنف بأشكالِهِ المختلفة وطرق استغلاله، وخاصّةً على النساء، مَن هنّ أضعفُ شأنًا منه، وأقلّ قدْرًا وقُدرة!

الجهلُ آفةُ المجتمع، والعلمُ يساعدُ البشر في التنوُّر والتثقفِ والتعرّفِ على العالم الداخليِّ والخارجيِّ، وفي تلمُّسِ الطريق الصائب والمتطوّر بنورانيّة أفضل، وبأقلّ تعثّرات وسقطاتٍ وعشوائيّة، بل وعلى الغالب، يساعدُ في الخروج مِن قمقم الضلالِ المعتم إلى حدائق النور والعدالة، وإلى العالمِ الأوسع، وإيجاد فرص عمل أكبر، بأقلّ قدْرٍ للاستغلالِ والتمييز والاحتكار!

رفعُ شأنِ العِلم والثقافةِ عندَ أفرادِ المجتمع رجالاً ونساءً، له لغةٌ واعيةٌ وضّاءةٌ، لا بدّ وأن تُشعّ بالفِكرِ النيّر البنّاء، ولا بدّ أن تنهضَ بأركان المجتمع إلى الأعالي. لكن، ماذا عن كثيرٍ مِن المجتمعاتِ التي بلغَها العِلم، وحظيتْ بمراتبَ عاليةٍ وتألّقتْ اقتصاديًّا وسياحيًّا وعمرانًا، لكنّها ظلّت في قوقعةِ التخلّف السلوكيّ فيما يخصُّ المرأة؟ لماذا؟

هل بسبب عقليّة صلبة متحجّرة، تضربُ المرأةَ بسيوف أعرافِها الموروثةِ في خباءِ الجاهليّة، وتقصمُ ظهرَها قسرًا بسهامِ القمْعِ والممنوع، ورماحِ الظلم والمحظور، قبلَ أن تتفتّحَ عيناها على جنائنِ الحياة؟

إذًا، كيف يمكنُ استئصالُ العقليّةِ القبليّةِ القديمة والمتأصّلةِ، كي لا تستمرَّ في الهيمنَةِ على الواقع الحاضر؟ هل بمشاريعُ محْو الأمّيّة (هذه المعضلة في بعضِ دول الشرق)، يمكن أن تكونَ نقطةَ انطلاقٍ في الخلاصِ إلى الأفضل، على اعتبار أنّ الأمّيّةُ هي العدوّ الأوّل لحضارةِ المجتمعات، والتي تساهمُ في تأثيثِ الجهل وتخلّف المجتمع، والإناث مربّيات الأجيال خاصّة، وعدم إدراكِ الحقوق الإنسانيّةِ والبشريّة؟

هل بسَنّ القوانين والتشريعات كافيةٌ في خلْق مناخٍ تشعر فيه المرأة بالمساواة مع الرجل، أم أننا بحاجة إلى خطواتٍ اجتماعيّةٍ واقتصاديّةٍ وتوعويّة؟

في الحكوماتِ الديمقراطيّة يتمّ سنّ القوانين والتشريعات بقرار الأغلبيّة رغم التعدّديّة، ولا بدّ مِن أن تطبّقَ هذه القوانين، دون التحايل عليها من هذا الجانب المعارض أو من ذاك المشاكس، فتطبيق القانون يحتاجُ إلى اقتناع الشعب أوّلاً به، وإيمانِهِ بالنهوضِ بالأمّة ورِفعتِها، مِن خلال الرجل والمرأة معًا.

هناك حاجةٌ ضروريّةٌ في خلْقِ شعورٍ بالأمن والأمانِ في نفوس الشعوب، وخاصّةً في نفوس النساء، فلا يكفي سنّ قوانين غير فاعلةٍ على أرضِ الواقع، والتي تُحارَبُ على أنّها مستورَدة مِن الغرب!

وأيضًا هناك حاجةٌ لخلْقِ روحٍ توافقيّةٍ سِلميّةٍ بينَ الفئاتِ متعدّدةِ الوجهاتِ العلمانيّة والتوجّهات الدينيّة، فلا تقودُ القوانين الحكوميّة إلى تناحرٍ دينيّ ونزاعٍ طائفي وخلاف حزبيّ..

وعلى سبيل المثال، كيف نفسّر أبسط الأمثلة القائمة، حيثُ في كثيرٍ من البلدان، هناكَ نِسَبٌ كبيرةٌ من الإناث اللواتي يتسرّبنَ من المدارس، أو لا يلتحقنَ بمقاعدِ الدراسةِ بتاتًا، رغم وجودِ قانون التعليم الإلزاميّ الذي ينصّ على حقّهنّ في التعلم، وذلك لأسبابٍ تتنوّع، إمّا بسببِ الأوضاع الأمنيّة والنزاعات المسلّحة، أو بسبب أفكارِ الأهلِ الرافضة للفكرة، والتي لا ترى مِن منظورِها أنّ للفتاة حقّ في التعلم، ولا تُدركُ أصلاً أهمّيّةَ العِلم وخاصّةً للفتاة، أو بسبب الفقر والحاجةِ المُلحّة لقوتِ اليوم؟

هل لهذه الأسباب نجدُ أعدادًا هائلةً منهنّ تتسرّب، من أجلِ العملِ أو الزواج المبكّر أو...! إذًا؛ كيف يمكنُ تنفيذُ هذه المشاريع الحكوميّة، وهناكَ سلسلةٌ مِن القوانين في كلِّ نظام ونظام، يُضرَبُ بها عرضَ الحائطِ، فلا تُطبّقُ،، ولا يُعاقَبُ مُخالِفوها؟ هل عدمُ مُجازاةِ ومقاضاةِ المُخالفين، يَجعلُ القانونَ عاجزًا وفاشلاً وفاقدًا لقيمتِهِ الحقيقيّةِ والواعدة!؟

مشوارُ الألف الميل يبدأ بخطوةٍ مؤمنةٍ بالنجاح!

نعم.. في ظلالِ الأمّيّةِ وغيابِ الثقافةِ والوعي، وفي ضبابِ تغييب صوتِ المرأة الحُرّ عن باحةِ الحوار والنقاش المشترك، وبسببِ النظرةِ المستبدّةِ المُجحِفةِ بحقّها، هناك ضرورةٌ ماسّة للتكثيفِ الإعلاميِّ؛ المرئيِّ والمقروءِ والمسموع؛ إعلام يُعنى بشؤونِ المرأة، ليبثّ دورَهُ التوعويّ والتثقيفيّ في المجتمع عامّة، وفي فئةِ النساءِ خاصّة، كي يتمكّن من معرفة حقوقهنّ، وتحصيلِهنّ مِن خلال مراكز استشاريّةٍ وقانونيّة، ومن أجلِ لملمةِ أغراسِ الجهودِ المبذولة في حدائق العدالة، بعيدًا عن أطلال الضياع والدمار!

هناك حاجة إلى عقْدِ ندواتٍ وحواراتٍ نسويّةٍ واسعةٍ للتوعيةِ والتثقيف تُواكبُ المستجدّات، وتتابعُ الخطوات السابقة وتُقيّمها، من خلال الحضور النسويّ الحيويّ والفاعل، ومن خلال ردودِها الفعليّة والعمليّة! وأهمّ نقطةٍ في الموضوع كلّه، أنّهُ لا بدّ مِن وجودِ المرأة المثقفة في المواقع السياديّة وصُنع القرار واللجان الوطنيّة وتعديل الدستور، لأنّها تلامسُ واقعَهُ بطبيعتِها الأنثويّة المناضِلة، ويمكنُ أن تخدمَهُ بالوسائل والسبل الأنجع والأساليب الأفضل.

كمشة من حيرة ينثرُها الجَمالُ وعمليّاتُ التجميلِ!

هذا هو الشغلُ الشاغلُ في الآونةِ الأخيرةِ، الجمالُ وعمليّاتُ التجميلِ، مِن شدِّ الوجهِ، لشدِّ الجفون، إلى جراحةِ الأذن التجميليّة، لشدِّ البطن، وشفط الدهونِ، لتعديلِ الأنف، إلى تصغيرِ الثدي للرجالِ، ورفعِ الحواجب، وتكبيرِ الثديين للنساء، وغير ذلك من عمليّات التجميل التي تطال المخفيّ والظاهر!

مجلاّتُنا ومحطّاتُنا وفضائيّاتُنا التلفزيونيّةِ وفضائحيّاتُنا عامرةٌ بكلِّ هذا وذاك، وصحفُنا وإعلامُنا ومواقعُنا الإلكترونيّة، كلّها على أهبةِ الاستعدادِ دائمًا وأبدًا في تغطيةٍ شاملةٍ ووافيةٍ وتفصيليّةٍ وبالأسماءِ، تندرجُ يوميًّا في أخبارِنا الفنّيّةِ والصحيّةِ وحتّى السياسيّةِ والسياحيّةِ، بدءًا من إعلاناتِ الترويجِ لعمليّاتِ التجميلِ بشتّى بنودِهِ، ونهايةً بلغةِ التهكّمِ والشماتةِ والتشهيرِ بأصحابِها أو الشفقةِ عليهم!

لم يعُدِ الأمرُ يجري سرًّا كما كانَ في الستّينيّات والسبعينيّات، بل صارَ مكشوفًا وصريحًا، ويدعو للمباهاةِ بإجراءِ هذهِ العمليّاتِ والترويجِ لها، وقد تعدّدتْ صورُ ولغةُ الترويجِ لعمليّاتِ التجميلِ ومِن أطرفِ ما قرأتُ: في الهندِ عمليّاتُ تجميلٍ في الصباح، ورحلةٌ مسائيّةٌ في المساء! وقد غدَتِ الهندُ مغناطيسًا جذّابًا للأجانبِ، لأولائكَ مَن ملّوا طوابيرَ الانتظارِ لعمليّاتٍ تجميليّةٍ نوعيّةٍ باهرةٍ وبأقلّ التكاليفِ!

المقلقُ هو، أنّ الظاهرةَ هذه لم تعُدْ تقتصرُ على الوسط الفنّيّ مِن عارضاتِ أزياءٍ ومغنّياتٍ وممثّلاتٍ ومذيعاتٍ ومُروِّجات والخ، بل تعدّتْها إلى أجيالٍ صغيرةٍ، لم يصلْ بها الحالُ بعدُ إلى الاحتيالِ على تجاعيدِ الزمن! والأدهى أنّ العمليّاتِ الجراحيّةِ لم تعُدْ تُجرى في المستشفياتِ والعياداتِ الخاصّةِ فقط، بل تخطّتْها إلى صالوناتِ تصفيفِ الشعر!

رزق الله على جمال زمان وأيام زمان وناس زمان! يمكنُ أن نتفهّمَ ما عرفناهُ سابقًا، أنّ مَن يمرُّ هذه العمليّاتِ الجراحيّةِ التجميليّةِ، هو بسببِ التشوّهِ الخلقيِّ الناتجِ إثرَ حوادثِ حروقٍ أو مرورٍ أو....، ويمكنُ أن نتفهّم أنّ هناك حالاتُ تشوُّهٍ خلقيّةٌ منذ الولادةِ بحاجةٍ إلى تعديلٍ، لكن اليوم، فالأمرُ ليسَ مقصورًا على التغييرِ الآنيِّ لشكلِ العيونِ ولونِها مِن خلالِ العدساتِ والرموشِ المستعارةِ، أو مِن خلالِ الباروكاتِ الجاهزةِ، أو صبغِ الشعرِ بكلِّ ما يمكنُ من إضافاتٍ وتلوينٍ، أو تغييرِ ملامحِ ولونِ الوجهِ مِن خلالِ مساحيقِ الماكياجات المتعدّدةِ، بل باتتْ ملامحُ الوجهِ والجسدِ جزءًا مِن الموضةِ والفصولِ المتغيّرةِ جذريًّا بتفاصيلِها وكليّتِها، ووصلَ بنا الحالُ، إلى أنّ الجميلاتِ الصغيراتِ والكبيراتِ غيرُ راضياتٍ بما حباهنَّ الله مِن جمالٍ، بل ودأبنَ إلى تغييرِ الملامحِ كلَّ فترةٍ وأخرى، لتظهرَ بمظهرٍ مغايرٍ في عرضٍ آخر... (نيو لوك)!

ذهولٌ يعتري بعضَنا لهذا الرفضِ والتمرّدِ الجريءِ على الحقيقةِ حينَ تكونُ جميلةً، خاصّةً، وأنَّ معظمَ عمليّاتِ التجميلِ الخاصّة تُجرى على الحسابِ الخاصِّ والباهظِ ودونَ تغطيةٍ من التأمينِ الصحّيِّ!

لماذا تلجأُ الجميلاتُ إلى عمليّاتِ التجميلِ؟ وما الذي يدفعُ بهؤلاءِ الجميلاتِ إلى أن يخضْنَ عمليّاتٍ جراحيّةٍ مُكلفةٍ وفي أدقِّ وأبرزِ تفاصيلِ الوجهِ والجسدِ، رغمَ المخاطرِ التي تنطوي عليها العمليّاتُ الجراحيّةُ، وقد تكونُ هذه المخاطرُ مرافقةً مِن جرّائِها أثناءَ العمليّةِ، وملازمةً أيضًا ما بعدَ الانتهاءِ مِن إجرائِها، وقد يقعُ البعضُ منهنَّ ضحيّةَ التشويهِ الدائمِ حينَ تُصابُ أعصابُ الوجهِ بآثارَ جانبيّةٍ عديدةٍ مرئيّةٍ ولامرئيّةٍ، وقد يكونُ بعضُهنَّ ضحايا الموت، وكثيراتٌ لا يَسلَمْنَ مِن الوقوعِ في أيدي أطبّاءَ مادّيينَ وانتهازيّينَ، يَنشرونَ صورَهنَّ قبلَ وبعدَ العمليّاتِ، إن لم ينجحوا في ابتزازِهنَّ!

عمليّاتُ تجميلٍ تنجحُ، وأخرى تتولاّها مآسٍ متعدّدةِ الأشكالِ، فإمّا غيبوبةٌ كاملةٌ كمثل التي تعرّضتْ لها سعاد نصر، إثرَ حقنةِ بنجٍ تلّقتْها بالخطأِ أثناءَ إجراءِ شفطِ الدهون، والشواهدُ المنشورةُ كثيرةٌ، وهناكَ مَن يتعيّنُ عليها أن تعودَ مرارًا إلى غرفةِ العمليّاتِ لاستكمالِ مشوارِ التشوّهاتِ الناجمةِ عن العمليّة الأصليّة!

كمشةٌ من أسئلةٍ تتلوّنُ على بيدرِ استغرابٍ وحيرةً وتتلوّى وجعا! ما الذي ومَن شجّعَ فكرةَ رواجِ عمليّاتِ التجميلِ، وزادَ في ارتفاعِ عددِ جرّاحي التجميلِ في العالم؟ مَن يقفُ خلفَ هذهِ الظاهرةِ المتفشّيةِ؟ أدائمًا تبدو الجميلةُ بعدَ العمليّةِ أكثرَ إثارةٍ وجاذبيّةٍ ممّا سبق؟

خارجًا عن دَوْرِ التمثيلِ والفنّ وما قد تلعبُهُ الفنّانةُ مِن أدوارٍ شبابيّةٍ، هل لها حقًّا أن تتعايشَ في الواقعِ مع عمرِها المزيّفِ فكريًّا وعاطفيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا؟

هل حقًّا يُمكنُ لهذهِ العمليّاتِ أن تُخفيَ العمرَ الحقيقيَّ؟ وهل تخدمُ هذه العمليّاتُ لفترةٍ طويلةٍ؟ هل تكرارُ العمليّات لاحقًا يمكنُ أن ينجحَ، أو يجعل الشخصَ فريسةَ اليأسِ والمساحيقِ الكاذبةِ ومن ثمّ الاعتزال والاختفاء؟

هل نلومُ الأطفالَ والزوجَ والمعارفَ إن لم يتعرّفوا على صاحبةِ الوجهِ المستجدّ؟ هل نعتبُ على شرطيٍّ إن لم يتعرّفْ عليها مِن خلالِ بطاقةِ هويّتِها؟ هل نلومُ موظّفَ السجلِّ المدنيِّ في وزارة الداخليّة، إن رفضَ استصدارَ أو استخراجَ بطاقةِ هويّةٍ، في حال اختلفتْ معالمُ الشكلِ الجديدِ عن معالمِ الصورةِ على الورقِ؟

هل نستغربُ مِن إحصائيّاتٍ أجرتْها الجمعيّةُ الأمريكيّةُ لجرّاحي التّجميلِ؟

لقد أُجريتْ أكثر من 8.1 مليون عمليّةُ تجميلٍ في الولايات المتّحدة عام 2006، في مقدّمتِها عمليّاتُ تكبير الثدي 329 ألف، وتعديلُ شكل الأنف 307 ألف، وشفط دهون 303 ألف، وشدّ الجفون 233 ألف، وتصغير حجم البطن 146 ألف، ولو تمّ إضافة عمليّات شدّ التجاعيدِ بالحقن بمادة بوتوكس، وإزالة الشعر بالليزر، سيصلُ المجموعُ إلى 11 مليون عمليّة!

وبكلّ أسى.. بين عامَيْ 2001-2006 ونتيجة لهذه العمليات، شهدتْ أيضًا 22 حالة وفاة، و12 حالة إصابة بجلطات!

وأخيرًا.. هل الجمالُ الشكليُّ يُمكنُ أن يختزلَ عناصرَ الجمالِ الربّانيِّ والجمالِ الأخلاقيِّ والروحيِّ؟

نساءٌ مِن سيليكون!

في الآونةِ الأخيرة باتت عمليّات التجميل عالميًّا جزءًا مُهمًّا وأسايًّا وحيويًّا في زراعة الأثداء، خاصّة بعدَ انتشار سرطان الثدي، وبعد استئصال الأثداء وإعمارِها مِن جديد.

كانت أوّلُ عمليّة زرع عام 1895 باستخدام بالونات مالحة، وعام 1961 كانت زراعة السيليكون! والسيلكون مادّة كيماويّة هلاميّة الشكل، على شكل زيوت أو شحوم أو لدائن، يُستخدم في صنع الموادّ اللاصقة وزيوت التزليق، وكان يُستخدمُ في الأساس ولا زال في صناعة الزجاج والسيراميك، وإنتاج المصابيح الكهربائية والخرسانة والإسمنت والمطاط الاصطناعيّ!

لقد استخدمت حشوة السليكوون في منع الارتجاج، أو لامتصاص الصدمات، كأن توضعُ في أحذيةِ الرياضيّين لتساعدهم عند القفز، وتقلّل مِن تأثير الارتجاج الذي قد ينتقل للرأس، ويُسبّب ارتجاجًا بالمخ في بعض الأحيان، وقد مضت استخداماتُ السيلكون على قدمٍ وساق، وكثرت في عمليّات الحشو والتكبير أو التضخيم، وصار السيلكون يُحقن تحتَ الجلد، وتطوّرت عمليّات التجميل، واستخدامات السيليكون انتشرت بشكل كبير، ووفقًا للجمعيّة الأميركيّة لجرّاحي تجميل ترهُّل الثدي وتكبيرِه وتعزيزِه، فقد بلغت العمليّات 329000 عام 2006!

لم تتوقّف عمليّات التجميل عند زرع الأثداء وتجميلها فقط، بل طالت أجزاَء الجسد كلّه، وخاصّة زراعة الأرداف للأنثى لتتمتع بمظهر أنيق وجذاب، ففي تايلاند زراعة أرداف لينة وصلبة، بثلاث ساعات وبتكاليف فقط 5 آلاف $، بشرط أن تكون الأنثى 18 سنة وبصحّة بدنيّة وعقليّة، وذلك بغرس بالونات مملوءة بمادة السيلكون!

ولأنّ هذه العمليّات لا تدومُ إلى الأبد، فغالبًا ما تحتاجُ إلى جراحةٍ تصحيحيّةٍ وإصلاح أيّة تموّجاتٍ أو تجاعيدَ، وقد تضطرّ لزرعٍ بديل للحفاظ على الغرسات من التمزق أو التضاؤل أو الانهيار، لكن ليس مِن المفروض أنْ تكون هناك مضاعفات صحّيّة تُهدّد بالخطر والموت، بالرغم من أنّ الدراساتِ أظهرت بأنّ هذه العمليات ليست سليمة تمامًا، إذ لها آثارٌ جانبيّة قد تُسبّب في التشوّهات!

لكن؛ ما الذي يدفعُ 30 ألف سيّدة فرنسية إلى التظاهر أمام وزارة الصحّة الفرنسيّة ليُطالبنَ بالتعويضات والعدالة؟ أيّة عدالةٍ يقصدنها؟ وما الذي يُجبرُ الحكومة الفرنسيّة أن تدفعَ تعويضاتٍ لهؤلاءِ النسوة؟ ومقابل ماذا؟

حالةٌ من الاكتئاب والهلع تعيشها هؤلاء النسوة، ممّن طالهنَّ الغشّ الطبيّ في عمليّاتِ تجميلِ أثدائهنّ، فاستخدمَ الأطبّاء سيليكون صناعيّا مخصّصًا لأغراض البناء والعزل، بدلاً مِن سيليكون طبيّ! الكسندرا بلاشير ترأست جمعيّة النساء من ضحايا السيلكون المغشوش في مظاهرة عنيفة، ليطالبنَ فيها بدفع تكاليف عمليّات زرع سيلكون جديد مكانَ الذي سيتمّ إزالته! فهل عمليّات التجميل نوعٌ من الاحتيال والخداع والتزوير؟ هذا الخداع المزدوج؛ لماذا تتسابق

النساءُ إليه، ثمّ يُطالبن بحقوقهنّ في التعويض؟ وهل هنّ حقًّا ضحايا السيلكون؟ ما هي المخاطر المتأتية فيما لو تمزق السيلكون تحت الجلد؟

تظاهرة شكّلت فضيحةً لتورّطِ الشركة الفرنسيّة بولي بلانت بروثيسيس؛ والتي كانت رائدة على مستوى العالم في إنتاج السيليكون الطبيّ، وذلك في محاولة توفير قرابة مليار يورو، بالغشّ وتقليص استخدام السيليكون الطبيّ، واستخدام السيليكون الصناعيّ الأرخص، ممّا تسبّب في إغلاق هذه الشركة الفرنسيّة، بعد خضوعِها للتحقيق القضائي، بعدما قدّمت ألفا سيّدة دعاوى قانونيّة ضدّها، على أثر إصابة أربع نسوةٍ بالسرطان ممّن خضعن لعمليات التجميل المغشوش، كما توفّيت اثنتان منهنّ دون أن تتمكّن الفحوصات مِن الربط بين نوعيّة السيلكون المستخدم والسرطان!

لماذا اضطرّت الحكومة الفرنسيّة أن تبدي استعدادَها بدفع تكاليف إزالة السيلكون المغشوش لجميع المعنيّات بالأمر بدلاً من الشركة المسؤولة!؟

هذه الغرائبُ تدورُ في عالمِنا الصغير هذا بكلّ تقنيّاته المستحدَثة، والرحب بتناقضاتِه وتوجيهاتِهِ المباشرة واللامباشرة على حيواتِنا وأتساءل.. لمَ هذه التناقضات تلعبُ بشكل كبير في تحديدِ أدوارِ البشر والعالم، وتجنيسِ اهتمامتِهِ بشكل سافرٍ مغبونٍ دون حياء، وتشيّئ المرأة، ثمّ تنادي بالمساواة بين حقوق الرجل وحقوق المرأة؟ هل باتت الحقوق شعاراتٍ يُتاجرُ بها مَن يجلسون على العرش المادّيّ الربحيّ؟

قامت شركة CityWactcher.com بتوقيع عقود مع ستة مدن لتوفير كاميرات وتقنيات مراقبة عبر الإنترنت في المناطق ذات نسب الجريمة المرتفعة، وذلك بتقنية جديدة تتلخص بحقن شرائح RFID بحجم حبات الأرز، توضع تحت سطح الجلد مباشرة، وهي من مادة السيليكون، وذلك بدلا من بطاقات الدخول وهذه الشرائح السيليكونيّة تعمل بتردد موجات الراديو!

كان أوّل استخدام لهذه التقنيّة في جسم الإنسان بالولايات المتحدة، إذ قامت إحدى الجهات المكسيكيّة بحقنِها في أجسام الموظفين عام 2004، من أجل منع وصولِهم إلى مناطق محظورة، وتقوم هذه الشرائح بوظيفة بطاقة الدخول إلى الأماكن المغلقة، حيث يوجد جهاز يتعرّف على الشريحة خارج الباب، وبمجرّد أن يضع الشخص ذراعه تحت هذا الجهاز يتم فتح الباب آليًّا، وهذه الشرائح لا تتيح تتبّع مكان الشخص، وأيضًا لا ترسل أيّة إشاراتٍ للتعرف على مكانه، إنّما هي فقط تقومُ بدوْر بطاقاتِ الدخول.

لِمَ يتمّ تصويب الأنظار وبؤَر الاهتمامات في كلّ مناحي الحياة العصريّة نحو جسد المرأة، وبالمقابل نحو عقل الرجل وقدراتِهِ الفكريّةِ والابتكاريّة، وكأنّ العالمَ يُسخّرُهُ الرأسماليّون فقط للاتجار بالعِلم والإبداع والابتكار والتكنولوجيا والجَمال والفنّ، وفقط من أجل الربح المادّيّ؟ لماذا تخضع الشعوبُ المسحوقة والثريّة على حدّ سواء للسوق في العرض والطلب وفي البيع والشراء، والأممُ كلّها أضحت عبيد المادّةِ بدرايةٍ وبغير دراية؟!

السيلكون؛ هذه المادة الهلاميّة المستخدمة في التزليق، أيبدو أنها ساهمت في انزلاق مجتمعاتِنا عن مساراتِهِ الأخلاقيّة صوبَ الهاوية؟

نساءٌ يتأرجحنَ على حبالِ الجمالِ والذّكاءِ!

مقولتانِ حولَ ذكاءِ المرأةِ وجمالِها استوقفتاني، أولاهُما للشاعر الفرنسيِّ بودلير مفادُها: أنّ الغباءَ هو زينةُ الجَمالِ، وهو ما يُضفي على العيونِ ذلكَ الصفاءَ الكئيب، وأنّ الفرحَ أكثرُ حلِيِّ الجَمالِ سوقيّة، بينما الكآبة قرينةُ الجمال الروحيّ!

أمّا الكاتبِ (وليام شكسبير) فمفادُ مقولتِهِ: المرأةُ العظيمةُ تُلهمُ الرجُلَ، أمّا المرأةُ الذكيّة فتُثيرُ اهتمامَهُ، بينما تجدُ المرأةَ الجميلةَ لا تُحرِّكُ في الرَّجُلِ أكثرَ مِن مُجرّدِ الشعورِ بالإعجاب، ولكن المرأةَ العطوفَ والحنونَ وحدها التي تفوزُ به في النهاية!

ما الذي يَدفعُ بالكاتبِ شكسبير والشاعر بودلير إلى استخلاصِ هذهِ العِبرِ مِنَ الحياة؟ وهل رؤيتُهُما بعيدةُ النظرِ بشأنِ المرأة، تصُبُّ حقًا في قوالبِ الواقعِ البشريِّ والظروف والأمم المختلفة، أم تُسكَبُ في خوابي تاريخٍ وحدودٍ جغرافيّةٍ محدّدة؟ هل تستمدُّ المرأةُ قوّتَها وجاذبيّتَها مِنَ العِلمِ والفِكرِ والأدبِ والنِضالِ دائمًا، غالبًا، أحيانًا، أم مِنَ الحظوظِ والفُرصِ المتاحةِ لها، أم مِن انتمائِها لنَسبِها وحَسبِها؟

بومضةٍ سريعةٍ أعادتْني عدسةُ الذاكرةِ إلى عدّةَ قرونٍ ولّتْ، ووجدتُني في براحِ العصرِ الأندلسيِّ، أنفضُ الغبارَ عن أسماءِ جوارٍ ونساء كثيرة طوَتْها أمّهاتُ كتبِ الأدبِ والتاريخ والموسوعات الثقافيّة العربيّة، أسماء لامعاتٍ باللغة ونابغاتٍ بالأدب، أوردُ بعضها للاستذكار:

"مريم بنتُ يعقوب الأنصاريّ" في اشبيلية، كانتْ تطوفُ البيوت لتعلّمَ أبناءَها وبناتِها علومَ الصرفِ واللغةِ والأدبِ، في خلافةِ المهدي!

"نظام" تسلّمتْ أمانةَ السِّرِّ في بلاط الحكم الثاني، وتولّتْ تدوينَ الوثائقِ السياسيّةِ بنهجٍ علميٍّ بارعٍ، وقد أُحيطتْ بكلِّ تقديرٍ واحترام!

"صفيّة بنت عبدالله" كاتبةٌ تفرّغتْ لنقلِ المخطوطاتِ بخطِّها وإنشائِها البديع الجميل!
"الكوكبُ الساطعُ رضيّة الشاعرة القصصيّة" في زمنِ الحكم الثاني، نبغتْ ولقيتْ تكريمًا عظيمًا وبالغًا..

"لبنة" العالمةُ في الرياضيّاتِ واللغة في زمن الحكم الثاني، عملتْ في جامعةِ قرطبة أشهر جامعةٍ علميّة في القارّةِ الأوروبيّة!

"عابدة المدينة" التي قدِمتْ مِنَ الحجاز، واشتهرتْ بالفصاحةِ والفقهِ بعدما درستْ في جامعةِ قرطبة، وتزوّجَها بشر بن حبيب الأندلسي!

ما الدوافعُ لاستقطابِ الجواري والإماءِ مِنَ الشرق إلى الغرب، ولِمَ يستقدمُهُنَّ الخلفاءُ، والغربُ له جمالُهُ الخارقُ في نسائِهِ؟

كيف استطاعت الجواري أن تحظى بمكانةٍ رفيعةٍ وساميةٍ تُحسدُ عليها، في مجالسِ الخلفاءِ والأمراءِ والفقهاء؟

وكيف تمكّنتْ بعضُ الجواري من الزواج بأمراء وذوي مراتب عالية في البلاط، ليتولّى أبناؤهنّ مراكزَ هامّة في السلطة؟

لقد جَمعتْ جواري الخلفاءِ بينَ الجمالِ والذكاءِ والعلومِ والفنون، وهذا ما أشار إليه شكسبير في مقولتِهِ، إذ قامَ الخلفاءُ باستقدامِ الجواري مِنَ الشرقِ إلى الغرب، مِن أجلِ نشرِ العِلمِ والفقهِ والأدبِ والعروضِ بالأساس، فالمرأةُ العربيّةُ في الأندلس (وخاصةً طبقة الجواري) وجدتْ منطلقًا رحبًا، وحافزًا قويًّا لتنميةِ مواهبِها الفكريّةِ والفنّيّةِ والشعريّةِ والإبداعيّةِ على خلافِها، فارتقتْ فكريًّا وثقافيًّا وفنّيًّا بارتقاءِ المحيطِ الذي عاشتْ فيه!

لكن؛ ما الذي جرى لها وللمرأةِ قاطبةً حينَ تخلّفَ عنها المركبُ الحضاريّ عدّةَ قرون؟

لماذا طُمِستْ مواهبُها لاحقًا، ولُجِمَتْ قدراتُها، وعُزِلَتْ عن الأضواءِ والحضورِ؟

هل باتَ الذكاءُ حِكرًا على الذكورةِ، والجمالُ حِكرًا على الأنوثةِ، كما اعتقدَ الفيلسوفُ "كانت" في عصرِ التنوير؟

هل باتَ ذكاءُ المرأةِ يُشعِرُ الرجلَ بضآلتِهِ أمامَ المرأة، وبضعفِهِ تجاهَها؟

هل تنبعُ مشكلةُ عقدةِ تفوّقِ الرجلِ مِن صميمِ المجتمعِ الذكوريّ، ومِن رغبتِهِ المُلِحّةِ والدفينةِ في السيطرةِ، في مجالِ الأسرةِ والعملِ والحكم؟

هل بسبب شعورِهِ بالاستهانةِ بذكاءِ المرأةِ، والذي قد يصلُ بها حدَّ الدهاءِ من أجلِ الحفاظِ على كينونتِها وحقوقِها!

قصّةٌ طريفةٌ أسوقُها، وعلى نسقِها ونمطِها يمكنُ أن نقيسَ ما نشاءُ مِن حكاياتِنا وقصصِنا المعيشةِ يوميًّا.. كانتْ فتاةٌ تسيرُ في الغابةِ، ورأتْ ضفدعًا عالقًا في مصيدة، فطلبَ منها إنقاذَهُ مقابلَ أن يُحقِّقَ لها ثلاثَ أمنياتٍ لها، شرطَ أنّ عشرةَ أضعاف كلّ أمنية تكونُ من نصيبِ زوجِها، فوافقتْ وأنقذتْهُ، وحينَ تحرّرَ الضفدعُ، طلبتِ الفتاةُ أن تكونَ أجملَ فتاةٍ في العالم، فحذّرَها الضفدعُ، لأنّ زوجَها سيكونُ الأجملَ، وقد تحاولُ النساءُ أخْذَهُ منها، فقالت وما المشكلة، طالما أنّهُ لن يجدَ أجملَ منّي! ثمّ طلبتْ أن تكونَ أغنى فتاةٍ في العالم، فحذّرَها الضفدعُ لأنّ زوجَها سيكون لديهِ عشرة أضعاف ثروتِها، فقالت: وما المانع طالما أنّنا سنجمعُ ثرواتِنا معًا؟ ثمّ طلبتْ أن تصيبَها جلطةٌ بسيطةٌ في القلبِ، شرطَ ألاّ تُميتَها، فسألها الضفدعُ متعجّبًا: ولكن لماذا؟ فقالت الفتاة: كي تصيبَ زوجي عشرةُ جلطاتٍ ويموت، وأكونُ أنا الوريثةُ الوحيدةُ للثروة!

أما حدّثَتْنا قصصُ التاريخِ عن نساء بنيْنَ عشوشًا وهدمْنَ عروشًا بذكائهنّ وبجمالهنَّ؟

الجَمالُ تغيّرتْ مقاييسُهُ وموازينُهُ على مَرِّ العصور، وقد يَزولُ في أيّةِ لحظةٍ بفِعلِ العواملِ الصحّيّةِ والتّأثيراتِ الجانبيّةِ، كما أنّ الجَمالَ الصاخبَ قد يُداعبُ غرورَ المرأةِ ويُطربُ أنوثتَها، وقد يأخذُ بيدِها مباشرةً إلى المطبخِ أو عرشِ الزوجيّةِ، أو إلى مواطنَ أخرى لا تَفيها حقَّها بالسعادةِ والرضا اللذيْنِ تتوقُ لهما....

لكنَّ الذكاءَ يمنحُ المرأةَ القدرةَ على إظهارِ جاذبيّتِها الأنثويّةِ، والطاغيةِ أحيانًا، كما يُعزّزُ جمالَها اللامرئيَّ، ويَهبُها الكفاءةَ في التعاملِ مع المجتمعِ ومقتضياتِ الحياةِ بعقلانيّةٍ وحكمةٍ، كي تُضفي مرحًا في الأوقاتِ المناسبةِ لتخفيفِ ضغوطاتِ الحياةِ، كما أنّ الذكاءَ يُثيرُ اهتمامَ الرجالِ خاصّةً، كما يقول د. مايكل بيث في إحدى دراساتِهِ، والرجُلُ يرفضُ اختيارَ العيشِ مع الغبيّةِ وإن كانتْ جميلةً، إذ إنَّ الذكاءَ يجعلُ منها شخصيّةً قويّةً، لها تأثيرُها الإيجابيُّ على الرجل، والمرأةُ الذكيّةُ الخيِّرةُ التي تلعبُ أدوارَها البنّاءةَ، لا يُمكنُ نسيانَها، بل تكونُ دائمًا بخطّ متوازٍ مع الرجلِ، وباحترامٍ مُشرقٍ وعميقٍ.

لكن؛ هل يمكنُ للمرأةِ الجاهلةِ أن تتعلّمَ بذكائِها ما فاتَها، بنفس النسبة كالغبيّة؟ هل هذهِ الأبحاثُ والدراساتُ تنطبقُ على جميعِ المجتمعاتِ خاصّةً العربيّة، أم أنّ النتائجَ قد تتفاوتُ بينَ مجتمعٍ وآخر بحسب الثقافةِ والانفتاحِ الفِكريِّ؟

هل تختلفُ نظرةُ الرجلِ الغربيِّ عن الشرقيِّ بخصوصِ ذكاءِ المرأةِ وجمالِها، بحُكمِ اختلافِ البيئةِ والعصْرِ والثقافةِ والحضارةِ؟

هل حقًّا اختلفَ إدراكُ وتفهّمُ الرجُلِ للمرأةِ، وأخذتْ نظرتُهُ عبْرَ التاريخَ قالبَ انسجامٍ آخر، يُقِرُّ فيهِ باحترامِها وذكائِها وقدراتِها وكفاءاتِها في التغييرِ البنّاءِ والفعّال؟

وعلى الصعيد الشرقيِّ، هل يمكنُ أن تتقلّصَ هوّةُ النزاعِ وحِدّةُ الصراعِ بينَ الأنوثةِ والذكورةِ، لتصلَ مجتمعاتُنا إلى تكاملٍ أو شِبهِ تكامل؟

وإن يكن، فهل في جميع المجالات، أم أنّ الأمرَ مقتصِرٌ على نواحٍ مُحدّدة؟

المرأةُ كَوْكَبٌ يَستنيرُ به الرّجُلُ!

"ولو كُنَّ النساءُ كمَنْ فقدْنا/ لفضّلتُ النساءَ على الرجَال/ فما التأنيثُ لاسْمِ الشمسِ عيْبًا/ ولا التذكيرُ فخْرًا للهلالِ"!

بهذه الكلماتِ رثى المتنبّي شاعرُ البلاط إحدى قريباتِ الأمير سيف الدولة الحمداني، فهل كانَ الرثاءُ رياءً، ومجرّدَ مجاملةٍ فيها منفعةٌ خاصّة، أم أنّه يعكسُ حقيقةَ المرأةِ وتقديرَها آنذاك؟

وها شكسبير يقول: "المرأةُ كوكبٌ يَستنيرُ به الرجُلُ، ومِنْ غيرِها يَبيتُ الرجلُ في الظلام"!

لقد نظرَ المتنبّي الشرقيّ وشكسبير الغربيّ بانفتاحٍ لمكانةِ المرأة وتعزيزها، فليستْ تاءُ التأنيثِ وصمةَ عارٍ أو شارةَ انتقاصٍ، بل تزيدُها وقارًا وقدْرًا، فكما أنَّ الشمسَ أمُّ الضوءِ، وقاهرةُ العتمةِ وآيةٌ لحياتِنا وأرزاقِنا، وكما تعكسُ نورَها على الهلالِ فيبدو مضيئًا، كذلك المرأةُ هي شمسُ البشريّةِ والوجودِ، إذ تُضفي لمسةَ جمالٍ للطبيعةِ البشريّةِ والكونيّة، بحنانِها وضوئِها ودفئِها، وتكتملُ دورةُ الحياةِ بشروقِها وغروبِها، فيقولُ الموسيقار بتهوفن: "أيّتُها المرأةُ، إنّي لا أحسُّ بجَمالِ وروعةِ الطبيعة، إلاّ عندما تلمَسينَ أزهارَها بأناملِكِ الجميلة"!

فهل قصدَ بتهوفن الطبيعةَ بتضاريسِها، أم شخصَهُ وطبيعةَ الجسدِ، ليؤكّدَ بذلك مقولة أخرى، بأنّ "الرجلَ جذعُ الشجرةِ وساقُها وأوراقُها، أمّا المرأةُ فهي ثمارُها"؟

وإن كان صِدْقًا "مِن ثمارِهِم تعرفونَهم"، فهل عرفنا عن المرأةِ إلاّ ما يوجِبُ أن نفخرَ بها ونُمجّدَها ونُكرّمَها، تلكَ مَن سمَتْ بأنوثتِها حُبًّا وعطاءً، وعَلتْ بأمومتِها حنانًا وتضحية؟!

المرأةُ؛ هذا المخلوقُ الليّنُ، أمكنَها أن تتكيّفَ وبيئتَها بكلِّ أناةٍ وجلَدٍ، وقد وهبَها الباري قدرةً فائقةً على تحمّلِ الظروفِ البيئيّةِ الصعبةِ كي تتأقلمَ معها، ليسَ مِن منطلقِ ضعْفِها أو رضاها بمهانتِها، وإنّما محاولةً منها بصبْرها وحِكمتِها، أن تُوازنَ كلّ خللٍ قد يودي بالأسْرةِ والمجتمع، فتتحمّلُ بتضحيتِها مِن أجل الآخرين، لأنّها لا تجدُ مَن يُنصِفُها في مجتمعٍ أدمنَ على قهرِها وإذلالِها، ولا شكّ أنّها دوْمًا تحلُمُ رغمَ كلِّ المآسي العاصفةِ بها، أنّها ستحظى بواحةِ الأمان فلا تنكسر، كما يقول الفيلسوف (زواتلى): "المرأةُ كالغصنِ الرطبِ، تميلُ إلى كلِّ جانبٍ مع الرياح، ولكنّها لا تنكسرُ في العاصفة"!

فهل المرأةُ شجرةٌ أم فننٌ أم ثمرُ، أم هديّةٌ ربّانيّةٌ كرّمها الله فجعلَ منها أمَّ البشريّةَ، كما يقول الفيلسوف سقراط": "المرأةُ أحلى هديّةٍ قدّمَها اللهُ إلى الإنسان"؟

و "سعيد فريحة" يصرّحُ بملءِ كبريائِهِ: "المرأةُ في نظري هي التي تجعلُني أحسُّ بكياني كرجُل"!

فهل واهبةُ الحنانِ والعاطفةِ، وزارعةُ حقول الحياةِ بابتساماتِها الورديّة، يمكنها أن تعطّرَ القلوبَ المتعبةَ بأريج السعادةِ والطمأنينةِ دائمًا؟ وإنْ كانت هي منبعُ البهجةُ والسعادة، كما يقول كونفوشيوس: "المرأةُ أبهجُ شيءٍ في الحياة"، فهل يؤمنُ الرجلُ الشرقيُّ أنّ المرأةَ

ليستْ مِن سقط المتاع والميراث، ولا تخضعُ شرعًا للضربِ والهجرِ والحرمانِ والتهديد والوعيد، كما لا يمكنُ الاستغناء عنها؟

بلزاك يؤكّدُ: "المرأةُ مخلوقٌ بينَ الملائكةِ والبَشر، وأقربُ الكائناتِ للكمالِ"!

فهل نقرُّ أنّ لها حقًّا في إنسانيّتها، إضافة إلى واجباتها، وأنّها قد تفوقُ الرجلَ علمًا وصلاحًا وجدوى؟ نعم، مدرسةُ الأجيال هي، كما أشادَتْ بها الرسالاتُ السماويّة، وكما بَجّلها فلاسفةُ الأرضِ وشعراؤُها وأدباؤُها، فها رديارد كبلنج قال: "المرأةُ وحدَها التي علّمتْني ما هي المرأة"!

وأناتول فرانس قال: "المرأةُ هي أكبرُ مربّيةٍ للرجل، فهي تعلّمُهُ الفضائلَ الجميلةَ، وأدبَ السلوكِ ورقّةَ الشعور"!

وشاعرُ النيل حافظ إبراهيم يُجْمِلُ إيمانَهُ: "الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها/ أعددْتَ شعبًا طيّبَ الأعراقِ"!

هذا الكيانُ المدعو "امرأةً"، قد يشكّلُ نصفَ المجتمع والأمّةِ إنْ لم يكنْ أكثر، فيَقرعُ الناقوسَ منبِّهًا جمالُ الدين الأفغانيّ: يا بني أمّي، "لا أمّةَ بدونِ أخلاق، ولا أخلاقَ بدونِ عقيدةٍ، ولا عقيدةَ بدون فهم"!

نقطةٌ مركّبةُ الأبعادِ والاتّجاهات انبثقتْ مُجلجلةً، فهل حقًّا نفتقر إلى العقيدة، أم أنّها مُتواجدةٌ مُغيَّبةٌ، لكنّنا نفتقرُ إلى فهمِها والتحلّي بها، فنزدانُ بفضائلِها حينَ نتخلّقُ بها؟ هل يمكنُنا أن نصحّحَ اعوجاجَ مجتمعاتِنا فكريًّا، لنخرجَ عن عاداتِنا المتوارثةِ البالية بشأن المرأة، ونُحْسِنُ التعامل معَها كإنسانٍ وكيانٍ؟ كيفَ يتأتّى لنا الصلاحُ والإصلاح؟

أسوقُ قصّةً طريفةً شاعتْ بينَ مجالس المتأدّبين، مِن كتاب "محاضرة الأدباء" لمحيي الدين بن عربي، حولَ أثر البيئةِ على تركيبةِ البشر تقول: أنّ عليَّ بن الجهم عاشَ في شبابِهِ في بيئةٍ صحراويّةٍ قاسية، وعلى الرغم مِن رشاقةِ المعاني والشاعريّة الفذّة التي تأجّجتْ في صدرِهِ، إلاّ أنّ البيئةَ الصحراويّةَ كان لها أثرٌ في بناءِ شخصيّتِهِ ومفرداتِهِ وألفاظِه الشعريّة، فجعلتهُ جافًّا قاسيًا، وحينَ أنشدَ المتوكّل قال: أنتَ كالكلبِ في حِفاظِكَ للوُدِّ/ وكالتيسِ في قراعِ الخُطوبِ/ أنتَ كالدلوِ لا عدمْناكَ دلوًا مِن كبارِ الدلا كثير الذنوبِ

أجمعَ الحضورُ على ضرْبِهِ، لكنّ المتوكّلَ أدركَ بنباهتِهِ حُكمَ البيئة في تشكيل شعريّتِهِ، فأصدر أمرًا بأن يتمّ منْحَهُ بيتًا في بستانٍ قريبٍ مِن الرصافة، في حيٍّ أخضر يانع، يُطلُّ على الناس والسوق والنضرة والجَمال، وحينَ دُعيَ عليّ بنُ الجهم بعد فترةٍ، أنشدَ شِعرًا متميِّزًا: عيونُ المها بينَ الرصافةِ والجسر جلبنا الهوى مِن حيثُ أدري ولا أدري، فأصيبَ الجمعُ بالدهشةِ لهذا الانقلابُ في التعبير، فقال أميرُ المؤمنين: إنّي أخشى عليه أنْ يذوبَ رِقّة!

وعسى أن نذوبَ رقّةً وصَلاحًا في إدراكِ العِبرة، وما يرمي إليهِ قوْلُ مُترجم كتاب "كليلة ودمنة" عبدالله بن المقفع: المرأةُ الصالحةُ لا يَعدلُها شيء، لأنّها عونٌ على أمرِ الدنيا والآخرة!

لا إنترنت للمرأة إلاّ مع مَحرَم!

اعتدتُ وصديقتي الشاعرة هيام قبلان أن نسافرَ معًا ولوحدنا في معظم الأحايين في ميادين اللقاءات الثقافيّة، وقد ساقتنا إحدى الندوات إلى هضبة الجولان السوريّة، وضحكاتنا المغامرة تتسارعُ في المنعطفات إلى مسعدة ومجدل شمس، حيث تنتظرنا كروم التفاح وترحاب أصدقاء يُصرّون على قطف التفاح من الكرم معنا كهديّة الضيافة الأولى، وقد فوجئوا بنا وحدنا..

شاعرتان ومِن غير مَحرَم؟ دعابة تطلق البسمات والقهقهات، وتحرّك ساكن بنات الرجال وأخواتهم، ونضحك وتضحك تربيتنا الشاميّة: لا تنسوْا.. أنّ بناتِ الرجال وأخواتِ الرجال رجالٌ!

وأعود والمَحرم يلازمني ويجول في خاطري كلّما دارَ كأس الجُملة تلك تداعبُ خيالي، وتتوافدُ رسائل إلكترونيّة بأسماء نساء عربيّات متميّزات حصدن جوائز عالميّة، شرّفن بلادهنّ وأوطانهنّ بعلمهنّ، وتتوثب الروح وتتقفّز وطنيّة واعتزازًا بنساء ساهمنَ في رقيّ وتطوير أوطانهنّ، وقد حظين باهتمام أهاليهنّ من رعاية وتذليل صعوبات لتحقيق إنجازاتهن في ميادين علميّة مختلفة.

الشاعرة السعوديّة سارة الخثلان تفوز بجائزة مجلة نيوزويك الأمريكيّة كأفضل شخصيّة عربيّة لعام 2005.

الدكتورة السعوديّة سلوى الهزاع رئيسة أمراض وجراحة العيون بمستشفى الملك فيصل تفوز بجوائز عالميّة لمشاركتها المتواصلة للمؤتمرات الدوليّة.

عشر نساء أخريات من دول عربيّة يفزن ويحظيْن بتكريم يليق بهنّ وبالمرأة المثابرة الخلاّقة.

وهذه لحاظ الغزالي عالمة الطبّ والجينات العراقيّة، تحصد جائزة لوريال اليونيسكو المخصّصة لنساء العلم التي فازت بمئة ألف دولار لنجاح فريقها العلميّ في مسح وتشخيص جينات "مورثات" تؤدّي إلى علل وراثيّة، وقد أُطلق لقبها "الغزالي" على اثنين مِن العلل الجينيّة غير المعروفة قبلاً!

وتلك الناشطة الحقوقيّة والقياديّة اليمنيّة في حركة الاحتجاج الشبابيّة توكل كرمان تفوز بجائزة "نوبل" للسلام، لتكون أوّل امرأة عربيّة تفوز بهذه الجائزة منذ إنشائها في العام 1901، والتي أدخلت اليمن التاريخ بفضلها وبفضل إيمانها ومكافحتها من أجل حرّيّة شعبها..

يغمرني الاعتزاز والتقدير لمن على شاكلة هؤلاء النساء والقائمة تطول بأسمائهنّ، ولكن؛ في هذه الأثناء الممهورة بالاعتزاز بالمرأة وما آلت إليه بعِلمها وبفِكرها وإنجازاتها الرياديّة المُشرّفة، إذا برسالة من زميلة تصلني تحت عنوان ما رأيك عزيزتي بهذا العنوان "لا إنترنت للمرأة إلاّ مع محرم"؟

توْقي المُستفَزّ يأبى إلاّ أن يحثّني على البحث عن هكذا خبر يتأرجحُ بين المنطق واللامنطق!

"أصدر الشيخان السعوديّان عثمان الخميس وسعد الغامدي فتوى تحرّم الانترنت على المرأة بسبب خبث طويّتها، وأضافت الفتوى، لا يجوز للمرأة فتح الإنترنت إلاّ بحضور مَحرم مُدرك لعهر المرأة ومَكرِها"!؟ هذا ما ورد في صحيفة إيلاف والقبس الكويتيّة ومواقع عديدة أخرى!

لماذا تصدر هذه الفتاوي في هذا الوقت بالذات؟ وهل هذه الفتاوي يتقبّلها العقل والمنطق بسهولة ورضوخ دون جدل أو اعتراض؟ كيف يُعقل أن تُعامل المرأة بلغة تحقير ودونيّة وازدراء، تجعل لها أوصياء في كلّ خطوة مهما بلغ بها العمر والإدراك، في حين أنها وصلت العالميّة؟ وهل كلّ وصيّ أو مَحرم هو طاهر الطويّة ولا خبثَ في النيّة؟

هل لهذه الفتاوي الوضعيّة معاييرَ في الشريعة، أم هي نزعة قبليّة ذكوريّة تعاقبُ الإناث جماعيًّا ودون وجه صحّة بالأسباب الداعية للتعميم؟ وبصدد النيّة والصحّة، فهل هذه الفتاوي تصون المرأة وتحافظ عليها، أم تجحفُ بحقها وبقدْرِها وبقيمتها الحقيقيّة، وتُقلل من شأنها، وتحجُر على فِكرها ووجدانها؟ هل هذه الفتاوي تُجانب الصواب؟ وما مدى صحّتها؟

ما دوْر التربية والتوعية في تعزيز القيم والأخلاق والنهوض بالإناث والمجتمعات؟ وما الذي يدفع بالشيوخ إلى إصدار مثل هذه الفتاوي في زمن بات النت لغة أساسيّة في مجالات الحياة العامّة والمؤسّسات، لا يمكن الاستغناء عنه، بدءًا من الطفل حتى الشيخ؟ هل بسبب انتشار المواقع الإباحيّة التي تنشر الدعارة والفساد والرذيلة؟ وهل مَن يقوم على تسويق الرذائل هنّ الإناث وحدهنّ دونَ الرجال؟

وهل المشبوهون والمشبوهات يستكفون بمواقع الإنترنت، أم أنهم قادرون على اختراق جزيئيّات الواقع والشبهات والمُحرّمات بلباقة قد يقع في شِركها أنزه البَشر؟ هل هي فتاوي حقيقيّة صدرت من أولئك الشيوخ فعلاً، وتعكس حكمة وعلاجًا مدروسًا لواقع مريض، أم هي فتاوي عشوائيّة وعديمة الصحّة، يبثها أولئك المُغرضون، مَن يتصيّدون بالمياه العكرة، ويحاولون ان يزجّوا الدين ورجاله والشيوخ في متاهات التعصّب والتسفيه، لزعزعة الثقة بين عامّة الناس والدين ورجال الدين؟ هل هي مجرّد إشاعات تخدم جهات معيّنة ومآرب وخبايا أخرى تلعب بنار الفتنة، أم هي نوع من التهكّم والتلاعب بمشاعر وعقول البسطاء؟

حين سُؤل سماحة الشيخ عثمان الخميس عن مصداقيّة هذه الفتوى أجاب: سبحانك هذا بهتان عظيم، هذا كذب لم أقله، ولم أطلع على فتوى الشيخ سعد الغامدي!

عدت للبحث عن تواريخ هذه الفتاوي، واستغربت أنّ نفس المادّة بدأ نشرها عام 2004، لكنّها من حين لحين تنشر وحتى يومنا هذا ببعض التعديلات وأتساءل: لماذا تُصرّ الصحافة الإلكترونيّة على نشر هذه المواضيع رغم أنّها غير طازجة؟ هل تتوخّى الصحف والمواقع الإعلاميّة المصداقيّة عند نشرها هكذا أخبار؟ وأين نجد الموضوعيّة في عمليّات النشر والافتراء؟ هل يدخل نشر الأخبار التي تتأرجح بين الحقيقة والإشاعة في إطار الربح والانتشار السريع؟ ما معنى أن تنشر مثل هذه الأخبار والتقارير دون أدنى مساءلة أو رقابة قانونيّة؟ وهل يمكن اعتبار مثل هذا النشر جزء من التشويه؟

لا نخلقُ نساءً بل نُصيّرُ نساءً!

لطالما أنّ المرأة كانت في سالفِ التاريخ ولقرونٍ طويلةٍ حاكمةً وقائدة، فهل بإمكانِها أن تكون شخصيّةً قويّةً وقياديّةً تواجهُ الحياةَ بإصرارٍ على البقاءِ والحضور؟ كيف لها أن تتحدّى الأعرافَ والتقاليد التي تعمل على تهميشها وتكبيلها، أو تقليصها وإلغائها؟ هل هي بحاجةٍ لاقتناعٍ داخليٍّ بقوّتِها وقدرتِها على تحقيق طموحاتها، والصمودِ في وجهِ الانتهاكاتِ التي تتعرّضُ لها؟ كيف يكون لها ذلك، وما هي الأساليب والطرق والخطوات اللازمة؟

شاعَ تداولُ الحركاتِ النسويّة إعلاميًّا وأكاديميًّا وأدبيًّا في فرنسا وبريطانيا وأمريكا وأوروبا، بعد الثورة الفرنسيّة عام 1789م، وقد أعلنت حركة "أولامب ده غوج" في باريس عن "حقوق المرأة والمواطنة" عام 1791م، وألّفت "ماري والستونكرافت" كتابَها "مطالب بشأن حقوق المرأة" في بريطانيا 1792م.

هذهِ الحركاتُ النسويّةُ عبّرتْ عن مضمونٍ فلسفيٍّ وفكريٍّ بشكلٍ متخبّطٍ وغيرِ واضح المَعالم عندَ تأسيسِها، وذلكَ لانعدامِ الأطُرِ التي تستقي منها فِكرَها ومبادئها، فدعتْ إلى تحريرِ المرأة ميدانيًّا ومدنيًّا، ونادت بشعارِ تغييرٍ جذريٍّ وفعليٍّ في ميادين العملِ والمجتمعِ والحياة، وإنصافِ وجودها ككيانٍ إنسانيّ، وتحقيقِ ذاتِها واستقلاليّتِها وسُلطتِها، مِن حيث أدوارِها وحقوقِها ورفْعِ الظلمِ والحرمانِ والإذلالِ والمهانةِ عنها، ومساواةِ حقوقِها المدنيّةِ والسياسيّةِ والقانونيّةِ والاقتصاديّةِ بحقوق الرجل، ككائنٍ له احترامُهُ وقدْرُهُ وكينونتُهُ، وليسَ كأصْلٍ للشرورِ والرجسِ والخطيئة.

لقد تعدّدت المدارسُ والمناهجُ والرؤى الفلسفيّة والأطروحاتُ في معالجةِ قضايا المرأة، مِن خلالِ ثوراتٍ سياسيّةٍ وصراعاتٍ فكريّة، فتمرّدت على التاريخِ البشريّ والتقاليدِ والأعرافِ والنظُمِ الاجتماعيّةِ في جميع مناحي الحياة، وصارَ شعارَها قولُ الفرنسيّة سيمون دو بوفوار في كتابها: "لا نخلقُ نساءً بل نُصيِّرُ نساءً"! فكيف يمكنُ أن نُصيِّرَ نساءً وبأيّةِ نوعيّة، رغمَ التباينِ الثقافيّ والتكوينِ الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ؟

اليومَ وبتفاوتٍ كبير، باتت المرأةُ تحتلُّ مكانةً في مختلفِ المناشطِ الحياتيّةِ التي تقودُها وتُسهمُ بها، تماشيًا مع تيّارٍ معتدلٍ وغيرِ متطرّف، كما كانَ في بداياتِ نشأةِ الحركاتِ النسويّةِ وطرْحِ الرائداتِ الأوائل لقضيّةِ المرأةِ وحقوقِها. وتؤكّدُ د. شذى سلمان؛ باحثة إسلاميّة مقيمة في بريطانيا بقولِها: "شهد عام 1968 في أمريكا ظهورَ فرْعٍ نسائيّ جديد، أكثرَ تطرّفًا وراديكاليّة مِن رائداتِ الحركةِ الأوائل للحركةِ النسويّة، حيث استَخدمت أعضاؤُهُ وسائلَ عنيفةً لإبرازِ القضيّة".

بينَ القبول والرفضِ للقضيّة النسويّة، كانت هناكَ عدّةُ طروحاتٍ وتساؤلاتٍ تتسرّبُ وتتفشّى، حولَ تحليلِ وضعيّةِ المرأةِ في المجتمع، وتحديدِ مرافقِ ومصادرِ الظلمِ الذي يقعُ عليها، وتعيينِ الأهدافِ وطرُقِ وآليّاتِ الفحصِ والعلاج، وسقفِ الطموح في الوصولِ إلى الأفضل، فهل تدعو المرأةُ أختَها المرأة، للانعتاق والتحرّرِ والاستقلال مِن عقائدَ اجتماعيّةٍ وعقدٍ دينيّةٍ

مجحفةٍ بحقّها، أم تدعوها إلى انحلالٍ أخلاقيٍّ مِن المُسلّماتِ الفطريّة، ليتمَّ استغلالُها جنسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا؟ لماذا؟

في منتصفِ القرن العشرين ما بين 1946 – 1975، ومع نشوءِ الأمم المتحدة، اتّخذت الحركاتُ النسويّة طريقَها إلى الأمميّة والعولمة، فكان أوّلُ مؤتمر في المكسيك عام 1975 "العام العالميّ للمرأة"، وعام 1979مؤتمر "القضاء على كافة أشكال التمييز ضدّ المرأة"، وعام 1980 مؤتمر "المساواة والتنمية والسلم"، وعام 1995 المؤتمر العالمي الرابع "المعني بالمرأة في بكي الأمريكيّة"، وعام 2000 المؤتمر الخامس في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، الذي أعلن فيه الأمينُ العامّ بيانًا يُساوي "المتزوّجين الشواذّ بالتقليديّين"، وعام 2005 عقد المؤتمر السادس في نيويورك! هل في عولمةِ الحركات النسويّةِ لغةُ تسويقِ شعاراتٍ وهيمنةٍ متطرّفةٍ لنظريّاتٍ غربيّة، مِن خلالِ تجنيدِ المرأة ذاتها وقوى مجتمعِها، وتفعيلِ المنظماتِ النسويّةِ غيرِ الحكوميّة، وإلغاءِ السلطةِ الذكوريّةِ بكافّةِ أشكالِها؟

الحركاتُ العالميّة على اختلافِ مناشئِها الاجتماعيّة ومنابتِها الاقتصاديّةِ والسياسيّةِ، نادت تيّاراتِها المعتدلة بالحُرّيّة والمساواة بحقوقِ الرجل، وتحسينِ وضْع المرأةِ في مجالِ العِلم والعملِ والصحّةِ والحماية القانونيّة، والحضورِ الفعّالِ في ميادينِ الحياةِ دونَ تطرّف، فما مدى نجاح هه الحركات في الحدِّ مِن استغلالِ المرأةِ جنسيًّا واقتصاديًّا، والاتّجار بها تحتَ مُسمّياتٍ مختلفة؟

المنظّماتُ النسويّة والمراكزُ والنقاباتُ العُمّاليّة والهياكلُ الرسميّة والحكوميّة والأهليّة والشعبيّة، حاولت بتعمّقٍ تحقيقَ أفكارِها وتعزيزِها وتنفيذِ القوانين على أرض الواقع، لتصيرَ مظهرًا سلوكيًّا مُذوّتًا في المجتمع دون تزويرِ مضمونِه، مِن خلال تغييرِ الإراداتِ والقراراتِ السياسيّة، وبالوصولِ إلى مواطنِ صُنْعِ القرار، وتشكيلِ ضغطٍ عليها لإثباتِ حضورِها وتجذيرِ فاعليّتِها، بوسائل صناعةِ السينما والإعلام والفنّ والأدب والحوارِ والخطابِ المقنِع، لبثّ أفكارِها ورؤاها إلى أكبرِ شريحةٍ في المجتمع وأوساطٍ فكريّة وأكاديميّة وباحثين ومنظّماتٍ دوليّة وأمميّة، لخلقِ وعيٍ اجتماعيٍّ بتلك القضايا والتعامل معها.

هل استطاعتِ الحركاتُ النسويّة تقديمَ حلولٍ جذريّة وواقعيّة لقضايا المرأة المنتشرة ولو جزئيًّا، أم أنّها أخفقت في تحقيقِ شعاراتِها بدمج المرأة في مجتمعِها دون تصادم؟ هل ما زالت المرأةُ، ورغمَ وصولِها إلى صُنعِ القرارِ وصياغةِ الخططِ والبرامج، تُعاني في مخبرِ التجاربِ والديمقراطيّة المزعومة؟ لماذا؟

لقد تداركَ العالمُ العربيُّ والشرقيُّ ثورةَ الحركاتِ النسويّةِ العالميّةِ المُتطرّفة، وركّزَ في دعْمِهِ للحركاتِ النسويّةِ الشرقيّة، على تعليمِ المرأةِ ومشاركتِها الفِعليّةِ وكفاحِها في بناءِ مجتمعِها اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، مِن خلالِ عِلمِها وتعديلِ القوانين المتّصلةِ بأحوالِها الشخصيّةِ مِن زواج وطلاق! ما مدى نجاح تغييرِ القوانين بينَ النظريّةِ والتطبيق، التي حصلتْ في مجتمعاتِنا الشرقيّةِ بحقّ المرأةِ، من ناحيةِ تعليمِها وعِلمِها وعملِها وزواجِها وطلاقِها؟ ما هي العوائقُ التي تقفُ بالمِرصاد؟ هل العملُ المنزليُّ للمرأةِ والإنجابُ وتشكيلُ الأسرة كلّها عوامل تُشكّلُ نوعًا مِن التسلّط الذكوريّ، وحالةَ قمْعٍ لحقوقِ المرأةِ اقتصاديًّا وقانونيًّا؟ وهل هناك في الأفقِ رؤًى مغايرة لإنصافِها؟

المرأةُ لا تعرفُ المستحيل!

في 8 آذار عام 1908 حركةُ سوفراجيستس (suffragists) التي تعودُ جذورُها الكفاحيّةُ إلى انعتاقِ الأمريكيّينَ السودِ مِنَ العبوديّة، قامتْ بمسيرةٍ تظاهريّةٍ، اخترْنَ لها شعارًا "خبز وورود"، وطالبْنَ بالمساواةِ والإنصافِ وتخفيضِ ساعاتِ عملِهنّ، ومنْحِهنَّ حقّ الاقتراعِ كمطلبٍ سياسيّ، وطالبنَ بإيقافِ تشغيلِ الأطفال. وتتهافتُ مقولاتُ الفلاسفةِ والأدباءِ على البالِ عندَ ذِكْرِ المرأة!

فيقولُ سعيد فريحة: "المرأةُ هي التي تجعلُني أُحِسُّ بكياني كرَجلٍ في مُجتمعي"! ويرُدُّ برناردشو: "بل المرأةُ هديّةُ السماءِ، إذ هي ملجأٌ للقلبِ الحزين"! ويضيفُ نيتشه: إنّما المرأة لغزٌ مفتاحُهُ الحُبّ! ويُتابعُ علي مراد: إذا أحبّتِ المرأةُ فعَلتْ كثيرًا، وتكلّمتْ قليلاً.

وللخيالِ أن يشطحَ في تصوّرِ أمٍّ وأختٍ وزوجةٍ وابنةٍ بقلبٍ كبيرٍ وعميق، مغمورٍ بحُبٍّ يفيضُ ولا ينضبُ حنانُهُ، ولا تشوبُهُ أصباغُ نفاقٍ ورياء، تقفُ الشيخوخةُ على مسافةٍ بعيدةٍ منه، جاعلاً منها جبلَ أحمالٍ للمتاعبِ، يمتصُّ الحزنَ والألمَ والضيقَ بصمتٍ ورحابةِ صدر، فيتمطّى حنانًا ويتمغّطُ عطاءً، ليَحميَ البشريّةَ مِنَ التعثّرِ بصدماتِ الحياةِ الكاسرة، والتوتّراتِ الخارجيّةِ الطاردةِ إلى منحنى اليأس والتشاؤم! ويعقّبُ ملتون: "المرأةُ تحلمُ دائمًا بأن يُعانقَ مستقبلُ أبنائِها السماءَ"! وهل تكتفي المرأةُ بالأحلامِ فقط؟ يجيبُ جود هيود: " المرأةُ لا تعرفُ المستحيلَ، لأنّها مِن أهلِ الإرادةِ والعزيمة"!

ولأنّها كذلك، فقد أعلنتْ إضرابًا نسائيًّا في نيويورك عام 1857، احتجاجًا على الظروفِ غير الإنسانيّةِ للعاملات في الولاياتِ المتّحدة، ممّا دفعَ المسؤولينَ السياسيّينَ إلى طرْحِ قضيّتِهنَّ على جدولِ الأعمال وتأسيسِ نقابةٍ لهنَّ بعدَ سنتيْن. وعام 1909 وفي موجةِ التحضيراتِ للحربِ العالميّةِ الأولى، اندفعَتْ مواكبُ النساءِ مِن 17 دولةٍ أوروبيّةٍ للانضمامِ إلى مؤتمرِ كوبنهاجن في الدانمارك، للمطالبةِ بالعيْشِ بأمنٍ وسلامٍ ووقْفِ الصراعاتِ والحروب، لأنّهنَّ والأطفالَ يُشكّلونَ الأغلبيّةَ العُظمى لضحايا الحرب، وطالبْنَ بحمايتِهنّ وحمايةِ حقوقِهنّ المادّيّةِ، وتوفيرِ الرعايةِ الصحّيّةِ والإنجابيّة، ووقايتِهنّ مِنَ الأمراضِ المُعديةِ وسوءِ التغذية.

كانَ أوّلُ مؤتمرٍ للاتحادِ النسائيّ الديمقراطيّ العالميّ في باريس عام 1945، وظلّت المُنظّماتُ النسائيّةُ تحتفلُ بهِ سنويًّا في الثامن مِن آذار، فاعتمدَتْهُ منظّمةُ الأمم المتّحدةِ رسميًّا عام 1977، كرمزٍ لنضالِ المرأة في نيْلِ حقوقِها، وكمُنجَزٍ في تاريخِ المجتمعِ والمرأةِ اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، وعامَ 1993 أصدرتْ قرارًا دوليًّا ينصُّ على اعتبارِ حقوقِ المرأةِ جزءًا مِن منظومةِ حقوقِ الإنسان، وخرطِها في إطارِ الإنسانيّة.

يقولُ حكيم: "آفاقُ المرأةِ ومهارتُها أوسعُ آفاقًا، والرجُلُ يفهمُ ذلك"! هذا النضجُ الفكريُّ أكسبَ المجتمعَ مرونةً وتفهُّمًا لدوْرِ المرأةِ الفعّالِ في بناءِ المجتمع، وتسَلُّمِ مقاليدِ المناصبِ القياديّةِ والسياسيّةِ والنقابيّةِ، في القطاعاتِ العامّةِ وميادينِ ومُعتركاتِ الحياة.

للمرأةِ تاريخٌ نضاليٌّ حافلٌ على مرِّ الأزمنةِ وفي كلِّ الاتّجاهاتِ الحياتيّة، ولا زالتْ قضايا كثيرة مُعلّقةً، تسعى إلى تحقيقِها في الحُبِّ وصُنْعِ السلامِ وإحلالِهِ بعدَ ما أنجزتْهُ، لأنّها وكما قالَ روسو: "إنْ أردتُم رجالاً عظماءَ، علّموا المرأةَ ما هي الثقة وما هي العظَمَة"!

ولأنّها الشريكَ الحقيقيّ للرجُلِ في تطويرِ المجتمعِ ونبْضِهِ، وإنجابِ العظماءِ والأبطال، خاضت النضالَ وقادت المظاهراتِ ضدَّ الظلمِ والاضطهادِ بحُضورِها الإنسانيّ، بحرْفِها وفِكرِها، بتمَكُّنِها العِلميِّ والعمَليِّ وجدارتِها في تهيئةِ المَناخاتِ العَمليّةِ والقانونيّة! لكنّها في الشرق؛ تظلُّ قضيّةً ساخنةً لا تفتُرُ ولا تبرُدُ، لأنّ الرجُلَ لم يَصِلْ حضورُهُ الفكريُّ المُهمّشُ بعْدُ إلى درجةٍ بهيّةٍ من الدّوْر الحقيقيّ، في ظلِّ هيمنةِ السلطاتِ والحكّام، فهل يُمكنُ لرجالِنا فاقدي الحُرّيّةِ أن يُعطوها للنساء؟

رغمَ التباينِ والتفاوتِ بينَ بلدٍ وآخر، إلاّ أن القضايا تتقاطعُ وتتوازى، تأتلفُ وتختلفُ ما بينَ المرأةِ في الشرقِ والغربِ في كثيرٍ مِنَ النقاط، لِما تدينُ بهِ تلكَ المجتمعاتُ الإنسانيّة، ولما تحملُهُ مِن تراثٍ وفلسفةٍ حياتيّة.

المرأةُ يمكنُها أن تُناصرَ أختَها وتدعمَها في بلورةِ حقوقِها، لأنّ كلَّ إنجازٍ تُحقّقُهُ ينعكسُ بالتالي على سائرِ النساء، مِن خلالِ عِلمِها الذي تتسلّحُ بهِ وتواجهُ به الحياة، فلا يمكنُ الانتقاصُ مِن حضورِها الفعّالِ وقدراتِها المحدودةِ في فسيولوجيّتِها ومبناها الأنثويّ، الذي قد يقفُ عائقًا أمامَها، كما لا يمكنُ الاستهانة بجبروتِها وصمودِها، فبإمكانِ المرأةِ أن تقلبَ الموازينَ إذا أرادت في كلّ الاتّجاهاتِ، لتحقيقِ حقوقِها المشروعةِ في مجالاتِ التعليمِ والثقافةِ والفنونِ والإبداع، وتقلّدِ المراكزِ الإداريّةِ والمناصبِ الثقافيّةِ والاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والقضائيّةِ، وجنبًا إلى جنبِ الرجل بتعاونٍ واحترام، دونَ المساسِ بمكانتِهِ، وكأنَّ المسألةَ صراعٌ بينهما.

الحُرّيّةُ والمطالبةُ بالمساواةِ ليستا نهجًا نسويًّا مُتعصّبًا، يدعو للتشنّجِ والتمرّدِ على الرجلِ والتحريضِ على الجنسويّةِ بمشاداتٍ كلاميّة، إنّما هي لغةُ وعْيٍ وتفاهمٍ واقتناعٍ مبنيّةٌ على الاحترامِ المتبادل، وتنميةِ القدراتِ والكفاءاتِ الجديرةِ بتحقيقِ الإنجازاتِ الإيجابيّةِ على أرضِ الواقع، فالمرأةُ الغربيّةُ استطاعتْ خلالَ القرنِ المنصرمِ أن توصلَ صدى صوتِها إلى كلِّ العالم، وغيّرتْ مجرياتِ التشريعِ والقانونِ لصالحِها ولصالحِ المجتمع، وكذلك المرأةُ الشرقيّةُ، ورغمَ منظومةِ الموروث العقائديّ والاجتماعيّ، إلاّ أنّها وبمؤازرةِ الرجلِ الواعي الداعمِ لها، استطاعتْ أن تُحقّقَ الكثيرَ مِنَ المكاسبِ الثقافيّةِ والتغييراتِ الجذريّةِ في حياتِها الخاصّةِ والأسَريّةِ والمُجتمعيّة، مِن خلالِ اتّساع مساحاتِ الوعيِ لديها.

إذًا؛ وفي ظلِّ الظروفِ السياسيّةِ الحاليّةِ المتخبّطةِ التي نشهدُها، ألا ينبغي للمرأةِ أن تتكاتفَ معَ الرجلِ ضدّ مَنْ يُسيّرُ حياتَهما نحوَ الهاويةِ، من أجلِ عزلِهِ عن عرْشِ استبدادِهِ، ليتأتّى لشعوبِنا وبلادِنا أن تنعَمَ بمستقبلٍ أفضل، وحُرّيّةٍ وخُبزٍ طازجٍ غيرِ عفن، واستردادِ الكرامةِ والأمنِ وحقوق الأبناء في الحياة؟ فهل الانتفاضاتُ في بلادِنا قد تأتي بالأفضل حقًّا؟

ما مصيرُ حقوق المرأة اليهوديّة في "إسرائيل"؟

حين تُطالعُكَ مفاجآت الحريديم اليهود، تقفُ على مفارق الدهشة والاستغراب حائرًا.. إلى أين المسير يا "إسرائيل"؟ وإلى أين المصير يا المرأة اليهوديّة؟

ها صحيفة يديعوت أحرونوت أوردت نبأ إنشاء موقع "فيس غلات" فيسبوك "التقوى"، التابع لليهود المحافظين الحريديم المتشدّدين؛ ذاك الموقع الإلكترونيّ الاجتماعيّ اليهوديّ الشهير الذي يفصلُ بين الذكور والإناث، بين الرجال والنساء، وفق اعتباراتٍ ومعاييرَ يهوديّةِ التعاليم للحريديم، وقد صمّم الموقعَ الشابّ العشرينيّ اليهوديّ الحريدي يعقوب سويسا، ولا يقبل هذا الموقع إلاّ الإعلانات ذات الصور المحتشمة، واستخدام مصفيّات لحذف اللغة غير المقبولة من التعليقات والمحادثات.

والمرأة اليهوديّة اليوم تقف أمامَ عرائِها بينَ متناقضاتِ الأمس واليوم!

منذ تأسيس دولة إسرائيل لاقت المرأة اليهوديّة اهتمامًا ورعاية ومساندة خاصّة في القانون الإسرائيليّ، ممّا متّعها بسلطانٍ قد يفوق حقوق المساواة مع رجُلها، فلا غرابة أن ترى الشابّات اليهوديّات الإسرائيليّات رجالاً في المراكز والمواقع الحسّاسة، وفي الجيش والدفاع والأمن والحواجز والمطارات والحدود الدوليّة، لِما لهنّ من أدوار أساسيّة في الدفاع عن دولتهنّ "إسرائيل"، كأيّ يهوديّ وجنبًا إلى جنب معه، منذ تفتّحت عيون القلب على الاحتلال والاستهجان، ولكن ما لا يخضع للمفاجأة وللدهشة والاستهجان، أن يستوقفكَ عنوانٌ غير مألوف يكرج أمام ناظريك فجأة، ويتوقف متسمِّرًا دون أن يَعبُرَ أو يَمرّ!

"تمييزٌ ضدّ المرأة اليهوديّة لصالح المتديّنين في الجيش الإسرائيليّ"؟! هل يُعقلُ أن يحدث هذا في "إسرائيل"؛ الدولة التي لا تُخترَق، والقوّة العظمى التي لا تقاوَم ولا تُقهَر؟

هذا ما ورد في البيادر السياسيّ في القدس ضمن خفايا وأسرار بتاريخ 17-9-2011، ويقول الخبر أنّ قائد القوّات البرّيّة في الجيش الإسرائيليّ قرّر نقل أربع مجنّدات من كتيبة مدفعيّة إلى وحدة جيش أخرى، نظرًا لانضمام جنودٍ متديّنين "حاريديم"؛ يرفضون الخدمة في الجيش الإسرائيليّ إلى جانب مجنّدات، أو بوجود نساء في الكتيبة.

قرار أثار موجة عارمة من الاستياء ومن ردود فعل مناهِضة، فقدّمت المجنّدات رسالة اعتراض طالبن فيها بإعادة النظر في القرار، لأنه ليس عادلاً ومنصفًا، ولا يعتمدُ على الكفاءة والأداء، بل يعتمد على التمييز الدينيّ.

هذا القرار حدا بعضو الكنيست راحيل أداتو من حزب كاديما إلى دعوة لجنة الأمن والخارجيّة لعقد اجتماع طارىء، لبحث دور المرأة في الجيش، ولتُدلي بإيمانها القاطع: "لا يجب على النساء تحمّل المعاناة بسبب الحاريديم، ولا نستطيع مصادرة دوْر المرأة وأداءَها الجيّد لصالح المتديّنين".

هذا الخبر المفاجئ يُفجّر الذاكرة الإسرائيليّة المتراكمة على رفوف الماضي، وينبش ملفّاتٍ طوتها سنوات ثلاث، حين أكّدت حملة تحقيقات الجيش الإسرائيليّ عام 2008 أنها ضبطت المئات من الفتيات اليهوديّات الإسرائيليّات اللواتي تنصّلن من الخدمة بذريعة الالتزام الدينيّ!

فلماذا تنتشر ظاهرة تذرُّع الفتيات الشابّات اليهوديّات بالتوجّه إلى الدراسة الدينيّة؟ هل حقا.. للتنصّل والتهرّب من الخدمة العسكريّة؟ هل لعدم إيمانهنّ بجدوى الخدمة العسكريّة؟ هل بسبب رؤيتهنّ السلبيّة لواقع ومستقبل إسرائيل؟ أم لأسباب أخرى تشكّك في انتمائهنّ للدولة؟

لماذا أعلن الجيش الاسرائيلي قبل فترة وجيزة أنه معنيّ باستيعاب جنود متديّنين في صفوفه، وسيدشن أوّل كتيبة مدفعيّة خاصّة بهؤلاء الجنود، تضم 60 عنصرًا، في مطلع شهر تشرين الثاني القادم 2011؟

هل الشاب اليهوديّ المتديّن هو أيضًا يتهرّب من الخدمة العسكريّة؟ وهل يمكن أن تحلّ كارثة بالجيش الإسرائيليّ، فيما لو استمرّت ظاهرة التهرّب من الخدمة العسكريّة؟ ثم؛ هل سيكون هناك في الجيش الإسرائيليّ الموحّد تفكّكا وتصنيفًا، لكتائب خاصّة باليهود العلمانيّين، وأخرى باليهود الحريديم، وأخرى لليهود الشرقيّين وأخرى للغربيّين؟

بعودة طفيفة لعجلة الذاكرة الى الوراء، يرفع كفه عاليًا تحذير اللواء أورنا باريبفاي بتاريخ 5-3-2010 في صحيفة جيروزالم بوست، منوّهًا بأنّ التغييرات الديموغرافيّة في المجتمع الإسرائيليّ وتأثيرها في القاعدة البشريّة للجيش، إضافةً إلى التراجع الحاصل في الجموع الجديدة للمهاجرين، قد أنتجت وضعًا بات فيه عدد المجنّدين نسبة إلى العدد الإجماليّ لسكان إسرائيل هو الأقلّ في تاريخ إسرائيل، وأنّ جزءًا من المشكلة الديموغرافيّة القائمة ترجع إلى اليهود المتزمّتين الملقّبين بالـ "حريديم"، الذين يُعفيهم القانون في إسرائيل من الخدمة العسكريّة لاعتبارات دينيّة، وأن نسبة مواليد هذه الشريحة السكانيّة مقارنةً بنسبة مواليد المجتمع العلمانيّ تزيد بضعفيْن إلى ثلاثة أضعاف، "ممّا يُعدّ عاملاً أساسيًّا لانخفاض نسبة المجنّدين الإسرائيليّين ممّن هم في سنّ الخدمة في الجيش الإسرائيليّ"، وشدّدت على ضرورة "عدم الوقوف صامتين حيال ما يجري من تهرّب من الخدمة العسكريّة بأيّ شكل كان، ومن أيٍّ كان، إذ يجب العمل بجديّة لتجنيد الجميع ممّن يمتلكون الأهليّة، ليس فقط التزامًا بالقانون الإسرائيلي، بل أيضًا تماشيًا مع أخلاقنا ومبادئنا الوطنيّة"!

هل القانون الإسرائيليّ الحاليّ يحاول جاهدًا فرض الخدمة العسكريّة على الحريديم، لأنّهم يشكّلون ديموغرافيًّا نسبة كبيرة يمكن أن تنقذ أمن "إسرائيل"، أم لأنّ هذه الفئة الكبيرة تشكّل عبئًا اقتصاديًّا على الدولة؟ وهل القانون الإسرائيلي الحاليّ يمكن أن يتغيّر، ويهيمن عليه المتديّنون الحريديم في ظلّ الدولة اليهوديّة، ولا يبقى وزنًا للقرارات اليهوديّة العلمانيّة، وخاصّة في وزارة الأمن والدفاع؟

كيف يمكن أن تستمرّ "إسرائيل" بسياسة دعمها ومساندتها للمرأة ونشاطاتها، في ظلّ تفاقم ظاهرة إقصائها من قبل اليهود الحريديم المتديّنين؟

وأخيرًا.. هل سيطرة وهيمنة المتديّنين الحريديم يمكن أن تقلب موازين ومستقبل الأقليّات العرب الفلسطينيّين على أرض الجدود؟

اغتيالُ المثقفِ تراجيديا وطنيّة!

الاغتيالُ بيدِهِ العابثةِ، كأنّما يُهيّئُ هديّةً مغموسةً للبشريّةِ، يُغلّفُها بالفجاءة، ويُوقّعُها بعبارةِ الشاعر صلاح عبد الصبور: "النفاقُ الذي ارتدى أجنحة، وتزيّا بزيّ ملاكٍ جميل"، ليحشوَها بصوتٍ مكتومٍ بدمٍ باردٍ، وليغفوَ في بساتينِ الموتِ، دونَ أن تهتزّ أشواكُ الاحتجاجِ المحبوسةِ في الحناجرِ والأقلام!

تعدّدت عمليّاتُ الاغتيالِ ودوافعِهِ بينَ البشرِ منذ الأزل، وتفاقمت خلافاتٌ عميقةٌ بينَ الأطرافِ المتصارعة، لأسبابٍ مختلفةٍ لها تأثيراتٌ فكريّة، سياسيّة، اقتصاديّة، عقائديّة، عسكريّة، قياديّة، طائفيّة، دينيّة، حزبيّة وانتقاميّة، وقد تشكّلت بشكلٍ فرديّ أو بإيعاز من جهةٍ مُنظّمة، وذلك لإيقاف انتشار ذاك الفِكر بأهدافِهِ وأساليبِهِ، وفي كاتدرائيّةِ القدّيس بافو تظهرُ منحوتةٌ لقابيل ابن آدم الأوّل، وهو يقومُ بعمليّةِ اغتيالِ أخيهِ هابيل، كأولى عمليّاتِ الاغتيالِ في التاريخ الإبراهيميّ في العهدِ القديم!

الاغتيالاتُ تعني لغةَ التصفية بين الخصوم، وأسوقُ بعضَ أمثلةٍ عن الاغتيالاتِ البارزةِ عبرَ التاريخ بجوانبها المختلفة، ففي العصورِ الفرعونيّةِ اغتالَ كهنة المعابدِ الأمير توت عنخ آمون والملك أخناتون بسبب تغييرهما الآلهة، واغتيالُ فيليبوس الثاني المقدوني عام 336 ق.م ظلَّ مفتاحُ لغزِهِ ضائعًا بين تدبيرِ الخطّةِ مِن زوجتِهِ أولمبياس أميرة البلقان، أو ابنه الاسكندر الأكبر، أو الملك الفارسيّ داريوس الثالث!

أمّا اغتيالُ يوليوس قيصر عام 44 ق.م فقد حوّلَ الجمهوريّة الرومانيّة إلى إمبراطوريّةٍ رومانيّةٍ تحتلُّ مملكة يهودا عام 37 ق.م، فظهرت الزيلوت مِن مملكة يهودا؛ مجموعةٌ مِن الثوريّينَ الرافضين نهائيًّا للحُكم الرومانيّ ودفع الضرائب، وأسّست مجموعة "سيكاري"، لتنفيذِ اغتيالاتٍ مُنظّمةٍ للرومانيّين بالطعن بالخناجر!

وبعدَ وفاةِ الرسول اغتيلَ الخليفة عمر بن الخطاب على يد أبو لؤلؤة المجوسيّ عام 23 هجريّ، واغتيل عثمان بن عفان عام 35 هجريّ، وعلي بن أبي طالب عام 40 هجريّ على يد الخارجيّ عبد الرحمن بن ملجم!

ومِن الطرقِ البدائيّةِ وسهولةِ الوصولِ إلى المُستهدَفِ بالهراوةِ والحجرِ والخنجرِ، ظهرت الحمايةُ المُحْكمةُ والمُشدّدةُ للمُستهدَفين، وصارَ مِن الصعبِ اختراق الطوْق الأمنيّ، فتدرّجت فنونُ وخططُ الاغتيالِ مع تطوّرِ الإنسان واختراعِ الأسلحة، وتطوّرت أحابيلُ الاغتيال، واتّخذتْ طابعًا إقليميًّا ودوليًّا، بمؤامراتٍ وتكتيكٍ وتخطيطٍ وتنظيمٍ ودقّةٍ في التنفيذ، وازدادتْ مسلسلاتُ الاغتيال، وصارَ الاستهدافُ أنجعَ وأسرعَ في الإجهازِ على الضحيّةِ وبتقنيّةٍ عالية، باستخدامِ بنادق القنص، السيّارات المُفخّخة، العبواتِ الناسفة، الحقن بالسمّ، صعقات كهربائيّة، طلقاتُ رصاص، أشعّة سينيّة، أطعمة مسمّمة، الكرسي الكهربائيّ، إسقاط طائرة المستهدف، قنّاصة، كاتم صوت، وطرق أخرى..

كما تطوّرت كمّيّةُ الاغتيالاتِ بنوعيّاتٍ وأساليبَ متعدّدة، فكان حصادُ الاغتيالاتِ السياسيّةِ في روسيا خمسةً مِن القياصرة ما بين الأعوام 1762 و 1918، وفي أمريكا أكثرَ مِن ثلاثةِ رؤساء! وهل ينسى التاريخ مقتل أبراهام لينكون في 15 أبريل 1865، في مسرح فورد الأبرز في تاريخ الولاياتِ المتّحدة، إذ قامَ الممثلُ المسرحيّ جون ولكس بووث بإطلاق رصاصةٍ على رأسِ لينكون أثناءَ مشاهدَتِهِ العرضِ المسرحيّ، حيث كان بووث من المناصرين لإبقاء نظام العبوديّةِ الذي ألغاهُ لينكون في 1-1-1863؟

هذا المشهدُ المقلوبُ بأدوارِهِ زعزعَ الكيانَ الفلسطينيّ باغتيالِ الممثل والمخرج جوليانو مير خميس الفلسطينيّ، في 4-4-2011 في مخيّم جنين، برصاصٍ مجهول، حيثُ مسرح الحرّيّة الذي أسّسهُ ليُكملَ مشوارَ مسرح الحجر، الذي أسّسته أمُّهُ آرنا مير في المخيّم، وهدمتهُ قوّات الاحتلال الإسرائيليّ في اجتياح جنين عام 2002!

وتتفجّرُ الذاكرةُ الفلسطينيّة بشهداءِ الإبداع والكلمة الحُرّة العُزّل، مَن شكّلوا الكنزَ المفقودَ وثروةَ الأمّة الفلسطينيّة، كالقاصّ غسّان كنفاني، والكاريكاتير ناجي العليّ وغيرهم ممّن استُهدِفوا، ليَدفعوا ضريبة انتمائِهم للوطن، وإخلاصِهم للعملِ المُثابرِ الجادّ! ولم يَسْلم الروائيّ والمسرحيّ البلغاريّ غوركي ماركوف مِن الاغتيال، رغمَ أنّه لجأ إلى بريطانيا، وعملَ كصحفيٍّ ومراسلٍ لهيئةِ الإذاعةِ البريطانيّة، فوجّهَ انتقاداتٍ شديدة لحكومةِ بلغاريا الشيوعيّة، وبعد محاولتيْن فاشلتيْن تمّ اغتيالُهُ بنجاح في لندن في 7-9-1978.

هل الاغتيالُ الجسديُّ يمضي بنا إلى الاغتيال المجازيّ، لوصفِ حالاتِ الظلمِ والقهرِ والاستبدادِ والاستغلالِ المستفحِل؛ كاغتيالِ العدالةِ، اغتيالِ المثقف، اغتيالِ الوطن، اغتيالِ القضيّة، اغتيال الحرّيّة و.. الخ؟

لماذا تُستهدَفُ فئةُ المثقفينَ والمبدعينَ والمُفكّرينَ على اختلافِ اتّجاهاتِهم وأطيافِهم؟ هل إسكاتُ أفواهِ رجال الإعلام والصحافة والمبدعين، فيهِ موتٌ للكلمةِ الحرّة، وتكميمٌ لأفواه الآخرين؟ مَن يُوفّرُ الأمنَ اللازم للمسارحِ ودورِ السينما ودورِ النشرِ والحقولِ الإبداعيّةِ وقاعاتِ الفنّ؟ مَن يبني خططا رصينةً لحمايةِ المبدعينَ وذوي العقولِ المعرفيّةِ والمواهبِ الإبداعيّةِ غير القابلةِ للشراءِ والمساومة؟

هل لنا بخارطةٍ ترشدُنا إلى الفئةِ الأقلّ في المجتمع ممّن خدموا الإنسانيّة والحضارة والثقافة والوطن، وقد طحنت مآسي النفي والتهجيرِ والتغريبِ الكثيرَ منهم، وعتّمت الاغتيالاتُ والأحزابُ والصراعاتُ والولاءاتُ والانتماءاتُ والتهميشات والطائفيّة على العديد منهم، رغمَ كفاءةِ إبداعاتِهم؟

أليسَ الأوْلى بسياداتِنا ومؤسّساتِنا الوطنيّة أن تُوليَ رعايةً خاصّةً بطبقةِ المثقفين وتهتمَّ بإبداعاتِهم، لِما لهم مِن أدوارٍ في نشرِ النورِ والوعيِ على مساحةٍ أوسع في المجتمع، لتُشيعَ الأملَ والحُرّيّة والتغييرَ إلى الأفضل؟

قلّةٌ مِن مثقّفينا مَن نجَوْا مِن العوَز ومرارةِ الغربةِ وشظفِ العيشِ والسخريةِ والإهمال، فهل مَن كانوا أهلاً للاعتزازِ والفخرِ، يُوارونَ في الثرى والذاكرة المخرومة، لتتكدّسَ فوقَ ذكراهُم أغبرةُ النسيان واللامبالاة؟

لماذا يُخرَجُ المُخرِجون من الحياة قسرًا؟

بين الاغتيال والانتحار ترمش لحظة وترفّ بمأساة وفقد، تهز سرير موت غافٍ على كابوس، فلا يُطيّبها إلاّ بخور الذكرى المألومة!

لم تبرد بعد نيران الشعب الفلسطينيّ من اغتيال المخرج الفلسطينيّ جوليانو خميس ابن حيفا بتاريخ 4-4-2011 في جنين في الضفة، والذي كرّس إيمانه وحياته للقضيّة الفلسطينيّة ولشعبها الصامد في إعلاء شأن حضارتها وثقافتها!

وها يُلحَق به المخرج الفلسطينيّ الآخر فرانسوا أبو سالم بتاريخ 2-10-2011 في موقع آخر من الضفة في رام الله!

خلال ستة أشهر بالتمام والكمال تفقد فلسطين اثنين من أعمدة مسرحها؟ لماذا؟

لماذا وفي هذا التوقيت بالذات يُخنق الصوت الصارخ في وجه الظلم والاحتلال؟

لمن تعودُ المصلحة في هذا الفقد؟

المخرج الستيني المخضرم فرنسوا أبو سالم عمل مخرجًا وممثّلاً وتألق أكثر من أربعين عامًا، كان ثائرًا على الدوام، تمتع بطاقة إبداعيّة خلاقة تركت بصماتها على مسارات المسرح الفلسطينيّ وتطوّراته، وكان ميّالاً للمغامرة والتجريب الفنيّ، وهو مقدسيٌّ منحدرٌ من أب مَجَريّ وأمّ فرنسيّة، عاد للإقامة في القدس بعد غياب في باريس دام سنوات، وواصل مشواره في المسرح الفلسطينيّ الذي ابتدأه أوائل السبعينيّات، حيث أسّس فرقة "بلالين" المسرحيّة، كعلامة فارقة في مسيرة المسرح الفلسطينيّ، وكأحد أبرز مؤسّسي المسرح الفلسطينيّ الحديث، ففاز بجائزة الدولة "جوائز فلسطين في الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة" عام 1997 في مجال المسرح، وترك إنتاجًا فنيًّا زخمًا خالدًا في الحركة الفنيّة والثقافيّة.

من أهمّ ما أخرج: بعمل دؤوب أخرج أوبرا "سلطانة بائعة السمك" تأليف الكاتبة والمخرجة والمغنية الألمانيّة باولا فونفك، وموسيقا جي سي أرياغا، وأوركسترا بقيادة آنا صوفي برونّنيغ.

مثل فيها 90 طفلا من أرجاء فلسطين في الضفتين، حاولوا الدخول في حيثيات وتفاصيل الحكاية، فالأميرة تقع في حبّ بائع السمك، وتسعى أن تحضره إلى قصرها وتعلّمه الموسيقا والشعر والعلوم، وتغيّر ملابسه وعاداته وتتزوّجه، وفي غفلة منها تذكّره بأنّه لم يكن سوى بائع سمك، فيُصاب بصدمةٍ تُفقده القدرة على النطق، ثم يبتعد عنها ويختفي في غياهب مملكة النّسيان.

تبدأ الأميرة بالبحث عنه، وتتنكّر بزيّ الرجال، ولكن عندما تجده يعجز عن التعرّف عليها، لأنّه نسي كلّ شيء، وتقع أميرة وجميل رهائن بيد قراصنة البحر الذين يُهدّدون الأميرة بالموت، وتتوقف حياتها على نطق جميل الذي تتوسّل إليه بأن يخرج من حالة الخرس، فيبدأ

بالغناء الأوبرالي لها، وتطرح القصّة كلوحات فنيّة عبر حكاية تروي نصفها العمّة صفاء، والنصف الاخر المخرج فرنسوا أبو سالم الذي يلعب دور الغريب، ليكتشف المتفرج أنّ صفاء والغريب كانا عاشقيْن، وابتعدا عن بعضهما بسبب إساءة.

هل اعتراض بعض الجهات الفلسطينيّة لقيادة الموسيقار اليهوديّ دانيال بارنبويم للأوركسترا، كان سبب أزمة تنفيذ وتحقيق مشارع فرانسوا؟ إذن؛ كيف حصل دانيال على جواز سفر فلسطينيّ في عهد الزعيم الراحل عرفات ولماذا؟ وهل نشاط دانيال في تأسيس أوركسترا الديوان الغربيّ الشرقيّ مع إدوار سعيد، هو عملا للتطبيع أم عملا تضامنيًّا مع الشّعب الفلسطينيّ؟

قبل عامين في 8-10-2011 أطلّ من دهاء شيخوخته الشابة ثائرا ليقدّم صفعة فجائية في مسلّماتنا الحياتيّة والفنيّة والتذوقيّة، من خلال مسرحية "أبو أوبو في سوق اللحامين"، تدور أحداثها بمفارقاتها في القدس حول الاحتراب على السلطة إلى حدّ السخافة والتسخيف، وتحوّل الفلسطينيّ الراضخ إلى نهِمٍ جشِعٍ يسعى ليملك القوّة وممارستها على أخيه الفلسطينيّ بمنتهى الفظاظة والقسوة، والمسرحيّة من إنتاج الصندوق العربي للثقافة والفنون، عمّان والمركز الثقافي الفرنسيّ، وإعداد ألفرد جيري وفرنسوا أبو سالم والألمانيّة باولا فينفاك، وأوليفيا ماجنان، جوي الهنان وعامر خليل، وإضاءة فيليب أندريكس، وقام بالتمثيل أدهم نعمان وفرنسوا أبو سالم اللذان يلعبان لعبة الأب والابن والجنون اللانهائي والواعي، في خطة للاستيلاء على مخترة الحمولة بحياتهما المليئة باللحوم النيّئة ورؤوس الخرفان، فيلعبان بها ويُقطّعانها كأداة أساسيّة في المسرحية، وفي نهاية المسرحيّة يقوم الابن بتقطيع أبيه بالمنشار، ورمي رجله المقطوعة أمام الناس!

ما الذي يدفع بالمخرج إلى حالة اكتئاب رغم ملكاته الفنيّة، ورؤيته التي بإمكانه أن يعكسها في مسرحياته؟ هل من معيقات تقف أمام نجاح المسرحيّين والمخرجين في نجاح وعرض المسرحيّات كما يريدون لها؟ هل كون المخرج يحمل أكثر من جنسيّة وهُويّة يكون ذلك لصالحه أو ضده؟ وهل امتلاك الهوية الإسرائيلية تُعرّض المخرج ومسرحيّاته للمساءلة والمقاطعة والتخوين، خاصّة إن يعرضها في إسرائيل ويحصل على جوائز وتغطيات إعلاميّة إسرائيليّة، توصمه بشبهة التطبيع والعمالة؟

فرانسوا كفرنسيّ حمل مسرح الحكواتي في مسرحيّته المونودراميّة "في ظلّ الشهيد"، وعرضها برمزيّتها المكثفة في "مسرح المدينة" في بيروت قبل شهور قليلة بتاريخ 31-5-2011، بعد أن عرضها في "مسرح القصبة" في رام الله، و"المسرح الوطني" في القدس، وهي من تأليفه وتمثيله وإخراجه، وتتحدّث عن بحث جريء وطويل في داخل دماغ منفّذي العمليّات الاستشهاديّة، بأبعادها النفسيّة والسياسيّة، وقد لازمته حالة الإحباط التي عاد بها أثناء دراسته الجامعيّة، بعد أن فجّر أخوه نفسه في حافلة في مدينة نتانيا، وفقد القدرة على فهم خيار أخيه في الاستشهاد، فنراه يحاور ذاته وشخوص وهميّة وخيالات في نوبات هذيان وهلع هستيريّة، متمرّدًا على التبعيّة العمياء للزعيم، ورافضًا الواقع بمرارته من ذل وقهر وظلم وتمييز واضطهاد، ويظلّ سؤاله وسؤالنا المجلجل له مفتوحًا: أي دماغ يستخدمه الشهيد حين يقرِّر تفجيرَ وقتل نفسِه؟

عقوبةُ الإعدامِ عبرَ التاريخ

منذُ العصورِ البدائيّةِ القديمةِ وما قبلَ التاريخ ظهرتْ عقوبةُ الإعدام، إمّا إرضاءً للقوى الغيبيّةِ في تقديمِ الأضاحي والقرابينِ البشريّة في خدمةِ الطقوسِ الدينيّة، أو بقتلِ الأسرى وأكلِ لحومِهم عندَ القحطِ والجوع، أو بسببِ الفقرِ وقلّةِ الموارِدِ ومصادرِ المعيشةِ مِن صيدٍ وزرع، فكانَ القتلُ كنوعٍ مِنَ الثأرِ العائليِّ أو الفرديّ.

ثمّ اتُّبعتْ تسوياتٌ تعويضيّةٌ في أطرٍ دينيّةٍ وتحكيمٍ قبَليّ، مِن مقايضةٍ ماديّةٍ وتعويض ماشيةٍ ورقيق، أو دفْعِ ديْن الدم وتقديمِ شخصٍ آخرَ للإعدام، أو باستبدالِ عرائس ونقلِ مُلكِيّة، لأنّ النظامَ الجمهوريَّ أو الممالِكَ القبليّةَ اعتمدتْ على القبائلِ وليسَ على الأفراد.

ولكن حينما اتّسعتْ مساحاتُ الغزوِ للأممِ المجاورة، برزتْ مجتمعاتٌ فيها طبقاتٌ مُتعدّدةٌ مِنَ العائلاتِ المالكةِ والنبلاء، وطبقاتٌ أخرى مملوكةٌ مِن رقيقٍ وإماء، وظهَرَ النظامُ الطبقيُّ ليُلغيَ النظامَ القبَليّ، ويُنظّمَ العلاقةَ الرسميّةَ بينَ الطبقاتِ المختلفةِ بقوانينَ جديدةٍ، وبِفعلِ السيادةِ صارَ تنظيمٌ للثأرِ وتشريعٌ للقتل، وأخذَ القتلُ شرعيّةً يستندُ بها إلى قانونٍ صادرٍ عن سلطةٍ سُمّيَ "إعدام".

كانَ للعقوباتِ التاريخيّةِ مِن قتلٍ وثأرٍ طرقٌ مُتعدّدةٌ بشِعةٌ، اتّخذتْ صُوَرًا وحشيّةً كثيرةً، كالرجمِ والإعدامِ بالحرقِ وتقطيعِ الأوصالِ، والنشْرِ وقطعِ الرأس، والحرْقِ والتقليدِ بإطاراتٍ مشتعلةٍ، والإغراقِ والخنقِ والشنق، والتعذيبِ والتنكيلِ والتمثيلِ بالجُثث، في مرحلةٍ تسودُها الاضطراباتُ، كانَ الإنسانُ فيها عبدًا ومُلكًا لسيّدِهِ، يحقُّ لمالكِهِ فِعْل ما يشاءُ بهِ مِن ذبحٍ وتعذيب، كما في بابل وروما القديمتيْنِ، والجزيرةِ العربيّةِ في العصورِ الوسطى.

وفي النظامِ الرومانيِّ كانَ تمييزٌ بينَ المواطنِ الرومانيِّ وبينَ الأجنبيّ والعبْد، فالمواطنُ الرومانيُّ حياتُهُ غاليةٌ تستوجبُ حمايةً فعّالةً، وقرارُ إعدامِهِ كانَ استثنائيًّا ومباشَرةً مِنَ الشعبِ نفسِهِ، ومُنِعَ ثأرُ عائلةِ المقتولِ مِن عائلةِ القاتل، لأنّ الجانيَ وحدهُ المسؤولُ عن جنايتِهِ، وهذا يدلُّ على نضوجِ مفهومِ المسؤوليّةِ الفرديّةِ وفصْلها عن المسؤوليّةِ الجماعيّة آنذاك، وقد وضعَ سيسرون ثمانيةَ أنواعٍ مِنَ العقوباتِ طبّقَها القضاةُ لقرونٍ: الإعدام، الجَلد، السجن، التشويهُ الأبديّ، العَزل، عقوبةُ العار،عقوبات ماليّة وتحويل لعبيد.

كانَ المُدانُ بالخيانةِ يُجبَرُ على رمْيِ نفسِهِ مِن أعلى صخرةِ تاربيان الواقعة في روما، وعندَ قتلِ أحدِ الوالديْن، كانَ يُجلدُ القاتلُ، ويوضعُ في كيسٍ مِنَ الجلدِ مع قردٍ وكلبٍ وديكٍ وأفعى، ويُلقى الكيسُ المربوطُ في البحر، وكانَ المُسيءُ للرئيسِ يُعاقبُ بربْطِهِ بأربعةِ خيولٍ تجري بهِ باتّجاهاتٍ متعاكسةٍ لتُمزّقَ جسدَهُ.

وفي بدايةِ العهدِ الإمبراطوريّ ومعَ اضطهادِ المسيحيّةِ، كانوا يلقون بالمُعاقَبينَ مِن مُعتنقي المسيحيّةِ إلى الحيواناتِ المفترسةِ، لتعذيبِهم ونهشِ أجسادِهم في ساحةٍ عامّةٍ وعلى مرأى المُشاهدين، او بصَلْبِهم كالعبيد.

وفي زمنِ الامبراطوريّةِ البيزنطيّةِ توسّعتْ عقوبةُ الإعدام، وطالتِ المواطنينَ الرومان بحدِّ السيف، ثمّ ازدادتْ فظاعةُ القوانين بالتنكيل، كمثلِ حرْقِ مُزوّري النقودِ والفارّينَ مِنَ الجيشِ وهُم أحياء، وَبِصَبِّ الرصاصِ المُذابِ في أفواهِ مُرتكبي جرائمِ الاغتصابِ وذوي الشذوذِ الجنسيّ، وقد استمرَّ تطبيقُ هذهِ القوانين قرونًا وزمنًا طويلاً في روسيا.

في النظامِ الأوروبيِّ وقبلَ الثورةِ الفرنسيّةِ، كانَ النظامُ القضائيُّ "الدنيويُّ" يُطبّقُ القانونَ بحَسبِ تفسيرِ الكنيسة، وقد أظهرَ اللاهوتيّونَ تحفّظاتٍ عديدةً بشأنِ عقوبةِ الإعدام، ففي القرنِ 17 دُمجِ بينَ القانونِ الرومانيِّ الإمبراطوريِّ والقانونِ الكَنَسيّ، وصارَ الإعدامُ عقوبةً استثنائيّةً في أوروبّا اللاتينيّة، لهُ مُبرّراتُهُ في المنفعةِ العامّةِ والجزاءِ الرادع، يتطلّبُ مِنَ القضاةِ عدمَ التعسّفِ بالنطقِ بهِ، وقد اتّسعَ الحُكمُ بالإعدامِ في القرن 17، وانحسرَ في القرن 18، وبدأ التشجيعُ على التعويضِ ودفْعِ الديّة، كبديلٍ وواجبٍ على القاتلِ تجاهَ أهلِ الضحيّة، وذلكَ بحسبِ القوانينِ الجرمانيّة، وبالقيمةِ المفروضةِ الخاصّةِ بالضحيّة، إن كانَ رومانيًّا أو عبدًا أو حُرًّا أو أجنبيًّا.

وقد اعتبرَ سان توماس داكين أنّ "الخطيئةَ وتهديدَ النظامِ العامّ يُبرّرانِ عقوبةَ الإعدام"، أمّا طائفةُ فودواز فقالت، بأنّ وصايا الله تأمرُ بعدمِ القتل، وتعتبرُ الثأرَ ليسَ مِن اختصاصِ الإنسان، وإنّما اللهُ وحدُهُ هو المختصُّ بهِ.

في القرن 18 كانتْ تُعتبرُ محاكمُ التفتيشِ "أماكنَ اضطهادٍ" في النظامِ الأوروبيّ القديم، ورمزًا للشراسةِ في المجالِ الجزائيّ، مِن خلالِ صلاحيّاتِها التعسّفيّةِ الواسعةِ المُطلقةِ واللامحدودة. واليوم؛ في القرن الواحد والعشرين، ورغمَ المسافاتِ الزمنيّةِ والمراحلِ الحضاريّةِ الفاصلةِ بينَ تلكَ المجتمعاتِ البدائيّةِ الجاهلة، وبينَ مجتمعاتِنا المُتحضّرةِ المُتنوّرة، ما الحاجةُ إلى قانونِ الإعدامِ في الأنظمةِ الحاليّةِ؟ ما هي الدوافعُ الكامنةُ وراءَ عقوبةِ الإعدامِ وتنفيذِها؟ مَن هُم مُنفّذوها؟ وعلى مَن تسري قوانينُ الإعدام؟ هل الإعدامُ جزءٌ مِن مُخلّفاتِ الماضي، ومِنَ الملامحِ البارزةِ للإرثِ الإجراميّ؟ هل يتجلّى الإعدامُ بنموذجِ توحُّشٍ عصريٍّ مُتمدّنٍ، ومُتوغّلٍ في اضطهادِ الآخرِ واستغلالِهِ، وبفنونٍ تكنولوجيّةٍ وعِلميّةٍ مُعاصرة؟

إن كانَ الإعدامُ رادعًا للمُجرمينَ، فلماذا تُشَنُّ حمَلاتُ الإعدامِ ضدَّ المُفكّرينَ والأدباءِ والنشطاءِ السياسيّينَ والمعارضينَ للمسيرةِ السياسيّةِ، والناقدينَ لأساليبِ السلطةِ، والمُتطلّعينَ بآفاقِهم إلى حياةٍ ومُواطنةٍ أفضل؟ هل الإعدامُ أسلوبٌ مُناهضٌ للنزعاتِ الإنسانيّةِ، يشكّلُ الضمانَ الوحيدَ لمصلحةِ الطبقاتِ الحاكمة، في قمْعِ الطبقةِ العاملةِ الكادحةِ، وهيمنةِ سلطتِها السياسيّةِ والاقتصاديّةِ المُطْلَقة؟ هل هو رادعٌ حصينٌ وجزءٌ مِنَ النفوذِ الشرعيِّ في تثبيتِ النظامِ السياسيِّ والدينيِّ، وترسيخِ دعائمِ الدولةِ السياسيةِ والاجتماعيّة؟

إن كانَ فرْضُ عقوبةِ الإعدامِ حمايةٌ للنظامِ مِنَ المُجرمينَ، فهلِ انحسَرَتْ عقوبةُ الإعدامِ في مراحلِ استقرارِ السلطاتِ عبْرَ التاريخ؟ ما سِرُّ التناقضِ الصارخِ بينَ الثورةِ العِلميّةِ التكنولوجيّةِ بتقنيّتِها المُعاصرة، وبينَ بقاءِ المُعتقداتِ الخُرافيّةِ وتقاليدِ التوحّشِ البدائيّةِ بقوّةٍ في المجتمع؟ أهو تبريرٌ لهيمنةِ النظامِ الرأسماليّ؟ وأخيرًا.. أينَ تقفُ مبادئُ العدالةِ الإنسانيّةِ مِن عقوبةِ الإعدام؟

القتلُ الرحيمُ بينَ المشروع والتشريع!

القتلُ الرحيمُ موضوعٌ متشعّبُ الجوانبِ بزواياهُ الكثيرة، يُنظرُ إليهِ مِن عدّة اتّجاهاتٍ، تُحرّكُ فينا حسًّا خفيًا باطنيًا قد يثيرُ الرعبَ في نفوسٍ كثيرة، وقد لا يُعيرُ انتباهًا عندَ البعضِ، إلاّ أنّهُ لا زالَ يُثيرُ جدلاً عنيفًا بين الأوساطِ الطبّيّةِ والقانونيّةِ والأخلاقيّةِ والدينيّة، لم تنتهِ آثارُهُ حتّى يومِنا، ولا زالَ يحتلُّ منبرًا وجدلاً في جميعِ الشرائحِ البشريّةِ وفي أكثر مِن مستوى، وإن تعدّدتْ سبلُ الموتِ، إلاّ أنّ القتلَ الرحيمَ كوسيلةٍ مغايرةٍ للقتل، وباشتراكِ عدّةِ فناتٍ في القرارِ والتنفيذ، لا زالتْ فكرتُهُ تهزُّ الأفئدةَ والكياناتِ البشريّةَ والشعورَ المختلطَ المتخبّط، ولا شكّ أنّ المسألةَ بإشاكالاتِها المُثارةِ هي نسبيّةٌ، ما بين مجتمعٍ ومجتمع وما بين زمنٍ وزمن!

يقولُ العامّة عن مريض ما: "الله يخفّفها عليه"! فما مفهومُ نيّةِ هذهِ الدعوة مجازيًّا بلغةِ المجتمعِ والدين؟ وما مفهومُ القتلِ الرحيم مِنَ الناحيةِ الاجتماعيّةِ والإنسانيّةِ والقانونيّةِ والدينيّة؟ هل هذا فعلٌ إنسانيٌّ حقًّا مَردُّهُ الشفقةَ وإلحاحَ المريض نفسه؟ هل يعاقب القاتلُ الرحيمُ كمجرم؟ ما رأيُ الأديان السماويّة به؟ وأين يقفُ هذا المفهومُ ما بين معارضيهِ ومؤيّديهِ؟ مِن أين أتتْ فكرتُهُ؟ هل هي فكرةٌ أخلاقيّةٌ وجائزة؟ ما الفرقُ بينَ أدويةٍ تقتلُ الألمَ وأدويةٍ تقتلُ المريض؟ وهل من قوانينَ دستوريّةٍ دوليّةٍ تبيحُهُ في بلادِها على أرضِ الواقع؟ مَن لديهِ صلاحيّاتُ تنفيذِهِ، ليكونَ ملاكَ الموتِ؟ وكيف؟ ما الفرقُ بينَهُ وبينَ الانتحار؟

القتلُ الرحيمُ أو الأوتانازيا Euthanasia، كلمةٌ إغريقيّةُ الأصل وتتألّفُ مِن مقطعيْن: EU وتعني الحَسَن أو الطيّبَ أو الرحيم أو الميسر، والأوتانازيا THANASIA تعني الموت أو القتل، وتعني لغويًّا الموتَ أو القتل الرحيمَ أو الموتَ الحسَنَ أو الموتَ الميسر، بدافع الرحمةِ والرأفة! وفي التعبيرِ العلميّ المعاصر تعني؛ "تسهيل موتِ الشخصِ المريض الميئوس مِن شفائِهِ، بناءً على طلبٍ مُلِحٍّ منهُ مقدّمٍ للطبيب المعالج".

القتلُ الرحيمُ مشروعٌ جريءٌ وِفقَ شروطٍ محدّدةٍ ودقيقةٍ، تهدفُ إلى وضعِ نهايةٍ لحياةِ فرد ما وبدون ألم، وذلك؛ إمّا بإرادتِهِ وتوقيعِهِ وموافقتِهِ في حالةِ وعيِهِ وتمتّعِهِ بملكاتِهِ العقليّةِ، أو من خلال وصيّةٍ مكتوبة، وتكونُ الحالةُ اختياريّةً إراديّة، بناءً على طلبٍ ملحٍّ مِن المريض الراغب في الموت، أو بإرادةِ وموافقةِ وليِّ أمرِ المريض، في حالةِ غيبوبتِهِ المستديمة كحالةٍ لا إراديّةٍ، أو يكونُ فيها المريضُ إمّا غير عاقل، أو صبيًّا أو معتوهًا، وتتمّ بناءً على قرارٍ من الطبيب المُعالِج!

لكن ماذا عن مرضى يسيطرُ عليهم الاكتئابُ والخوفُ، ويوقّعونَ بخاطرِهم عن إماتتِهم، وقد يكونُ لديهم فرصُ النجاةِ والشفاء؟ في أيِّ الحالاتِ يمكنُ تنفيذُ القتل الرحيم؟ في الشيخوخةِ المُهانةِ، أو عند تأزّمِ أمراضٍ مستعصيةٍ لا شفاءِ منها ومِن معاناتِها وأوجاعِها وآلامِها المبرحةِ التي لا يمكنُ تحمّلها؟ ومَن المُنفّذ المُخوّلُ بتنفيذِ العمليّة؟ وكيف تتمُّ العمليّة؟

هناك القتل المباشر المتعمّدُ الفعّال Euthanasia Directe : يتمّ بيدِ الطبيب، بإعطاءِ المريض جرعةً قاتلةً من دواءٍ كالمورفين أو الكورار أو مِن مشتقّاتِ السيانيد! وهناك القتل

غير المباشر، ويتمّ بإعطاءِ المريض جرعاتٍ مِن عقاقيرَ مُسكّنةٍ لتهدئةِ الآلام المبرحة، ومضاعفتها للسيطرةِ على الآلام، وهو عملٌ يستحسنُهُ القائمونَ على العلاج الطبّيّ، إذ مع مرورِ الوقتِ تؤدّي إلى إحباطِ التنفّسِ وتراجع عملِ عضلة القلب، فتفضي إلى الموت! وهناكَ القتلُ غيرُ الفعّال، ويتمّ برفضِ العلاج اللازم للمحافظةِ على الحياة، ويلحق به رفعُ أجهزة التنفّس الاصطناعي لإنعاش المريض! وهناكَ المساعدة على الانتحار، يقومُ بها المريضُ بنفسِه، بناءً على توجيهاتٍ طبّيّةٍ توفّرُ له المعلوماتِ والوسائل المساعدةِ على الموت.

في عُرفِ الشرائع السماويّة قاطبةً الموتُ الرحيمُ تُحرّمُهُ تحريمًا مطلقا وتمنعُهُ، كفِعلِ جُرمٍ فيهِ تعَدٍّ على مشيئةِ الله، ولكن، بما أنَّ كلَّ شجرةٍ لا تثمرُ تُقطَعُ وتُلقى في النار، وكلَّ حيوانٍ لا يُنتجُ يُقتلُ في عُرفِ الطبِّ البيطريّ، وفي النازيّةِ يُقتلُ معارضوها السياسيّون، فإنّ هولندا أقدمتْ على هذه الخطوة وأباحتْها في نيسان إبريل عام 2002، وكذلك بلجيكا في أيلول سبتمبر عام 2002، وأستراليا ونيوزيلندا وفرنسا ودول أخرى تطالب بإصدارِ القانون هذا اقتداءً بهولندا وبلجيكا.

ولكن، ما الذي يدفعُ الهيئةَ الطبّيّةَ المعالِجةَ أو المريضَ نفسَهُ أو مَن يتولّى أمرَهُ إلى تيسير موتِهِ؟ وهل للإنسان حقٌّ في التفريطِ بروحِهِ أو بأرواح أناسٍ استودعَها الله في خلقِهِ؟ هل القانونُ حالةٌ ثابتةٌ أم متغيّرةٌ بفِعلِ الزمان والمكان؟ ما الذي أدّى إلى سنّ هذا القانون؟ هل بسبب الخوف من العدوى؟ بسبب الانفجار السكّانيّ؟ بسبب عدم توفّرِ إمكانيّاتِ رعايةِ المرضى استعصى شفاؤهم لفترةٍ طويلة؟ بسبب تفكّكِ الروابطِ الأسريّة؟ بسببِ الفقر وارتفاع نفقاتِ العلاج الطبّيّ الباهظة؟ بسبب أمراض عضالٍ يُصابُ بها المرضى لا يُرجى شفاؤُها كالسرطان والإيدز وغيرها؟ بسبب مصاحبةِ هذه الامراض بآلام شديدةٍ غير محتمَلة؟ هل كي لا يكون المريضُ عبئًا على ذويهِ؟ هل لتخفيفِ مصاريفِ وتكاليفِ المستشفيات وأثمان الأدوية؟ هل لتخفيفِ معاناةِ مَن يدخلون في غيبوبةٍ لا أملَ منها بتاتًا؟ هل بسبب انتشارِ فوضى الانتحار؟

هل جميعُ المجتمعاتُ تتساوى في تناولِ الموضوع هذا؟ أم أنّ لكلِّ مجتمعٍ ظروفُهُ، فيأتي القانونُ استجابةً مُلحّةً لواقعٍ يفرضُ نفسَه؟ هل للحالاتِ الخاصّةِ وتطوّراتِها السلبيّةِ ضرورةٌ في المجتمع تستوجبُ أحكامًا مثل هذا القانون؟ ولكن؛ ألا يحدثُ أحيانًا التفافٌ على القانون تحتَ غطاءِ القانون وأوراقِهِ الرسميّةِ؟ هل هناك شروط وموادّ أساسيّة تحدّدُ إمكانيّاتِ القتل الرحيم في حالاتِهِ الممكنة؟ وهل تبيّن واجباتِ الطبيب المعالج وشروط قيامِهِ بالعملية؟ ومن الذي يُقرّر شروطَهُ وضرورتَهُ وكيف؟ وماذا عمّن يقعون في غيبوبةِ الموتِ الإكلينيكيّ والسريريّ فرائسَ أسرّتِهم، يتنّفسون مِن خلال أجهزةِ تنفّسٍ ونبضٍ اصطناعيّ، كما هو الحالُ مع شارون منذ سنوات؟ هل إيقافُ إجهزة الإنعاش الاصطناعيّة ورفعِها عن مريض توقّفَ جذعُ مُخِّهِ عن العمل، هو إثمٌ قاتلٌ، أم هو عملٌ مشروعٌ؟ هل كلُّ نوعٍ مِن هذا القتل هو علنيٌّ مصرّحٌ عنه، أم قد يكونُ مخفيًّا بسببِ حظْرِهِ دينيًّا وعقوبتِهِ قانونيًّا؟ هل بينَ القانون الظاهر والاعتقادِ الخافي تكمن أمورٌ عديدة، فيها مصلحةُ الإنسان والتي تتطلبُ الحذرَ الشديدَ والعقلَ السديدَ، والجرأة والشجاعة في مساعدةِ المرضى، بطرقٍ ملتويةٍ بدافع الرأفة؟ وأخيرًا.. هل الإجهاضُ يدخلُ في إطارِ القتل الرحيم؟ في جميع الحالات؟ أم بحالاتٍ محدّدة أيضًا؟

ظاهرةُ الانتحارِ فضيحةٌ بكلِّ المعايير!

بينَ زهرةِ الحياةِ المُذهلةِ، وشوكةِ الموتِ الخاذلةِ، تنغلقُ بتلاتُ الانتحارِ على كثيرٍ مِنَ الأسرارِ المُبهَمةِ، كأنّما المنتحرُ يحاولُ أن يدفعَ بأنفاسِهِ الخلاّبةِ، صوْبَ مرآةِ واقعٍ مريرٍ تحطّمتْ فيهِ رؤاهُ الذابلة كي يُجمِّلها، أو كأنّما يحاولُ بأنفاسِهِ أنْ يُباغتَ مخاوفَهُ ويهزِمَها، ويخلّصَ تلك التي زلزلتْ عتمةَ فِكْرِهِ المتأرجحِ على حافّةِ هاويةِ الإنسانيّة، أو كأنّما يُعبّئُ بأنفاسِهِ ذاكَ الفراغَ الفاجعَ الذي خلقتْهُ تناقضاتُ الحياةِ العصريّةِ، فيخلقُ فلسفةً أخرى ضدَّ واقعِ الحياةِ المقيتِ!

فكرةُ الانتحارِ تتسلّقُ سلالمَ اللامنطق لدى الكثيرين بنبْذِها وإسقاطِها من علٍ، لكنّها تتعربشُ بجنونٍ لا محدودٍ نفوسَ بعضِ المتعَبين وحاملي الأثقال النفسيّة، فتتمكّنُ من السيطرةِ عليهم بإحكامٍ مطبَق، قد ينجحُ تنفيذُها أو يفشلُ بعزيمة المُقدِمينَ عليها، فهناكَ محاولاتُ انتحارٍ تنجحُ وأخرى تفشل، وتقفُ أنتَ بذهولِكَ، فاغرًا فاهَ استغرابِكَ لحقائقَ تُشابهُ الأكاذيب، وبعينيْكَ المشدوهتيْن المشدودتيْن لحقيقةٍ تقول:

الأردن يشهد "6" حالات انتحار في 12 يومًا في الأسبوعيْن الأوّليْن من العام الجديد 2010.

انتحار!؟ وابلٌ مِن الأسئلةِ اللاسعةِ يهطلُ على الروحِ المُستهْجِنة مآلَها، وتَشْرُدُ إلى عالم الإحصائيّات القاسي بأرقامِهِ، وكلُّكَ ينتفضُ وجعًا.

هل هو نفسُهُ الموتُ الإراديّ، أم فضيحةٌ اجتماعيّةٌ كما يقولُ الطبيبُ النفسيّ رولف ديتر هرسش "Rolf Dieter Hirsch"؟

هل هو لحظةُ صدقٍ مع الذاتِ، أم فكرةٌ جريئةٌ للخروجِ مِن دائرةِ الحياةِ ومسارِها، بعدَ أن أخذتْ تنوسُ نجومُ الآمال، وينطفئُ وهْجُها، فتسارع تُلبّي نداءَ الموتِ والأفول؟

هل هو خلاصٌ مِن بريقِ عذابٍ يَضجُّ في رفاهيّةٍ منافقةٍ، تتفكّكُ ألوانُها، فلا تواريه ولا تُوارِبُ موتَهُ البطيء، أم شكلٌ مِن أشكالِ التعبيرِ عن الضياعِ والعبثيّة، وسلبيّةِ الضدّيّة والتناقضات؟

هل هو لحظةُ توهّجِ الطاقةِ في قبضةِ المنتحِرِ، بعدَ أن خَفَتَ عصبُ الرغبةِ بالحياةِ، أم جُبنٌ وهروبٌ نحوَ العدَم، بعدَ اعتمارِ قبّعة الإيمانِ بمستحيلٍ، قد يُغيّرُ إلى الأفضل؟

هل يحدُّ الانتحارَ مكانٌ أو زمانٌ؟

في كلِّ 40 ثانية، هناك شخصٌ ينتحرُ في مكان ما مِن هذا العالم! فهل للانتحار أبعادٌ اجتماعيّةٌ وثقافيّةٌ، واقتصاديّةٌ ودينيّةٌ ونفسيّة؟ هل هناكَ تفسيرٌ وتعريفٌ معيّنٌ للانتحار، أم تتعدّدُ التعريفاتُ والتفسيراتُ وتتلوّن كلٌّ مِن منظور؟

التعريفُ الموضوعيُّ للانتحار: "هو قرارٌ يتّخذُهُ شخصٌ لإنهاءِ حياتِهِ"! لكن، هل الحياةُ مُلكُ فردٍ بعيْنِهِ، أم مُلكُ كلِّ مَن يرتبطُ بهِ مِن أهلٍ وأصدقاءٍ وأحبّةٍ، وهو جزءٌ مِن حياةِ جمْعٍ يعبقُ بالإنسانيّة؟

وهَل تتشفّعُ التبريراتُ في تخفيفِ هوْلِ الصعقةِ على ذوي المنتحِر، أم تُذكي قلوبَهُم بالذنب والحسرة؟

يُطالعُنا التعريفُ من المنظور النفسيّ الديناميّ: "الانتحارُ يشبهُ اللغزَ أو الأحجية، لأنّهُ عدوانٌ أثيمٌ على الغريزةِ القويّةِ للحياة، فهو نوعٌ مِنَ العقابِ الذاتيِّ والانتقامِ مِن الذات، وإلحاقِ الأذى بها".

يقول فرويد: "الانتحارُ هو عدوانٌ تجاهَ الذات، لأنّ المنتحرَ لا يستطيعُ أن يوجّهَ عدوانيّتَهُ باتّجاهِ شخصٍ آخر، ولا عنفَهُ باتّجاهِ المجتمع، إنّما تجاهَ حبيبٍ توحّدَ فيه".

أمّا إريك فروم فيقول: "هو صراعٌ بينَ الداخلِ والخارج"!

ويقولُ علماءُ الهندسةِ الوراثيّة: "الانتحارُ هو نقصُ هرمون السيروتونين؛ المسؤول عن الشعور بالسعادة ضدّ الاكتئاب"!

أمّا المدرسةُ المعرفيّةُ فتقول: هو "تفكيرٌ غيرُ مَرِنٍ بمواجهةِ الحياة، وتعبيرٌ عن البكاءِ الرمزيِّ للفتِ الانتباه".

لكن إميل دوركايم عالم الاجتماع الفرنسيّ فيقول: الانتحارُ هو تكسُّرُ الروابطِ الاجتماعيّةِ والانعزال، فحين تغدو الحياةُ بالمكتئبِ مجرّدَ مقامرةٍ تلهو به، جاعلةً منهُ أحدَ كراتِها الزجاجيّةِ، تتقاذفُها الأرجلُ في ملعبِ الظروفِ المستحيلةِ، وبعدما يفقدَ كلَّ التعزيزاتِ المستقبليّةِ السامية، في أجواءِ الأسرةِ والعمل والصحّةِ والحُبِّ وما إلى ذلك، يلجأ إلى صوتِهِ المقموعِ المُعلّبِ في الرغبةِ بالانتحار، إمّا للتكفيرِ عن ذنبٍ ما، أو للانتقامِ مِن آخرينَ ليجعلَهم يشعرونَ بالذنب، أو للهربِ مِنَ الضغوطِ والألم الذي لا يُطاق، إلى حياةٍ أفضل!

لكن، هل في الانتحار تعزيزٌ إيجابيٌّ لِما هو سلبيّ، من خلال تدميرِ الذاتِ، والانتقال المُحدّدِ في النمطِ الشخصيِّ للتعزيزات، كما قال "أولمان" وَ "كراسنر" عام 1975؟

وهل الانتحارُ هو شكلٌ مِن أشكالِ التمرّدِ، من أجل الحصولِ على حقِّ الحياةِ بمعناها الواسع؟ وإن يكنْ، فهل الموتُ هو الذي يمنحُ الفردَ حياةً حقيقيّةً مطلقةً، كما افترضَ مي (May) عام 1958؟

يقولُ الشاعرُ المعرّي في لزوميّاتِهِ: لو لم تكنْ طُرُقُ هذا الموتِ موحشةً مخشيّةً لاعتراها الناسُ أفواجا/ وكلُّ مَن ألقتِ الدنيا عليهِ أذًى يَؤُمُّها تاركًا للعيشِ أمواجا/ كأسُ المنيّةِ أوْلى بي وأرْوَحُ لي مِن أن أعالجَ إثراءً وإحواجا.

وأخيرًا: هل الانتحارُ هو حيلةُ الأنا في إنقاذِ نفسِها مِن همومِ الحياة والمجهول؟

سياحةُ الانتحار لعبةٌ ترفيهيّةٌ مغايرة!

سياحة الانتحار؟ يا إلهي.. استوقفني عنوان الإعلان المستهْجَن، وأنا أبحث في صفحات السياحة، فعاجلتُ الحروفَ لأَصِلَ إلى المعنى.. وكيف لا تعجب! عِشْ، تَرَ عجبًا!

شركةٌ خاصّةٌ بسياحةِ الانتحارِ ومُرخّصةٌ في سويسرا، تضمنُ لمَن يَرغبُ في الترفيهِ عن نفسِهِ طرُقًا غيرَ مؤلِمة، وبتكاليفَ مقبولةٍ، كما تضمنُ مدافنَ ومقابرَ للأجانب، ممّن يرغبونُ في الانتحار! تبريرُ الشركةِ ومزاعمُها أنّه و"حسب تقريرٍ قدّمتْهُ منظّمةُ الصحّةِ العالميّةِ فإنّ: مليون وستمائة ألف شخص يقتلون سنويًّا بطرق عنيفةٍ، نصفُهم عن طريق الانتحار"، ففي كلّ عام يموت 873 ألف إنسان بعمليّات انتحار ناجحة ومختلفة التنفيذ!

أكثرَ من 63 ألف سويسريّ انتحروا عام 1995 دونَ مساعدةِ أحد، وأنّ معدّلَ الانتحار في الصين 287 ألف في العام، وفي بريطانيا يُماثلُ حالَ الصين، وفي أمريكا معدّلُ المنتحرين 18.526 في العام الواحد.

أمّا في فرنسا فهناك 40 ألف محاولة انتحارٍ سنويًّا، وفي اليابان 30 ألف ياباني سنويًّا، وتشهد الدولُ الإسكندنافيّة وأوروبا الشرقيّة نسبةً كبيرةً من المنتحرين سنويًّا، أكبر من دول آسيا وأمريكا اللاتينيّة.

وفي مصر 750- 1200 حالة انتحار، وفي اليمن بين الأعوام 1996- 2002 ما يزيد عن 4100 حالة، وفي الأردن أكثر من 1200 حالة، وفي السعودية أكثر من 700 محاولة قضى منها 470 حالة، وفي إسرائيل عام 1991 بلغ 1204 حالة، وعام 1997 بلغ 2400 حالة، وعام 2002 بلغ 6000 حالة، وفي ألمانيا عام 2007 بلغ 9402.

وقد طالتْ يدُ الانتحار السجون والأسرى ففي فرنسا بحسب وزيرة العدل انتحر 75 سجينًا عام 2007، وَ 112 سجينًا عام 2008، لينخفض إلى 96 سجينًا عام 2009.

عام 2009 بلغ عدد المنتحرين بالجيش الأمريكي 140 عسكريًّا.

في أمريكا عام 2002 بلغ عدد المنتحرين أكثر من 31 ألف حالة وهنالك 5 ملايين أمريكي حاولوا قتل أنفسهم، و يقدم نحو 25 الف شاب وفتاة على الانتحار في العام الواحد، ونسبة الانتحار زادت 60 بالمائة خلال النصف القرن الماضي!

وتُفيدُ الإحصائيّاتُ أنّ عددَ المنتحرينَ ثلاثةَ أضعافِ القتلة، ومحاولاتُ الانتحارِ والفعليّ عند الذكور أكثرَ مِن الإناث، إلاّ الصين هي الدولة الوحيدة في العالم التي يزيدُ فيها الانتحارُ بينَ النساء عنه بين الرجال، والأرقامُ مخيفة، فهناك 3000 حالة انتحارٍ في اليوم، ومقابلَ كلّ حالةِ انتحار، هناك 20 محاولة للانتحار. وحسب إحصاءات الأمم المتّحدة، فإنّ هنالك 450 مليون شخص يعانون مِن اضطراباتٍ نفسيّةٍ وعصبيّة، وأكثر من 90% مِن حالاتِ الانتحارِ يرتبطُ انتحارُهم باضطراباتٍ نفسيّة ويأسٍ وكآبة!

أمامَ الأرقامِ المُفزِعةِ التي ينهارُ الإنسانُ على أعتابِها انتحارًا، تنعقُ الغربانُ مُوَلوِلةً، ترثي حالَ هذا البرجَ البشريَّ البائسَ روحيًّا وما آلَ إليهِ، حينَ أخذتْ تصفُقُهُ رياحُ الظلمِ العاتية، وتلطُمُهُ أمواجُ العصرِ الهادرة، وتُلوّحُ بهِ في فضاءِ التيهِ والضياعِ مناديلُ الغموض!

أينَ تحُطُّ نواقيسُ الذعرِ والهلع بالإنسان يا ترى؟ أعَلى أرصفةِ الذلِّ والتهميش، تتناوشُهُ مناقيرُ العذابِ المعقوفةِ، فيذوي في بؤرةِ الفراغ كآبةً، أم علَى هاوياتِ القهرِ والعجْز، تنهشُ كرامتَهُ عيونُ الشفقةِ الكاذبة، فتمتصُّ لبَّهُ وقلبَهُ كمدا؟ هل الانتحارُ خطيئةٌ فيها تعرّضٌ حقيقيٌّ لحربٍ روحيّة مع الذات، أم هو جريمةُ قتلٍ، يُعاقِبُ عليها القانونُ والدين مَن ينجحُ ومَن يفشلُ أيضًا؟ كيف؟

الانتحارُ بحسبِ المسيحيّة خطيئةٌ فادحةٌ، إذ هو تمرّدٌ وتجذيفٌ على سلطةِ الله وإرادتِه، حينَ يُقصّرُ الإنسانُ رحلةَ عمرِهَ، لتقودهُ خطاهُ إلى بحيرةِ النار، وما مِن تبريرٍ يتشفّعُ له، لأنّ السيدَ المسيحَ نفسهُ صُلِبَ من أجل الخطيئة، ليفتديَ المؤمنين بالله، والانتحارُ يراهُ الكتابُ المقدّسُ مساويًا للقتل! كذلك الإسلامُ حرّم الانتحار، اعتمادًا عل الآيةِ (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ، إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)! (النساء)/ وهو أمر إلهيّ يجب ألاّ نخالفه. حديث شريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلّدًا فيها أبدًا! (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا) [النساء:30]، فهل في التخويف والترهيب رادع؟

في جميع الديانات والرسالات السماويّة، يُعتبرُ المنتحرُ في حُكم الجاني والمجنيّ عليه معًا، ودينيًّا يُعتبرُ قد أزهقَ نفسًا، ولا يجوزُ الصلاة أو الترحّم عليه. لكنّ الإنسانَ في شرائحِهِ العُمريّة؛ أطفالاً وشبابًا، مراهقين وشيوخًا، بفئاته ذكورًا وإناثًا، جنودًا أسرى ومرضى، فقراء وأثرياء، مثقفون وأميون، يتدحرجُ بعضُهم على مدارجِ الانتحار، وما مِن سفوحِ إنسانيّةٍ تحمي أو تُضمّدُ جراحَ تُعسائِها، فتقفُ عقاربُ الضمائرِ في عجْزِها أمامَ مساءلات تتلوع حسرة: كيف بشيوخ تحوّط مسيرةَ عطائِهم مناخاتُ الاكتئاب، حينما يتمكّنَ منهم سلطانُ العجْز وقلّة الحيلة حتّى في خدمةِ أنفسِهم، فلا يجدون من يسعف كرامة شيخوختهم وعجزهم! وهل أشقى من أولائك؛ مَن امتدّتْ كفوفُ أعمارِهم بذْلاً وعطاءً وتضحيةً، لينتهي المطافُ بما يقابلونَهُ من قلّةِ رعايةٍ وعنايةٍ ورأفةٍ بشؤونهم الأساسيّة، وهُم في أمَسّ الحاجة للآخرين؟

كيف تَفرَغُ الحياةُ فجأةً مِن دفْءِ العلاقاتِ الأسريّة والاجتماعيّةِ والعواطفِ الحميمة، فلا تحتضن مراهقيها وشبابها وفتياتها وأطفالها وأناسَها بحنانٍ يقيها وحشة المآسي؟ كيف تتمكّن العزلةُ القاتلةُ على أبراج الإنسانيّة، وكيف تستولي الوَحدةُ على قِيمِها، فتنهارُ النفوس أمامَ جبروتِ المادّيات؟ وهل أقسى من مشاعرِ اللاجدوى في حياةٍ حافيةٍ مِن مباهجِها، وفارغةٍ مِن شحناتِ طاقاتِها؟

كيفَ نُغيّرُ أنماطَ سلوكيّاتِنا للأرقى، ونُخفّفُ مِن معاناةِ مَن نُبصرُهُم ونُجاورُهم، بحيث نُعزّزُ مكانةَ الإنسانِ الحيِّ منّا وفينا، في جميع مراحلِ عمرِهِ، حتّى لحظةَ تفيضُ روحُه، وهو يشعرُ بقيمةِ وجودِهِ المُبارَك، وفائدتِهِ المرجوّةِ لمجتمعِه؟ هل الانتحارُ جريمةٌ بجُلِّ أبعادِها ومقاييسِها دائمًا، أم أحيانًا؟ ما هي دوافعُ الانتحارِ وأسبابه؟

أسبابُ الانتحار!

ما مِن شكّ أنّ الحياةَ هبة الله ونعمة السماء، وتقبّلها والتعامل مع ظروفِها بحاجة لدبلوماسيّةٍ وفنّ مِن أجلِ التكيّفِ بها، واستثمارها بما فيهِ خيرٌ على قاطنيها وزائريها.

هناكَ بوادرُ تشيرُ إلى النيّةِ في الانتحار: كفتورِ الحيويّة وانعدامِها، وحِدّةِ اكتئابٍ مصحوبٍ بمزاجٍ سيّءٍ وانزواء، واعتمادٍ على المسكّناتِ والمهدّئاتِ بشكلٍ مبالغٍ فيه، ومنهم مَن يتركُ رسائلَ وعلاماتٍ تُنبي بانتحارِهم، ومنهم مَن يُعلنُ أو يُلمّحُ عن نيّتِهِ.

فما هو مَرَدُّ فكرةِ الانتحارِ وبواعثه ودوافعه التي تجُرّ الشخص إلى الانتحار في العالم؟ هل الإنسانُ نفسه، أم الأسرة، المحيط أم البيئة؟

بوس1976 تحدّثَ عن الانتحارِ الجزئيِّ الوجوديّ، أي الانعزال والتخلّي عن المسؤوليّات، والامتناع عن أداءِ مستحقّاتِ الحاضرِ بتجاهلِ إمكانيّاتِهِ وقدُراتِهِ، فيلجأُ إلى العزلةِ ويُطوّقُ رقبتَهُ بالانطواءِ على ذاتِهِ، وهذا الانتحارُ الجزئيّ يسبقُ الانتحارَ الفعليّ.

ما الذي يوصلُ الفرد إلى مرحلةِ خُواءٍ روحيٍّ واضمحلالِ مزاج، مشبّعة بآلامٍ نفسيّةٍ حادّة؛ من يأسٍ واكتئابٍ ومكابداتٍ وإدمانُ معاناة؟ هل بسبب تعاطي المخدّرات والموادّ المُسْكِرة؟

بسبب تفكّكِ الروابطِ الأسريّةِ والعلاقاتِ الاجتماعيّة، والافتقارِ إلى الحُبّ والحنانِ والأمانِ والاتّزان؟ بسببِ كثرةِ حروبٍ تشتعلُ وتتوالى على مناطق الصراع، واتّساعِ الفجوةِ بينَ الأغنياءِ والفقراء؟

بسببِ الفشلِ الدراسيّ، وضغوطاتِ الامتحانات، وتراكم موادّ تشكّلُ حِملاً ضخمًا على عاتقِه؟ بسببِ فشلٍ عاطفيٍّ غير قابلٍ للنسيان، ولا يمكنُ التكيّف مع حقيقةِ الفشل؟

بسببِ فراغٍ دينيٍّ أم توجيهٍ دينيٍّ سلبيٍّ؟ وهل الدينُ يمكنُ أن يكبحَ جماحَ النفسِ والإرادةِ إيجابيًّا؟ وهل الإيمانُ باللهِ يُكسبُ الفردَ رِضًا وتقبّلاً للواقع، فيستوعبُ المشاكلَ التي تُلمُّ بهِ كي يتجاوزَها؟

هل استحالَ عليهِ التكيّف مع مجتمعِهِ، فرفضَ عاداتِهِ وقيمَهُ ونواميسَهُ، وفشلتْ أحلامُهُ بانطلاقةٍ حداثيّةٍ، يكسرُ فيها طوقًا اجتماعيًّا محافظا، وثقافيًّا خانقًا؟ هل الهرولةُ إلى انعدامِ الحياةِ الاجتماعيّةِ السليمةِ، يُودي باعتقادِهِ للعدم وعبثيّةِ الوجودِ الإنسانيّ؟

هل بسببِ انعدامِ التواصلِ الإنسانيِّ، وسيطرةِ النفعيّةِ الاستهلاكيّةِ، وهيمنةِ المصلحةِ الفرديّةِ والجماعيّةِ للقويِّ والمُخادِع؟ هل بسبب شيخوخةٍ وعجزٍ وأمراضٍ جسميّةٍ خلفت معاناة ومكابدة آلامٍ وأوجاعٍ، صارت استحالةُ البرْء منها ذريعةً للعبور إلى ضفّةِ العدم؟

هل بسببِ تربيةِ وثقافةِ المجتمع وعقائدِهِ، والإيمانِ بفكرةٍ تعتمدُ على الانتحار؟ بسبب خوفٍ من المجتمع وتجنّبًا للعار، من عنوسةٍ مُجحفةٍ ظالمة، زواج فاشل، معاملةٍ قاسيةٍ وقيودٍ شديدة، خلافاتٍ عائليّةٍ بينَ الأزواج أو فيما بين الآباء والأبناء؟

هل بسبب التربيةِ الذكوريّةِ المتعالية، مقابل تعميقِ حسِّ المرأة بتهميشِها وغُبنِها وعدم الرضا، وبسبب عجزها على التمرّد؟ هل بسببِ اتّساع هوّة الغربةِ السوداء التي تلفّ وُجْهات الأنثى، وتلسعُ جِهاتِها أينما حلّت، فتتخبّطُ بتوتّراتِها في جحيم الإحباط والتخلّف، دونما قدرةٍ لها على التمرّد والتغيير؟

بسبب نفاذِ مخزونِ الصبر، وانفلات العزيمة مِن قبضتِهِ، فلا يقوى على انتزاع حقِّهِ في الحياة ممّن اغتصبوهُ منه؟ بسببِ التضخّمِ الرفضيّ لعاداتٍ متداولةٍ، وتفاقُمِ النوازعِ للاستقلالِ والتحرّرِ ممّا هو بالٍ مِن أعرافٍ وأفكارٍ وعاداتٍ مهيمنة؟

بسببِ الشعورِ الطموحِ المُحلِّقِ في سماءِ ضياعِ الزمانِ واللا انتماء إلى المكان؟ هل بسبب فشلٍ وظيفيٍّ في العمل، ومشاكل مادّيّةٍ وضغوطاتٍ اقتصاديّةٍ صعبةٍ، وضيقِ اليدِ أمام متطلّباتِ الحياةِ الباهظةِ، وتقلّباتِ الأسعارِ السريعة، وغلاءِ المعيشة، وارتفاع نفقات الزواج، وتراكمِ الديون في ظلِّ البطالةِ والدخلِ المحدود اللذيْنِ يُهدّدانِ سلامتَهُ واستقرارَه؟

ولماذا الانتحارُ في الدولِ الرأسماليّةِ المتطوّرةِ الغنية، هل هو تعبيرٌ عن امتهانِ حقوقِ الإنسانِ وحرّيّتِهِ وأمنِهِ، في ظلِّ استغلالِهِ وتراجُعِ الخدماتِ الاجتماعيّة؟

الانتحارُ يُخلّفُ مشاكلَ أسريّةً واجتماعيّةً ويُضخِّمُها، فيعتري الأُسَرَ خوفٌ شديدٌ في كيفيّةِ تربيةِ الأبناءِ بينَ اللينِ والقسوةِ والتعنيفِ والحنان، من أجلِ تحاشي وصولِهم إلى فكرةِ الانتحار.

كيفَ يمكنُ تفادي ظاهرة الانتحار والتخفيفِ مِن وطأتِها؟ هل بتوفيرِ سُبلِ الرعايةِ النفسيّةِ للفئاتِ القابلةِ للانتحار، وإنشاءِ جمعيّاتٍ خاصّة بالمقبلين على الانتحار، ممولة يتوفّرُ فيها كوادر من مختصّينَ نفسيّينَ واجتماعيّين ودينيّين وطبيّين، تساعدُ باجتياز المرحلةِ العصيبةِ بأسبابِها الجسيمة، وتخطّي العقباتِ وإعادة تأهيلِهِ بعلاجٍ مُكثّف؟

هل بتوفيرِ مستشارين تربويّين في المدارس، وبتوجيهِ وبتوعيةِ الأهل في كيفيّةِ التعامل مع الأبناء؟ هل بتوفيرِ مستشارٍ اجتماعيٍّ في أُطُر شؤون الأسرةِ، وكيفيّةِ التعامل السليم مع الزوجةِ والأمّ والأبناءِ؟

هل بتوفيرِ مؤسّساتٍ دينيّةٍ داعمة للاستقرار الأسريّ، تُساهمُ بتجاوزِ المصاعبِ والمشاكلِ الطارئةِ أو المزمنةِ بشكلٍ مدروسٍ ومُتابَع؟ هل بتوفيرِ الرعايةِ الصحيّةِ للشيوخِ وذوي الحاجاتِ الخاصّة، مِن خلالِ مؤسّساتِ رعايةٍ بمستوى عالٍ، وتوفيرِ مناخ فيهِ حياة ورحمة وتسامح وعدالة؟

هل بتدريب كادرٍ من الأطبّاء والممرّضين في كيفيّة مواساتِهم، وتحبيبِ الحياةِ لهم وإقبالِهم عليها برضا، أم بتوفيرِ الأدويةِ المساعدةِ في تخفيفِ الآلام والاكتئاب؟ هل باستكمالِ الدراسة والتعليم للشبابِ والحصول على عمل، وتحصين النفس بالعوامل الروحيةِ والعزيمةِ القويّة، من أجل التغلّبِ على الأمراضِ الاجتماعيّةِ والتعايش معها؟ وهل فعلاً كلّ المنتحرينَ انتحروا بدافعٍ داخليّ، أم أنّهم قُتلوا بالتباس تحتَ مسمّى انتحار، كغطاءٍ على جرائمَ أسَريّةٍ أو أخرى؟

أنواعُ الانتحارِ الفرديّةُ والجماعيّة

هل فلسفةُ الانتحارِ ترمي الفردَ بعَمى البصيرة، فيتخلخلُ توازنُهُ النفسيُّ والذهنيُّ، ويسقطُ في براثنِ الكآبة، ثمّ تقودُهُ إلى هاويةِ الانتحار؟

وكيف نفسّرُ ظاهرةَ الاكتئابِ الذي يُعاني منه حوالي أربعة ملايين ألماني؟

لحظةَ تأمّلٍ خاطفٍ تُسمّرُ فِكْرَ الجنديِّ الذي يوضَع على هاويةِ الحياةِ في ميدانِ الحرب، كيفَ يُواجهُ الموتَ؟

أهو يدافعُ عن نفسِهِ وحياتِهِ، أم ينتحرُ، أم يستشهدُ؟

وماذا عمّن يستشهدونَ بتفجيرِ أنفسِهم بعبواتٍ ناسفةٍ وطائراتٍ وسيّارات مفخَّخة؟

أهو شكلٌ من أشكالِ الانتحار، أم لونٌ مغايرٌ شفّافٌ لا يخضعُ للمساءلة، فيهِ خلود الروح، وفداء الوطن، أم غسيلُ مُخ، أم ...؟

الانتحارُ لغةٌ حادّة، تدغدغُ العواطفَ الواهنةَ، لكن لها في النفسِ رواسبَ عميقةً وتحضيراتٍ متراكمةً، إلى أن يتمَّ عقدُ الميثاق مع الموتِ لحظةَ تنفيذِهِ، حين تُحفّزُها دوافعُ وأسبابٌ قد تتبدّى عسيرةً!

وكأنما مباريات في فنون هذا الإبداع الغريب تتجلى في تنافس شديد على هذا الموت الغريب! فأنواعُ الانتحارِ وإنْ آلتْ إلى نتيجةٍ واحدة، فهي تقذف في شِباك مراميها كرات ألمٍ وخوفٍ وفزعٍ تضربُ عصَبَ المجتمع، وتُنذرُ بإيقاعِ طبولِ مجتمعٍ مريضٍ، مُفرَغٍ مِن رنينِ حياةٍ سليمة!

أبسط أنواعِ الانتحارِ يتشكّلُ في قوقعةِ الانتحارِ الجزئيِّ الوجوديِّ كما ادّعى بوس عام 1976، فيلجأُ الفردُ إلى العزلةِ ويُطوّقُ رقبتَهُ بالانطواءِ على ذاتِهِ، ملازمًا الاكتئابَ واليأسَ واعتزالَ المحيطِ، فلا يفكّرُ سوى بقضيّتِهِ الخاصّةِ، بسوداويّتِها القاتمةِ الخاوية من منفذ بصيص، وبعتمةِ الحاضرِ الفارغِ مِن معناهُ وجدواه!

قد تكونُ الوطأةُ رغمَ ثقلِها أرحم، عندما تأتي على شاكلةِ الانتحارُ الأنانيُّ (Egoistc) ، والذي يحدثُ بسببِ عدمِ قدرةِ الفردِ على الاندماجِ بالحلقةِ الاجتماعيّةِ القريبةِ منه (الأسرة) والبعيدةِ عنه (المجتمع)، نتيجةَ ظروفٍ ومِحَنٍ مرّ بها، جعلتْهُ يفضّلُ الانزواءَ والانطواءَ على الذات، ولاحقًا تدفعُهُ إلى الانتحارِ، وبَتْرِ الروابطِ الواهيةِ بأيسرِ السبُل!

فها "سميث"؛ قبطانُ الباخرةِ العملاقةِ تايتنك (المارد)، يقفزُ مِن خلفِ عبابِ البحر في عُمقِ اللجج، ففي 10-4-1912 كانَ العالمُ يترقّبُ بلهفةٍ الاحتفالَ الهائل، بانطلاق باخرتِه الفخمةِ في رحلتِها الأولى في المحيطِ الأطلنطي، مِن إنجلترا إلى أمريكا، وقد بلغ طول التايتنك الأسطوريّة 882 قدَمًا ووزنها 5231 طنًّا، وبارتفاع عشرة طوابق، وتصوّرَ قبطانُها أنّها غيرُ قابلةٍ للغرق، حيثُ تحتوي على قاعيْنِ يمتدّ أحدُهما عبرَ الآخر، ويُمكنُهُ وبمفردِهِ أن

يحجزَ الماءَ في أحدِ أجزائِها الـ 16 السفليّة في حالِ تعرُّضِها للغرق، إلاّ أنّها غرقتْ إثر اصطدامِها بجبال الجليد، وظلَّ لغزٌ عظيمٌ يَحُفُّ غرقَ التايتنيك وانتحارَ القبطان سميث:

هل بسبب تعويذةِ اللعنةِ التي حمَلَتْها الباخرةُ، للكاهنةِ الفرعونيّةِ صاحبةِ المومياء، والتي كُتب فيها: "اِنهضْ مِن سباتِكَ يا أوزوريس، فنظرةٌ مِن عينيْك تقضي على أعدائِكَ الذين انتهكوا حرمتَكَ المقدّسة"؟

هل بسببِ تلقّيهِ رسائلَ الإغاثةِ التي تُنبيهِ بغرق السفينة، فلم يُصدِّقْها ولم يذعنْ لها، فتلبّستْهُ الأشباحُ والعفاريتُ واللعنةُ، وجعلتْهُ يصرخُ: "إنّني سيّدُ هذه الجزيرةِ العائمة، أفعلُ بها ما أشاء"؟ أم.... ؟

لكن، ما يبعثُ على شدّةِ الغرابةِ، هي الصبغةُ العقائديّةُ الواحدة، وحالةُ التماهي التي تكونُ فيها شركةُ الموتِ، وذاك الترحيبُ المُهلِّلُ بأعراسِ الموتِ الجماعيّة، والتي تجلّتْ بصيَغٍ وأشكالٍ متعدّدة، بنفس الأسلوبِ والوقت!

برز الانتحارُ الفوضويّ (Anomic) ، على أثر مرورِ المجتمع بحروبٍ وخسائر، وبأزماتٍ اقتصاديّةٍ مفاجئةٍ، واضطراباتٍ نفسيّةٍ حادّةٍ غير متوقّعة، كما حدثَ في النمسا بعد الحربِ العالميّة الثانية، وفي أمريكا عام 1929.

أمّا الانتحارُ الإيثاريّ (Altruistic) ، فيكثرُ في الحضاراتِ الشرقيّةِ، ويحدثُ بانغماسِ الفردِ كلّيًا، بقيَمِ وحضارةٍ وعقيدةٍ وتعاليمَ وأنظمةٍ، يكونُ فيهِ نيْلُ الشرفِ ضرورةٌ مُلِحّة، كمثل الاستشهادِ والفداءِ والتضحية!

أمّا انتحارِ الكاميكازي في 25-10-1944، فنفّذَهُ الطيّارونَ اليابانيّون في الحربِ العالميّةِ الثانية، بإطلاق طائراتِ كاميكازي الانتحاريّةِ باتّجاهِ البوارج الأمريكيّة، مِن أجل إغراقِها وتدميرِ العدوّ، كما تمكّن إعصارُ كاميكازي عام 1218م مِن دحْرِ وتدميرِ جيوشِ المغول على اليابان، وتعني الكاميكازي؛ الريح الإلهيّة.

أمّا الانتحارُ بطريقة "الهاراكيري" لدى الرجالِ العسكريّين والقوّات العسكريّةِ في اليابان، فقد ظهرَ اختياريًّا في حروبِ القرن الثاني عشر عندَ الهزيمة، وذلك بطعْنِ النفس بسيْفٍ قصيرٍ في الأحشاء والصدر والعُنق، تفاديًا لعارِ الاستسلام للأعداء، ودلالةً على الشجاعةِ وقوّةِ الإرادة، والإيمان العميق بالشرفِ العسكريّ!

أمّا الهاراكيري الإجباريّ فيُنفّذُهُ المنتحِرُ بأمرٍ مِن المحكمة العسكريّة، في حالِ هربِهِ من المعركةِ، أو في حالِ ارتكابِ خطأ جسيم، وقد برزَ وشاعَ انتحارُ الهاراكيري بينَ القوّات اليابانيّة، قبلَ إعلانِ استسلامِ اليابان عام 1945م.

أمّا جماعة "جيم جونز" في غويانا في سان فرانسسيسكو في الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّة عام 1978، فقد لبّى 918 منتحرًا دعوتَهُ للانتحار الثوريِّ الجماعيّ، وذلك بتناول مادّة السيانيد السامة، وقسمٌ بالرصاص، بعدما أُحبِطوا وخابَ ظنّهم في مزرعةِ السعادةِ والنعيم المقيم

الضخمة التي جمعَهم فيها، وأباحَ لهم ممارسةَ الجنس وتعاطي المخدّرات، وكان معظمُهم مِنَ الزنوج، الذين عانوا من العنصريّةِ واللون والسخط على النظام!

أمّا أعضاءُ طائفةِ الوصايا العشر الأوغنديّة، التي أسّسَها جوزيف كيبويتيرة، على اعتقادٍ أنّ القيامةَ ستكون في 31-12-1999، فباعوا ممتلكاتهم، وتبرّعوا بها استعدادًا للانتقال إلى الجنّة، وحين لم تقُم القيامة، بدأتْ موجةُ الانتحارِ الجماعيّ في شهر 2000/3.

أمّا جماعةُ "معبد شمس" في كندا وفرنسا وسويسرا، فقد مارست الانتحارَ الجماعيَّ بطقوسٍ واحدة، اعتقادًا منهم بولادتِهم مجدّدًا في كوكب الشعرى اليمانيّ، فوُجد منهم 16 شخصًا في جبال الألب بفرنسا، و48 شخصًا في سويسرا في 1995/12، وعثر على خمسة منتحرين في مونتريال، وفي كويبك بكندا عُثر على خمسة منتحرين في 1997/3.

ما بين الانتحار الجزئيّ والكليّ، وما بينَ الانتحارِ النفسيِّ والجسديِّ، ففي الآفاقِ الضبابيّةِ لمجتمعاتِنا الشرقيّة يلوحُ سرابُ انتحارٍ مِن نوعٍ آخر، لا نلتفتُ إلى أبعادِ مداه الأخطبوطيّ، أفلا تُعتبَرُ الهجرةُ أقسى حالاتِ الانتحارِ، بفقْدِ أهمِّ أعمدةِ المجتمعِ؛ عنصرُ الشبابِ المثقّفِ وقلبُه الخافق؟

الحياةُ لا تُحتَمَلُ.. سامحوني!

كحدائقَ حجريّةٍ تنتصبُ تذكاراتُ بعضِ الفنّانينَ محفوفةً بالمآسي، بعضُهم مَنِ اسْتلْهَمَ حياةً مُشرقةً في وجوهٍ أخفتْ خلفَ ابتساماتِها أنيابًا سامّةً، وبعضُهم من هاموا على وجوهِهم بينَ نجوميّةٍ حلوةٍ ضاحكةٍ وحقيقةٍ مُرّةٍ باكيةٍ، لا تلوي إلاّ على اكتئابٍ استلَّهُم من مأمنِهم، فدفعَهم اليأسُ للانتحارِ أو للقتل!

نجومٌ تداعتْ شفافيّتُها وانزلقتْ في هاويةِ الفضائح، ضجّتْ أصداؤُها بالتأويلاتِ والتحليلاتِ، لتخبوَ وتأفلَ في مستنقعاتٍ آسنةٍ بالشماتةِ والمهانةِ، أو بالغرابةِ وغوايةِ الأقاويل.

هل ما يجري هو انتحارُ فنّانينٍ، أم اغتيالُ شخصيّاتٍ فنّيّة بقتلِ أجسادِها وتاريخِها الفنّيّ؟

الرسّام الانطباعيُّ الهولنديُّ فان جوخ (30.3.1853- 29.7.1890)، كانتْ تصيبُهُ نوباتُ صرَعٍ، فقطعَ جزءًا مِن أذنِهِ اليسرى في إحداها، وقرّر وضْعَ يدِهِ على قمْعِ مصباحٍ زيتيٍّ ليحرقَ نفسَهُ متعمِّدًا قائلا: "اِجعلوني أراها قدْرَ ما أستطيعُ وضْعَ يدي في هذا اللهب".

وقد أرادَ رؤيةَ ابنةِ عمّهِ التي أحبّها ورفضتْهُ، فرسمَ 800 لوحةً زيتيّةً في السنواتِ الخمسِ الأخيرة، وتُباعُ لوحاتُهُ في مزاداتِ لندن وباريس بملايين الدولارات، وقد بيعت لوحتُهُ الشهيرةُ "زهور عبّاد الشمس" بستّين مليون دولار، ورغمَ أنّهُ احترفَ الفنّ وصارَ مِن أبرز الأسماءِ اللامعةِ عالميًّا في الفنّ التشكيليّ، إلاّ أنّ كلَّ ذلك لمْ يُحقّقْ لهُ السعادةَ التي كان يطلبُها ويتمنّاها، ووضعَ حدًّا لشقائِهِ الذي كانَ يُعانيهِ في العلاجِ النفسيّ، بأن أطلقَ النارَ على نفسِهِ قائلاً: "إنّ الحزنَ يدومُ إلى الأبد"، وماتَ بعدَ ذلك بيومَيْن، ووُضعتْ زهورُ عبّادِ الشمسِ التي كانَ يرسمُها على قبرِه.

أمّا الأسطورةُ مارلين مونرو نجمةُ السينما الأمريكيّة (1.7.1926- 5.8.1962)، المرأةُ الحلمُ ودميةُ أمريكا التواقةُ للإبهارِ والإغراء، كانتْ أغمارُها شهرةً عالميّةً ومجدًا سينمائيًّا تربّعتْ على عرْشِهِ سنينَ عديدةً، ودخلتِ البيتَ الأبيضَ مع جون كندي، ولا زالتْ تُباعُ صورُها بالملايين، لكنّها لم تكنْ سعيدةً وكانت مصابةً بنوباتِ قلقٍ شديدةٍ وكآبةٍ دائمةٍ، فأصيبتْ بالهستيريا وصَعقتِ العالمَ بانتحارِها مِن خلالِ تناولِها جرعةً زائدةً مِنَ الدواءِ وبجانبِها رسالةً:

"لديَّ إحساسٌ عميقٌ بأنّني لستُ حقيقةً تمامًا، بل إنّني زيفٌ مفتعلٌ ومصنوعٌ بمهارةٌ، وكلُّ إنسانٍ يُحسُّ في هذا العالم بهذا الإحساسِ بينَ وقتٍ وآخر، ولكنّي أعيشُ هذا الاحساسَ طيلةَ الوقتِ، بل أظنُّ أحيانًا أنّني لستُ إلاّ إنتاجًا سينمائيًّا فنّيًّا أتقنوا صُنعَهُ".

أمّا المغنّيةِ داليدا الفرنسيّة (17.1.1933- 3.5.1978)، فقد ذيّلتْ بهذه الكلماتِ رسالتَها الأخيرةَ التي وُجدتْ بجانبِ سريرِها المتلبِّدِ ببرودِ جثّتِها: "الحياةُ لا تُحْتَمَلُ.. سامحوني".

هي المولودةُ بالقاهرة، تألّقتْ وحقّقتْ شهرةً واسعةً بفرنسا، وحصدتِ الكثيرَ مِنَ الجوائزِ العالميّةِ، وغنّتْ بثماني لغاتٍ عن الحبِّ والجَمالِ والسلم، وقد حاولتِ الانتحارَ مرّتيْنِ بعدَ قتلِ

خطيبِها، إلاّ أنّها بعدما ضاقتْ بالحياةِ، حقّقتْ مرادَها اليائسَ بابتلاعِ كمّيّةٍ كبيرةٍ مِنَ الحُبوبِ المنوّمةِ، وكانَ سباتٌ على أسرّةِ الموتِ المثلّجةِ، ليستْ توقظُهُ ثروةُ الوجعِ المحموم!

لكن؛ أسرّةَ النارِ اللاهبةُ ألسِنتُها التهمتْ جسدَ "لؤي كيّالي"، ولمْ تُبقِ إلاّ على رمادِ فرشاةٍ عانقتْ لوحاتِهِ اليتيمةَ.

هو الفنّانُ التشكيليُّ السوريُّ (21.1.1934 – 26.12.1978)، الذي رسَمَ الطبيعةَ والمعاناةَ الإنسانيّةَ بلوحاتٍ زيتيّةٍ بديعةٍ، وحلّقَ بفنِّ البورتريه والكروكيه والرسْمِ بالفحمِ ونالَ الجوائزَ، غيرَ أنّهُ انهارَ ولمْ يصمدْ أمامَ هجماتِ الحُسّادِ الشرسةِ والحقدِ الحارقةِ، فاحترقَ بفِراشِهِ وظلّ بنوْمِهِ!

هل تألّقُ النجوميّةِ الحمراءِ مرهونةٌ بسجنِ التهديدِ والفضائحِ للشخصِ ولشبكةِ علاقاتِهِ المستترة؟

وها هي الأسطورةُ سعاد حسني (26.1.1943 -21.6.2001) تلقى حتفَها برمْيةِ لغز!

هل انتحرتْ بإلقاءِ نفسِها مِن شرفةِ شقّةِ صديقتِها نادية يسري، بالطابق السادسِ مِن بنايةِ ستيوارت تاور في لندن، بعدما عانتْ مِن اكتئابٍ شديدٍ عندَ قراءتِها قصّة تسوّلِها في لندن في إحدى الصحفِ المصريّة، إذ لم تكنْ تملكُ ثروةً للعلاجِ ولنفقاتِ المعيشةِ؟

هل ظلّ موتُ سندريلاّ الشاشةِ العربيّةِ لغزًا مشرَّعًا في أفقِ لندن الضبابيِّ والأوسطيّ، ما بينَ انتحارِها وما بينَ قتلِها، على خلفيّاتٍ متعدّدةٍ التأويل، من حيثُ تنصُّرِها وزواجِها السرّيّ، ومذكّراتها التي نوَتْ بيْعَها، وفيها ما فيها مِن فضائحَ على مستوى شبكاتٍ سياسيّة وأخرى مخفيّة!

أمّا Jang Ja Yeon (25.1.1980- 8.3.2009)، تلك الممثّلةُ الكوريّةُ جانغ جا يون وبالرغمِ مِن حصولِها على ثروةٍ طائلةٍ، وبالرغم من ظهورِها بشكلٍ بهيجٍ ومرحٍ ممتلئٍ بالحياة، إلاّ أنّها وبسببِ فقدانِها والديْها بحادثِ طرُقٍ لازمتْها حالةُ اكتئابٍ مزمنةٍ، وكانتْ تعاني مِن فوبيا ترْكِها وحدها، وازدادتْ زياراتُها للمستشفى لعلاجِ الاكتئاب، لكنّها اختارتْ يومَ المرأة العالمي 8-3-2009 تاريخًا لانتحارِها بالحبوبِ المنوّمة!

أمّا الممثّل الفنّان والموسيقار الكويتيّ دكتور أحمد عوض، والذي اشتهرَ بدوْر (محماس) في مسلسل (سوق المقاصيص)، الذي ضمّ نخبةً من فنّاني الكويت أبرزُهم عبد الحسين عبد الرضا، وسعد الفرج وعلي المفيدي، فقد عُثرَ عليه منتحرًا شنقًا في حمّام منزلِهِ، في شهر آذار 2009، نتيجةَ معاناتِهِ مِن اضطراباتٍ نفسيّةٍ بسببِ الديونِ المتراكمة.

ويليهِ الممثّلُ التركي"يامان تركان" (20.6.2009/1959)، الذي لعبَ دوْر حيدر بمسلسل "قصر الحُبّ" وأدوار أخرى بثمانية عشر مسلسلاً تلفزيونيًّا، ولكن بسببِ مرورِهِ بضائقةٍ ماليّةٍ وغيابِ مظلّةِ تأميناتٍ في حالةِ البطالةِ، وبسببِ عدمِ قدرتِهِ على دفعِ ثمنِ علاجِهِ للمستشفى، انتحرَ عن عمرٍ يناهز خمسينَ عامًا.

وها الفنّان الكوميدي والإذاعيّ الإسرائيليّ دودو طوباز (1947- 20.8.2009) تحوّلَ مِن إعلاميٍّ كبيرٍ إلى جنائيٍّ ومُعتَقل، بعد أن تمّ تقديمُ لائحةِ اتّهامٍ ضدّهُ، تنسبُ إليهِ النيابةُ العامّةُ مِن خلالِها تهَمَ محاولةِ إيذاءِ عددٍ مِن منافسيهِ الإذاعيّين، والتآمرِ على تنفيذِ أعمالٍ جنائيّةٍ ضدّهم بواسطةِ محترفي جرائم القتل، فحاولَ الانتحارَ في معتقل نيتسان في الرملة، بواسطةِ حقن نفسِهِ بكميّةٍ زائدةٍ مِن الإنسولين، لكنّه نُقلَ في حينِهِ إلى المستشفى، وبعدَ شفائِهِ أعيدَ إلى السجن، لكنه بتاريخ 20.8.2009 عاودَ الكرّةَ مرّةً ثانيةً بوضع حدٍّ لحياتِهِ شنقًا، وأنجزَ المهّمةَ بنجاحٍ بعدَ شهريْن مِن محاولتِهِ الأولى.

ولو دقّقنا وتنبهنا، لوجدنا أنّ معظمَ مَن انتحروا مِن هؤلاءِ الفنّانينَ هم مِن مواليد شهر يناير كانون الثاني، وأغلبهم انتحروا في شهر يونيو حزيران، فما سرّ هذيْن الشهريْن في بلورةِ وتركيبِ الشخصيّة وأهوائِها وحساسيّتها؟

هل الصيفُ باعثٌ قويٌّ على الانتحار، أو الدفع على الانتحار المفخخ، أم أنّ هناكَ ألاعيبَ فيما وراءَ الأكمةِ؟

كأنّي أُقْدِمُ على جنديّ أو شرطيّ؟ إنّما أُقْدِمُ على ربّ غفور!

بهذهِ الكلماتِ أسْلمَ الروحَ أبو حيّان التوحيديّ البغداديّ (923- 1023)، فكيفَ يكونُ مُلحِدًا وزنديقًا قائلُ هذهِ الكلماتِ؟

شيخُ الصوفيّةِ وفيلسوفُ الأدباءِ، عاشَ يتيمًا مكروهًا مِن عمِّهِ، وصارعَ شظفَ العيْش بطموحِهِ الواسعِ واعتدادِهِ الشديدِ بنفسِهِ، فامتهنَ حرفةَ الوراقةِ ونسْخ الكتب، ممّا أكسبَهُ درايةً واسعةً وروايةً لثقافةِ عصرِهِ، وقلَمًا سيّالاً يُبهرُ القارئ بحذاقةِ لغتِهِ الأنيقةِ، وتوظيفِها بلباقةٍ فيما يرمي إليه. لكنّهُ كانَ دائمًا ناقمًا على عصرِهِ يائسًا مِن مجتمعِهِ، بسببِ نارِ القدْحِ التي اتّهمتْهُ بالزندقةِ والإلحادِ، والتهمتْ نورَ مدْحِهِ، فعايشتْهُ الإحباطاتُ والإخفاقاتُ المتواصلةُ وتجاهُلُ المحيطينَ بهِ مِن أدباءَ ومؤرّخينَ ووزراء. لقد برَعَ في جزالةِ مؤلّفاتِهِ وتنوّعِها وتناوُلِها شتّى ميادينِ الحياةِ التي عاصرَها، بأسلوبٍ شيّقٍ مشحونٍ بفكرِهِ العميق، وتركَ إرثًا نفيسًا في مجالاتِ الأدبِ واللغويّاتِ والتصوّفِ والفلسفةِ والنوادرِ والأخبارِ السياسيّةِ والفكريّةِ والاجتماعيّةِ.

لكن؛ ومع كلّ إبداعاته، ما نظرتْ إليهِ عينٌ مُنصِفَةٌ، لأنّهُ كتَبَ بأسلوبٍ ساخرٍ فاضحٍ وناقِدٍ مُرٍّ، بعيدًا عن المُحسّناتِ البديعيّة، ممّا أثارَ حنَقَ الكثيرينِ مِن آرائِهِ ومواقِفِهِ، وقد تقلّبتْ عليهِ الأيّام والأعوامُ، ففرَّ إلى التصوّفِ عساهُ ينعَمُ بالعزاءِ والسكينةِ ويُخفّفُ مِن معاناتِهِ ومتاعبِهِ، وقالَ متحدّثًا عن نفسِهِ:

فلقد فقدتُ كلَّ مؤنِسٍ وصاحبٍ ومرافقٍ ومشفقٍ، ووالله لربّما صلّيتُ في الجامع فلا أرى مَن يُصلّي معي، فإنِ اتّفقَ فبقّالٌ أو عصّار، أو نذّافٌ أو قصّاب، ومَن إذا وقفَ إلى جانبي أسدرَني بصنانِهِ وأسكرَني بنتْنِهِ، فقد أمسيتُ غريبَ الحالِ غريبَ اللفظِ، غريبَ النحلةِ غريبَ الخلقِ، مُستأنِسًا بالوحشةِ قانِعًا بالوحدة، مُعتادًا للصمتِ مُلازِمًا للحيرة، مُحتمِلاً للأذى يائسًا مِن جميعِ مَن ترى"!

لقد بلغَ بهِ صراعُ الأضدادِ حدًّا عميقًا كادَ ينتهي بهِ إلى الانتحارِ، لكنّهُ لمْ يجرؤْ على الانتحارِ الجسديِّ، وإنّما انتحرَ أدبيًّا، إذ أنقذَهُ التصوّفُ وإيمانُهُ بشرفِ النفسِ الإنسانيّةِ، واعتقادُهُ الراسخُ بضرورةِ الانقيادِ للنفس الناطقةِ بدلاً مِن الصامتة، وعِوضًا عن ذلك، جسّدَ الانتحارَ في حياتِهِ بشكلٍ دراميٍّ، حين حوّلَ صدى فكرةِ الانتحارِ مِن نفسِهِ إلى كتبِهِ، فجمَعَها وأحرقَها بعدَما تجاوزَ التسعينَ مِن عمرِهِ، لأنّهُ لم يرَ في كُتبِهِ منفعةً عندَ مَن لا يعرفُ قدْرَها.

هل حقّا الشعراءُ والأدباءُ والفلاسفةُ هم شهودٌ على حضاراتِ وثقافاتِ عصورِهِم؟ وهل يكونُ يكونُ لهم آثارٌ واضحةٌ وبصماتٌ جليّةٌ على العصرِ نفسِهِ؟ وهل يكونُ لآثارِهِم صدى إيجابيّ في أزمنةٍ لاحقةٍ، تفيدُ البحْثَ والتنقيبَ والتحليلَ في شتّى مجالاتِهِ الثقافيّةِ؟ ألا يمكنُ أن يكونَ لشخصيّاتِهِم وغراباتِهِم وقعٌ سلبيٌّ في بلورةِ فكرٍ ما؟

أبو حيّان التوحيديّ هوَ نموذجٌ متميّزٌ مِنَ التراثِ القديمِ حولَ ظاهرةِ الانتحارِ، ولكن انتحارًا بشكلٍ مغاير، فهذا النمطُ يُدعى بالانتحارِ الغيْريّ أو الإيثاريّ، الذي أطلقَ مصطلحَهُ عالمُ

الاجتماع الفرنسيّ "إميل دوركهايم"، وأسوقُ أمثلةً لهذا النوع مِن الانتحارِ الإيثاريّ أو الغيريّ!

الفيلسوفُ الفرنسيُّ لويس التوسير، هو أحدُ معلّمي الفكرِ المعاصر، وصاحبُ المشروعِ المعروفِ لتجديدِ الماركسيّة، وقد مُنحَ درجةُ الدكتوراه على مُجمَلِ أبحاثِهِ كحدَثٍ جامعيٍّ فريدٍ، إلاّ أنّهُ اتُّهِمَ بأنّه أفسدَ الفلسفةَ الفرنسيّة، وفي سيرتِهِ التحليليّةِ والمُعلَنَةِ، تكلّمَ عن ثقافتِهِ الضحلة نسبيًّا لزملائِهِ، لأنّهُ لم يقرأ إلاّ القليل، وما عرفَ إلاّ سبينوزا وباسكال وأفلاطون، بينما زملاؤُهُ تفوّقوا عليه ثقافةً، فقرؤوا هيغل وكانت وهيديغر وهوسرل والوضعيّين المنطقيّين والقائمة طويل، ونتيجةً لنوباتِ الكآبةِ وعزلتِهِ الطويلةِ، فقد أدّتْ بهِ إلى مأساةٍ دفعتْهُ إلى خنْقِ زوجتِهِ هيلين وقتلِ مَن أحبَّ، ليحميَها مِنَ الآلامِ التي كان يُقاسي منها، لأنّهُ لم يجرؤْ على قتلِ نفسِهِ!

أمّا الشاعر جوته الذي طالما راودَتْهُ فكرةُ الانتحارِ في نزوعِهِ الشديدِ إليها، فقد تغلّبَ على فكرةِ الانتحارِ مِن خلالِ شخصيّةِ فيرتر المختلَقةِ في روايتِهِ المشهورةِ "آلام فيرتر"، كما استطاعَ أن يتغلّبَ على حبِّهِ البائسِ اليائسِ لحبيبتِهِ شارلوته كستنر سنة 1774، مُتخطّيًا بذلكَ آلامَهُ بوصفٍ شنيعٍ. لكن؛ وللأسفِ تحوّلتِ الروايةُ إلى كتابِ مرشدٍ عصريٍّ للانتحارِ، ممّا حدا بالسلطاتِ الحكوميّةِ والمؤسّساتِ الكنسيّةِ منعَ تداولِهِ أو ترجمتِهِ، فأقدَمَ الأسقفُ مايلاند على شراءِ جميع النسخ المترجَمةِ للغةِ الإيطاليّة، وكذلكَ وليُّ عهدِ الدنمارك منَعَ ترجمةَ الكتابِ واسع الانتشارِ في بلادِهِ، لكن، كانَ كلُّ ذلكَ قد تمَّ بعدَ فواتِ الأوان، وقد انتشرَ كتابُ جوته، واتّسعتْ موجةُ انتحارِ القرّاءِ بدلاً مِن انتحارِ الشاعر!

ولكن جان بول سارتر الفيلسوفُ الفرنسيُّ (1905 – 1980)، فقد كانَ روائيًّا وكاتبًا مسرحيًّا وكاتبَ سيناريو، وناقدًا أدبيًّا وناشطًا سياسيًّا، وهو صاحبُ المقولةِ الشهيرةِ "السلامُ هو الحرّيّة"، وهو صاحبُ النظريّةِ الوجوديّةِ حولَ أهمّيّةِ وجودِ الإنسانِ، وأهمّيّةِ هذا الوجودِ عندَ تحديدِ أهدافِهِ وغاياتِهِ، وذلكَ مِن خلالِ كتابِهِ الشهيرِ "الكون والعدم" عام 1943، حولَ علاقةِ الفرْدِ بنفسِهِ وبالمجتمعِ وبالكوْن، وبأهمّيّةِ إدراكِ الحرّيّةِ واستخدامِها بشكلٍ صحيحٍ ونافعٍ، كي ينتقلَ مِنَ العدمِ واللاشيء إلى كائنٍ حيٍّ، وإلى مشروعٍ لهُ قيمتُهُ المميّزة.

كانَ مناصِرًا لحرّيّةِ الإنسانِ ومدافِعًا عن حقِّهِ في الحياةِ الكريمةِ، وقد أثارتْ فلسفتُهُ الوجوديّةُ جدَلاً، ومُنح جائزة نوبل، لِما كانَ لهُ مِن تأثيرٍ كبيرٍ على الوسطِ السياسيِّ والثقافيِّ الغربيِّ والعربيِّ في تلك الفترة، وفي صناعةِ الفِكرِ الغربيِّ في الشرق، إلاّ أنّ تقلّباتِهِ الفكريّةَ اللاحقةَ، ومواقفَهُ مِن قضايا العالم وثوْراتِ الشعوبِ، أخذتْ تُظهِرُ الغموضَ الذي يكتنفُ شخصيّتَهُ، وبسببِ شعورِهِ بالخواءِ الروحيّ، جعلَ يقتلُ الوجوديّةَ بتنكّرِهِ لها، كما قتلتْهُ الوجوديّةُ روحيًّا، وكانَ انتقامُ سارتر مِنَ الوجوديّةِ انتقامًا ثأريًّا، وقد جاءَ انتحارُ سارتر الفكريُّ قبلَ رحيلِهِ، فتنكّرَ للوهْمِ ورؤيا للحقيقةِ المتجسّدةِ بالإيمان بالخالقِ نسْفًا للوجوديّة، وانتحارًا للفكرةِ التي مضى على الاشتغالِ بها كلَّ عمرِهِ!

أخيرًا.. هل كانَتِ إبداعاتُهم بوعيٍ تامٍّ وإيمان وإدراكٍ للنفسِ والمجتمعِ، أم أنّ الأمرَ نوعٌ من الفانتازيا الآنيّةِ، مِن أجلِ إرواءِ متعةِ التأليفِ لديهم؟

هل في انتحارِ الأغنياءِ عزاءٌ للفقراء؟

المالُ هذا الواحةُ للعيش الرغيدِ، ومرتعُ الهناءِ والحُبورِ لأحلام البَشر، قد يكونُ مصدرَ سعادةٍ روحيّةٍ تُعزّزُ النفسَ وتمنعُ عنها العوَزَ والذلّ، وقد يكونُ عِلّةَ النفوس الهَشّةِ، مَن تنفقُ الأموالَ وتُبذّرُها بدون حساب وبغير نفع، بل في أمورٍ قد تكونُ ضارّةً على الغالب، كالسُّكْرِ وتعاطي المخدّرات والملاهي، فهل يأتي المالُ مِن خلالِ الحظوظِ والإرث، أم يحتاجُ إلى مجهودٍ أخلاقيٍّ في جمْعِهِ واستثمارِهِ؟ وماذا عمّن يَخزنونَ أموالَهم في صناديقَ، فلا يستغلّونَها في تكريمِ حياتِهم، بل يعيشونَ التقشّفَ والفقر؟

نُشرَ في صحيفةِ نجم تورنتو اليوميّة، قصّةَ السيّد تشابمان الذي ماتَ فقيرًا، وحيدًا بينَ صناديق أموالِهِ، وكانَ يُزاولُ عملَهُ الشاقّ في جمْع القمامة! لماذا اختارَ الاحتفاظَ بأكثرَ مِن مئة ألف دولار في صناديقِهِ القديمةِ، وهو في أمَسِّ الحاجةِ لها؟ وعلى شاكلتِه كثيرونَ مَنْ كنزوا مالاً "حيثُ السوسُ والصدأ، وحيثُ يَنهبُ الناهبون ويَسرقون"، فهل تشفّعتْ لهم كنوزُهم، ليعيشوا أسيادًا سُعَداءَ بحياةٍ متوازنةٍ وصحّيّةٍ، أم أنّ المالَ استعبَدَهُم فخدموهُ، وأهلكَهم حينَ خذلَهُم؟

ها هو تشارلز شواب؛ أحد أثرى أثرياءِ الولاياتِ المتّحدةِ، وُلد عام 1937 في كاليفورنيا، واضطرَّ للانخراطِ في العملِ في سنٍّ صغيرةٍ، حيثُ كانَ يعملُ في مجالِ تربيةِ الدواجنِ وبيْعِ المُثلّجاتِ وتعبئة المُكسّرات، وقيادةِ الجرّاراتِ والعملِ في سكّةِ الحديد، وفي عام 2004 تقرّرَ تعيينُهُ رئيسًا تنفيذيًّا لشركةٍ استثماريّة، مُعزِّزًا الأداءَ والنموَّ للشركة، لتصلَ أصولُ العملاء الى 1.2 تريليون عام 2006، لكن؛ في قضيّتِهِ ضدّ أبنر لويما، والاعتداءِ عليه بمساعدةِ الشرطيِّ جوستن فلوب، ووضْعِ عصا في دبرِ لويما وتأذيتِهِ الشنيعة، كانَ للمظاهراتِ الجماهيريّةِ صدًى غاضبًا وناقمًا عليه، مُطالبًا بمحاكمتِهِ عام 1997، والحُكم عليه بخمس سنواتٍ بالسجن، فعاش نهايةَ إفلاسِهِ على أموالِ القروضِ ومحاولةِ الانتحار!

وفي غمرةٍ منَ الذهولِ والقنوطِ، نحنُ الخاشعونَ تحتَ سمواتِ الفقرِ والضيقِ، نتذمّرُ ولا نشكرُ النعمةَ الإلهيّةَ المتواضعةَ، ونظلُّ نَحلمُ بقصورٍ أرضيّةٍ ونتأفّفُ، فلا نجدُ إلاّ عكّازَ الإحباطِ نتوكّأ عليه، أو نجدُ منّا بعضُ أدواتٍ متحرّكةٍ تلهثُ خلفَ رضا الأثرياءِ يُغبّطُهُم، ليطولَهم بعضُ فتاتٍ، أو نرى مَن يَحسدُهم ويتربّصُ بفرصةٍ سانحةٍ لاقتناصِهم والشماتةِ بسقوطِهم، ونشهدُ بعضَ العاجزينَ مَن خانتْهم الحيلةُ في النجاح بالتقرّبِ من مَعبدِ المال، الذي لا يُغني مِن ضنكٍ أو فقرٍ أو حالٍ بسيط، لكنّهُ يغنيهُم بالضيقِ والحُزنِ والاكتئاب! فهل المالُ هو نعيمُ الدنيا، حيثُ تتجلّى فيه مقوّماتُ السعادةِ الدنيويّة؟

تتسابقُ الأفكارُ جامحةً في أخيلتِها، ترسمُ صورًا، وتنقشُ تماثيلَ لأولئكَ الطافينَ على نبعٍ مِنَ الثراءِ والغِنى، مَن وُلدوا ومَلاعقَ ذهبيّةً في أفواهِهم، أو مَن اجتهدوا وجَمعوا ثرواتٍ تكفي بلادًا، فكأنّ النعمةَ المادّيّةَ هي ربٌّ آخرُ وأعظمُ، يُهلّلُونَ لهُ ويركعُونَ انتحارًا، حينَ يَخذلُ آفاقَهم غيرَ المحدودة، فلا تُجدي العَبَراتُ في التطهُّرِ، ولا العِبْراتُ في التكبُّر! لكن؛ هل يشعرُ الأغنياءُ بالغبطةِ والفرحِ والرضا في جميعِ أوقاتِهم واختياراتِهم؟

بضجيجٍ عارمٍ طالعتْنا وسائلُ الإعلام، تزُجُّ بصريرٍ مترنّحٍ اسمَ أحمد عادل شويحنة؛ رجلُ الأعمالِ السوريّ، والبالغُ الخمسين مِن عمرِهِ، إثرَ خسارتِهِ مبلغَ 250 مليون دولار على مدى تتالي سنواتٍ أربع ماضية، فحَطّتْ سحابةٌ ثقيلةٌ محمّلة بمعاناةٍ قاتمةٍ على كبريائِهِ ألزمَتْهُ البيتَ، وجعلتْهُ رهينَ أزمةٍ نفسيّةٍ، عاجزًا عن تحمّلِ الآثارِ المادّيّة والمعنويّة أمام أسرَتِهِ وعائلتِه والمجتمع، فما كان مِن رصاصةِ مسدّسِهِ المتعطّشِ لروحِهِ اليائسةِ، إلاّ أن تهوي به صريعًا بمدينةِ حلب، في ديسمبر 12/ 2009 نهايةَ العام المنصرم، ويَخرُّ منتحِرًا!

كيفَ نفسّرُ ظاهرةَ انتحارِ الأغنياءِ وظروفَها الغامضة؟ ما هي دوافعُهُ الحقيقيّة؟ الكبرياء؟ الانهزام؟ أم....؟ بومضةٍ سريعةٍ كرّتْ للخلف عشرون عاما، تستحضرُ أغربَ خبرٍ هزّ الأوساطَ الإعلاميّةَ في نهايةِ عام 1988، وذلك انتحارُ "كريستينان أوناسيس"؛ الوريثة الوحيدة لكلِّ ثروةِ أبيها الملياردير اليونانيّ "أوناسيس"، صاحبِ الجزرِ والأساطيلِ البحريّةِ والطائراتِ والملياردات، والذي يُعدُّ مِن أكبرِ أثرياءِ العالم.

كانتْ كريستيان مِن الأسماءِ اللامعة، إلاّ أنّ ذلك الثراءَ والمجدَ لم يحقّقْ لها السعادةَ الّتي تبحثُ عنها، بعدما تزوّجتْ عددًا مِنَ المرّات، وسئمتْ حياةَ الترف والثروة، فانتقلتْ لتعيش مع زوجها الشيوعي في منزل بسيطٍ في أحدِ أحياءِ موسكو الفقيرة، لكنّ الفشلَ لاحقَها في هذا الزواج أيضًا، وأصيبتْ باكتئابٍ مزمنٍ وحزنٍ مرَضيٍّ متواصل، ولم تستطع الثروةُ أن تحقّقَ لها أبسط معاني السعادة الإنسانيّة، ولا أقلّ درجاتِ الطمأنينة، فوُجدتْ منتحرةً على أحدِ السواحلِ الأرجنتينيّة، بعدما ابتلعتْ عددًا كبيرًا من الحبوبِ المنوّمة، وكانتْ في السابعةِ والثلاثين آنذاك.

هل عبادةُ المالِ هو شكلٌ من أشكالِ تعبيدِ دربِ الانتحار؟ لماذا ينتهي المليونير العالميّ ملكُ الألماس في أمريكا بطلقةٍ من مُسدّسِهِ، وهو مِن أغنى الأغنياءِ في العالم؟ ولماذا ينتحرُ المليونير ملك الشخاط إيفار كروجر؛ رئيسُ أكبرِ احتكارٍ فى العالم، وهو في قمّةِ مجْدِهِ وقوّتِهِ؟ ألم يُحقّقوا جميع شهواتِهم وأحلامِهم مِن مباهجِ الحياةِ ونعيمِ الدنيا؟ هل فقدانُ المالِ يؤثّرُ على الذهن بدرجةٍ هائلةٍ، تودي بالنفسِ إلى الهلاكِ؟ متى؟ وأيّ النفوس؟

ها المليونير الأمريكي جيسي ليفرمور؛ واضع كتاب "ذكريات أحد العاملين في الأسهم"؛ أشهر الكتبِ وأكثرها قيمةً في فنون المُضاربةِ والتعاملِ معَ الأسواق الماليّةِ، شقَّ دربَهُ في سوقِ الأوراقِ الماليّةِ بطريقةٍ غيرِ قانونيّةٍ، ومعَ شركاتِ وساطةٍ غير مرخّصةٍ، تُعرَفُ باسمِ بوكر وأوكارِ القمار، فيضطرُّ لاستخدامِ أسماءَ مستعارة للهروبِ من أعدائِهِ، وبعدما حقّقَ ثروةً ضخمةً بملايين الدولاراتِ، وبطُرُقٍ غيرِ قانونيّةٍ وإشاعاتٍ وتزويرٍ وخديعةٍ، تأتي نيرانُ صفقةٍ خاسرةٍ عليها، فتلتهمُها وتقبضُ على أنفاسِهِ الهاربةِ انتحارًا برصاصةٍ، في فنادقِ نيويورك عن عمرٍ يناهز 63 عامًا.

وأخيرا؛ كيفَ يمكنُ استثمارُ المالِ بطُرُقٍ أمثلَ وأجدى، لصالحِ النفسِ البشريّةِ والبلدِ والإنسانيّة، ولصالحِ الطبيعةِ والجَمالِ والسِّلم؟ هل يتحقّقُ السؤالُ، أم يظلُّ طيفَ حُلُمٍ يغفو في عيْنِ الجَواب؟

لماذا ينتحرُ الزعماءُ العظماء!

تعدّدتْ الأشكالُ والأسبابُ والألوانُ، وظلَّ الموتُ يحملُ صبغةً واحدةً هي الموت!

كثيرونَ مِن المُعْدَمين الفقراء وهم الأحياءُ المعدومونَ بسياطِ الحياةِ ومواجعِها، ممّنْ ينسحبونَ مِنَ الحياةِ التي ليستْ بحياة، لا تأتي على احتوائِهم ذاكرةُ الرثاء، ويبقوْنَ مجرّدَ أرقامٍ تتداولُها مؤسّساتُ البحوثِ والإحصاءِ، أو يظلّون نكراتٍ في عالمِ الإنكار شأنَ مَن لا شأنَ له، وما أكثرَهم وما أرحبَ شرائحَهم المثقوبة بالفقرِ والذلّ، والمُرتّقة بأملٍ بعيدٍ ينوسُ في ضبابِ الأفقِ الهاربِ الذي لا يأتي.

لكن، وما أن يموتَ زعيمٌ أو أحدُ العظماءِ على فراشِ المرضِ أو الهَرم أو الخرَفِ، فالأمرُ يمضي مغايرًا إعلاميًّا، مغموسًا بنبعِ دمعٍ لايجفُّ، وحدادٍ شعبيٍّ ملوّنٍ بمناديل الحزنِ لأيّام وشهور، ثمّ تقومُ مِن بَعدِهِ مهرجاناتٌ وعمَاراتٌ تحملُ اسمَهُ وريْعَهُ، ليَحصدَ أمجادًا أرضيّةً في حياتِهِ وذكرى لا تخبو حتّى في مماتِهِ!

أمّا وأن يُقتلَ زعماء، فالويلُ لحاضرٍ يتشرذمُ، ثمَّ الويلُ لمستقبلٍ تعُمُّهُ فوضى الضياعِ والانشطارِ مِن بعْدِهِ بينَ أبناءِ البلدِ الواحد، فيضيعُ الزعيمُ المقتولُ بينَ البطولةِ والشماتةِ، وبينَ النقمةِ عليه والترحّمِ على أيّامِه، كما حدثَ تمامًا مع صدّام حسين وياسر عرفات دون ألقاب، كي لا يُؤخذَ على كلامي موقفًا مِن مُعادٍ أو مُحايدٍ أو مُعاضدٍ.

لكن ماذا عن سياسيّين وزعماءَ وملوكٍ وحزبيّينَ ينتحرونَ في لحظةِ حسْمِ انتصارٍ أو انكسار؟

هل يكونُ في نبْشِ سِيَرِهم إقلاقًا لراحاتِهم الأبديّة، أم هروبًا مِن مواجهةِ مرارةِ الحقيقةِ وشُرْبِ كأسِ العلقم، أم ....؟

وهل فكرةُ الانتحارِ هذه مستجدّةٌ أم قديمةٌ متوارثةٌ منذُ أزلِ التاريخ؟

وهل الانتحارُ هاجسٌ يُلازمُ الزعماءَ في جميع لحظاتِ حياتِهم؟

ها هو الملك مثير يادس (132-63 ق.م) يخاف الموتَ مسمومًا بأيدي أعدائِهِ، فيطلبُ مِن خادمِهِ وضعَ القليلِ مِن السمومِ في طعامِهِ تدريجيًّا ليعتادَ جسمُهُ عليه، وحين قرّرَ الانتحارَ مسمومًا لم يمُتْ، فطلبَ إلى أحدِ حرّاسِهِ أن يدقّ رأسَهُ بحَجر !

أمّا الملكةُ بوديسا ملكةُ إنجلترا وقبل قرنيْن مِنَ الزمان، فقد قادتْ تمرّدًا عنيفًا مُقاومًا للامبراطوريّةِ الرومانيّة، وحينَ فشلتْ في تحقيقِ الحرّيّةِ لشعبِها تناولتِ السمَّ بيدِها، وفَرَّتْ إلى الموتِ برِجْليْها!

أمّا هانيبال الأسطورة القرطاجي/ الليبي وأعظمُ القادةِ العسكريّينَ في التاريخ ما بين (221-183 ق. م)، فقد كان بارعًا بالتكتيكِ العسكريّ والتخطيطِ في مواجهةِ الامبراطوريّةِ الرومانيّة، ولكن حينَ أيقنَ بحتميّةِ وقوعِهِ أسيرًا، تعلّقَ بحرّيّتِهِ وآثرَ الانتحارَ رفضًا للإهانة!

وها مارك أنطوني القائد الرومانيّ وعشيقُ كليوباترا، يحاولُ التصدّي لقوّات أوكتافيانوس قيصر روما الجديد، التي وصلتْ إلى مشارفِ الإسكندريّة في صيف عام 30 ق.م، وحين ذهبتْ جهودُهُ سدًى، وبلَغَهُ كذبًا موتُ كليوباترا، ففضّل الموتَ على الحياةِ بتناول السمّ، ليتلوهُ انتحارُ الملكة الفرعونيّة كليوباترا بالأفعى السامّة، بعدَ سماعِها خبرَ انتحارِ حبيبِها أنطونيوس!

لماذا ينتحرانِ في نفس التوقيتِ؟ أهو حزنٌ على حبِّهما أم وفاء؟

أهو شكلٌ من التواري عن الهزيمةِ العسكريّة والفضيحة وخوفًا منَ الأسْر والمشي بالأكبال بالحديد في مواكب النصر الرومانيّ؟

أمّا نيرون إمبراطور الإمبراطوريّة الرومانيّة عام (27 – 68)، فقد كثرتِ المؤامراتُ والاغتيالاتُ السياسيّة، وكانتْ أمُّهُ "أجريبينا" إحدى ضحاياه فماتتْ وهي تلعنُه، وقتل "أوكتافيا" زوجتَهُ بالصولجانِ أثناءَ أدائِهِ مسرحيّة، وأشهرُ جرائمِهِ إحراقُ روما عام 64 م، مشيرًا بإصبع الاتّهام إلى المسيحيّين، وليتحوّلَ إلى اضطهادِهم وتعذيبهم بوحشيّة، فعمّ الإفلاسُ والفوضى لكثرة الحروبِ الأهليّة، وصار نيرون عدوَّ الشعب، ولا يسعُهُ حينذاك، إلاّ أن يدسَّ خنجرًا مسمومًا في معدتِهِ!

الزبّاءُ ملكة الجزيرة وقنسرين حين وقعت في أيدي قصير وعمرو، وكانتْ جميلةً حكيمةً حازمة، فعزمتْ على الثأر مِن قاتل أبيها ودعتْ جذيمة إلى قصرِها، فنصَحَهُ قصير بن سعد بعدم الثقةِ بدعوتِها، لكنّهُ لم يُبالِ بالنصيحة، فقبضتْ عليهِ وقطعتْ "راهشيه" ليهلكَ نزفًا. ويصمّمُ عمرو بن عدي على الثأر منها، فاحتال الداهية قصير بن سعد من حاشيةِ جذيمة ومِن رجال عمرو بن عدي بجدع أنفِهِ وقطع أذنيْهِ، وقصدَ الزبّاءَ شاكيًا، زاعمًا أنّ عمرو بن عدي فعل هذا، وحين أمنته، قام بإدخال جنود عمرو بن عدي في "جوالق" محمولة على الجِمال واحتلّوا مدينتها، وحينَ وصلَ إليها عمرو بن عدي، مصّتِ السمَّ الذي تحتفظ بهِ في أحدِ خواتمِها قائلة: "بيدي.. لا بيد ابن عدي"، مؤْثِرةً بذلكَ أن تنتحرَ على أن يقتلَها عمرو!

أما أدولف هتلر السياسي الألماني النازي المولود في النمسا (1889 – 1945)، وزعيم حزب العمال الاشتراكي الوطني، فقد تميز بكاريزما فذة في إلقاء الخطب، والذي اختارته مجلّة تايم واحدًا مِن مائةِ شخصيّةٍ تركتْ أثرًا كبيرًا في تاريخِ البشريّة، في معاداةِ الساميّة والشيوعيّة، والعمل على إرساءِ دعائم نظامٍ تحكمُهُ النزعةُ الفاشيّةُ الدكتاتوريّة، مِن أجل رخاءِ ألمانيا، لكن، وفي الحربِ العالميّةِ الثانيّة تمكّنتْ جيوشُ الحلفاءِ مِن اجتياحِ ألمانيا مِن جميع جوانبِها، ممّا اضطرّ أدولف هتلر وزوجتُه إيفا براون إلى الانتحار!

وأخيرًا.. هل لانتحارِ العظماءِ فلسفةٌ شرَخَها الفشلُ في متابعةِ ومزاولةِ مهامّ مارسوها مِن قبل.. أم .....؟

أجهزة مانعة للتحرّش الجنسيّ!

تنتشرُ أخبارٌ كثيرة حولَ تحرّشاتٍ جنسيّةٍ في الأماكن العامّةِ والخاصّة، دون وجلٍ ودون روادعَ أمنيّةٍ أو أخلاقيّةٍ أو دينيّةٍ لهذه الآفةِ المُشينة.

مَن المسؤولُ عن تفاقم انتشارِ ظاهرةِ التحرّشِ الجنسيّ في مجتمعاتِنا؟ أهي الأنثى، أم الذكر، الأسرة أم المجتمع؟ وهل السافراتُ والمُتبرّجاتُ وحدهُنّ مَن يتعرّضنَ للتحرّش الجنسيّ؟ وماذا بشأن المتستّراتِ والمُتحجّبات؟ ما أسبابُ ازديادِ انتشارِ ظاهرة التحرّش الجنسيّ هذهِ الأيّام؟ هل بسبب البطالةِ والظروفِ الاقتصاديّةِ الصّعبة؟ بسبب أزمةِ تأخّرِ الزواج وغلاءِ المهور والشققِ السكنيّة؟ بسببِ خللٍ أمنيّ منقوصٍ في الشوارع والمناسبات والأعياد، أم لخللٍ منقوصٍ في الإضاءة والتنوير؟

هل تفتقرُ بلادنا إلى الطاقةِ الكهربائيّة لإنارةِ الشوارع والأماكن المشبوهة؟ أم تفتقرُ بلادنا إلى رجال شرطةٍ ورجال أمن يُزوّدون بهم الشوارع والمؤسّسات والأماكن العامّة، ليضفوا على آهليها وعابريها أمنًا وأمانا؟ هل تفتقر بلادنا لكنائس ومساجد ودور عبادة ومؤسّسات تربويّة لتهذيب الأخلاق؟

هل بسبب الانفتاح المفاجئ على العالم الخارجيّ وتقنيّاتِهِ الإلكترونيّةِ والفضائيّةِ، دون تهيئةِ الظروف والمجتمع لتنميةِ ورعايةِ هذا الجديد بطرقٍ سليمةٍ ووقاية فاعلة إيجابيّةٍ في المجتمع؟ ثمّ.. هل فئة المُتحرّشين الجنسيّين تقتصرُ على فئةٍ عمريّةٍ مُحدّدةٍ مِن مراهقين وشباب صغار، أم على فئة مِن الذكور، أم من الإناث، أم من كلا الجنسيْن، في ظلّ انتشار المثليّة والسحاقيّة؟ هل فئة المتحرشين تقتصر على فئةٍ فقيرةٍ مُعدمةٍ وغير مثقفة، أم على فئةٍ لا تتمتع باختلاطِ الجنسين؟ وهل سلوكُ المتحرّش الجنسيّ يعكسُ الفردَ نفسه، أم يعكس بيئته ومجتمعه؟

سلسلةٌ طويلة من الأسئلة تُطرحَ حولَ أنواع وأسباب التحرّش، ولكن ما من إجابةٍ قاطعةٍ فاصلةٍ تمامًا في خضمّ المبرّرات التي يساهمُ المجتمعُ في خلقِها بدلاً مِن علاجها.

وعلى مدارِ الشهور في الآونةِ الأخيرة ومع الانفلاتات والانقلابات والثورات والهمهمات السياسيّة في دولنا العربية، فجأة ظهرت تقنيّاتٌ جديدة وعديدة واسعة الاستعمال، مِن أجلِ مواجهةِ ومحاربةِ التحرّش الجنسيّ والحماية مِن التضرّر، فهناك مَن يراهنُ على نجاعتِها كليًّا أو جزئيًّا، وهناك مَن ينفي نجاعتَها في بيئة تغلبُ فيها الأميّة، لأنّ استخدامَ معظم هذه التقنيّات يحتاجُ إلى معرفةٍ وثقافةٍ وقراءة كمثل المحمول والنت، وعبْرَ إرسال إشاراتِ استغاثةٍ لكمبيوترٍ مركزيّ، يردّ بدوْرِهِ بإرشاداتٍ للمساعدة، وتزويدٍ بخارطةٍ يمكن مِن خلالها تفادي شوارع وأماكن تكثرُ فيها حوادث التحرّش.

كما أنّ الحكومةَ الأوغنديّة تعهّدت بمنْحِ الفتياتِ بخّاخاتٍ مجانيّة مِن رذاذِ الفلفلِ الحارّ، من سِن 15 - 18 عامًا للحماية مِنَ التحرّش الجنسيّ والاعتداء، وللنساءِ بين 18 و30 عامًا لتجنّبِ خطرِ الاغتصاب، وتدريبِهنّ بكيفيّةِ استخدامِ هذا السلاح الذي يَحرقُ عيونَ المُعتدينَ

ويُشغلُهم بآلامِهم، وبذلكَ تفلتُ الضحيّةُ مِن الاعتداء! فهل البخاخات هي سلاحٌ قانونيٌّ قد يخدمُ المجتمعَات بشكل فعلي في جميع أنحاءِ العالم للدفاعِ عن النفس وفي كلّ وقت؟

جلست على الكنبةِ مهمومةً حائرة، وصوتٌ مِن بعيدٍ يسألها: هل تشعرينَ بالخوفِ عندَ خروجك للشارع؟ هل تحدث لكِ مشاكل عندَ خروجك؟ هل يُضايقكِ ما تسمعينَهُ مِن المعاكسين لكِ؟ بسيطة.. الدلّوعة للتسويق التلفزيونيّ تقدّمُ لكِ الحلّ؛ مانع التحرّش تضعينَه تحتَ ملابسكِ وتمضين دون خوف. وأختنا بالله تنتفضُ مِن على الكنبةِ فرحة بهذا الحلّ، ويغمرها الفرح، وتنقلبُ معنويّاتها 180 درجة، ومن حالةِ الرعب تمضي بثقةٍ، تتسكّع في الشارع، تمشي وتتمايلُ بطريقةٍ خليعةٍ بملابسِها المثيرة لاجتذابِ واستقطاب فضوليّين مِن شباب تسري في عروقهم رغبة جنسيّة جامحة، وتؤدّي دورَها التمثيليّ لدعاية دلوعة التسويقيّة!

نعم، بحوزتها ما يحميها الآن، دلوعة تقدّم الحلّ، "مانع التحرّش الجنسيّ"، جهاز مربع الشكل تضعينَه داخل ملابسك، يُمتّعكِ بالأمان، ويُشعِرُ المُتحرّش بالصداع الشديد إذا اقتربَ منكِ، وبالهالة الكهرومغناطيسية تُشلّ يدَهُ فيما لو حاول لمْسَكِ، وسماعة إضافيّة تمنعُكِ مِن الاستماع لبذاءاتِ المتحرّشين، وبإمكان هذا الجهاز أن يصعق 15 مُعاكسًا في لحظةٍ واحدة. ولا ننسى... إضافة لكلّ ما ورد، فالجهاز صاعقٌ للناموس والحشرات! فهل بلغ وصف المتحرشين الجنسيّين بالحشرات والناموس بشكل يُسيء لكينونتِهم وإنسانيّتهم؟

قد يبدو العنوان طريفا يدعو لاستكشافِ الأمر كما حدث معي، وبسرعة هرولت إلى اليوتيوب لأعاينَ آخر الابتكاراتِ المضادّة للتحرّش الجنسيّ، وحبُّ استطلاعي أثارَ بي من الاستفزاز ما أثار من الاشمئزاز، أمامَ كرامة أنثى يُلطّخُ بها بطريقة تجاريّة، تُسفّهُ الأنثى كانت مَن تكون بفِكرِها وبطريقةِ مشيتِها بشكلٍ ساخر، كأنّما يُحمّلها مسؤوليّة جرائمِها الأخلاقيّة، ويُظهرُها بصورةِ مُدانةٍ تستحقّ العقابَ والشماتة! والأنكى، أنّ مَن تُسارع بشراءِ هذا الجهاز الذي ثمنه 99 جنيه، ستحصل على فستان مِن أشهر الماركات العالميّة، فستان في قمة الإغراء والإغواء!

لماذا توضع الأنثى بين شفرات التناقضات؟ كيف نقتنعُ بفكرةٍ نناصرُها، وهذه الفكرة تحملُ في طيّاتِها مِن التناقضاتِ ما يُكفّرُ بالمرأة وبكينونتها البشرية والإنسانيّة؟ هل التغلب على ظاهرة التحرّش الجنسيّ يستوجبُ التزوّد بتقنيّاتٍ وبشراءِ أجهزةٍ للدفاع عن النفس وحمايتها مِن المتحرّشين؟ هل تحتاجُ الأنثى إلى التسلّحِ بأدواتٍ مضادّةٍ للتحرّش الجنسيّ؛ مِن بخّاخاتٍ ولاسعاتٍ كهربائيّةٍ وتقنيّاتٍ أخرى، وكأنّ لغة الغاب صارت لغة بلدانِنا في غياب القانون والأمن والأمان؟ وهل يخافُ المتحرّشُ من هذه التقنيّات أمام رغباتِهِ الجنسيّة المتأججة، أم أنّها تغدو عديمة الجدوى مع الوقت، إذ يتمكّن المُتحرّشُ مِن التغلب على هذه التقنيّة بتقنيّاتٍ أخرى ساحقة ومضادّة؟ هل نحتاجُ إلى لغةِ ترهيبٍ وتخويفٍ ووعيد، أم إلى تعديلِ السلوكِ والروادع الذاتيّة مِن تربيةٍ ومؤسّساتٍ تعليميّةٍ ودينيّة، ودينٍ وأخلاقيّات، واحترام العادات والتقاليد والإنسان داخلَ وخارجَ بيتِه، وفي كلّ مكانٍ؟

وأخيرًا.. أين دوْرُ الأمن والقانون والتربيةِ والتوعيةِ والتثقيفِ في الأسْرةِ والمؤسّساتِ التعليميّةِ والدينيّة، لتهذيب سلوك الفرد واحترام المجتمع، وكيفيّة اللبس والنظر والابتسام والمشي؟

شاهدةٌ هاربةٌ مِن سِلكِ المتسوّلاتِ!

كيف أصلُ إلى تلكَ القريةِ النائيةِ المرابطةِ على حدودِ الضفّة؟ الفرصةُ لا تُفوَّتُ.. نعم، لكن كيفَ السبيل إليها؟ هناكَ سيّارةٌ خاصّةٌ بالموظّفاتِ، تصلُ قريبًا مِن مكانِ عملِكِ، يمكنُكِ الاستفسار والحجز لسنةٍ كاملة. ما أعذبَكَ ربّي، تُسهّلُ أمرَ يافعةٍ تتقمّزُ حلمًا لمزاولةِ مهنتِها بعدَ تخرُّجِها!

كانَ المكانُ بانتظارِها، محجوزًا بالقربِ مِنَ السائقِ في سيّارةِ الموظّفاتِ، وباقي الموظّفاتِ كنّ يجلسنَ في الخلفِ.. لقد باتَ أمرُ توزيعِ المقاعدِ كأنّهُ طقسٌ رتيبٌ مفروغٌ منه، وكُنّ يتحدّثنَ بلهجةٍ غريبةٍ لا تفهمُها، وكانتْ عيناها تجولانِ في سطورِ موادّ التدريسِ تراجعُها، وتمضي شهورٌ دونَ أن تعرفَ وجهًا محدّدًا مِن وجوهِ الموظّفاتِ المتغيّرة، اللواتي تجلببنَ بلباسٍ غيرِ مهندمٍ يليقُ بموظّفاتٍ ووظيفةٍ!

ماذا؟ ومَن أنتِ لتلقي بأحكامِ ذائقتِكِ على الأخرياتِ؟ ألستِ تعتقدينَ أنّ الإنسانَ ابنُ بيئتِهِ؟ هذا الاعتقادُ صحيحٌ، لكن للهندامِ والمظهرِ أثرٌ بالغٌ على الموظّفِ والوظيفةِ في آن.. لكن.. حاولي أن تلجئي إلى صمتِكِ، وتنشغلِي بأمورِكِ الخاصّةِ.

كانتْ تلكَ الأسئلةُ معقوفةُ المناقيرِ تُحلّقُ في فضاءٍ غامضٍ، وأحاولُ أن أبصرَ بعيونِ صمتِي الحادّةِ ولو بصيص جوابٍ يُطفئُ أجيجَ حيرتِي. اِنطوتْ صفحاتُ شهورٍ في سجلِّ العامِ الدراسيّ بتلويحةِ وداعٍ راقصٍ، سرعانَ ما عزفتْ نشيدَها المرتبكَ على نياطِ قلبٍ بترَتْهُ المفاجأةُ، حين أتى يومٌ غاشمٌ طالَ فيهِ المكوثُ في خريطةِ الانتظارِ الكئيبةِ، وتلاحمت الطبيعةُ في خضمِّ جوٍّ شتائيٍّ مشحونٍ بأشجانٍ، تستشعرُ ارتعاشةَ نسماتٍ تتقاذفُها تلكمُ الأحاييِنُ الضبابيّة.

يبدو أنّني سأتأخّرُ اليومَ على غيرِ العادة.. هل ننتظرُ طويلاً إلى أن تمتلئَ السيارةُ بهنّ لننطلِق؟ جاءَ صوتُ السائقِ دافئًا واثقًا، يهدّئُ مِن روعِ البرْدِ القاسي، ومِن صخَبِ المطرِ المتكسّرِ شظايًا على الزجاجِ الأماميِّ للسيّارة: هدّئي مِن روْعِكِ.. لحظاتٌ ويَحضُرْنَ.. الغائبُ عذرُهُ معَه، ويبدو أنّ للطقسِ شأنٌ في تأخّرهِنّ.

لكنّك.. لم تخبرْني.. ماذا يعملنَ هؤلاء الموظّفات؟ وأين؟ امتلأَ فمُهُ بقهقهةٍ متحشرجةٍ صاخبةٍ تزلزل أسنانَهُ اليتيمةَ، شقّتْ بطنينِها طبلةَ أذني الغضّة، وبعضُ كلماتٍ تعثّرتْ متهكّمةً: موظّفات؟ ألستِ مِن هذا البلدِ؟ إنّها شيفرتُنا نحنُ السائقون.. ما أولائكَ الموظّفاتُ سوى ... !

سوى ماذا؟ غاصَ الجوابُ بهزيمِ بوقِ سيّارةٍ وقفتْ بالمحاذاةِ أرعدَ هادرًا، فومضتِ اللحظاتُ البائسةُ جافلةً في سماءِ الانتظار، وقهقهَ بصخبٍ جائعٍ للضحكةِ: ها قد وصلْنَ.. ولا تنسَيْ.. أنتِ في عهدتي يا الناصريّةُ يا ابنة البشارة، فلا تخشَيْ أمرًا وابنُ مدينتِكِ معكِ.

بامتعاضٍ يائسٍ كانتِ السماءُ تلقي بمطرِها الفاجرِ برَدًا، والموظّفاتُ ينفجرْنَ مِنَ الحافلةِ المكتظّةِ بهنّ، يهرولنَ إلى مركبةِ الانتظارِ المُرّ. اِطمئنّي.. إنّهنّ متسوّلات.. يعني ش ح ا ذ ا ت! ها قد اكتملَ عددُ الركّابُ وحانَ الانطلاق.

متسوّلات!!!؟؟؟ كانتْ أفكاري المتسارعةُ تتشدّقُ بلهيبِ كبرياءٍ مغدورٍ، تنهبُ ضجيجَ مسافةٍ أسفرتْ عن حيائِها الملغومِ، بعدما ارتطمتْ عيناىَ المذعورتانِ بموجِ كلماتِهِ الشاحبةِ، وانشقّتْ صرختي المكتومةُ مدوّيةً في دمعةٍ جافّةٍ حارقةٍ، ووابلٌ مِنَ الرصاصِ يضجُّ في فضائي، يلاحقُ صخورَ شواطئي الهاربةِ مِن انفجاراتِ الموجِ العاتي المتمرّد!

ظلّ الجبينُ معقودًا على ارتعاشِ دهشةٍ غافلةٍ، والدمعةُ المشتعلةُ وجعًا تُذكي حريقَ قلبي المتخبّط بخليطٍ مِن مشاعرَ مجهولةِ الهُويّةِ! ويحَ امرأةٍ تحترفُ الصمتَ، حين يهوي صريعًا في حلبةِ دهشتِها المطعونةِ المُضمّخةِ بدمعةٍ مكتومة!

جيوشٌ مِنَ الأسئلةِ المشتّتةِ الهزيلةِ تعاركتْ في باحةِ هذا الأفقِ الضيّقِ الملتصقِ بالزجاجِ القابضِ على أنفاسي، وقرقعةُ السيوفِ ووميضُ القنابلِ اللامعةِ شقّتْ حجابَ قلبي بشهقةٍ خرساءَ تداعبُ بكاءَ المطرِ!

كيفَ تتّسعُ لي ولحربٍ ضروسٍ هذهِ الزنزانةُ والقضبانُ؟ ويحي! كيفَ مضتِ الشهورُ تغافلُني، وما دريتُ مِن قبلُ أني أستقلُّ سيّارةَ متسوّلاتٍ؟ أيّةُ تباشيرَ تحملُ هذهِ الصعقةُ لي؟ هل يليقُ بحضوري رفقةُ هؤلاءِ النسوة؟ أنا موظّفة.. وهذهِ الشيفرةُ "سيّارةُ الموظّفات" فيها استغفالٌ يَمسُّ بالموظّفاتِ ويُسيءُ للنساءِ العاملات؟

العاملات؟ أوليستِ المتسوّلاتُ نساء عاملاتٍ أيضًا؟ أليس هناك مَن يُحضرُهُنَّ بسيّارةٍ، ويطمئنُّ عليهنّ بسيّارةِ الموظّفاتِ هذه، ليَعبُرَ بهنَّ الحدودَ، للانتقال إلى البلادِ في الداخل؟

هل ترضَيْنَ أن تُصنّفي نفسَكِ مع الجاحداتِ ممّن ينسى الفضلَ والمعروف؟ وهل تنسَيْنَ أنّهُ لولاهنّ لكنتِ لاقيتِ مِنَ المرارِ صنوفًا، تعجزينَ عن مكابدتِها في السفرِ والتنقّلِ والانتظار، أو حتّى في استمرار عملك؟

توقّفتِ المناوراتُ فجأةً في إحدى المحطّاتِ، حين شرعنَ يترجّلنَ مِنَ السيّارة، إلاّ واحدة تابعتْ ترافقُنا، والصمتُ أنيسُنا الودود! فجأةً، علا صوتها يطالبُ بمبلغٍ مِنَ المال.

ماذا؟ صرخَ السائقُ شاتمًا ناعتًا إيّاها بالابتزازِ، وحينَ همّ غاضبًا بإنزالِها مِنَ السيّارةِ، شقّتْ ثوبَها وصرختْ مستغيثةً مِن هذا الوحش الذي سرقها وحاول اغتصابَها.

مرّتْ لحظاتٌ كابوسيّةٌ، لم أدركِ الذي حدثَ، وكيفَ بلمحِ الطرْف تمّ! وجدتُني أهربُ مِن صراخِها ومِن غضبِ السائقِ المحتدمِ ومِنَ الجمهرةِ المستهجَنةِ، وأركضُ صوبَ محطّةِ الحافلاتِ العموميّةِ، وكأنّ كلابَ الشرطةِ تطاردُني، أناشدُ لحظةً سحريّةً تعودُ بي برمشةِ عينٍ إلى صومعتي المقدّسةِ، ورأسي تتناهشُهُ صورٌ متداخلةُ الملامحِ، وضجيجُ أسئلةٍ تلاحقُني تبعثُ على الخوفِ والتهديد!

لماذا هربتِ مِنَ السيّارةِ؟ هل خشيتِ أن تُحسَبي منهنّ، أم أنّهُ الشعورُ بالاشمئزازِ والشفقةِ والتقزّز والخوفِ مِن هذه الفئةِ مِنَ الموظّفات؟ ما الذي فعلَتْهُ المتسوّلةُ ولماذا؟ وماذا قصَدَ السائقُ بالابتزازِ؟

الابتزازُ لغةُ رفاهيّةِ العصر!

قد تكونُ الرشوةُ بدافعٍ ذاتيٍّ وبرضا وطيبِ خاطر، فيها عرْضٌ وطلَبٌ قد تتمُّ الصفقةُ فيهِ وقد لا تتمّ، إن يرضخْ لها المُرتشي ويُلبّي بالمقابلِ ما يُطلَبُ منهُ، وقد يربحُ الطرفانِ وقد يخسرانِ معًا إن انكشفا، ولكليهما الوزنُ ذاتُهُ في ميزانِ القانونِ، أمّا إن وقفَ أحدُ الأطرافِ بخطّيْنِ متوازييْنِ ومتنافرَيْنِ متناقضيْنِ، فحينها يدخلان في لعبةِ الابتزازِ!

لغةُ الابتزازِ باتتْ تتفاقمُ حدّتُها الشرسةُ، وتتفشّى أساليبُها الإجراميّةُ اللامعقولةُ الممارَسَةُ والمستحدَثةُ، وتشكّلُ خطرًا مؤذيًا يُقحمُ الآخرَ على الاستجابةِ لفعلٍ كريهٍ رغمًا عنهُ، فتبدأ إشاراتُ الابتزاز بالطلبِ بالقيامِ بعملٍ ما، وإلاّ.. عندَ المقاومةِ تأتي مرحلةُ التعرّضِ للتخنيقِ والحِصارِ، ثمّ للتهديدِ الجنونيِّ المتكرّر، والإيقاعِ بالضحيّةِ مِن خلالِ الضغطِ النفسيِّ المُدمّرِ اجتماعيًّا، والمُحرجِ أخلاقيًّا وجسديًّا، وبلغةٍ لئيمةٍ فيها تهديدٌ بالفضيحةِ والعار!

من هي الفئةُ التي يحلو لها التمتُّع بألاعيبِ وأحابيلِ الابتزاز؟ هل تكثرُ حالاتُ الابتزازِ في مجتمعاتٍ متعدّدةِ الأطيافِ والأعراقِ والدياناتِ، فلا تحظى محاربتُها بتأييدٍ شعبيّ، أم أنّ الأمرَ متعلّقٌ بأسبابٍ خارجةٍ عن أعرافِ المجتمع؟

هل كلُّ مَن يقومُ بعمليّاتِ الابتزازِ هو سيّء السيرةِ ومشبوهةٌ أخلاقُهُ، أو عانى مِن الأنانيّةِ وعدمِ الاهتمامِ بالبُعدِ البنائيِّ لشخصيّتِهِ في مراحلِها الأولى، التي لم ترتبطْ بقِيمِ الحياةِ الروحيّةِ الفاضلةِ؟ هل يقتصرُ الابتزازُ على فئةٍ وعيّنةٍ مشبوهةٍ، أم أنّها قد تطالُ أناسًا طيّبين ومثقّفين؟ هل الابتزاز قانونيٌّ أم غيرُ قانونيٍّ؟

ما ثمنُ الابتزازِ؟ ماليًّا؟ ماديًّا؟ جنسيًّا؟ معنويًّا؟ نفسيًّا؟ عينيًّا؟ الخ..؟ هل هذا ما يُعتبَرُ رشوةً كثمنٍ للسكوتِ، بعدما يكونُ الآخرُ قد احترقَ ألمًا واشتعلَ ضعفًا؟

هناك أشكالٌ متعدّدةٌ للابتزاز، فكيفَ تتمّ؟ تحرّشٌ لغويٌّ عبْرَ الهواتفِ؟ رسائلُ صوتيّةٌ ومكتوبةٌ بالهواتفِ والموبايلات؟ إرسالُ صوَرٍ وقصصٍ خليعةٍ عبْر تقنيّةِ البلوتوث بشكلٍ عشوائيٍّ ومقصودٍ؟ هل باستخدامِ وثائق، مباشِرًا برسائلَ كتابيّةٍ، أو صورٍ خاصّةٍ، أو تسجيلاتٍ صوتيّةٍ مباشِرةٍ؟ هل مِن خلالِ خطفٍ أو حرقٍ أو أناسٍ مستأجَرين، أو مُبطِّنًا ومُرمِّزًا بصورٍ مخيفةٍ لجماجمَ وخناجرَ ودم!

ما الأسبابُ التي أدّتْ إلى ظهورِ هذهِ الكمّيّةِ العاليةِ مِنَ الإفرازاتِ الغريبةِ من الابتزاز، وتدفعُ بأفرادٍ إلى انتهاجِ هذهِ السبلِ الوعِرة الموصلة إلى متاهةِ التهديدِ والإساءةِ اللاحقةِ بهم؟

هل بسببِ الخروجِ عن البيئةِ والاختلاطِ والتأثّر بثقافاتٍ أخرى، أم بسببِ الانسلاخِ عن الدينِ وغيابِ الوازعِ الدينيّ، أم بسببِ التنصّلِ مِن عاداتٍ مرفوضةٍ، واستجابةً لشياطينِ الضعفِ؟ بسببِ التساهلِ في التعاملِ وطيبةٍ زائدةٍ للفرد المستغلّ، وفقدانِ الخبرةِ الكافيةِ في كيفيّةِ التعاملِ السليمِ، وبالتالي يكونُ الانجرافُ ببراءةٍ أو حاجةٍ أو ثقةٍ زائدةٍ بالنفس؟

هل بسببِ التفرقةِ بينَ الشابِ والفتاةِ في التعاملِ والمعاملة، ونقصِ التوعيةِ والتثقيفِ للتعاملِ السليمِ في حالِ العزْلِ وتحريمِ الاختلاطِ، أو في حالِ الإباحيّةِ والحرّيّةِ اللامحدودةِ؟ بسبب الرفاهيّةِ وطغيانِ الجانبِ المادّيِّ على الجانبِ الروحيِّ، والحرّيّةِ شبهِ المُطلقةِ، والانفلاتِ مِنَ الضبطِ الاجتماعيِّ والأسَريِّ، أم بسببِ كبتٍ وحرمانٍ وتوْقٍ للخلاصِ مِن روتينٍ مقيتٍ؟

هل بسبب دوافعِ الحسدِ والانتقامِ كأقنعةٍ حقيقيّةٍ تسترُ قبْحَ النفوسِ السوداءِ، كجزءٍ مِن براعةِ ألاعيبَ شيطانيّةٍ تُظهرُ عفافَهم على غيرِ حقيقتِهم؟ بسببِ الأوضاعِ المادّيّةِ والفقرِ والبطالةِ وأعباءِ الحياةِ وتكاليفِ المعيشةِ، والتورّطِ بديونٍ وأقساطٍ، يكونُ الابتزازُ وسيلةً للوصولِ للاكتفاءِ الذاتيّ؟

هل بسببِ قلّةِ وجودِ البرامجِ الترفيهيّةِ والاجتماعيّةِ والثقافيّةِ الجادّةِ التي تخدمُ الشبابُ، ويظلّونَ فرائسَ الفراغِ الذي أكّدتْ دراساتٌ اجتماعيّةٌ ونفسيّةٌ آثارَها المُدمّرةَ على الشخصيّةِ واهتزازِها؟ بسببِ تدخّلِ التلفزيونِ والإنترنت والشغّالاتِ بعمليّاتِ تنشئةِ الأجيالِ بشكلٍ جريءٍ ومنفتح، في ظلِّ وجودِ تقنيّاتٍ حديثةٍ يسهلُ استخدامُها؟

هل بسببِ الحرمانِ العاطفيِّ أو الجوعِ العاطفيِّ والعنوسةِ وارتفاعِ تكاليفِ الزواج؟ هل الابتزاز نوعٌ مِنَ التباهي واستعراضِ الملَكاتِ الخارقةِ والذكاءِ في تحقيقِ الذاتِ أمامَ الآخرين، في التربّصِ بالفريسةِ والاستحواذِ عليها؟

هل تنَحَّتْ المؤسّساتُ التعليميّةُ عن دورِها التربويِّ في توجيهِ الطلبةِ، لرعايةِ القِيمِ الأخلاقيّةِ الطيّبةِ والروحيّةِ الحميدة؟ وهل للمبتزِّ حصانةٌ معنويّةٌ في المجتمع، تتشفّعُ لهُ أمامَ الجهاتِ الرقابيّةِ؟

وما عقوبةُ المبتزّ؟ وما هي ردودُ الفعلِ ضدَّ عمليّاتِ الابتزاز؟ هل نكتفي بالشجبِ والاستنكارِ الخفيِّ غيرِ العلنيِّ أو العلنيّ؟ هل يكفي التوبيخُ، الفضائحُ، السجنُ، الغرامة، الطردُ مِنَ الوظيفةِ كعقابٍ للمبتز؟ وهل السجونُ تُشكّلُ رادعًا حقيقيًّا، أم أنّها تعدُّ مِن الرفاهيّةِ بمكانٍ جذّابٍ لمعاودةِ الجرائمِ بذكاءٍ إجراميٍّ أكبر؟

ما هي وسائل التصدّي لعمليّاتِ الابتزاز، ومكافحتِها وردْعِها وتطهيرِ المجتمعِ منها؟ هل يكفي الطموحُ في استئصالِ هذهِ الآفةِ مِنَ المجتمعِ والدفاعِ عن ملامحِهِ وقِيمِهِ المتوارثةِ، أم أنّ للمجتمعِ ذنبٌ في دفْعِ عجلةِ تفاقمِ هذهِ المآسي القميئةِ؟ كيفَ يمكنُ تدارُكُ أمرِ الابتزازِ قبلَ الوقوعِ في شرَكِ المُبتزّ؟

كيف يمكنُ عدمِ استنفاذِ طاقةِ الفردِ، كي لا يغدوَ ضحيّةً مِن ضحايا الابتزاز؟ هل بالصمودِ في تبنّي مواقفَ ثابتةٍ لا تستسلمُ ولا تخضعُ للابتزاز؟ هل يكفي التبليغُ لجهاتٍ رسميّةٍ مختصّةٍ تتولّى معالجةَ قضيّةَ الابتزاز؟ هل تتوفّرُ في أوساطِنا أقسامٌ متخصّصةٌ في دوائرِ الأمنِ العامّ تُوفّرُ الأمنَ للضحايا؟

وأخيرًا.. هل كلُّ مَنْ أمِنَ عمليّاتِ الابتزازِ نجَا مِن أن يكونَ ضحيّةً؟ وهل كلُّ مَن أمِنَ عقوبةَ الابتزازِ يكونُ قد أخلَّ بالحكمةِ والأدبِ في نظرِ شبكةِ العصابةِ، أو بحسبِ أقاويلِ الناسِ الراجمةِ؟

التحرّشات الإلكترونيّة لغة ابتزاز!

في ظلّ صراع تطوّر التقنيّات الحديثة المتسارعة وإساءة استخدامها، شهدت الآونة الأخيرة سلسلة من انحرافاتٍ وممارساتٍ سلوكيّة سلبيّة، ومظاهرَ ومواقف مؤذية للاتصالات الإلكترونيّة، وحوادث قرصنة وعمليّات اختراق الخصوصيّة والحرّيّات الشخصيّة، وسرقات حسابات بنكيّة ومعلومات خاصّة، وتهديد بنشر فضائح معلوماتيّة وبيانات شخصيّة، من خلال رسائل اقتحاميّة مزعجة للبريد أو الهاتف أو المحمول والفاكس، والتي تشكّلُ بحسب التقارير المتخصّصة نسبة تتجاوز 85% من مجمل رسائل البريد الإلكترونيّ، تحت عناوين جذّابة ومغرية، تحمل في معظمها فايروسات اختراق للجهاز.

"كشفت إحدى الدراسات البريطانيّة الحديثة وجود نحو 5 آلاف كومبيوتر مصاب يوميًّا، تتجسّس على أصحابها في دولة واحدة فقط، في حين لا توجد إحصائيّة دقيقة تُقدّر حجم خسائر قطاعات الأعمال في العالم العربيّ نتيجة عمليّات الاختراق والقرصنة الإلكترونيّة، ومعظم الضحايا هم أشخاص عاديّون وقعوا في فخ تسرّب كلمات المرور التي يستخدمونها".

التحرّشات بأنواعها اتخذت تقنيّات وأشكالاً عديدة، وانتقلت من الملموس المحسوس إلى المجرّد، ومن المعلوم إلى المجهول المتخفّي، ففي حين كانت البسمة الملغوزة والنظرة الذئبيّة تُعدّان نوعًا من أنواع التحرّش، وقد تليهما الهمسة واللمسة، وقد يتعدّاهما التربّص بالضحيّة والاستفراد بها واقتناصها، لتصل إلى حالات الاعتداء والاغتصاب، والتهديد بالخطف والقتل والابتزاز السرّيّ!

لكن؛ سرعان ما تقولبت هذه التحرّشات بقوالب تقنيّة مزعجة تلاحق الفرد والأسرة والمجتمع، وقد كان الهاتف وسيلة للتحرّش والمعاكسة والمشاكسة، يمكن السيطرة عليها من خلال ملاحقة الشرطة للمكالمات والوصول لذاك المُهدِّد والمُتحرِّش، وكثيرًا ما تكشّفَ النقابُ عن خلايا عبثيّة تتسلّى وتتلهى بخصوصيّات إناث تمّ تسجيل مكالماتهنّ، لابتزازهنّ وتخريب علاقاتهنّ الزوجيّة والأسريّة وتدمير مراكزهنّ الاجتماعيّة.

أمّا اليوم، فقد اتّسعت رقعة التحرّشات الإلكترونيّة مع توسّع شبكة التقنيّات، التي اخترقت العالم بسرعة هائلةٍ ودخلت معظم البيوت والجيوب، فبات الأمر على شفا هاوية حقيقيّةٍ، يُهدّد كلّ الشرائح العمريّة والطبقيّة والطائفيّة والأمنيّة، وكلّ أسرة وفرد لا يعي مخاطر الأجهزة التي تمتلكُه، ولا يملك الفكاكَ من غطرستها.

كيف يمكن حلّ هذه المشاكل بشكل ناجح وفعّال؟ هل بشكل شخصيّ؟ هل ينبغي التستر على هذه الشواهد، أم يجب كشفها والمجاهرة والاعتراف بها ومصارحة الأهل؟ هل للأهل القدرة على التعقّل وضبط النفس وحلّ المشكلة دون الإساءة للأنثى؟ هل عن طريق إبلاغ الجهات المختصّة؟

امرأة باعت جوّالها الحديث لصاحب أحد محلات الهواتف النقّالة، بعد أن مسحت ذاكرة الجوّال والصور الشخصيّة والمناسبات الخاصّة والفيديوهات، ووقعت فريسة عمليّة ابتزاز دنيئة منه،

إذ أعاد ذاكرة الجوّال وبدأ يمارس تهديده بنشر الصور مقابل..، فتوجّهت للشرطة التي نصبت له كمينًا، وألقت القبض عليه، وحوّلته للجهات المختصّة لينالَ جزاءَه!

وأخرى ذهبت لإصلاح جوّالها في أحد محلات صيانة الجوّالات، فاستطاع التقنيّ الوصول إلى تفاصيل ذاكرة جوّالها من أرقام وصور وفيديوهات ونسخها، وليبدأ فصل جديد من كارثة المساومة والابتزاز والمضايقة والمعاناة!

والأمَرُّ.. التحرّش الإلكترونيّ عبْرَ الحاسوب، فكثيرًا ما يبتدئ بريئًا وعفويّا من الطرف المستضعَف، بتبادل الحديث والصور والفيديو، وقد يؤدّي إلى كارثة طائفيّة كما حدث في إحدى القرى المجاورة، والتي أدّت عمليّاتُ التشهير العبثيّة إلى ابتزاز وحرق منازل، واستخدام سلاح وقتل وتهجير عشرات العائلات بدون ذنب أو سابق إنذار!

هل الحرمان ومنع إدخال التقنيّات إلى البيوت، هما الحلّ الذي يقي المجتمع بشكل تامّ من سلبيّات الإلكترونيّات ومخاطرها؟ وهل هذه التقنيات يقتصرُ وجودها على البيوت والمدارس، أم في الشوارع والأماكن العامّة والخاصّة؟ إذن؛ كيف يمكن الإلمام بمخاطر هذه التحرّشات الإلكترونيّة والتصدّي لها؟

في الولايات المتحدة صدرت عدّة قوانين فدراليّة ومحليّة تُجرّم أفعال التحرّش الإلكترونيّ والمعاكسة، لكن في العالم العربيّ فالأمر لا زال يحيطه كثيرٌ من الإبهام وعدم الوعي! وقد قرأنا عن مشروع "يوميّات رعد العبقريّ" الإكرتونيّ، الذي ساهم في تنفيذه المهندس حسام يوسف رئيس قسم الأبحاث والتطوير بإدارة تقنيّة المعلومات بهيئة الإغاثة الإسلاميّة العالميّة بجدّة، والدكتور خالد الغثبر في الرياض.

مع هذا الانتشار الشاسع والسريع للتقنيّات الإلكترونيّة الحديثة والمتسارعة في التطوّر، هل هناك أعمالاً تلفزيونيّة على مستوى العالم العربيّ، تُعنى بتثقيف صغار السنّ من مخاطر الابتزاز على شبكة الإنترنت، وتشير بصدق إلى الابتزاز الإلكترونيّ، وتحارب اختراق المعلومات الحاسوبيّة؟

من هو رعد؟ عبقريّ الحاسوب وخرّيج كليّة الهندسة، يدير موقعًا لبيع الوجبات الغذائيّة على الإنترنت، ينوي بيع مذكراته العائليّة والمهنيّة وأحاديثه اليوميّة على النت لدار نشر أجنبيّة، لكن أخاه الأصغرَ "الهاكر" يتورّط في شبكة تجسّس عالميّة، ويُقادُ للتحقيق في قضيّة أمن قوميّ، ويحاول رعد إثبات براءة أخيه، لكن زوجَ أخته الخبير في أمن المعلومات يُدخِل رعد في مأساةِ الابتزاز. الفكرة تخدم المراهقين والصغار بحلقاتِهِ الخمسين، بمشروعها وأهدافها وتحليل مخاطرها، وبتطلعاتها إلى حفظ وحماية أمن المعلومات لدى مستخدمي الحاسوب، فتخاطب قطاعًا واسعًا من عمر 12-23 سنة! فهل يَلقى المشروع تبنّيًا ودعمَ مسؤولين يساهمونَ في إنقاذ ما يمكن إنقاذه؟ هل مشروع كهذا يُساهم في صيانة واستثمار الخيرات الوطنيّة والبشريّة بشكل إيجابيّ، من خلال التوعية والتثقيف؟ وهل سيبقى يُعرَض البرنامج فقط لزوّار مركز التميّز الرسميّ لأمن المعلومات؛ التابع لجامعة الملك سعود في الرياض؟

وأخيرًا.. لماذا لا يُعمّم على العالم العربيّ إن كان البرنامج مدروسًا بشكل علميّ ومنهجيّ وتربويّ؟ ولماذا لا يتمّ إنتاج برامج تثقيفيّة مماثلة في مجمل عالمنا العربيّ؟

هل الأحياءُ وحدَهم مَن يقعونَ تحتَ طائلةِ الابتزازِ؟

تكثرُ في الآونةِ الأخيرةِ دلالاتُ التفسُّخِ الأسريِّ والانحرافِ السلوكيِّ والانحلالِ الأخلاقيِّ، وتظهرُ بعدّةِ أشكالٍ منها الابتزاز، وتتنوّعُ طرُقُ الابتزازِ وفنونُهُ، وتتلوّى ضحاياهُ ما بينَ حياةٍ وموتٍ، وما بين انتحارٍ وانهيار.

لم تقتصرْ طبقةُ المُبتزّينَ على شريحةٍ ما، وإنّما طالتْ كلَّ الشرائحِ العُمَريّةِ والاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والدينيّة، والمُثقّفةِ والأمّيّة مِن رجالٍ ونساء، وأخطرُها ما يتوفّرُ لها غطاءٌ أخلاقيٌّ وحصانةٌ اجتماعيّةٌ ووسائلُ تقنيّة!

أسوقُ أمثلةً حياتيّةً، حولَ كيفيّةِ التورُّطِ والتوريطِ بشبكاتِ الابتزازِ الاقتصاديّ! فهل سَلِمَ المواطنُ البسيطُ مِنَ ابتزازِ مسؤوليهِ في الانتخاباتِ، ومُصادرةِ مرْكزِهِ ومنصبِهِ ووظيفتِهِ، إن لم يُذْلِ بأصواتِ عائلتِهِ له، أو إن لم يتنازلْ عن ترشيحِهِ في قائمةٍ ما؟

ممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ بعضَ الدروسِ الخصوصيّةِ فيها ابتزازٌ لشريحةٍ معيّنةٍ مِن طلاّبٍ ميسوري الحال، فهل يُعقلُ أن تعملَ مُدرِّسةٌ على إغواءِ أكثرَ مِن طالبةٍ بلعبةِ الردِّ على رسائلَ وهميّةٍ، تخطُّها على لسانِ عاشق، ثمّ تستغلّ الرسائلَ لفضحِ طالباتِها أمامَ أهلهنّ، إن لم يسرقنَ مِن خزناتِ أهاليهنّ مبلغًا كبيرًا مِنَ المال، بعدَ وضْعِ المنوّمِ في قهوةِ الأهلِ، كما حدَثَ في قلقيلية في شمالِ الضفّةِ الغربيّة؟

قد يبدأ ابتزازُ الشبابِ والشابّاتِ بشراءِ بطاقةِ هاتفٍ، وهدايا بسيطةٍ، ثمّ التورّطُ بالزواجِ الاضطراريِّ أو الوهميّ، ولاحقًا بالانتماءِ للشبكةِ، كما أنّ هناكَ فتياتٌ عربيّاتٌ وأجنبيّاتٌ يَعملنَ في خدمةِ البيوتِ والمؤسّساتِ، يتعرّضنَ لانتهاكِ حُرماتِهنّ والتحرّشِ بهنّ وابتزازهنّ، ومِن ثمّ الاستيلاء على أموالِهنّ وأجسادِهنّ!

هناكَ شبكاتُ ابتزازٍ دوليّةٍ وعربيّة، تعملُ على إيهامِ فتياتٍ وفتيان بالعملِ في دولةٍ ما بعملٍ معيّن، أو الحصولِ على جنسيّةِ دولةٍ ما، فيبيعونَ أملاكَهُم ويتممّونَ أوراق هجرتِهم، وبمجرّدِ أن يصلوا إلى الدولةِ المزمع الخلاصُ فيها، تتسلّطُ العصابةُ على جوازاتِ سفرِهم، ويُجرّدونَهم منها كوسيلةِ ضغطٍ وتهديدٍ بالسجنِ والمُلاحقةِ، بسببِ مخاطرِ الإقامةِ في دولةٍ أجنبيّةٍ دونَ تصريحٍ، وبذلكَ يُرغمونَهم على العملِ في الدعارةِ وأيِّ عملٍ يُطلَبُ منهم، لكي يُؤمِّنوا لأنفسِهم لقمةَ عيشِهم، كما حدثَ معَ الفتياتِ القادماتِ الجُددِ مِن روسيا إلى إسرائيلَ وحدَهنَّ دونَ أسَرِهنّ، فعملتْ شبكاتُ الابتزازِ على حرمانهنَّ مِن جوازِ سفرهنّ ومِن حقوقهنّ كمواطناتٍ، وشغّلوهنَّ في بيْعِ الجنسِ رُغمًا عنهنَّ في البلادِ وخارجِها، وفي أغلى فنادقِ الدولِ العربيّة!

ألم تظهرْ في السنواتِ الأخيرةِ فضائحُ قامَ بها محاسبو مؤسّساتٍ وفنادقَ، بابتزازِ مسؤوليهم مِن خلالِ فواتيرَ ومستنداتٍ قانونيّة؟ وعليها قِس! هل سَلِمَتِ المواقعُ الإلكترونيّةُ التجاريّةُ وشركاتُ المراهنةِ والمَصارفِ مِنَ التعرّضِ للهجومِ والقرصنةِ والحجْبِ، مِن قِبلِ مُنظّمةِ قراصنةٍ تنتهجُ عمليّاتِ ابتزازٍ، وتتلقّى مقابل أعمالِ تخريبِها فديةً عاليةً، تصلُ إلى أرباحٍ بملياراتِ الدولاراتِ سنويًّا؟

ألمْ يمتدَّ هذا النوعُ مِنَ الابتزازِ ليشملَ هدفًا جديدًا، باختراقِ لوحاتِ ومعلوماتِ الهواتفِ النقّالةِ، من أجل تصنّتٍ وتصويرٍ وتفجيرٍ وتقفّي آثارٍ مِن خلالِها؟

ألمْ تصرّحْ وزارةُ النفطِ العراقيّةِ قبلَ فترة، أنّ هناكَ أشخاصًا وعشائرَ في العراق، تعملُ على ابتزازِ ومساومةِ الشركاتِ النفطيّةِ الأجنبيّةِ الاستثماريّةِ في محافظةِ ذي قار، بحجّةِ أنّ حقولَ النفطِ تقعُ ضمنَ أراضيها وضمن الترسيمِ الجيولوجيِّ والفنّيّ للحقولِ النفطيّة، لكنّها لا تتلقّى تعويضاتٍ شرعيّةً مِن مؤسّساتِ الدولة؟

أليسَ في ظلّ الحرب والاحتلال، وغيابِ النزاهةِ والعدالةِ والقانون، تتفشّى بِدَعُ الانحلالِ والاستغلال، كما جاءَ في بغداد/ الدستور بتاريخ 7-5-2010، أنّ مواطنينَ يستغيثونَ ويشْكونَ مِن عمليّاتِ ابتزازٍ، يُمارسُها أصحابُ أكشاك صندوقِ شهداءِ الشرطةِ، مِن غلاءِ بيْعِ استماراتٍ خاصّةٍ فوقَ التسعيرةِ الرسميّةِ بأضعافِ أسعارِها الرسميّة، كمثلِ هُويّةِ الأحوالِ المدنيّةِ وجوازِ السفرِ والجنسيّةِ والإقامة؟ وإن كانَ الإنسانُ البسيطُ يتعرّضُ للابتزازِ وفي وضْحِ النهار، فهل نستهجنُ ابتزازَ شخصيّاتٍ رفيعةٍ وأصحابِ رؤوسِ أموالٍ؟

ها سيلفيا توفاني خطيبةُ بييرلويجي نجل رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني، تضطرُّ لدفع 200 ألف يورو، مقابلَ تهديدٍ بنشرِ صورٍ التقِطتْ لها في مرحلةِ المراهقة!

وها وزيرُ القضاءِ أنجيلينو الفانو يتلقّى تهديدًا بنشْرِ صورٍ له، حينَ كانتْ سيّدةٌ تطلي أظافرَهُ في أحدِ شواطئِ جزرِ المالديف!

أمّا لابو إلكان؛ حفيدُ جاني أنجيلي أحدُ مالكي شركةِ السيّاراتِ "فيات"، فاضطرّ لدفع 300 ألف يورو، بعدَ تهديدِهِ بنشرِ صورٍ لهُ معَ أحدِ المُتحوّلينَ جنسيًّا، التقطِتْ لهما في فرنسا وإيطاليا، بحسبِ صحيفة كوريري ديللا سيرا. فهل الأحياءُ وحدَهم مَن يقعونَ تحتَ طائلةِ الابتزازِ؟

مِنَ الأمورِ المُضحِكةِ المُبكِيةِ عمليّاتُ الابتزازِ التي يتعرّضُ لها المفجوعونَ مِن قِبلِ حفّاري القبور، فقد ورَدَ في أحدِ التقاريرِ التي تبطّنَتْ مؤشّراتٍ غريبةٍ، تؤكّدُ أنّ العاصمةَ صنعاء أصبحتْ أكثرَ المدنِ اليمنيّةِ تعاني مِن ظاهرةِ أزمةِ مقابر فعليّة، إذ إنّ المُخطّطاتِ السكنيّةَ أغفلتْ عن حجزِ مساحاتٍ للمقابرِ فيها، لمواكبةِ ومواءمةِ حجمِ الزيادةِ السكّانيّةِ، ممّا أدّى إلى تفاقمِ الضغط على المقابرِ القائمةِ، وازدادَ ابتزازُ حفّاري القبورِ لأقرباء الموتى، من أجلِ دفنِ جثامين الموتى مقابلَ أثمانٍ باهظةٍ، تتجاوزُ ما تمَّ تحديدُهُ مِن قِبلِ مكتبِ الأوقافِ في أمانةِ العاصمةِ، ودونَ مراعاةِ فجيعةِ المنكوبينَ المحزونين!

هل الحيُّ أبقى مِنَ الميتِ؟ وهل سلِمتِ المقابرُ مِن ابتزازِ الفقراءِ الذينَ يقطنونَها ويتّخذونَها دار حياةٍ وموتٍ؟ وهل سلمت مِنَ ابتزازِ المنبوذينَ والحشّاشينَ وتجّارِ المخدّراتِ، مَن اتّخذوها مكانًا آمنًا لقضاءِ حاجاتهم وتبادلِ صفقاتِهم؟ وهل سلمت مِن ابتزازِ العشّاقِ ولقاءاتِهم، أو مِنَ المتسوّلينَ، ومِن تجّارِ الأغنامِ مَن جعلوها حظائرَ في مواسمِ الأعيادِ والذبحِ والسلخ؟

هل الأنثى أداةٌ في عمليّاتِ الابتزازِ السياسيّ!

في عالمِنا قد يكونُ المطمورُ أبلى مِنَ الظاهرِ المكشوفِ، فجرائمُ الابتزازِ لا تستثني رجلاً أو امرأةً، رجلَ أعمالٍ أو رجلَ دينٍ أو رجلَ سياسةٍ، بسببِ غلطةٍ محتمَلةٍ وغير محتمَلة، خاصّةً بعدَما وصلتْ إليهِ التكنولوجيا مِن تقنيّاتٍ متطوّرةٍ يصعبُ على الذهنِ البشريِّ تكذيبَها، مِن تركيبِ صورٍ وأصواتٍ وأفلامٍ مُنتِجَتْ وفُبرِكَتْ بلباقةٍ، وتركتْ عواقبَها الوخيمةَ تؤدّي أدوارَها السلبيّةَ، بكلِّ المساحاتِ النفسيّةِ والاجتماعيّةِ والأخلاقيّة.

كم مِن عمليّاتِ تعارفٍ عبْرَ الإنترنت انتهتْ بانتحالٍ وخداعٍ وإيقاعِ مآسٍ، راحَ ضحيّتَها فتياتٌ ونساءٌ مُغرّرٌ بهنّ، مِن خلالِ ضبّاطِ جيشٍ استغلّوا مراكزَهم، كمثلِ أيال نحوم ابن ال 25، مع فتياتٍ بأعمارِ 10-16 سنة! وكم من زوجاتِ شهداءٍ وأراملَ تعرّضوا لابتزازِ مسؤولينَ يعملونَ في جمعيّاتِ رعايةِ أُسَرِ الشهداءِ وجمعيّاتِ رعايةِ اليتامى، وجمعيّاتٍ أخرى تحتَ مُسمّياتٍ إنسانيّةٍ عديدة!

لماذا حينَ تتعرّضُ المرأةُ للابتزازِ، يتبادرُ للإنسانِ غيابيًّا ومُسبَقًا، أنها سببٌ وضلعٌ أساسيٌّ فيما وصلتْ إليهِ؟ وبالمقابل.. أليستْ هناكَ شبكاتُ ابتزازٍ عمادُها فتياتٌ مُسخّراتٌ كفخٍّ منصوبٍ، لابتزازِ الضحايا على مستوى ماليٍّ ومادّيٍّ وسياسيٍّ ودينيٍّ وعَماليٍّ، ومِن ثمّ التسليم لمطالبِها والإذعان لأوامِرِها؟

هل الابتزاز لون وجزءٌ مِن تبريرِ الإرهاب؟ هل تخضعُ عمليّاتُ الابتزازِ التي تلتهمُ أركانَ المجتمعِ، إلى تراجُعٍ أخلاقيٍّ وإلى تغذيةِ التوافقِ الوهميّ، بهدفِ إشباعِ الغرائزِ وشهوانيّةِ الجسدِ عاليةِ النهمِ والجوعِ الجنسيّ، أم تخضعُ إلى تقدُّمٍ تكنولوجيٍّ بأيدٍ تُحْسِنُ استخدامَها سلبيًّا، مِن هواتفَ محمولةٍ، ساعاتِ تصنُّتٍ، مُسجّلاتٍ وكاميراتٍ بأقلامٍ وساعات وأدواتٍ يوميّةٍ صغيرةٍ عديدةٍ لا تخطرُ ببال، وتتمتّعُ بإمكانيّاتٍ تقنيّةٍ فائقةِ الجودة، كمثلِ اختراقِ البريدِ الإلكترونيِّ، وكاميرات الجوّال، وتقنيّةِ البلوتوث؟

معظمُ هذهِ العمليّاتِ يتأثّرُ بها أفرادٌ محدودونَ ومقصودون نسبيًّا، لكن؛ ماذا يحدثُ حينَ تكونُ عمليّاتُ الابتزازِ جماعيّةً؟ هناك شواهدُ كثيرة تندرجُ تحت مسمّى ابتزازٍ سياسيٍّ جماعيٍّ!

شهدتْ منابرُ سياسيّةٌ صوتَ عضوِ الكنيست د. عفو إغباريّة، مِن الجبهةِ الديمقراطيّةِ للسلام والمساواة، ساخرًا مِن ديمقراطيّةِ إسرائيل وحكومةِ اليمين، التي تجتهدُ بخلقِ مناكفاتٍ معَ المعارضةِ وإقرارِ قوانين تخدمُ مصالحَ اليمين، واتّباعِ السياسةِ الطبقيّةِ وإغناءِ الأغنياءِ وإفقارِ الفقراء، بدعْمِ البنوكِ والشركاتِ الاحتكاريّةِ، ومضاعفةِ ميزانيّةِ العسكرةِ والاستيطانِ فيقول: "باعتقادي أنّ البُعدَ السياسيَّ لمشروعِ الميزانيّةِ المطروح، يَعكسُ مدى اهتزازِ الائتلافِ الحكوميِّ الهشّ، ولو أنّهُ بدا للعيانِ أنّهُ واسعٌ وقويّ، ولكنّهُ في الواقعِ يخضعُ لابتزازاتِ الائتلافِ الحاكم، وتوزيعِ الكعكةِ الوزاريّةِ على الأحزابِ المشكّلةِ للائتلاف."

هل الاعتقالاتُ المباغتةُ الأشبهُ بالخطفِ بصوَرٍ مغمومةٍ لمفكّرينَ ومقاومين، هي شكلٌ مِن أشكالِ التبطينِ لعمليّةِ ابتزازٍ وردعٍ، وإسكاتِ الصوتِ الحُرّ، وإبعادِهِ عن مسرحِ الأحداثِ

الحافلِ باعتداءاتٍ متواصلةٍ على المقاومين؟ وهل الشرطةُ في كثيرٍ مِن الأحاييَن تُديرُ شبكاتِ ابتزازٍ، مِن خلال أفرادِها وعملائِها؟ وهل تقومُ العمالةُ في معظمِها على الابتزازِ؟

ماذا عن المسافرينَ المسالمينَ عبْرَ الحدودِ والحواجزِ وفي المطاراتِ ونقاطِ العبورِ، مَن يتعرّضونَ للتفتيشِ الدقيقِ والتعريةِ والإهانةِ والتحقيقِ والتأخير، ليس لعلّةٍ فيه، إنّما لأنّهُ يحملُ جنسيّةً أو قوميّة ما! وماذا عن الأسرى في السجونِ والزنازين، وما يتعرّضونَ لهُ مِن معاملةٍ لا تتماشى وفْقَ القوانينِ الدوليّةِ وحمايةِ الأسرى، فيتعرّضونَ لتعذيبٍ وتنكيلٍ وإهانةٍ وألفاظٍ نابيةٍ واغتصابٍ وضربٍ وإذلالٍ، ويطالُ التهديدُ الأهلَ وهدْمَ البيوتِ وتشريدَ الأبناءِ، أو تمديدَ الأسر والاعتقال الإداريّ، مِن أجل الحصولِ على اعترافٍ؟

هل ممارساتُ الاحتلالِ بألوانِه، وممارساتُ التطهيرِ العِرقيِّ، هي شكلٌ مِن أشكالِ الابتزازِ الجَليِّ والخَفيّ؟

ما حصلَ ويحصلُ في فلسطينَ والعراق ومصر ومسيحيّي الشرقِ الأوسط مِن تهجيرٍ الملايينِ، لأسبابٍ ودوافعَ مختلفةٍ، هل هو شكلٌ مِن أشكالِ الابتزاز؟

وماذا نسمّي هروبَ مئاتِ الألوفِ مِنَ المُثقّفينَ والمُعارضين، واضطرارهم إلى اللجوءِ لدولٍ أوروبيّةٍ، بعدَ الحُكمِ عليهم بالإعدام أو الحجْر أو السجن المؤبّد؟

في الشرقِ الأوسطِ حيثُ الصراعاتُ السياسيّةُ الملتهبةُ، والدينيّةُ والطائفيّةُ وعُقدُ الزعاماتِ، هناكَ كثيرٌ من المنظّماتِ والأحزابِ السياسيّةِ عندَ عجْزِها في تأديةِ مهمّاتها، وحلِّ مشاكلِها أو تحقيقِ أهدافِها، تلجأ إلى استخدامِ لغة "البروباجاندا Propaganda"، وهي لغةٌ تعتمدُ الدعايةَ الهادفةَ والترويجَ المدروسَ لفكْرٍ أيدلوجيٍّ مُنظّم، يَرمي إلى كسْبِ التأييد، والتأثيرِ في زعزعةِ الخصومِ وإحباطِهِ، وذلك مِن خلالِ اللعبِ على الوترِ الدينيِّ، الطائفيِّ، القوميِّ، العرقيِّ، التجاريّ والخ.

لقد ظهرتْ هذهِ اللغةُ في العصورِ القديمةِ، مِن خلالِ التماثيلِ والرسوماتِ الترويجيّة، ولاحقًا تمّ نشْرُ أفكارِ هتلر والشيوعيّةِ والرأسماليّة والخ، وفي العصرِ الحديثِ انتشرتْ هذهِ اللغةُ بتقنيّاتٍ متطوّرةٍ حديثةٍ، مِن خلالِ أجهزةِ الإعلامِ والفضائيّاتِ والشبكاتِ العنكبوتيّةِ، وقد تجلّتْ بعدّةِ أشكالٍ مباشِرةٍ وغير مباشرة، لإشعالِ فتيلِ الفتنةِ والذعرِ والخوفِ وحرْبِ الطائفيّةِ والانتقام والتهجير.

هل تُعتبَرُ هذهِ اللّغةُ مِن أخطرِ أسلحةِ الابتزازِ السياسيّ؟ وهل كلُّ ما يؤدّي إلى زعزعةِ الشعورِ بالأمنِ والأمانِ، ويُهدّدُ الوجودَ والبقاءَ هو لغةُ ابتزازٍ، تتبدّى مِن خلالِ ترجمةِ الاحتلالِ، متضمّنةً تفجيراتٍ متفرّقة في مدارسَ ومواقعَ سكنيّةٍ عامّةٍ وليستْ عسكرية، أو تفجيرِ مُولّداتٍ كهربائيّة أو آبار للبترول والغاز، أو مرافئَ اقتصاديّة، أو إيقافِ الواراداتِ والصادراتِ الغذائيّةِ والطبّيّةِ للبلد، تحتَ ذرائعَ أمنيّةٍ أو مقاومةٍ شتّى، فيها عقابٌ وتجويعٌ جماعيٌّ، وأضرارٌ بالإنسانِ العاديِّ في جميعِ المَرافقِ الحياتيّةِ، تتسبّبُ في شللِ الحركةِ الحياتيّةِ العامّة؟

وأخيرًا.. ماذا نسمّي عمليّاتِ نشرِ فتياتٍ مُصاباتٍ بالإيدز في القرى والمدن العربيّةِ بفلسطين عرب 48، لينلنَ مِنَ الشبابِ وأُسَرهنّ في حربٍ تدميريّةٍ صامتةٍ؟

طفولةٌ تبتزُّها عناكبُ الشياطينِ!

هل نستغربُ مِن تصرّفِ مربّيةٍ، تُعرّي طفلاً وتقيّدُهُ وتصوّرُهُ مِن أجلِ ابتزازِ والديْهِ؟

النجمةُ سيندي كروفورد تعرّضتْ لمحاولةِ ابتزازٍ، مِن خلالِ نشرِ صورِ ابنتِها العارية؛ ابنة السبع سنوات، عن طريقِ صديقِ مربّيتِها!

ثمّ حاضنةٌ أخرى في ريعانِ شبابِها وجمالِها، تهتمُّ بشؤونِ الطفلِ أثناءَ غيابِ أمِّهِ وأبيهِ المُوظّفيْن، لكنّها بعدَ خروجِهما بفترةٍ وجيزةٍ، تخرجُ بمعيّةِ الطفلِ تتسوّلُ، إلى أن اكتشفَ أمرَ الطفلِ أحدُ الجيران، فدعا والدَيْهِ ليُصدَمَا بمرارةِ الحقيقةِ العقيمة!

حاضنةٌ أخرى تعملُ على تنويمِ الأطفالِ مدّةَ وجودِهم لديها، إلى أنْ يحينَ موعدُ عودةِ الأهل، كي لا تتكبّدَ معاناةَ بكائِهم ومسؤوليّةَ رعايتِهم، لكن تشاءُ الصدفةُ أن يُكشفَ احتيالها، إذ أعطتْ أحدَ الأطفالِ جرعةً مضاعَفة!

وهل تكونُ روايةُ "عمارة يعقوبيان" التي تُسلّطُ الضوءَ الفاجعَ على طفلٍ تعرّضَ لاغتصابِ خادمِهِ المتكرّرِ، في عتمةِ ائتمانِ الأهلِ للخادمِ على الطفل، إلاّ نموذجًا حيًّا لِكَمٍّ هائلٍ مِن أطفالٍ يَفضُّ بكارةَ طفولتِهم بعضُ خدَمٍ وأقرباء بغير توقّع!

وماذا عن تزويجِ طفلاتٍ في العاشرةِ مِن أعمارِهنّ وما دون أو ما ينيف، مِن رجالٍ ميسوري الحال، بشتّى الزيجاتِ متعدّدةِ التسمياتِ والأشكالِ والتبريرات؟

على مدارِ أيّامٍ كانتِ الدمعةُ تترقرقُ في عينيْها الذليلتيْن، تتحاشى نظراتِ نزلاءِ الفندقِ، وهيَ تحتضنُ طفليْنِ في غرفةِ الطعامِ ومجلسِ الاستقبال، تُلقّمُهُما الصمتَ العاجزَ، فيجيبانِها بحركاتٍ متمرّدةٍ طفوليّةٍ، يتقافزانِ يتصايحان يتضاحكان ويتباكيان، ولا سلطانَ لها عليهما.

أينَ يغيبُ والداهُما عنهما كلَّ هذا الوقت؟

كيف ينشآنِ بكنفِ رعايةٍ منقوصةٍ مِن فلبّينيّة، يثيرُ الشفقةَ عجْزُها، ويثيرُ البؤسَ طفلانِ ينقصُهما الحنان!

ولا زالتْ خيوطُ عنكبوتِهِ عالقةً في ذهنِ طفلةٍ لم تُصدّقْ ما يحدثُ، ويرفضُ دماغُها الطفوليُّ الصغيرُ البريءُ، إلاّ أن يُقرَّ بأنّ هذا الذي رأتْهُ، ما هو سوى فعلِ خيالٍ، أو مجرّد فيلمٍ يُعبّئ وقتَ فراغٍ بخيالٍ بعيدٍ بُعدَ السماءِ عن الأرضِ مِن حيثُ الواقع!

رجلٌ منزوعُ القلبِ يخطفُ أطفالاً ويشوّههُم ببترِ أطرافِهم وفقْءِ عيونِهم، ثمّ يُجبرُهم على ممارسةِ حرفةِ التسوّلِ والسرقةِ وبيْعِ المخدّرات، بوسائلَ مريرةٍ وبمنتهى القسوةِ والتعذيبِ والتجويع!؟

أيُعقلُ أن تكونَ هناكَ عصاباتٌ بهذهِ القسوةِ واللاإنسانيّة؟ وهل يلتقي النقيضان؛ القسوةُ والإنسانيّةُ معًا؟

فيلمٌ قاسٍ طوَتْهُ الذاكرةُ، وباتَ مركونًا تُغلّفُهُ الأغبرةُ على رفوفِ النسيان، لكنّ الواقعَ أبى إلاّ أن يُثبتَ براءتَهُ أمامَ ذاكرةٍ معطوبةٍ متعاليةٍ، تغطُّ في سباتِها المُلحِدِ!

ولا يسعُ الألمُ إلاّ أن يطفوَ على صفحةِ الواقع جثّةً نتنةً، تحرّكُها مخالبُ الحقيقةِ الرجسةِ بأشكالِ تسوّلٍ متعدّدةٍ!

شبكةُ تسوّلٍ يُشغّلُها رجلٌ مسؤولٌ عن عددٍ مِنَ الأطفالِ، يوزّعُهم على الطرقات، يتحايلونَ على السائقينَ ويستعطفونَهم، ليبيعوا أشرطةً صوتيّةً أو مرئيّةً، أو علبَ كبريتٍ ومناديلَ ورقيّة، أو سجائرَ وحاجاتٍ خفيفةً لا تخطرُ ببالِ سائقٍ.

ترى الأطفالَ يتراكضونَ بينَ السيّاراتِ، يتزاحمونَ ويتسابقونَ، يتصارعونَ ويتشاتمونَ فيما بينهم، وكلُّ واحدٍ يريدُ الخلاصَ مِن حِملِهِ الذي على كاهلِهِ مِنَ الحاجيّات بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ! منهم مَن يعملُ على تمسيحِ زجاجِ السيّاراتِ المارّةِ عندَ إشاراتِ المرور، مقابلَ الحصولِ على الزهيدِ مِنَ المالِ، يُسلّمونَها للمسؤول، ليُعطِيَهم القليلَ ممّا حصلوا عليه!

أن تجدَ أطفالاً يتسوّلون ما وراءَ الحواجزِ فذاك أمرٌ قد يبدو عاديًّا أو اضطراريًّا، وقد تتشفع التبريراتُ في جعلِهِ شبهَ طبيعيٍّ في ظلِّ الاحتلالِ وضنكِ العيشِ والفقرِ المحيقِ بأبناءِ المخيّماتِ خاصّة، لكن؛

أن تغصَّ مفارقُ البلدانِ العربيّةِ في الداخلِ بسنحِ أطفالٍ نحيلةٍ، أحرقتْها عيونُ الشمسِ، واكتوتْ أقدامُها بلهيبِ الشوارع!

كيف يصلُ آلافُ الأطفالِ مُهرَّبينَ إلى داخلِ الأراضي المحتلة 48، في أوقاتِ منع التجوّل وإغلاقِ الحدودِ والحواجز، ولم يتجاوز أكبرهم ال 12 سنة؟

هل بلغَ بهم النضجُ قبلَ أوانِهِ، فجعلَ منهم رجالاً صغارًا يتجاوزون الحدودَ والحواجزَ؟

هل هو الموتُ بشكلٍ آخرَ، يدفعُهم إلى الموتِ الأرحمِ في الضفّةِ الأخرى؟

أيّةُ جرأةٍ تدفعُ أحدَ الأطفالِ المتسوّلينَ إلى الهجومِ على امرأةٍ تقودُ سيّارتَها، ليشَدَّها مِن شَعْرِها، لأنّها لم تُحسنْ إليهِ العطاءِ؟

كانَ ذاكَ يومًا لستُ أنساهُ؛ ثلاثةُ أطفالٍ على مفرقِ الناصرةِ حيفا طبريّا في ساعةٍ متأخّرةٍ مِنَ الليلِ، مبلّلونَ بالمطرِ، ترتجفُ فرائصُهم خوفًا وبردًا، يقرعونَ على زجاجِ نافذةِ السيّارةِ، يستحلفونَ ويترجّوْن.. ليسَ مالاً إنّما مأوًى حتّى الصباح!

دمعةُ طفلٍ جائعةٌ للحنانِ همَتْ تقولُ: فتاتٌ مِن تَصَدُّقِ المارّةِ كانَ يوْمي!

ماذا تفعلُ أنتَ يا ابنَ جلدتِهِ، والقانونُ يقفُ أمامَ إنسانيّتِكَ، فلا يجوزُ لكَ أن تُقلَّهُ بسيّارتِكَ أو تُؤويهِ في بيتِك، وإلاّ نالَكَ مِنَ العقابِ أبسطَهُ؛ غرامةً ماليّةً بآلافِ الدولارات، أو ملاحقةَ الشرطةِ بتحقيقٍ وتجريمٍ وسجنٍ؟

أينَ هو مُشغِّلُكُم؟ ولماذا لا يأخذُكم لتناموا في مخادعِكم المخصّصةَ حتّى الصباح؟

للأسف، معاقبون، لأنّهم لم يحصلوا على الحدِّ الأدنى مِنَ المالِ بتسوّلِهم ذاكَ اليوم!

أيّةُ لغةِ ابتزازٍ هذهِ المستخدمة بحقِّ الطفولةِ المنفيّةِ؟ وممّن؟ منك يا ابنَ بلدي؟

منذ مراحلِ الطفولةِ الأولى نلحظُ من خلالِ مشاهداتِنا لأطفالِنا حركاتٍ طفوليّةً، تتبدّى لأوّلِ وهلةٍ بسيطةً، كأن يقومُ طفلٌ بتكوينِ شلّةٍ مِنَ الأطفالِ يتزعّمُها من خلال التقليدِ والألعابِ، فيأمرُها وينهاها، وتستجيبُ لهُ حينَ يُسلّطُها على أحدٍ ما، وتدخلُ اللعبةُ في مرحلةِ الجدّيّة، كأن يستضعفُ طالبًا ما أصغرَ منهُ أو يُجايلُهُ، فيأخذُ لهُ حاجاتِهِ الخاصّةَ مِن مصروفٍ، أدواتٍ قرطاسيّةٍ وألعابٍ وحاجاتٍ بسيطة، وقد تتطوّرُ إلى استغلالِهِ بتحميلِهِ الحقيبة المدرسيّة، أو تسخيرِهِ في شراءِ حاجيّاتٍ مِنَ الدكّان، ثمّ المطالبة بمبلغٍ أكبرَ مِنَ المصروفِ، ممّا يضطرُّ المستضعَف إلى السرقة، لينجوَ مِن بطشِ المستقوي عليه، ومن تهديدِهِ وتخويفِهِ لهُ بالضربِ بعدَ الدوامِ، أو تعريتِهِ أمامَ الشّلّةِ لإضحاكِ الأولادِ عليه، أو بفضحِ سِرِّهِ بالتبوّلِ الليليّ، أو بأساليبَ أخرى مهينةٍ يتجنّبُها المستضعَفُ.

قد يبدو الأمرُ بسيطًا للأهل، لكنّهُ تربويّا يحملُ مِنَ الخطورةِ ما يبعثُ على القلقِ، إذ إنّ السلوكَ هذا قد يتطوّرُ سلبًا، لِما يتبطّنُ ويتضمّنُ بوادرَ سيّئةً لاحقًا، إن لم تجدْ مَنْ يَحدُّها ويوقفُها قبلَ أن تستشريَ في استفحالِها!

وأخيرًا.. هل الابتزازُ طريقةٌ أخرى للتسوّلِ بالإكراهِ، لإرضاءِ الذاتِ معنويًّا ومادّيًّا وجسديًّا؟

لقطاءُ على أعتابِ سقطاتِ الفقراءِ والأغنياءِ!

تشير دراساتٌ لمنظّماتٍ دوليّة كاليونيسيف، إلى أنّ أكثرَ من مليونَيْ طفلٍ في العالم يتعرّضون للاستغلال الجنسيّ، مِن قِبل شبكاتِ الدعارة الدوليّة، بوسائلَ وطرقٍ مختلفةٍ، مِن بينهم مليون طفل في قارّة آسيا، و300 ألف طفل في الولاياتِ المتّحدة!

وتشيرُ أرقام صدرتْ في العام الماضي في بريطانيا، إلى أنّ حملةَ الحكومةِ المُكثّفة لن تتمكّنَ وتُفلحَ في تحقيق غايتِها، بتخفيض نسبةِ حَمْلِ المراهقاتِ مع العام 2010، والتي أضحتْ أعلى نسبة في غرب أوروبا، وهي 42.8 حالة حمْل لكل 1000 فتاة، تحت سن 18 عاما في العام 2003، أي خمسة أضعاف الرقم في هولندا، وثلاثة أضعافه في فرنسا.

أرقام أوروبية تشيرُ إلى أنّ ثلثي المواليد في آيسلندا هم لقطاء، وفي الدنمارك وأستونيا والنرويج والسويد نصف المواليد لقطاء، وفي فرنسا 40% من المواليد لقطاء، وفي إنجلترا والنمسا وبلغاريا وسلوفينيا ثلث المواليد لقطاء!

وتشير إحصائيّاتٌ حديثةٌ لشرطةِ جنوب أفريقيا، بأنّ 21 ألف حالة اغتصاب لأطفال أو اعتداء عليهم تمّ الإبلاغُ عنها، ارتُكبتْ ضدَّ أطفالٍ صغارٍ حتّى سنّ تسعة أشهر! ووفقًا للتقديرات، فإنّ حالةً واحدةً فقط مِن كلّ 36 حالةِ اغتصابٍ يتمُّ الإبلاغ عنها.

أمّا في اليمن فيرى مسؤولو وزارة الداخليّةِ اليمنيّة، أنّ العددَ الحقيقيَّ للزيجاتِ الفعليّةِ، لا يُمثّل سوى 40%، وذلك بسببِ لجوءِ الكثيرينَ إلى عدم تسجيلِ عقودِ زواجهم، تجنّبًا للتعقيداتِ الإداريّة! فماذا عن أطفالِهم الذين لم يسجَّلوا في السجلّ الرسميّ والشرعيّ، وفي أيّةِ خانةٍ يُدرَجونَ قانونيًّا؟

تقدر جمعيّاتُ حقوقِ المرأةِ في السودان، أنّ عددَ الأطفالِ اللقطاءِ 1500 لقيط في العام!

خلال سنة 2007 كشفت الحكومة الجزائرية تسجيل 2887 طفل خارج مؤسسة الزواج، ويتراوح عدد هؤلاء سنويًّا بين 2900 و3000، ومعدل الأمهات العازبات سنويًّا هو 3500. (اشهيار عبد الجواد الحوار المتمدن 23-4-2008)

أمّا السعوديّة فقد سجّلت 280 حالة طفل وطفلة لقيط في العام 2007م، وأكّدتْ شرطةُ منطقةِ المدينةِ المنوّرة، أنّها تعثرُ على ستّةِ لقطاء أسبوعيًّا؟ (أحمد البشرى، إيلاف 2008/6/1)

هذه بعضُ نماذج موجعةٍ لبعض تقاريرٍ أشدُّ إيلامًا، حولَ هذه الفئةِ من الأطفال عربيًّا وعالميًّا!

ألا ينبغي البحث عن أسبابِ انتشارِ ظاهرةِ أطفالٍ غير شرعيّين ولقطاء في العالم عامّة، وفي العالم العربيّ خاصّة، للتمكّنِ من علاجِ الأسباب أوّلاً، قبلَ إعطاءِ حلولٍ قد لا تُجدي إن لم تضرّ؟

هل هذه الظاهرةُ كما يُسمّيها البعضُ "ظاهرةَ سقطاتِ الفقراءِ"، بسببِ الفقرِ وتزايدِ معدّلاتِ البطالة، وانهيارِ الأوضاعِ المعيشيّةِ والاقتصاديّةِ، وبسببِ العزلةِ وضيقِ الحالِ وسوءِ ظروفِ

المعيشةِ، أم بسببِ الضغوطِ النفسيّةِ المختلفةِ، واضطرارِ الأهلِ إلى تزويجِ فتياتِهم زواجًا مُبكّرًا ومتسرّعًا، خوفًا من الانحرافاتِ السلوكيّةِ وفقدانِ الأمان؟ هل بسببِ إشغالِ صغيراتٍ في خدمة البيوت وميادين أخرى تعملُ على استغلالهنّ؟

وبالمقابل أليسَ هناكَ سقطاتٌ للأغنياء؟ فما الفرقُ بينهما؟ هل الفتيات المقتدرات ينجحنَ في إتمامِ عمليّاتِ الإجهاضِ، وعدم الوقوع في مسلسلِ المعاناةِ؟ وهل بنفس النِّسب؟

أليسَ في كلا الحالتيْن سقطاتُ فقراء وأغنياء؟ إذًا؛ أينَ يكمنُ الخلل؟ هل الأسرة دائمًا وفي معظمِ الحالاتِ تشكّلُ الملجأَ والحضنَ الحنونَ والعطوفَ والآمنَ لأبنائِها، أم أنّ هناك نسبةً مِن الأُسَر ينفجرُ صمّامُ أمانِها، فيودي بأطفالِها إلى الشوارع، ليصيروا في ليلةٍ وضحاها ضحايا مؤسّساتٍ أو شوارع، يَسهلُ استغلالهم وإغواؤهم والإيقاع بهم، ممّا تنتج عنه ولاداتٌ وإجهاضاتٌ اضطراريّةٌ خارجَ إطارِ مؤسّسةِ الأسرة؟

هل الأسرة آخذة في زوالِ مفهومِها وتأثيرِها، كمؤسّسةٍ مركزيّةٍ وبنّاءةٍ في المجتمع لدى بعض الفئاتِ، أو عندَ شرائح معيّنة، على خلفيّةِ تقريرٍ فرنسيٍّ يكشفُ، أنّ حالاتِ الزواجِ تنخفضُ في فرنسا بنسبة 30% كلّ عام، بينما ترتفعُ نسبةُ الذين يعيشون معًا بدون رابطٍ شرعيٍّ إلى معدّلٍ كبير؟

هل بسببِ ظهورِ زيجاتٍ آنيّةٍ وكثيرةٍ، استُحدِثتْ لها أسماءٌ كثيرة، لكن ليسَ لها هويّةٌ واضحةُ المعالمِ بحقِّ الأمِّ والوليدِ على أرضِ الواقع، فتكونُ ضحيّتُها الأمُّ ومَن حمَلتْهُ في أحشائِها؟ ولماذا يتنكّرُ الوالدُ ويتجاهلُ ابنَهُ ويرفضُ الاعترافَ بوليدِهِ؟ هل للتنصّلِ مِن مسؤولية أعباءِ الحياةِ أو من أخطائِهِ الجسيمةِ؟

هل بسببِ ضعفِ الوازعِ الأخلاقيِّ والدينيّ، وغيابِ الضميرِ الإنسانيِّ عندَ الاستسلامِ للرغبةِ والشهوةِ والمتعةِ الجسديّةِ، أم بسبب الخوف من العائلةِ والمجتمع، أم بسبب النظرةِ الدونيّةِ لتلكَ الضحيّة؟

نبع فياض مِن الأسئلةِ تتوارد وتتوافدُ، لكنّي سأختمُها بالتالي: هل تعديلُ القانونِ بخصوص كنية المولود وتبعيته لوالدته، سيُلغي حقيقةَ ثقافةِ مجتمعٍ متشدّدٍ وقاسٍ، يهتمُّ بالقشورِ والتغطية المؤقّتة، إلى حين يكبرُ الطفلُ، وسرعانَ ما يزولُ هذا الغطاءُ والقناعُ عندَ أوّلِ مواجهةٍ حقيقيّةٍ بالواقع، وتكونُ النكسةُ المعنويّةُ عليهِ أشدَّ مِن الأولى؟

قد يصبُّ هذا القانونُ في الصالح العامّ، لكن؛ هل يكونُ الحلَّ الأمثلَ لمعضلاتٍ تفاقمتْ، وخرجتْ عن دائرة السيطرةِ الواقية؟ وهل يتمكّنُ القانونُ مِن حلّ المشكلةِ مؤقّتًا وجزئيًّا لفئةٍ ليست بصغيرةٍ، قياسًا مع المشاكلِ العديدةِ والمتفاقمةِ بحقِّ الطفل؟

هل هناكَ حاجة ماسّة ومُلِحّة، لإجراءِ دراساتٍ مستفيضةٍ، ومسحٍ إحصائيٍّ شاملٍ ودقيق، من أجل وضعِ آليّاتِ عملٍ مدروسةٍ، وحلِّ هذه المعضلاتِ من جذورِها، دونَ الوقوعِ في فخِّ التخفيفِ أو التهويلِ مِن قيمةِ الإحصائيّاتِ، أم أنّ سياسةَ النعامةِ ستظلُّ سمةٌ تكمنُ في حنايا مجتمعنا ودقائق عقليّاتنا، فلا نعي ما يدور في صميم حيواتنا لنقدّسها بنا؟

فلذاتُ أكبادِنا تمشي على الشوكِ!

أخبارُ أطفالِنا في العالمِ عامة والعربيّ خاصّةً تؤرّقُ الفكر والعين والقلب، وأبيات شعريّةٌ تراود هاجسي وتخاطب جوارحي الداخليّة وأحاسيسي اللامنظورة:

أنزلني الدهرُ على حُكمِهِ من شامخٍ عالٍ إلى خفضِ/ لولا بُنيّاتٌ كزُغْبِ القطا أُجْمِعْنَ من بعضٍ إلى بعضِ/ لكان لي مضطربٌ واسعٌ في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرضِ/ وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرضِ/ لو هبّت الريحُ على بعضِهم/ لامتنعتْ عيني عن الغمض

كيف بهم أطفالنا حين يمشونَ حفاةً على مساكبِ الشوك، وعراةً تحتَ وهج نيرانِ الحرب ولظى الفقر والإهمال؟ كيف لأولي الأمر وذويهم؛ مَن ينبغي أن يكونوا لهم أرضًا ذليلةً تنبتهم وترعاهم، وسماءً ظليلةً تحنو عليهم وترأف بهم، حين يعتريهم هزالٌ وكسلٌ عندَ قطفِ ثمارِ قلوبهم؟ فهل تضيعُ الغمارُ والثمارُ (الأبناءُ)، في سِلالٍ هشّةٍ من الأوراق الرسميّة الواهية؟

ضجيجٌ عارمٌ حولَ قانونٍ أقرّهُ المجلسُ الشوريّ المصريّ، يُجيزُ فيهِ للأمِّ المصريّةِ أن تَنسبَ الطفلَ إليها في أوراقِ ميلادِهِ الثبوتيّةِ! قانونٌ يُجيزُ نسبَ المولودِ إلى أمّهِ ولا يُلزمْ ولا يُجبرْ؟ إذًا هو قانونٌ اختياريٌّ لا بدّ أن يخدمَ شريحةً معيّنةً، وليسَ مفروضًا على المواطنِ المصريِّ! لماذا قوبلَ القانون باستهجانٍ ورفضٍ شديدَيْن، مِن كثيرٍ مِن فئاتِ المجتمعِ المختلفة، منذ شهر آذار عام 2009؟ ولماذا لا زالَ هذا الموضوعُ يحتلُّ جدلاً في أوساطِنا العربيّةِ خاصّة؟ هل هو الخوف من عدوى تفشي القانون وانتشاره في الدول العربيّة قاطبة؟ هل لِما في الأمرِ مِن خروجٍ عمّا ألفَهُ المواطنُ العاديُّ عبْرَ قرونٍ وعصورٍ؟ هل لأنّ القانونَ حملَ ما حملَ مِن تأويلاتٍ واحتمالاتٍ وأبعادٍ، لم يُدرك المواطنُ البسيطُ كنهَها دينيًّا واجتماعيًّا، فاختلطَ الحابلُ بالنابل؟

الناشطة النسائيّة د. نوال السعداوي أطلقتْ دعوةً منذ زمن بعيد، طالبتْ فيها بتعديلِ القوانين، وإعطاءِ المرأة حقَّها في نسْبِ المولودِ إليها، لكنّها هوجمتْ ورُفِضَ اقتراحُها حينذاك تحتَ مُبرّراتٍ شتّى، وكأنّ في الأمرِ تحقيرٌ للطفل! لكن؛ ما الذي دعا ودفع بحكومةِ مصر إلى سنّ وإقرارِ هذا القانون، بإيعاز مُعزَّز مِن مشيرة الخطاب، رئيسة المجلس القوميّ للأمومةِ والطفولةِ بمصر، وفي هذا الوقت بالذات؟ هل المسألةُ او المعضلة محصورةٌ في نسْبِ المولودِ للأبِ أو الأمّ أو معًا في أوضاعٍ طبيعيّةٍ للأسرة كحقٍّ شكليٍّ للمرأة، أم أنّ الأمرَ يتعدّى موضوعَ الانتساب، إلى مُداراةِ ظواهر اجتماعيّةٍ غير سويّة؟ هل تعديلاتُ هذا القانون مصريّةٌ وغيرُ مستوردةٍ، وليستْ بإيحاءاتِ جهاتٍ أجنبيّةٍ تعرّضتْ لضغوطِها، أم هي فعلاً وليدةُ حاجةٍ قصوى، تستدعي تداركَ أوضاعٍ اجتماعيّةٍ مُزريةٍ تحتاجُ إلى علاج؟

بحسبِ تصريحاتِ مشيرة الخطاب، فإنّ التعديلاتِ تمّ إعدادُها وصياغتُها مِن قِبلِ اللجنةِ التشريعيّةِ بالمجلسِ القوميِّ للأمومةِ والطفولة، وقامت لجنةٌ من وزارةِ العدلِ بتنقيتِها قبلَ تقديمِها لمجلس الشعب، وهذه التعديلاتُ مصريّةٌ خالصةٌ 100%. (إيمان عبد المنعم - شريف الدواخلي).

أيّ نوعٍ مِن الأمّهاتِ يقصدُ بها القانونُ المصريّ؟ هل يقصدُ الأمَّ المصريّةَ التي تربطُها علاقةٌ زوجيّةٌ شرعيّةٌ مع زوجٍ مصريٍّ هو والدُ أبنائِها، أم كما في حالةِ نوال حلمي ابنة د. نوال السعدي، أم أنّ الزوجَ غيرُ مصريٍّ ويحملُ جنسيّةً أخرى، أم هي الأمُّ التي لا يعترفُ والدُ ابنِها إن كانَ شرعيًّا أو غيرَ شرعيٍّ ببنوّةِ الوليد، أم هي الأمُّ المصريّةُ مَن كان والدُ وليدِها مصريًّا لكن مجهولُ الهُويّة، أم أنّ الأمَّ عازبةٌ أو ليس لديها وثيقةُ زواجٍ، إذ خضعتْ للزواج المبكّر، ولا تملكُ عقدًا قانونيًّا لأنّها دونَ سنِّ الزواج؟ هل إقرار قانونٍ يُجيزُ للأمِّ أن تَنسبَ الطفلَ إليها، وتُسجّلَهُ بنفسِها دونَ حاجةٍ لوثيقةِ زواج، سيحلُّ فعلاً مشكلتَها ومشكلةَ وليدِها اجتماعيًّا واقتصاديًّا ومعنويًّا لاحقًا، أم أنّ الحلَّ هذا سيظلّ شكليًّا، إن لم يكنْ قنبلةً موقوتةً قد تنفجرُ في أيّةِ لحظة؟

لكن؛ أليس إزاحةُ النسبِ غير الشرعيّ عن كاهلِ الأبِ البيولوجيّ، وإلحاقُ الخطيئةِ ووصمةِ العارِ بالأمّ وحدها وبعائلتِها، فيه الكثير مِن التمييز وتحميلها المسؤوليّة الكاملة، إن لم يكن انتقاصًا مِن قدْرِها وقدْرِ وليدِها؟ وهل هذا القانونُ يوفّرُ مظلّةً قانونيّةً لأطفالٍ يعانونَ من خللٍ اجتماعيٍّ، ناتجٍ عن عدم وجودِ الأب نتيجةَ ظروفٍ غامضةٍ، كحوادثِ الاغتصابِ والدعارة والزواجِ المبكّرِ والاستغلالِ؟ هل يُراعي القانون فعليًّا تحقيقَ مصلحةِ هؤلاء الأطفال، من أجل حمايتِهم والتصدّي لظواهرِ العنفِ ضدّهم، وضمانِ حصولِهم على حقوقِهم، وتوفيرِ ظروفٍ معيشيّةٍ كريمةٍ أفضلَ لهم؟ وهل يتمكّنُ القانونُ مِن الحدِّ مِن هذهِ الآفةِ الاجتماعيّةِ في العقودِ القادمةِ؟ وهل القانون هذا يساهمُ مساهمةً فاعلةً إيجابيًّا في حلِّ مشكلةِ ابن الزنا (اللقيط)، ويُشجّعَ أمَّهُ على عدم التخلّي عن وليدِها عندَ أبوابِ المساجدِ والكنائس، أو قربَ حاوياتِ القمامةِ أو في المنتزهاتِ العامّةِ أو أماكن أخرى؟ وماذا لو فعلتْ حقًا، ولقيَ هذا القانونُ تجاوبًا كبيرًا من هذه الأمّهات، فهل يَقبلُ المجتمعُ بحقيقةِ هذه المرأةِ وبابنِها، فيتلقّفُهما بالرحمة والمودّة، أم أنّهما سيخضعانِ معًا للذلّ والمهانة، وينتهي بهما المطافُ إلى الانتحار أو إلى الشارع، أو إلى الانتقام بأشكالٍ مختلفة، أو إلى الاستغلالِ بشتّى الخدعِ والحِيل؟

ماذا يُدعى اللقطاءُ في أوراقِهم الثبوتيّةِ إن لم يُنسَبوا إلى أمّهاتِهم؟ وعلى فرْض أن تبنّاهم فاعلو خير، فهل تتغيّرُ النظرةُ تجاهَهم، ويحصلونَ على كاملِ حقوقِ البنوّة لاحقًا، أم أنّ الأمورَ ستنقلب عليهم بمجرّد أن يخرجوا مِن كؤوس أزهارِ الطفولةِ، ليدوسَهم المجتمعُ المُجحِفُ بالخذلانِ والنبذِ والتعييرِ والمقاطعةِ والمطاردة؟ ما هي الأضرارُ النفسيّةُ الحاضرةُ واللاحقةُ بهؤلاءِ اللقطاءِ الضحايا، وأيُّ مستقبلٍ نتوخّاه منهم ولهم، وهم يعيشونَ الماضي والحاضرَ مظلومين ومنبوذين اجتماعيًّا، ويحملونَ في حنايا أرواحِهم معنويّاتٍ سلبيّةً قاتمة؟ هل مشكلةُ هذهِ الفئة مِن الضحايا اللقطاءِ تقتصرُ على نسبِ الطفلِ إلى أمِّهِ وإلى اسمٍ وهميٍّ للوالد، أم أنّ جذورَ المشكلةِ أعمقُ مِن كنيةٍ أو انتسابٍ، وأنّ الحلّ يكمنُ في احتضانِ هذه الأسَرِ المشرذمةِ والخارجةِ عن سياقِ المجتمع، وإرجاعِها إلى بستانِ الإنسانيّةِ واحتوائِها، من أجل الحدِّ مِن تفاقم واتّساع سلسلةِ هذهِ المآسي البشريّةِ مستقبلا؟

وماذا عن أطفالٍ صغارٍ تاهوا في الشوارع وفقدوا أسَرَهم، ولم تستدلّ الجهاتُ المختصّةُ إلى أسرِهم الحقيقيّة؟ وكيف ينتهي الحالُ بهذه الفئةِ الأخرى، وتحتَ طائلةِ أيّة مسمّياتٍ يقعون؟ مشرّدون؟ تائهون؟ ضائعون؟ أبناء شوارع؟

اليومُ العالميُّ لمناهضةِ تجنيدِ الأطفال

بتاريخ 12-2 مِن كلّ عام يُصادفُ اليومُ العالميُّ لمناهضةِ تجنيدِ الأطفال، الذين يبلغُ عددُهم أكثرَ مِن ربع مليون طفلٍ في العالم، وبحسبِ وثائقِ رصْدِ اليونيسيف "منظمة الأمم المتّحدة للطفولة" بين عامَيْ 2004 و 2007، فهناك 19 دولة تُجنّدُ الأطفالَ دونَ سنّ 18.

في إفريقيا العددُ الأكبر: جمهوريّة إفريقيا الوسطى، بوروندي، الكونغو، الصومال، أوغندا، رواندا، والسودان. وفي آسيا: ميانمار، بنغلاديش، أفغانستان، تايلاند، الفلبين، أندونيسيا، سيريلانكا والنيبال.. وفي الشرق الأوسط: العراق، إيران، إسرائيل، فلسطين وقبائل اليمن.. وفي أمريكا اللاتينيّة أكثر من 14 ألف طفل في كولومبيا. وفي أوروبا: الشيشان وتركيا.

ضراوةُ الحروب تُعرقلُ سُبلَ النجاة منها، وتُخلّفُ أضرارًا جسيمة مِن انتشار: جوع، أوبئة، مآسٍ، معاناة، قهر، يُتم، تشوّه جسدي ونفسي، قلق، خوف، توتّر، عدوانيّة، سجن، اكتئاب، ونتائجَ فادحةً ومخاطرَ أخرى يتكبّدُها الأطفالُ الضحايا، إضافةً إلى تدميرِ البُنى التحتيّة وانعدام الخدمات، وبالتالي حرمانهم مِن الضمانات المتعلقة بأمنهم الغذائيّ والمجتمعيّ والصحّيّ، وانتزاعِهم من بيئتهم الأُسريّة، أو سجنهم، أو فرارِهم بلا هُويّة، فهل مِنَ العدالةِ أن ينخرطَ الأطفالُ في رحى التجنيدِ لتطحنَهم الصراعات، وليكونوا وقودًا يُغذّي آلاتِ الحروب والمجازرَ البشريّة؟

يقولُ فولتير فيلسوفُ الثورة الفرنسيّة الكبرى: "إنّ أعظمَ عملٍ إنسانيٍّ هو ردُّ العدالةِ لمَن فقدَها"، فكيفَ يمكنُ إعادة العدالةِ للجنودِ الأطفال؟

في رواية الحنين إلى كاتولونيا لجورج أورويل، أشارَ إلى الجنودِ الأطفال في الحرب الأهليّة الإسبانيّة!

وتقاريرٌ دوليّة ومنظّماتٌ حقوقيّة ذكرت أنّ الجنودَ الأطفالَ استُخدِموا على نطاقٍ واسعٍ في الحربِ العراقيّة الإيرانيّة، رغمًا عن القانون الإنسانيّ (البروتوكول الإضافي الأوّل، المادة 77، الفقرة 2)، الذي يقضي بأنّه "يجبُ على أطراف النزاع اتخاذ كافة التدابير المستطاعة التي تكفلُ عدم اشتراك الأطفال، الذين لم يبلغوا بعد سن 15 في الأعمال العدائيّة بصورة مباشرة، وعلى هذه الأطراف بوجه خاصّ، أن تمتنعَ عن تجنيدِ هؤلاء الأطفال الصغار في قوّاتها المُسلّحة، ويجبُ في حالةِ تجنيد هؤلاء ممّن بلغوا سن 15 ولم يبلغوا بعد 18، أن تسعى لإعطاء الأولويّة لمن هم أكبر سنّا".

إنْ كانَ القانون يقضي بعدم انتهاكِ حقوق الطفل وبمنع تجنيده، إذن كيف يتمّ التجنيد؟ طوعًا أم قسرًا؟ يُستخدَمون كمرتزقةٍ بسببِ الفقر أم بالسُّخرة؟ هل الظروفُ البيئيّةُ تفرضُ نفسَها في حالةِ الحرب؟ كيف يغدو الأطفالُ منخرطينَ في القوّاتِ المُسلّحة كناشطي حرب؟ بالتغريرِ بهم وغسْلِ أدمغتِهم؟ بالبحث عن الحمايةِ عندَ تهميشِهم وحرمانِهم مِن الحمايةِ الأسريّةِ والاجتماعيّة؟ هل السلاحُ يُلغي خوفَ الطفولةِ والرعونةَ وعدمَ النضج؟

فيلم عِزرا مِن إخراج نيوتو نادواكا النيجيري، وإنتاج نيجيريّ وفرنسيّ ونمساويّ، يتحدّث عن قصّةٍ في إفريقيا، إذ يخضعُ شابٌّ يبلغُ مِن العُمر 17 عامًا للدفاع عن نفسِهِ، لاتّهامِهِ بارتكابِ جرائم في حق مدنيّين وقتل والدَيْهِ واغتصاب أختِهِ وقطْعِ لسانها كي لا تشهدَ عليه، إضافةً إلى هجومِهِ على ثلاثِ قرى مجاورة، كونه قائدًا في صفوف المتمرّدين.

عِزرا اختطفته عصابةٌ في السابعةِ مِن عمرِهِ مِن مدرستِهِ مع مجموعةٍ مِنَ الأطفال، وتمّ اقتيادُهم إلى الأحراش والأدغال، حيثُ غُسلت أدمغتُهم ودُرّبوا على حمْلِ السلاح، وزُوّدوا بالمخدّراتِ قبلَ ارتكابِ الأفعالِ الوحشيّةِ الشنيعةِ، كي يُقاتلوا بصورةٍ أشرسَ ولا يتذكّروا الأحداث، واتّبعوا وصايا البالغين بطاعةٍ عمياءَ، إجباريًّا وليس اختياريًّا.

و"سياج" لحمايةِ الطفولةِ باليمن تُحذّرُ مِن كارثةٍ إنسانيّة، يقعُ تحت طائلتِها تجنيدُ أكثرَ مِن 50 ألف طفلٍ يمنيّ، يَحملون السلاح ويُشاركونَ في حرب عصاباتٍ وعمليّاتٍ قتاليّةٍ ويهتفون بشعاراتِ الحوثيّ، ويُعرّضون سكّانَ القرى المدنيّين إلى خطرِ الموتِ والتشرّد، ويستهدفونَ الأطفالَ لاستخدامِهم دروعًا بشريّة وإقحامهم في المعاركِ الحربيّة!

وفي جيش الرّب الأوغندي الذي يقودُهُ جوزيف كوني تشيرُ التقديرات إلى تجنيد (15- 30 ألف) طفل، تمكّن خمسة آلاف مِن الهرب، فما مصيرُ جيلِ الأطفال المُجنّدين الذين اختُطِفوا وجُنّدوا منذ عقديْن، وأُجبِروا على العمل بالسخرة والقتل والاغتصاب والنهب، بعد أن خرجوا مِن الأحراش الأوغنديّة إلى جنوب السودان؟

يقول الهولنديّ نيكو بلوير ممثل منظمة باكسا كريستي: "جُهّزت بعضُ المراكز لاستقبالِهم وتوفيرِ المأوى والغذاء والأدوية لهم، حتّى لا يُهاجموا السكّانَ المدنيّين في المنطقة." هل توفيرُ منظّمات الإغاثةِ للغذاءِ والأطبّاءِ والأدويةِ الصحّيّة هو حلّ؟ هل الجنودُ الأطفال ضحايا، أم مذنبون يجبُ أن يُكَفّروا عمّا اقترفوه؟ هل يتحمّلونَ مسؤوليّةَ ما ارتكبوه، فيُقاضونَ ويُعاقبون في محاكم خاصّة وبنظامٍ قضائيّ خاصٍّ بالأحداث؟ هل يمكن استيعابُهم في الجيش الوطنيّ؟

كيفَ ينظرُ المجتمعُ إليهم؟ هل يقبلُ بهم؟ كيف؟ وما هي المراحلُ التي تحقّقُ ذلك؟ هل يمكنُ إرسالُهم للمدارسِ وتوفيرِ دوراتٍ مهنيّةٍ تأهيليّة، لمساعدتِهم في الاندماج في المجتمعِ مِن جديد؟ وهل يتأقلمون؟ هل تتوفّرُ الميزانيّاتُ والإمكاناتُ والمواردُ لعلاجِهم نفسيًّا وجسديًّا لمدى بعيد، أم هناكَ تجاهلٌ واعتباراتٌ أخرى محسوبة؟ هل يمكنُ إعادةُ بعضِهم إلى ذويهم ومجتمعاتِهم رغمَ المصاعبِ والتعقيداتِ التي تحفُّ بالأمر، أم قد يساهمُ الحلُّ هذا في تصعيدِ الأزمة، والعودةِ لاحقًا إلى التشرّدِ وتكوينِ عصاباتٍ وخطْفِ أطفالٍ جُدُد؟

وماذا عن الطفلاتِ اللواتي يَعُدنَ مع أطفالٍ زنى؟ هل يُرحّبُ بهنّ المجتمع ويَقبلهنّ دون تمييز ضدّهنّ، مِن منطلق أنّ "كلّنا كالقمرِ لهُ جانبٌ مُظلم"؟ هل يمكن إصلاحُ الأطفالِ الجنود وإنقاذُهم ممّا ابتُلوا به، والتخلّص ممّا اعتادوا عليه مِن آثامٍ وجرائمَ، وشفاؤُهم مِنَ الأعمالِ المُريعةِ التي ارتكبوها وشاهدوها؟ وأخيرًا.. ما عقابُ مُجرمي تجنيدِ الأطفال؟

اليومُ العالميُّ لمناهضةِ تعسّفاتِ الشرطةِ

مناشداتٌ تَبلُغُنا للتضامن مع قضايا إنسانيّةٍ عديدة، كإغلاقِ وسيلةِ إعلامٍ ومُقاضاتِها، بحُجّةِ التشهيرِ والخطابِ الكاذب، لمجرّدِ تناوُلِ مواضيع حقوقيّة أو وطنيّة! ومناشداتٌ أخرى تُبلِغُنا عن اختفاءٍ قسريٍّ وتفشّي عمليّاتِ توقيفٍ واحتجازٍ تعسّفيّ، وتُطالبُ بالإفراجِ عن أطفالٍ ونساءٍ اختُطِفوا للاتّجارِ بهم أو لتزويجِهم، وعن احتجازِ نساءٍ وفتيان ومواطنينَ ولاجئينَ، ورعايا أجانب بدون جنسيّات ترفضُ دائرةُ الأمنِ الوطنيّة والمخابرات طلباتِ لجوئِهم وقرارات ترحيلِهم، وعن احتجاز كُتّابٍ وأدباء وصحفيّينَ وطلّابٍ ونشطاء وسياسيّينَ ومُعارضينَ ومُتمرّدين ومُحرّضين اختُطِفوا دونَ إعلامِ أُسَرِهِم، ودونَ معرفةِ أسبابِ الحجْزِ ومُدّتِهِ ونتائجِه، ودون معرفةِ الجهةِ التي اعتقلَتْهم، إن كانتْ مِنَ الشرطةِ أو أعوانِ الدولة، ودونَ معرفةِ مكان احتجازِهِم: في مراكزِ شرطة، قواعدَ عسكريّةٍ، سجونٍ سرّيّةٍ وغيرِ رسميّة، أو في مقرّاتِ المخابرات!؟

كثيرٌ مِنَ المُدَّعى عليهم تقومُ الشرطةُ بتوقيفِهم دونَ إجراءاتٍ قانونيّةٍ أو خارجَ رقابةٍ قضائيّة ورسميّةٍ لوزارةِ العدل، وبناءً على أقوالِ شهودٍ مجهولي الهُويّةِ، فتتذرّعُ بظروفٍ استثنائيّةٍ لتبريرِ التعذيب، وتُمارسُ انتهاكاتٍ خطيرةً بحقّهم، بأنماطٍ مُتعسّفةٍ واعتقالاتٍ سِرّيّةٍ وعلنيّةٍ، واستجوابِهم وتهديدِهم وملاحقتِهم وتعذيبِهم، فتُعرّضُهم للاعتداءِ والاغتصابِ وللعنفِ الجنسيّ وتشويهِ الأعضاءِ التناسليّة، بضروبٍ مُهينةٍ ومعاملاتٍ لا إنسانيّةٍ، لانتزاعِ اعترافاتِهم القسْريّةِ أو لِحمْلِهم على التوقيعِ على مَحاضِرَ لم يَقرؤوها، فلا تُتيحُ لهم الاتصالَ بمُحامٍ لإعدادِ الدفاع، ولا تستمعُ إلى شهودِ الدفاع، بل تُعيقُ محاكمَتَهم ولا تسمحُ بالطعنِ في حُكمٍ صادرٍ بحقّهم، وقد تُنفّذُ فيهم عقوبةَ الإعدامِ وخارجَ القضاء!

لمَن ينبغي التوجّهَ بالتظلُّم؟ هل لهؤلاءِ المُحتجَزينَ ضماناتٌ حقوقيّةٌ؟ ما هي؟ وكيفَ يمكنُ إنصافُهم وتقديمُ الشكاوى ورصْدُ هذهِ الانتهاكاتِ والتصدّي لها؟ ما مسؤوليّةُ مَن يُمارسون شتّى أشكالِ التعذيب، والمتواطئينَ والمشاركينَ مِن حيث العِقاب؟

الجمعيّةُ العامّةُ في الأممِ المُتّحدةِ اعتمدت الاتّفاقيّة في قرارِها في 10-12-1994، وبدأ الانضمامُ والتوقيعُ في 4-2-1985، والتنفيذ في 26-6-1987. الدولةُ الطرفُ التي وقّعت الاتفاقيّةَ، لديها مُنظّماتٌ حقوقيّةٌ دوليّةٌ تتطرّقُ إلى وضعيّةِ حقوقِ الإنسان، وتشريعاتٍ واتّفاقيّاتٍ دوليّة في هذا المجال، مِن حيث حقّ الفردِ في عدَمِ التعرّضِ لجميعِ أشكالِ التعذيب، واعتمادِ القانونِ الجنائيّ الذي يُحرّمُ ممارسةَ التعذيبِ والعنفِ الجنسيّ والممارساتِ التقليديّةِ الضارة، فالتعذيبُ محظورٌ بشكلٍ مُطْلقٍ ومُدانٌ بحسب القانون، لاتّسامِهِ بخطورةٍ بالغةٍ على الضحايا.

أهمُّ الضماناتِ للمُحتجَزين: أن يُعلموا بسببِ توقيفِهم والتهمِ المُوجّهةِ إليهم، والاتّصال بأُسَرِهِم وبمُحامٍ والاستفادةِ بمساعدةٍ قانونيّة، والخضوعِ للفحصِ الطبّيّ، وإعادةِ النظرِ في شرعيّةِ احتجازِهم وِفقًا للمعاييرِ الدوليّةِ وليسَ لدستورِ الدولة، وتخفيفِ عقوباتِ الإعدامِ عن سجناء عنبرِ الموت، وتأمينِ الحمايةِ المنصوصِ عليها في الاتّفاقيّة!

هل هناكَ تعريفاتٌ واضحةٌ بخصوصِ أشكالِ التعذيبِ، تدخلُ في نطاقِ الاتّفاقيّةِ وتَحُولُ دونَ تعسّفِ السلطة؟ هل حكوماتُنا تتمتّعُ بإرادةٍ سياسيّةٍ عادلةٍ ومُهيّأةٌ لتنفيذِها؟ ماذا عن الجهازِ القضائيّ حينَ يتعرّضُ لتدخّلاتِ الجهازِ التنفيذيّ، ولضغطٍ سياسيٍّ وحالاتِ تخويفٍ وتهديدٍ وعزْلٍ وفصْلٍ وتواترٍ، وفرْضِ اعترافاتٍ مُنتزَعةٍ بواسطةِ التعذيب؟ هل هناكَ متابعاتٌ للتوصياتِ والاقتراحاتِ بخصوصِ الشكاوى المُتعلّقةِ بانتهاكاتِ حقوقِ الإنسان، ورصْدِ المَرافِقِ الصحيّة، ومُلاحقةِ القضايا التي يُثبَتُ فيها التعذيبُ وسوءُ المعاملة، وإحالة الاستنتاجاتِ إلى النيابةِ العامّةِ وتقديم بياناتٍ وإحصاءات؟

وهل التحقيقاتُ حقًّا تُوكَلُ إلى الإداراتِ الاتّحاديّةِ للتحقيقاتِ الجنائيّةِ وللمَحاكِم، ويُعهَدُ بها إلى هيئاتٍ مستقلّةٍ، ومكاتبَ إداريّةٍ مُخوّلةٍ بمصداقيّةٍ عادلةٍ، لضمانِ حمايةِ وإنصافِ مُقدِّمي الشكاوى، وعدمِ تهديدِهم وتزويرِ أدلّتِهم؟

وماذا عن لغةِ التحايلِ التي تتمُّ بتسجيلِ تاريخِ اعتقالٍ مُزوَّرٍ وتمديدُهُ، مِن أجل التمويهِ والتهرّبِ وعدمِ الامتثالِ للقوانينِ الدوليّة؟ وماذا عن امتثالِ الشرطةِ لأوامرِ المحكمةِ، بالإفراجِ عن المُشتبَهِ بهِ بكفالةٍ دونَ احتجازِهِ المُطوّلِ في الحبْسِ الاحتياطيّ، ثمّ تصفيته خارجَ القضبان؟ وماذا عن القوّةِ العسكريّةِ حينَ تقومُ بتنفيذِ مهامّ القانونِ بدلاً مِنَ الشرطة، في حالاتِ النزاعاتِ المُسلّحةِ التي لم تُعلَنْ فيها حالةُ الطوارئ، وبمنتهى التحايلِ تستخدمُ القوّةَ الفتّاكةَ في المُظاهرات؟ وماذا عن حالاتٍ يُقاضى ويُعاقَبُ فيها ذوو الرتَبِ المُتدنّيةِ المتورّطينَ في حالاتِ قتلٍ وتعذيب، بإيعازٍ مِن ذوي رُتبٍ عاليةٍ لا تَطالُهم يدُ القانون!

هل تتمتّعُ دولُنا بتدابيرَ سريعةٍ وفعّالةٍ لتكفلَ تمتّعُ جميعِ المُحتجَزينَ عمليًّا، بجميعِ الضّماناتِ الحقوقيّةِ القانونيّةِ الأساسيّةِ منذُ بدْءِ احتجازِهم؟ هل تعمل دولُنا الأطراف على تدريبٍ إلزاميٍّ في مجالِ حقوقِ المُحتجَزين، للقضاةِ ومُوظّفي السجون والشرطة والمخابراتِ وأفرادِ الجيش، بدوراتٍ وحلَقاتٍ دراسيّةٍ ومحاضراتٍ متعلّقةٍ بحقوقِ الإنسان، للتزوّدِ بوعيٍ ومهاراتٍ وتقنيّاتِ تحقيقاتٍ مناسِبةٍ لاستجوابِ الأفراد، تَحظُرُ التعذيبَ بشكلٍ مُطْلَقٍ؟

هل تُعزّزُ قدراتِ مكاتبِ مُحامي الدفاعِ، لإسداءِ خدماتِ المساعدةِ القانونيّة؟ وفي المجالِ الطبّيّ، هل تُجري تدريباتٍ تتعلّقُ بكيفيّةِ الكشْفِ عن آثارِ التعذيبِ، واستخدامِ دليلِ التقصّي والتوثيقِ الفعّالَيْنِ لضروبِ التعذيب؟ هل تفحصُ وتُقيّمُ مدى نجاحِ هذهِ الدوراتِ التعليميّة، وتُقدّمُ رعايةً صحّيّةً تضمَنُ استقلاليّةَ فحوصِ الطبّ الشرعيّ، وتقبلُ الاستنتاجاتِ كأدلّةٍ في الإجراءاتِ الجنائيّةِ والمَدنيّة؟ هل تتعاونُ معَ المُنظّماتِ غيرِ الحكوميّةِ واللجانِ الدوليّةِ كالصليبِ الأحمر وغيرِها مِنَ الآليّاتِ الدوليّةِ المستقلّة؟

وهل تسمحُ لهم بزياراتٍ فجائيّةٍ أو بانتظامٍ بعمليّاتِ تفتيشٍ وتقييم، للسجونِ والمَرافقِ الإصلاحيّةِ ومَرافقِ الاحتجاز، للرصْدِ المنهجيّ لأماكنِ الحرمانِ مِنَ الحُرّيّة، كي توفّرَ الحمايةَ للضحايا، والخدماتِ القانونيّةِ والطبّيّة والنفسيّة وخدماتِ إعادةِ التأهيل؟ هل تُشجّعُ وسائلَ الإعلامِ بنشْرِ الوعيِ والإعلانِ عن المُنظّماتِ غيرِ الحكوميّةِ كعنوانٍ للتظلّم؟

وختامًا... وعلى ضوْءِ أحداثِ الانتفاضاتِ في دولِ شرْقِنا ومنذُ عقودٍ، هل هناكَ حقًّا إجراءاتٌ ومقاضاةٌ للجُناةِ مُنتهِكي الحرّيّاتِ، ومعاقبتُهم بجزاءاتٍ مناسِبةٍ ومُلاحقاتٍ قانونيّةٍ تأديبيّة؟

أينَ الدفاعُ المدنيّ مِن صرخاتِ كوارثِ شعوبِنا؟!

بموجبِ قرارٍ وزاريٍّ أصدرَتْهُ هيئةُ الأمم المتّحدة بتاريخ 18-12-1990، خُصِّصَ الأوّلُ مِن آذار من كلِّ عامٍ يومًا عالميًّا للدفاعِ المَدنيّ والحمايةِ المدنيّةِ، إذ يُوافقُ الذكرى السنويّةَ لسَرَيانِ مفعولِ القانونِ الأساسيّ عام 1972. فماذا عن بُلدانٍ عربيّةٍ تضرّرتْ مِنَ الصراعاتِ الداخليّةِ والأزماتِ الخارجيّةِ والحروباتِ المزمنة على مرّ العصورِ، وعانت مِنَ الكوارثِ الطبيعيّةِ والبيئيّةِ، كالفيضاناتِ والزلازلِ والحرائقِ والجفافِ ونُدرةِ المياهِ والتصحّرِ، والكوارثِ الصناعيّةِ والمشاريعِ التنمويّةِ كالأمنِ الغذائي، وصراعاتٍ وتهديداتٍ متعدّدة على الشعب؟

الدفاعُ المدنيّ ليسَ قوًى وفِرَقًا عسكريّة، إنّما يمُدّ يدَ العوْنِ للمواطنينِ للدفاعِ عن الوطنِ وحمايتِهِ واستقرارِهِ، بمساعدةِ القوّاتِ المُسلّحةِ وإزالةِ المخاطرِ والأضرارِ التي يُلحِقُها العدوُّ بالوطن، كالقنابلِ والألغامِ والغازاتِ الجوّيّةِ والإشعاعاتِ، وتقديمِ الإسعافاتِ وبناءِ المخابئِ والملاجئِ ومواجهةِ الكوارثِ الطبيعيّةِ والصناعيّة.

عام 1931 أقامَ د. جورج سان بول الفرنسيّ جمعيّةَ "ليورد جنيف" في باريس، وعامَ 1958 حُوّلتْ إلى "مرافئ جنيف" كمنظّمةٍ دوليّةٍ للحمايةِ المدنيّة، فانضمّتْ إليها جمعيّاتٌ حكوميّةٌ ومنظّماتٌ أهليّةٌ لحمايةِ السكّانِ وتعزيزِ مواجهتِهم للحربِ والكوارثِ الطبيعيّةِ والإشعاعاتِ في السلم، وفي موناكو عامَ 1966 أُقِرّتْ نصوصُ القانونِ الدوليّ الحاليّ كمنظّمةٍ غيرِ حكوميّة، وكارتباطٍ دوليٍّ يربطُ الدولَ الأعضاء، ودخلَ دستورُ المنظّمةِ حيّزَ التنفيذِ والمفعول في 1-3-1972، بوصْفِها منظّمةً دوليّةً، لتعزيزِ وتنسيقِ النظامِ العالميّ وتطويرِ أعمالِ المنظّمةِ ووسائلِها الفنّيّة، مِن أجلِ تداركِ وتخفيفِ نتائجِ الكوارثِ الطبيعيّةِ في السلم أو عندَ استخدامِ السلاح في النزاع، وعامَ 1975 سُجّلت المنظّمةُ في أمانةِ الأممِ المتّحدة في نيويورك، وعامَ 1977 وَضعَتِ المنظمةُ الصياغةَ القانونيّةَ النهائيّةَ لاتفاقيّاتِ جنيف.

أهمّ أهدافِ الدفاعِ المدنيّ: مكافحةُ كافّةِ أنواعِ الكوارثِ وشتّى المخاطرِ بمساندةٍ دوليّةٍ فعّالةٍ على الصعيدِ العالميّ، وتعزيزُ دوْرِ أجهزةِ وإداراتِ الدفاعِ المدنيّ في العالم، وتوطيدُ العلاقاتِ فيما بينَها وبينَ أجهزةِ الإعلامِ المختلفةِ، لتاديةِ الرسالةِ ولنشْرِ توجيهاتِ وتعليماتِ السلامةِ والحمايةِ للمواطنين، عقدُ ندواتٍ تعريفيّةٍ بالدفاعِ المدنيّ وواجباتِهِ ومهامّهِ، وتوزيعُ نشراتٍ ومُلصَقاتٍ توعويّةٍ على المُنسّقينَ والمُؤسّساتِ والمُواطنينَ والمدارسِ والجامعاتِ.

منذ عام 1990 حمَلَ الدفاعُ المدنيُّ شعاراتٍ حولَ خدماتِهِ وأدوارِهِ المختلفة كحقٍّ وواجبِ الجميع، وكجزءٍ مِن البرامجِ المدرسيّةِ، وكأداةٍ تضامنٍ لتطويرِ الحمايةِ المدنيّةِ، وركّزَ على العناصرِ الأساسيّةِ في الدفاعِ المدنيّ في منْعِ الكوارثِ وخدمةِ البيئةِ، وأمانِ الوطن وحمايةِ الأرواحِ والممتلكاتِ والبيئةِ، والخدماتِ التطوعيّةِ وتحليلِ المخاطرِ لتحقيقِ منْعِ الكوارثِ بشكلٍ أفضل، في القانونِ الإنسانيّ الدوليّ وسلامةِ الطرقِ، والسلامةِ في موقعِ العملِ وإجراءاتِ السلامةِ والإنذارِ.

مهامّ الدفاع المدنيّ: الاهتمامُ بزيادةِ وعْيِ الحكوماتِ حولَ الوقايةِ مِنَ الأزماتِ والتأهّبِ لها بطُرُقٍ مدروسةٍ وفعّالة، وتطويرُ قدراتِ السلطاتِ المَحليّةِ والإقليميّةِ والوطنيّة، وتطويرُ مشاريع وقايةٍ تحسينُ جداولَ أعمال، وإعدادُ خطّةٍ وطنيّةٍ للتأهّبِ للكوارثِ ولجانِ إغاثةٍ، ووضْعُ سياساتٍ وإنشاءُ أنظمةِ معلوماتٍ جغرافيّةٍ وآليّاتِ إنذارٍ مُبكّر، وقدراتِ تحليلٍ وقواعدَ بياناتٍ حولَ الخسائرِ الناجمةِ عنِ الكوارثِ وتقييمِ المخاطرِ وتفاديها، وتنظيمُ استراتيجيّاتٍ وطنيّةٍ لحلِّ النّزاعات، وتعزيزُ قدراتِ الإشرافِ والقيادةِ لتنسيقِ نهجٍ وقائيٍّ إقليميّ للتخفيفِ، وتحسينُ منهجيّةِ التأهّبِ والاستجابة، وتأهيلُ كوادرَ ومؤسّساتٍ وتنميةُ قدراتِها المادّيّةِ والتنظيميّةِ وتقنيّاتِها الوطنيّةِ لإدارةِ الكوارثِ، والتأهّبِ لحالاتِ الطوارئِ على أفضلِ وجه، وتعزيزُ عمليّاتِ الإنعاشِ بعدَ انتهاءِ الأزمات، وتعزيزُ التعاونِ وتبادلِ المعلوماتِ والتحليلاتِ للتبليغ عن الأخطارِ والتحذيراتِ في الوقتِ المُناسب، وإقامةُ شراكاتٍ مع مؤسّساتِ البحوثِ والجامعاتِ ووكالاتِ الأممِ المتّحدةِ وغيرِها مِنَ المنظّماتِ الإنسانيّةِ والإنمائيّةِ ذاتِ الصلة.

التنفيذُ يتمّ بحَمَلاتِ توعيةٍ حولَ السلامةِ الشخصيّةِ في حالاتِ الكوارث، واستستثمارِ البُنيةِ التحتيّةِ التكنولوجيّةِ وتطويرِ الدرايةِ التقنيّةِ اللازمةِ والدعمِ التقنيّ، ودعْمِ الأنشطةِ الهيكليّةِ وتخصيصِ الأموالِ اللازمةِ لها، لتخفيفِ آثارِ الفيضاناتِ والجفافِ كجزءٍ مُهِمٍّ في استراتيجيّةِ إدارةِ الموارِدِ الطبيعيّةِ والإنعاش، ووضْعِ خططٍ لدعْمِ وزارةِ الزراعةِ في التخفيفِ مِن آثارِ الجفافِ، والتعاونِ مع السلطةِ الاقتصاديّةِ بإدماجِ تدابيرَ السلامةِ مِنَ الزلازلِ بطُرقِ البناءِ وتطويرِهِ، وتنميةِ قدراتِها المُؤسّساتيّةِ والتنسيقيّة لإستباقِ التهديداتِ والوقايةِ منها ومواجهتِها، لأنّها تُعيقُ التنميةَ البشريّةَ والاستقرار، وتطويرُ قدراتِ قسم الأرصادِ الجوّيّةِ وتفويضِهِ بإصدارِ التحذيراتِ مِنَ الكوارث، ليَضمنَ التقييمَ السريعَ للكوارثِ والاستجابةِ لها، واستعراضُ التفويضاتِ للأقسامِ المختلفة، والتنسيقُ بينَ الوزاراتِ، وتوزيعُ الأدوارِ والإجراءاتِ اللازمةِ المُتّفقِ عليها وطنيًّا.

لكن؛ لو تتبّعنا بلداننا العربيّة، لوجدنا أنّ مصرَ تُعاني مِنَ الفيضاناتِ المَحلّيّةِ وغمْرِ المناطقِ الساحليّة، والعراق مُهدّدٌ بالجفافِ والزلازلِ لندرةِ المياه، وعمّان والعقبة في الأردن مهدّدتانِ بالزلازل لوقوعِهما على خطّ صدع البحر الميت، وبيروت وطرابلس بلبنان معرّضتانِ للزلازلِ والحرائقِ والفيضانات، ومدينة دمشق في سوريا مهدّدةٌ بزلزالٍ حادّ، واليمن يتعرّضُ لمخاطرِ الزلازل، والمغرب والسودان والصومال بلدان تُعاني مِنَ الفيضاناتِ والجفاف!

وها اليومَ معظمُ شعوب بلدانِنا تثورُ ضدّ ظُلمِ حكّامِها، مَن مارسوا الاستبدادَ والاستعبادَ والاستغلالَ والقمْع، والديمقراطيّةُ المُغيّبةُ عن الوعي تصحو وتنتفضُ مِن سُباتِها، تُطالبُ بحقوقِها وبحياةٍ كريمةٍ ومشاركةٍ حقيقيّةٍ فعّالةٍ في الحياةِ السياسيّةِ وإدارةِ شؤونِ البلاد، وتحقيقِ العدالةِ السياسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ لكلّ شرائحِ الشعب! فهل مِن مؤسّساتٍ حقوقيّةٍ دوليّةٍ غربيّة وعربيّةٍ تؤازرُ الحُرّيّةَ ومطالبَ شعوبِنا؟ أين يقفُ مجلسُ الأمنِ الدوليّ وهيئةُ الأممِ المّتحدةِ مِن تطبيقِ المواثيقِ الدوليّةِ لحقوقِ الإنسان، والتضامن مع ما يجري اليومَ على أرضِ الواقع؟ أليسَ استخدامُ القوّةِ والقمْعِ ضدّ حرّيّةِ التعبيرِ عن الرأيِ السلميّ هو انتهاكٌ وخرْقٌ لحقوقِ الإنسان؟ ما جدوى نشْرِ ثقافةِ حقوقِ الإنسانِ إعلاميًّا مِن خلالِ مناصرةِ حرّيّتِهِ، والمؤسّساتُ الحقوقيّةُ العليا صامتةٌ لا تُحرّكُ ساكنًا؟ ومتى تتحرّكُ؟

هل وعيُ شعوبنا يُهدّدُ سلطاتِنا!؟

هل الممارساتُ الفاسدةُ وتحويلُ الأموالِ المتأتّيةِ مِن أفعالِ فسادٍ ومصادرَ غيرِ شرعيّة، كالتهريبِ الضريبيّ والجريمةِ المُنظّمةِ والمُخدّرات، وكلّ ما مِن شأنِهِ أن يُهدّدَ أمْنَ المجتمعاتِ واستقرارَها، وما يُلحق الضررَ بجماعةٍ أو أفرادٍ، أو يَجرَّ وَبالاً على وطن قد يُقوّضُ مؤسّساتِهِ الديمقراطيّةَ وقيَمَهُ وأخلاقَهُ والعدالة، ويُعرّضَ سيادةَ القانونِ للخطر؟

ها "اللجنة الشعبيّةُ العامّةُ في ليبيا أوقفتْ صحيفةَ "أويا" الأسبوعيّةَ عن الصدور، على خلفيّةِ مقالٍ نُشِرَ في عددِها رقم 762 الصادر بتاريخ 4-11-2010، والذي يدعو إلى محاربةِ الفسادِ الذي باتَ يُعرقلُ مسيرةَ التنميةِ في البلاد"! ما الذي يُخيفُ ليبيا ويَدعوها إلى إغلاق صحيفةٍ تُعبّرُ عن وجهةِ نظرِ شريحةٍ ديمقراطيّة؟ وما الذي يجعلُ مِن بوعزيزي التونسيَ قميصًا ناريًّا يوقدُ العامَ الماضي 2010 في تونس، لتتقاسمَ نيرانَهُ الملتهبةَ سلسلةٌ مِنَ الأوطانِ العربيّةِ المجاورة، وتشتعل الجماهيرُ بنيران الغضب المكبوت، وتفجّرَ قنابلَ الوعيِ الصامتِ لمكافحةِ آفةِ الفساد؟

هل باتَ الفسادُ شأنًا مَحَليًّا، أم ظاهرةً عبْرَ وطنيّةٍ تمسُّ كلَّ المجتمعاتِ والاقتصاد؟ وهل التعاونُ الدوليُّ أمرٌ ضروريٌّ في مكافحتِهِ بصورةٍ مُجديةٍ وفعّالة؟ مَن يُحدّدُ الخططَ والبرامجَ الشاملةَ متعدّدةَ الجوانب؟ وهل تلتزمُ الأطرافُ الأعضاءُ بتنفيذِ بنودِ الاتفاقيّة؟ هل باتت الصِّلاتُ والعلاقاتُ القائمةُ بينَ شبكاتِ الفسادِ وطيدةً مع سائرِ أشكالِ الجريمةِ المُنظّمةِ، ومعَ الجريمةِ الاقتصاديّةِ الّتي تتعلّقُ بمُقدّراتٍ هائلةٍ تُمثّلُ نسبةً كبيرةً مِن مواردِ الدولةِ تحتَ تصرّفِها؟

ما دوْرُ الإعلام وحملاتُ جهودِهِ التوعويّةِ في كافّةِ قطاعاتِ المجتمع وفئاتِهِ؟ وما آليّاتُ المكافحةِ في الخطابِ السياسيّ والدينيّ والإعلاميّ والتربويّ، بغيةَ الترويج ودعْمِ التدابيرِ الراميةِ لمكافحةِ الفسادِ بشكل أنجعَ وصورةٍ أكفأ؟ ما دوْرُ المُفكّرينَ والباحثينَ في دُولِنا العربيّةِ في التوافقِ العامّ بينَ قطاعاتِ المجتمع؟

هل تعملُ بما يتناسبُ مع بيئتِها من خلالِ استراتيجيّاتٍ منهجيّةٍ وطنيّةٍ مدروسة، تتضمّنُ حقّا تعديل تشريعاتٍ تتلاءمُ معَ البيئةِ وتأهيلِ جهاتٍ ضبطيّةٍ مسؤولةٍ تخدمُ الجمهور؟ هل هناكَ تدريباتٌ جادّةٌ ذاتَ كفاءةٍ عاليةٍ لمجموعاتٍ إداريّةٍ في إداراتِ الدولة؟ هل هناكَ جِهاتٌ رقابيّةٌ انضباطيّةٌ وقضائيّةٌ ذاتَ كفاءاتٍ تقنيّةٍ ونزاهةٍ أخلاقيّةٍ ورؤى متوازنة، تعملُ على دراسةِ وتنفيذِ وتحقيقِ الأهدافِ المرسومةِ والمنصوصِ عليها مِن أجلِ تشريعِها؟

ثمّ؛ مَن هيَ الجهاتُ التي تقفُ وراءَ التشريعِ القانونيّ الجديد؟ هل هي تابعةٌ للمؤتمرِ الشعبيّ العامّ، أم إلى جهةٍ تخدمُ السلطة؟ هل يكفي التنديدُ بأعمالِ الفسادِ وقادةِ قطاعِ هذه الأعمال، أم أنّنا بحاجةٍ إلى دعْمِ القولِ بفعلٍ صارمٍ يَحظرُهُ؟ وكيف يتمُّ حظْرَهُ؟

الجمعيّةُ العامّةُ للأمم المتّحدةِ اعتمدتْ تاريخ 9-12 ديسمبر- كانون أوّل يومًا عالميًّا لمكافحةِ الفسادِ منذ عام 2003، ودخلت الاتفاقيّةُ حيّزَ التنفيذِ منذ عام 2005، مِن أجلِ تسليطِ الضوءِ

على الوعيِ الجماهيريّ وإذكائِهِ للتكاتفِ لمنْعِ الفسادِ والتقليل من حدوثِهِ، باعتمادِ سياساتٍ وضوابطَ تتماشى معَ اتفاقيّةِ الأممِ المتحدة، للوصولِ إلى النزاهةِ والعدْلِ وتعزيزِ الإدارةِ السليمةِ للممتلكاتِ العموميّة، وترسيخِ الشفافيّةِ للتنميةِ والاقتصادِ الوطنيّ، ومساءلةِ المؤسّساتِ المختلفةِ وصنّاع القرار.. كيف؟

هناكَ حسابٌ مِن تبرّعاتِ الدولِ الأعضاء ضمنَ إطارِ صندوقِ الأممِ المتحدة، للعدالةِ الاجتماعيّةِ ومنعِ الجريمة، بغية تزويدِ الدول الناميةِ ذاتِ الاقتصادِ الانتقاليّ بمساعداتٍ تقنيّةٍ، وتعالجُ الاتفاقيّةُ مسألةَ رشْوة موظّفي المنظّماتِ العموميّةِ وتجريمِهم، وتعالجُ مسائلَ الامتيازاتِ والحصاناتِ والولايةِ القضائيّة ودور المنظّمات الدوليّة، ببناءِ مؤسّساتٍ تدعمُ الطاقاتِ البشريّةَ وغيرَ البشريّة.

شروطُ الانضمامِ تقومُ على مبدأ تساوي الدول في السيادةِ وسلامةِ أراضيها، وعدم التدخّلِ في الشؤونِ الداخليّة للدول الأخرى، أو ممارسةِ الولايةِ القضائيّة في إقليم دولةٍ ما، إذ تقوم كلُّ دولةٍ بوضع التدابيرِ الوقائيّةِ وفقًا لنظامِها القانونيّ، لإرساءِ وترسيخِ وتنفيذِ سياساتٍ فعّالةٍ مُنسّقةٍ تُعزّزُ مشاركةَ المجتمع، وتُجسّدُ سيادةَ القانون وحُسْن إدارةِ الشؤونِ والممتلكاتِ العموميّةِ بنزاهةٍ وشفافيّة، فتخضعُ للمساءلةِ والتقييمِ الدوريّ للتدابيرِ الإداريّةِ والمستنداتِ والصكوكِ القانونيّةِ ذاتِ الصلة، بُغيةَ فحْصِ مدى كفاءاتِها، مِن خلالِ هيئاتٍ مستقلّةٍ حسبَ الاقتضاء، تتولّى تنفيذَ وتنسيقَ السياساتِ بمنأًى عن أيّ تأثيرٍ، وتُوفّر مواردَ ماديّةً لازمةً وموظّفينَ متخصّصينَ ودوراتٍ تدريبيّةً لمهامّهم، وتقومُ كلّ دولةٍ طرَف بابلاغ أمين العامّ للأمم المتحدةِ عن اسمِ وعنوانِ السلطةِ المُخوّلةِ بالمهامّ، لوضع وتعيينِ وتنفيذِ تدابيرَ إداريّةٍ مُحدّدة، وكلّ دولةٍ تدعمُ نُظُمَ وتوظيفِ المدنيّين بحسبِ الترشيحاتِ المموّلةِ لانتخابِ شاغلي المناصب منعًا لتضاربِ المصالح، وبحسب كفاءاتٍ ومُؤهّلاتٍ ومعاييرَ موضوعيّةٍ جديرةٍ بالمسؤوليّةِ والمُهمّة، وبحسب قانونِها الخاصّ لاستخدامِهم وترقيتِهم وإحالتِهم للتقاعد، وضمنَ إجراءاتٍ اختياريّةٍ مناسبةٍ ومُدرّبةٍ لتولّي المهامّ، وتقديمِ أجورٍ كافيةٍ ومُنصِفةٍ، مع مراعاة مستوى النموَ الاقتصاديّ، ووضع دوراتٍ تدريبيّةٍ وتعليميّةٍ متخصّصةٍ للتوعيةِ، وللتمكينِ مِنَ الوفاءِ والأداءِ الصحيح والأمانةِ بينَ موظّفيها العموميّين، وإرساءِ تدابيرَ ونُظُم وحمايةٍ تُيسّرُ قيامَ الموظّفينَ بمهامّهم، وإبلاغ السلطاتِ عن أعمالِ فسادٍ حينَ يتنبهون إليها أثناءَ إداء وظائفِهم.

هل يتحتّمُ على الجمعيّةِ أن تلتزمَ بالسرّيّةِ التامّة، أم بتكشيفِ الأوراق وتعريةِ الحقائق، عند اكتسابِ ثرواتٍ شخصيّة، يمكنُ أن تؤثّرَ على الاقتصادِ الوطنيّ والمؤسّساتِ الديمقراطيّةِ وسيادةِ القانون؟

الجمعيّةُ عزمتْ على التعاونِ الدوليّ وتحمُّل المسؤوليّة في استردادِ وردْعِ وكشْفِ الإحالاتِ الدوليّةِ المُكتسَبةِ بصورةٍ غير شرعيّة، ومراعاةِ الأصولِ القانونيّةِ في الإجراءاتِ المدنيّةِ والجنائيّةِ والإداريّة للفصْلِ في حقوقِ المَلكيّة، وإرجاعِ الأموالِ المنهوبةِ للدولة، ودعْم جماعاتٍ خارجَ نطاقِ القِطاع العامّ، كالمجتمعِ الأهليّ والمُنظّماتِ غيرِ الحكوميّة، ومنظّماتِ المجتمع المَحلّيّ، لتكونَ أكثرَ فعاليّةً وإنصافًا وعدالة.

وأخيرًا.. هل وعيُ جماهيرِنا العرجاءِ يُهدّدُ سلطاتنا العوجاءَ؟ لماذا؟

"كنْ نارًا ولا تكنْ حريقًا"

السياسةُ وما يدورُ في دواليبِها مِن تناقضاتٍ ترعبُنا، وتُلاحقنا بأحداثِها ويوميّاتها التي لا مناصَ منها، فهل للسياسةِ دينٌ وقِيمٌ وعقائدُ، أم هي فنٌّ يَستخدمُ الطرقَ الملتويةَ، لاستباحةِ المُحرّماتِ بفتاوى مدنيّةٍ ودينيّة، تُبيحُ المحظوراتِ وتتجاوزُ الخطوطَ الحمراء؟

يأتي القولُ العربيُّ بسَماحتِه: "السياسةُ هي استجلابُ مَحبّةٍ خاصّة بإكرامِها، واستعبادُ العامّةِ بإنصافِها".

ويؤكّدُ د. حسن مصعب هذا بقولِهِ: "إبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمّدُ سياسيّونَ بقدْرِ ما هُم رُسُل وأنبياء، وقد مارَسَ كلٌّ منهم السياسةَ وهو يُبشّرُ بالرسالة"!

بينما يردُّ فولتير مستغربًا: "إنّ السياسةَ يجبُ أن تُبنى على وقائع"!

وهل الوقائعُ كما يقول سان سيمون: "السياسةُ فنُّ الظفرِ بالمالِ مِنَ الأغنياءِ، والتأييدِ مِنَ الفقراءِ، بحُجّةِ حمايةِ أحدِهما مِنَ الآخَر"؟

يردُّ فاليري: "السياسةُ فنٌّ يَمنَعُ الناسَ عنِ التدخّلِ بما يَعنيهم"!

ويتهكّمُ القولُ الأمريكيّ: بل؛ "السياسةُ فنُّ الخداع، تجدُ لها ميدانًا واسعًا في العقول الضعيفة"!

ومِنَ القطبِ الآخرِ يُهرولُ غورباتشوف معترضًا:

"السياسةُ حربٌ دونَ سفْكِ دماء، والحربُ سياسةٌ دامِية"، والمثلُ الروسيُّ يقول، "تاجُ القيصرِ لا يمكنُ أن يَحميَهُ مِنَ الصداع"!

قيصر وإمبراطور؟ هذا كان وولّى، واليوم معظمُ دولِ العالمِ تعيشُ في ظلالِ أنظمةٍ ديمقراطيّةٍ نيابيّة، بعدَ أوّلِ نموذجٍ لحكومةٍ ديمقراطيّةٍ في القرنِ السادس عشر، بتأسيسِ الزعيم الهنديّ الأحمر ديكاناويدا عصبةَ أمم آيروكولس، والذي أثّرَ على الفلاسفةِ البريطانيّينَ والأمريكان والفرنسيّين، فهل هذهِ الأنظمةُ مجرّدُ أنظمةٍ شكليّة؟ ثمّ؛ ما الفرقُ بينَ رجلِ الدولةِ وبين السياسيّ؟

يردّ القولُ الأميريكيّ: "يَعتقدُ رجلُ الدولةِ أنّهُ مُلْكٌ للأمّة، ويَعتقدُ رجلُ السياسةِ أنّ الأمّةَ مُلكٌ له".

ويُعقّبُ تشرتشل: "وأنا أسيرُ في إحدى المقابرِ رأيتُ ضريحًا كُتبَ على خامتِهِ: (هنا يرقدُ الزعيمُ السياسيّ والرجلُ الصادق .....)، فعجبتُ كيفَ يُدفنُ الاثنانِ في قبرٍ واحد"!

لكن؛ لا يمكنُنا أن نغفلَ أو نتغافلَ؛ فللشعوبِ حقٌّ في اختيارِ رؤساءِ جمهوريّاتِها وممثّليها وسياسيّيها، فأينَ الخللُ في التغييرِ السلميّ؟ ولماذا هو معضلةٌ؟

يهتفُ الممثّلُ شارلي تشابلن بصمْتِهِ الإيمائيّ الساخر: "الجوعُ لا ضميرَ له"!

ويعلو صوتُ ميرابو: "إنّ جميعَ مشاكلِ السياسةِ تخرُجُ مِن حبّةِ القمح"!

فتصحّحُ قولَهُ الأمُّ تيريزا: "هناكَ كثيرٌ مِنَ الجوعِ في العالم، ليسَ للخبزِ، بل للحُبِّ والتقدير"!

ويصلُنا صوتُ عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهّه: "ما جاعَ فقيرٌ إلاّ بما منع به غنيّ، فالعاملُ بالظلمِ والمُعينُ عليهِ والراضي بهِ شركاءُ ثلاثة"!

يردّ الفيلسوفُ الهنديُّ طاغور: "لا تستطيعُ أن تقلعَ عبيرَ زهرةٍ، حتّى ولو سحَقتَها بقدَميْك"!

ولكن؛ ألا يُمكنُ نزْعُ سلطةِ القانون مِن يدِ نوّابِ البرلمان بحسبِ الدساتيرِ الديمقراطيّةِ إلاّ بثورة؟

فتقولُ "معجزةُ الإنسانيّةُ" هيلين كيلر: "مَن يشعرُ برغبةٍ لا تُقاوَمُ فى الانطلاق، لا يَستطيعُ أبدًا أن يرضى بالزحف"!

ويصرخُ أبو القاسم الشابيّ: إذا الشعبُ يومًا أرادَ الحياة/ فلا بدَّ أن يستجيبَ القدَر!

ويردُّ المجاهدُ الليبيُّ عمر المختار مِن خلفِ المدى: إنَّ الظلمَ يجعلُ مِنَ المظلومِ بطلاً، وأمّا الجريمةُ فلا بدَّ مِن أن يرتجفَ قلبُ صاحبِها، مهما حاولَ التظاهرَ بالكبرياء، ومَن كافأ الناسَ بالمكرِ كافؤوهُ بالغدرِ، والضرباتُ التي لا تقصمُ ظهرَكَ تُقوّيك، فلن نستسلمَ.. ننتصرُ أو نموت"!

على رِسْلكَ.... ألا تخشى أن يكونَ أوّلَ الغضبِ جنونٌ وَآخِرَهُ ندمٌ؟ يردّ لتزاروس: "حينَ يتحرّجُ الموقفُ، لا تطلبُ الناسُ أمهَرَ السياسيّينَ بل أقواهُم، والسياسيُّ المُحتقَرُ اليوم، قد يكونُ رجُلَ الساعةِ غدًا".

ولكن؛ لماذا ترضى الشعوبُ بالظلم، ولديها الحقُّ الديمقراطيُّ والمفتاحُ الشرعيُّ بتغييرِ قفلِ البرلمانِ والسلطاتِ التمثيليّةِ مِن خلالِ الاقتراع؟

يوجزُ توفيق الحكيم الوجعَ: "لا شيءَ يَجعلُنا عظماءَ غيرَ ألَمٍ عظيمٍ، والمصلحةُ الشخصيّةُ هي دائمًا الصخرةُ التي تتحطّمُ عليها أقوى المبادئ"!

وكأنّي بفنّانِ الشعبِ سيّد درويش تبلُغُهُ الأصواتُ ثائرةً تقضُّ مضجَعَهُ، فيعلو صوتُهُ الثوريُّ مِن خلفِ عقودٍ ولّتْ منذ 1919 ليُغنّي إيمانَهُ:

قوم يا مصري/ مصر دايمًا بتناديك/ خد بنصري، نصري دين واجب عليك/ يوم ما سعدي راح هدر قدّام عينيك/ عد لي مجدي اللي ضيّعتُه بإيديك/ إيه نصارى ومسلمين قال إيه ويهود/ دي العبارة نسل واحد م الجدود/ ليه يا مصري كلّ أحوالك عجب/ تشكي فقرَك وانت ماشي فوق دهب/ مصر جنّة طول ما فيها انت يا نيل/ عمر إبنك لم يعيش أبدًا ذليل!

وتنتقلُ عدوى الأصواتِ متناديةً تتصايحُ، فيهتزُّ صوتُ العندليبِ مُهلّلاً: الشعب بيزحف زي النور/ الشعب جبال/ الشعب بحور/ بركان غضب/ بركان بيفور/ زلزال بيشقّ لهم في

قبور/ أُنطق وقول/ أنا صاحي/ يا حرب والله زمان/ والله زمان يا سلاحي/ أنا اشتقتلك في كفاحي!

فيقهقهُ الشاعرُ السوريُّ محمّد الماغوط مِن وراءِ بلاطةِ قبرِهِ: "الطغاةُ كالأرقام القياسيّة، لا بدّ مِن أن تتحطّمَ في يومٍ مِنَ الأيّام"!

وتختلطُ الأصواتُ القديمةُ الحديثةُ مجتمعةً في جلبةِ الظلمِ ولغطِ الذلّ، تستحثُّ الإنسانَ المظلومَ أن يُواصلَ نضالَهُ مِن أجلِ كرامتِهِ وكينونتِهِ: "ما طارَ طيرٌ وارتفعَ، إلاّ كما طارَ وقعَ"!

ومِنَ البعيدِ يكتبُ أحدُ الوُلاةِ إلى عمر بن عبد العزيز يَطلبُ مالاً لتحصينِ المدينةِ، فيجيبُهُ عمرُ قائلاً: "حَصِّنْها بالعدل، وَنَقِّ طريقَها مِنَ الظلم".

ويُدوّي صوتُ الزعيم الأمريكيّ مارتن لوثر كنج: "لا يستطيعُ أحدٌ ركوبَ ظهرِك، إلاّ إذا كنتَ مُنحنيًا، فالمصيبةُ ليسَت في ظلمِ الأشرار، بل في صمتِ الأخيار، والظلمُ في أيّ مكانٍ يُهدّدُ العدالةَ في كلِّ مكان. الحياةُ مليئةٌ بالحجارةِ فلا تتعثرْ بها، بل اجمَعْها وابْنِ بها سلّمًا تصعدُ بهِ نحوَ النجاح"!

فيزمجرُ عمر بن الخطّاب هادرًا: "متى استعبدتُم الناسَ وقد ولَدَتْهُم أمَّهاتُهم أحرارًا"؟ وعلى عجلٍ يُجلجلُ صوتُ عبّاس محمود العقّاد: "كنْ نارًا ولا تكنْ حريقًا".

"هل الغنى في الغُربةِ وَطنٌ؟"

صوبَ أجملِ البقاعِ انطلقتِ الحافلة، تجتذبُها بوصلةُ الشمالِ الباردِ في رحلةٍ ترفيهيّة، والعيونُ مشدودةٌ أهدابُها إلى المدى المفتوح، حيثُ تمتزجُ خضرةُ الجبالِ العاشقةِ بزرقةِ السماءِ الحالمةِ بانسجامٍ فنّيٍّ مُتناغِم، يُتوّجُ صَفوتَها بياضُ الشيخ الضبابيّ، وعلى أنغام الرحبانيّ تتراقصُ كلماتٌ "سعيد عقل" في حنجرةٍ فيروزيّةٍ تصدحُ: "يا جبل الشيْخ يا قصْر الندي/ حبيبي بكّير لعندَك غِدي/ يا الجبلِ العالي/ يا لونِ اليمامةِ ويا التفاح الشاميّ/ لو تعرف بحالي/ هِديت رياحك وقلبي ما هِدي".

كانت دلّة القهوةِ تداعبُ أفواهَ فناجين تنتظرُ مُرتشفيها ممّن يترجّلونَ مِنَ الحافلة، قهوةُ قدِمتُم أهلَ بني معروف، ووطئتم سهلَ هضبةِ الجولانِ السوريّة، التي وقعت ضحيّةً منذ عام 1967 بقبضةِ السلطةِ الإسرائيليّة الآنيّةِ المفروضةِ المرفوضة، ونحنُ ما زلنا نُقرُّ أنّنا سوريّو الهُويّة والتبعيّة، ونتغذّى بإيمانِ استقلالِنا المتينِ مهما طالَ الزمان!

إحساسٌ سِحريٌّ يُراودُ الزائرَ حينَ يهبطُ على جنّةٍ تنبضُ جَمالاً وتتدفّقُ حياةً، والوجوهُ البشوشةُ تستقبلُكَ بحفاوتِها الغامرةِ، وتوشّحُكَ بشفافيّةِ ضيافتِها الأصيلة، وأنتَ مأخوذٌ بجَمالِ أهل الجولانِ والتلال، كأنّ اللهَ صبَّ فتنةً على هذهِ الأرض، فتخضّبتِ التلالُ والجبالُ بحُمرةِ تربةٍ لوّنتْها أيادي المعروفيّينَ بحنينِ صخورِهم المصفوفةِ بأشكالٍ هندسيّةٍ مرسومةٍ ببراعةٍ، لتُشكّلَ لوحةً طبيعيّةً باهرة، تقفُ أمامَها مشدوهًا، ولسانُ قلبِكَ يُسبّحُ الجَمالَ والباري.

لكن؛ كيفَ يمكنُ للجولانِ أن يُحقّقَ رفاهيّتَهُ الجَماليّةَ والاقتصاديّةَ والاجتماعيّة، وهو يقبعُ في عُزلةٍ عن بلدِه الأمّ سوريا، وبمقاطعةٍ تامّةٍ مع الاحتلال، الذي غدا "كمثلِ صخرةٍ وقعتْ على فمِ نهرٍ، لا هي تشربُ منه، ولا تتركُهُ يُخلصُ إلى الزرع"!؟

كيفَ استطاعَ بنو معروف أن يُغدقوا على أبنائِهم أكثر من أربعين عامًا بهذهِ الروح الرافضةِ للاحتلال، ويَشحنوهُم بهِمّةٍ واعدةٍ بالاستقلال، رغمَ سجنِهم الجولانيّ؟

ويلوحُ قولُ عبدُ الرحمن منيف في روايتِهِ "شرقُ المتوسّط مرّةً أخرى":

"إنّ السجنَ ليسَ فقط الجدران الأربع، وليسَ الجلاّدَ أو التعذيب، إنّهُ بالدرجةِ الأولى خوفُ الإنسانِ ورُعبُهُ، حتّى قبلَ أن يَدخلَ السجن، وهذا بالضبطِ ما يُريدُهُ الجلاّدونَ، وما يجعلُ الإنسانَ سجينًا دائمًا".

لكن؛ كيف يمكنُ لبلدٍ يقعُ في ظِلِّ الاحتلالِ أن يصمدَ اقتصاديًّا أمامَ أزماتٍ سياسيّةٍ عنيفة؟ هل يمكنُ أن يُحقّقَ اكتفاءً ذاتيًّا خدماتيًّا وتنظيميًّا، وأمنًا غذائيًّا وزراعيًّا وصناعيًّا؟

ومع إشكاليّةِ المقولةِ: "الغِنى في الغُربةِ وطنٌ، والفقرُ في الوطنِ غُربةٌ"، استطاعَ غِنى الروحِ المعروفيّ الراسخ أن يهزمَ الخوفَ، وتمكّنَ جبروتُ بني معروف الصارخِ أن يَدحرَ الرّعب، باقتطاع الصخورِ مِنَ الجبال، ليتَحَدّوْا الجرفَ الطبيعيّ والاحتلاليّ، فأقاموا السناسلَ الصخريّةَ منعًا لجرفِ التربةِ، واصطصلحوا الأراضيَ وزرعوها بكُرومِ التفاحِ والكرز والزيتون.

حاولوا توفيرَ احتياجاتِهم اليوميّة مِن خلالِ إمكانيّاتِهم الاستهلاكيّةِ المُتوفّرةِ لديهم بشكلٍ شبهِ مستقلّ، بهدفِ رفضِ التبعيّةِ السياسيّةِ والاقتصاديّةِ للاحتلال، وللمحافظةِ على مواقفَ ثابتةٍ غير قابلةٍ للمقايضةِ والتنازل.

قالَ جون وليامز: "ما فائدةُ الدنيا الواسعة، إذا كانَ حذاؤُكَ ضيّقًا"؟

أهلُ الجولانِ اتّسعتْ أحذيتُهم وما ضاقَ عليهم سجنُ الدنيا، بل كثّفوا جهودَهم الحثيثةَ المعطاءة، وهَبّوا بالأفرادِ والأهلِ إلى تأسيسِ مؤسّساتٍ خاصّة على كافّةِ المستوياتِ لترعى الحاجاتِ الأساسيّة، كأنّما يتعايشونَ مع حالةِ حصارٍ حربيٍّ دائم؛ تكتنفُهُ المخاطرُ والصعوبات، وسَعَوْا إلى الاستغناءِ عن الواراداتِ الاستهلاكيّةِ الخارجيّة، وعملوا إلى استغلالِ الطاقاتِ المُعطّلةِ لديهم في الميادينِ البشريّةِ والزراعيّةِ والإنتاجيّةِ، ووفّروا مواردَ الموادّ الغذائيّةِ الأساسيّةِ النباتيّةِ والحيوانيّة في غِمارِ العُزلةِ والمقاطعة، وتكيّفوا معَ الواقعِ الجديدِ لسدّ فجوةِ الحاجة، بتأمينِ الشروطِ الأساسيّةِ لتنميةِ الإنتاجِ المَحَلّيّ كمّيًّا ونوعيًّا على المستوى الاستهلاكيّ والاستثماريّ، وبذلك، أمكنَهم تخطّي مفهوم الاكتفاءِ الذاتيّ، والقفز إلى مفهوم التطوّر الاقتصاديّ، وتوفير مزايا نسبيّة أساسيّة، مِن حيث التكاليفِ المنخفضة والجودة العالية في المنتوج، مِن أجل تنشيطِ التجارةِ المحلّيّةِ والسياحة!

الفواكهُ المُجفّفة، العسلُ الطبيعيّ، مُربّى الفواكهِ بأشكالِهِ، خبزُ الورقِ، التحَف، التفاح، الكرز والزيتون، والأجبان والألبان، منتوجاتٌ لها طعمُها المميّز، وما فاضَ مِنَ المنتوج كانَ نصيبُهُ البرّاداتُ الخاصّة الحافظة، وكلّها مُطعّمةٌ بنكهةِ الصمودِ الجبّار!

هل يستكفي الجولانُ بالشبعِ الجسديّ؟ عشرونَ ألفًا تعدادُهُ، وما غفلَ عن المقولة: "كلُّ وعاء يَضيقُ بما جُعِلَ فيهِ، إلاّ وِعاءَ العِلمِ فإنّهُ يتّسِعُ"! لدى الجولان اكتفاءٌ خدماتيّ مِن أكثر مِن ثلاثةِ آلاف أكاديميّ، يشغلونَ كافّة المرافئ الحياتيّة مِن طبّ، هندسة، محاماة، تدريس وإلخ..

لكن؛ ما سِرُّ التماثيلِ الضخمةِ والزينة في شوارع الجولان؟ استعدادٌ لعرسٍ وطنيٍّ لا يفترُ أجيجُهُ، يُحيي ذكرى الإضراب العام الموافق 14 شباط لعام 1982، ليُثبتَ "أنَّ الهُويّةَ الحقيقيّةَ للأهل في الجولان عربيَّةٌ سوريَّة، راسخةٌ رسوخَ جبل الشيخ، نقيَّةٌ كبياضِ ثلوجِهِ"، وقد صرَخَ الرسمُ بألوانِهِ، وكانَ للصخرِ صداهُ في نحْتِهِ، وحلّقتْ أصابعُ النساء أجنحةً بفنونِها اليدويّة، كأنّ الأهلَ يُصرّونَ على استغلالِ فسيفساءِ الإمكاناتِ والجهودِ، لملْءِ ثغراتِ الزمنِ بما يُخلّدُ وجودَهم، بتماثيلَ صخريّةٍ ثمينةٍ تُزيّنُ جُزُرَ ودوّاراتِ الشوارع، نحتَها الفنّانونَ مجّانًا بكلِّ ما تَحملُهُ مِن عُمقِ فلسفةِ البقاءِ وترسيخِ الجُذور!

أقاموا منتدياتٍ ثقافيّةً ومتاحفَ تاريخيّةً وتُراثيّةً ومعارضَ فنّيّةً متعدّدة، ودوراتٍ تدريبيّةً لمختلفِ الأجيال، على الحساب الخاصّ دونَ أيّ دعمٍ خارجيّ، مِن أجلِ متابعةِ المشوارِ النضاليّ، فما سِرُّ هذا المصْلِ الوطنيّ الجارف، الذي طعّمَ القلوبَ بنفَسٍ سوريٍّ، وشحَنَ العقولَ بروحٍ وطنيٍّ، لا يقبلانِ الرضوخَ والمُساومة؟

وهل عقابٌ قاسٍ - أبسطُهُ حرمانٌ ومقاطعةٌ ونبذٌ تامّ لكلِّ متعاونٍ تُسوّلُ له نفسُهُ أن يخونَ العهدَ، فلا يَجدُ العميلُ مَن يُؤاجرُهُ في أتراحِهِ، ولا مَن يشاركُهُ أفراحَه- هو أحد الأسرار الفعّالة في النضال؟

كلُّ غزوةٍ وأنتم بهجرةٍ

رغمَ العنفِ الكثيفِ الذي يكتنفُ سماءَ غزة ويُصدِّعُ أرضَها ومبانيها العريقةَ، لكن على الضفافِ الأخرى تركنُ حضارةٌ وثقافةٌ دامتْ أكثرَ مِن 3500 عام، ولا يمكنُ طمْرَ غزة العتيقة بأيِّ حالٍ، فقد قُيّضَ لها أن تكونَ مَهبط الحضاراتِ اليونانيّة والفارسيّة والرومانية والمصريّة والبريطانيّة والتركيّة، كلّها تركتْ بصماتِها وخرجتْ، وبقيتْ غزة بؤرةَ عزةٍ شامخة!

هل ما يطالُ غزّةَ اليوم، هو نشاطٌ عسكريٌّ يرمي إلى القضاء على "حماس"، كما يتصدّرُ عناوين وسائل الإعلام، أم أنّ هناك ما هناك وراءَ الأكمَة؟

التوازنُ بينَ حواسِّ الإنسانِ الخمس وبينَ المنطقِ يزدادُ هشاشةً، فعدّاد الحصادِ تعدّى الألفَ شهيدٍ وأربعة آلاف جريح، ونسبةٌ قليلة جدًّا مِن أفرادِ حماس نالتها الغاراتُ في قائمة الموتى والجرحى، لكنّ القصْفَ طالَ الكبيرَ والصغيرَ والمقمّطَ بالسرير، ونالَ مِنَ النساءِ الصغيراتِ والوالداتِ ما نال!

ولو عدنا قليلا للإحصائيّاتِ الصاعقةَ في وكالةِ الأنباء الفلسطينيّة حتى تاريخ 29-12-2002، لوجدنا أنّه منذ بدءِ الانتفاضةِ سقط نحو 534 طفلاً وطفلة، كما بلغ عددُ إعاقاتِ الأطفال نحو 2660 طفلاً!

وقالَ الطبيبُ معاوية حسنين مديرُ الدائرةِ لوكالةِ فرانس برس، في مجزرةِ غزة ومنذ 22 يوما حتى تاريخ 17-1-2009 ، بلغَ عددُ الجرحى أكثر مِن 5300، بينهم 1630 طفلا، موضّحًا أيضًا، أنّ بينَ القتلى 410 أطفال على الأقل.

النكبةُ تفتحُ أشداقَها لتبتلعَ مآسٍ عديدةً، تحُدُّها ظاهرتانِ أساسيّتان: ظاهرةُ إبادةِ جيلِ طفولةٍ وبشكلٍ متعمّدٍ، فلا الاستغاثاتُ بالمجتمع الدوليّ، أو الأمم المتحدة، أو المفوّض العام لحقوق الإنسان، أو منظمة الصحّة العالميّة، أو منظمة "اليونيسف"، تشفعتْ بوقف قتل النساءِ والأطفالِ العُزّل! لماذا؟

أمّا الظاهرةُ الثانية الملموسةُ والأشدُّ خطورةً في الشارع الفلسطينيِّ، فهي هجرة الفلسطينيّين، إذ باتتْ تُقلقُ الوطنيّين ممّن تخزُهُم أشواكُ الغيرةِ الوطنيّةِ على هذا البلدِ الكسيحِ!

فلنتابع مع إحصائيّاتِ الهجرة، حيث ينوّهُ الدكتور محمود الزهّار وزير الخارجية السابق، والنائب عن حركةِ حماس في المجلس التشريعيّ الفلسطينيّ، إلى أنّ الإحصاءاتِ المتوفرةَ تُشيرُ: إلى أن 31% مِن شبابِ الضفةِ يرغبونَ في الهجرةِ، بينما يرغبُ 60 % مِن شبابِ الضفةِ وغزة في تحسين أوضاعِهم، في حين أن 45 ألفا مِن الشبابِ الفلسطينيّ قدّموا طلباتٍ للهجرةِ للممثليّات الأجنبيّة!

وفي مصدرٍ آخر يتحدّثُ عن عددِ الذينَ هاجروا مِن الضفّةِ والقطاعِ منذُ 1967، ويُؤكّدُ على أنّهُ لا تتوفّرُ إحصائيّاتٌ دقيقةٌ، بل افتراضيّةٌ قريبةٌ مِن الحقيقيّةِ، تفترضُ أنّ ما يقاربُ ثمانمئة ألف مهاجر غادروا البلادَ منذ أربعين عاما، وإذا أضيفَ إلى هذا الرقم الأبناءُ والأحفادُ

المتوالدون على مدى أربعين عاما، فيصبحُ عددُ الفلسطينيّين داخلَ فلسطين أكبرَ بكثير من عددِ اليهود في إسرائيل، وهي القنبلة السكانيّة التي تشكّلُ الخطرَ الحقيقيّ على أمنِها وأمانِها!

التقاريرُ لم تعُد تُفاجئُكَ بأرقامها الخياليّة، فقد جاءَ في تقريرٍ من حصادِ الأرقام في مفكّرةِ الإسلام بتاريخ 11-6-2007، أنّهُ كشفتْ إحصائيّاتٌ أعدّها المراقبونَ الدوليّونَ العاملونَ على معبر رفح، أنّ حوالي 14 ألف فلسطينيّ هاجروا مِن قطاعِ غزّة، منذُ الانسحابِ "الإسرائيليّ" من القطاع عام 2005، أي ما يعادلُ أكثر من 1% من مجموع السكّان (بحسب صحيفة معاريف).

ما الذي يدفعُ بالفلسطينيّين إلى الهجرةِ؟ وإلى أين يُهاجرون؟

ما الذي يُجبرُهم على دفعِ مبالغ طائلة مِن أجلِ الحصول على تأشيراتِ دخول؟ وهل كلُّ التأشيراتِ رسميّة؟

هل بسببِ الخوفِ مِن جَعْلِهم وقودًا للانفلات الأمنيّ وتفاقمِ الفسادِ السياسيّ؟ هل بسببِ الإيمانِ بأن القتلَ بأسلحةِ الأخوة الفلسطينيّين أخطرُ من أسلحةِ العدوّ؟

هل الضغوطاتُ العسكريّةُ المفروضةُ على غزة، تدعو الشبابَ الفلسطينيّ إلى اللجوءِ السياسيِّ، أو اللجوءِ الإنسانيّ؟

هل بسببِ شُحّ الموارِدِ الاقتصاديّةِ والماليّةِ، والفقرِ المُدقعِ والعوز والحصارِ الاقتصاديّ وتفشّي البطالةِ؟

هل طفح كيلُ الشبابِ باليأسِ وفاض بالإحباطِ كما رُسمَ لهُ تماما؟ هل يغفلُ شبابُ فلسطينَ عن الأسبابِ الجوهريّةِ للمؤامرةِ على هذا البلدِ الجريحِ وتفريغِهِ مِن أهلِهِ، ليمتلئَ بمن ترنو إليه الهجرةُ المعاكسةُ؟ مَن هم المستفيدونَ الحقيقيّونَ مِن هجرةِ الفلسطينيّين؟ ولماذا؟

مقولة العدوّ: "كلُّ غزوةٍ وأنتم بهجرةٍ"! فهل يسمحُ الفلسطينيّون لهذه المقولةِ أن تتحقّقَ، وتنطلي عليهم المؤامرة؟

وهل النكبةُ الحقيقيّةُ هي تفريغُ الوطنِ من الفلسطينيّين، أم تفريغُ الفلسطينيّين من الوطنِ والمضمون؟

ألا تستقيمُ القياداتُ الفلسطينيّة وتتفادى الصراعاتِ الداخليةَ والأضرارَ اللاحقةَ بما تبقى مِن القضيّة؟

هل الغازُ هو آخرُ غزواتِ غزّة!؟

كلّما ذُكرَت غزّةُ جالتْ ببالي أرجوحةُ العيدِ، تُهدهدُ وتُؤرجحُ براءةَ أطفالٍ تُردّدُ أغنيةً فولكلوريّةً: "طيري وهَدّي.. يا وزّة/ عَ بلاد غزّة.. يا وزّة/ قصّوا جناحك... يا وزّة/ عَ عِرق التّينة... يا وزّة/ وخلّوكِ حزينة... يا وزّة!"

خلوكِ سكّين... يا غزّة؟! لكن سكّين على رقابِ مَن؟ على رقابِ الإوزِّ؟ على رقابِ أطفالِكِ، نسائِكَ وآهليكِ؟

لا.. لا، إنّما المقصودُ سكّينٌ جراحيٌّ من أجلِ إجراءِ عمليّاتٍ ضروريّةٍ عندَ الحاجةِ لتُسلِّمَها مِن الفقرِ والفاقةِ؟

ومَن يجرؤُ أن يتحدّثَ عن الفاقةِ، و "الفاقةُ أُمُّ الاختراعِ"؟ لا أحد، طالما أنّ أمثالَنا الفصيحةَ والشعبيّةَ لم تتركْ موضوعًا دونَ التطرّقِ إلى وجعِهِ، أو حكمةً دونَ تبليغِنا ببلاغتِها؟

نعم، فـ "قلة الأشغال تُعلّمُ التطريز"! التطريز!؟ وهل أمامَ شبابٍ جائعٍ محاصَرٍ إلاّ تطريزُ ممرّاتٍ أرضيّةٍ، وأنفاقٍ في جبالِ الهروبِ، وخنادقَ التهريبِ إلى الحياة؟!

أمِن عبثٍ قيلتْ أغنيةُ الوزّة بهذهِ الصيغةِ، أم هي حقًّا تحملُ مضمونًا رمزيًّا وتاريخيًّا، يتجدّدُ وجعُ إوزِّهاعلى مرِّ الأجيالِ؟

ما هذا يا زياد الرحباني؟ "أنا مُش كافر! بَسّ.. الجوع كافر.. أنا مُش كافر! بَسّ.. الظلم كافر"!؟

لا ترفعْ صوتَكَ، فاجعَلِ الجوّ أرحبَ مِن معبَرٍ ومِن نفقٍ، نَفَقَ فيهِ مَنْ جُرِّمَ بِعِشقِ الحياة!

ربّما يجدرُ بكَ يا زياد أن تُغنّي لـ "رفح"، تُفرفحُ بها نفوسٌ خَلُصَتْ مِن مشوارِ عذابِها، وربّما عليكَ أن تُعدِّدَ لنُفوسِ مَن ردَمَتْهم انهياراتٌ رمليّةٌ مفاجئةٌ، أو مَن لم يجتازوا رحلةَ الموتِ، مِن لحظةِ إنزالِهِم برافعةٍ مُغمضةِ العينينِ، إلى فوّهةِ لَحْدٍ بعُمقِ 30 متر، ليطولَ في باطنِ الأرضِ ما لا يقلُّ عن 500 متر!

أرأيتَ يا زياد أشباحَ موتى تتقزّمُ وتتقلّصُ وتُهرولُ، تُسارعُ خطى خَلاصِها، لتسابقَ غثيانَ الاختناقِ في قبورِ الأنفاقِ، ولتَخرجَ لأحضانِ الجوعِ، أو لتُربّتَ على أكتافِها المُثقَلةِ بالذلِّ والمهانةِ أكفُّ الموتِ؟

"أنا مُش كافر! بَسّ.. الجوع كافر.. أنا مُش كافر! بَسّ.. الظلم كافر"

صوتُكَ يا "زياد لبنان" يُعانقُهُ في آخرِ النفقِ صدى صوتٍ آتٍ، مِن عُمقِ عِقدٍ يتهادى على سُحُبِ الحياةِ: أناديكم/ وأشدُّ على أياديكم/ وأبوسُ الأرضَ/ وأقولُ أفديكُم!

رحمَ اللهُ أيّامَ التوافقِ يا توفيق! فماذا هناكَ أزيَد عن الذي يحدثُ يا زياد؟ ربّما ينبغي الآنَ أن تهتفَ: أناديكُم.. وأمدُّ يدًا مبتورةً لأياديكم؟

لكن.. لمَن تمُدُّها زياد؟ ألأصحابِ المخابزِ أم للجياعِ بالجسدِ؟

منذُ شهرِ حزيران 2007 وهلَّ الحصارُ بجلبابِهِ الفضفاضِ، يمتطي جوادَ الشُّحِّ ويكرُّ ويفرُّ، والسبايا والغنائمُ في يدِهِ تَدرُّ، ووجهُ الرغيفِ المتقمّرِ يتمرمرُ، وقد باشرَ أصحابُ المخابزِ إضراباتِهم من تاريخ 25-3-2008، بعدما بدأتْ مسيرةُ رغيفِ الخبزِ تحبو على بِساطِ غلاءِ الطحينِ والغازِ، وبعدما انسحبَ البساطُ مِن تحتِهِ، فتأزّمَتِ الجراحُ، وأخذَ الرغيفُ في زحفِهِ الموجَعِ والمستميتِ، خوفًا مِن سقوطِهِ وارتطامِهِ بهاويةِ الجوعِ!

إضرابٌ أتى بعدَ عشرينَ عامًا من الحصار، ومضى في خيبتِهِ يتقهقرُ مع أولى محاولاتِهِ، دونَ دعمٍ وإسنادٍ لرغيفِ خبزٍ يُسندُ قلبَ الإنسانِ، كي لا يبتزَّ الجياعِ! لكن؛ لماذا لم يستطعْ أصحابُ المخابزِ الصمود أمامَ الخسائرِ والانهيارِ والتدهورِ، وما استطاعوا تلافي الآتي مِن تجويعِ المواطنين؟

نقص في الطاقة؟ وما أدراكُم ما الطاقةُ؟ وأيّة طاقةٍ يقصدون! لا تبتعد كثيرًا بخيالك، لتحملك الظنون على أنامِلِ النميمةِ! إنّهم فقط يقصدونَ الطاقةَ المتولّدةَ مِن كهرباءٍ ووقودٍ وغازٍ، وما الحديثُ إلاّ عن جوعِ ماكناتٍ وأدواتٍ وجمادٍ للوقودِ، وليسَ المقصودُ جوعَ الكتلةِ البشريّةِ لخبزِ الحياةِ، أو تزويدِ طاقةِ الاحتمالِ للجوعِ والذلِّ والقهرِ والمعاناةِ للإنسانِ!

إنسان؟! وهل أنتَ تدخلُ في مصنّفاتِ الإنسان؟! ربّما ليسَ بالخبزِ وحْدَهُ يحيا الإنسانُ؟ كيفَ إذن يحيا الإنسانُ وقَدْ غابَ الخُبزُ، واندثرتْ كلماتُ الرسائلِ السماويّةِ، وغاصَ الإنسانُ والإنسانيّةُ في وحولِ وحوشِها؟

ما الذي يُمكنُ أن يتيسّرَ بَعدَ أن تعذّرَ حضورُ رغيفِ الخبزِ؟ ألا زالوا يتحدّثونَ ويتداولونَ موضوعَ صهاريجِ ناقلةٍ للغازِ والوقودِ، وغزّةُ رابضةٌ على صهريجِ جوعٍ يكادُ ينفجرُ ويَكفرُ! وماذا تبقّى بعدَ أن أُعدِمَتْ آلافُ الطيورِ الداجنةِ والإوزِّ لعدمِ توفّرِ العلفِ لها؟

قد سمعْنا عن ثورةِ الخبزِ والجياعِ في مصرعام 1977، كذلكَ في المغرب عام 1981، على أثرِ ارتفاعِ أسعارِ الخبزِ! هل مِن أحدٍ يتحدّثُ عن استنزافٍ لإنسانيّةِ البشريّة؟ أبدًا، لكنّها ذكريات ومَضَتْ في عينِ التاريخِ فجأةً، لتُحذِّرَ وتُنذِّدَ: ما أتتِ المظاهراتُ آنئذ إلاّ بمئاتِ الضحايا مِن المُتظاهرينَ، ولا زالَ الحالُ على حالِهِ، لهْثٌ خلفَ كسرةِ خبز!!

عذرًا أيّتُها المبجّلةُ الأميرةُ الفرنسيّةُ ماري أنطوانيت، فصَوْتُكِ القائلَ للجياعِ المتظاهرينَ أمامَ قصْرِكِ "كلوا بسكويت"، قد وصَلَنا خافتًا أصمًّا بينَ أصواتِ أطفالٍ يبكونَ مِعدَهم الخاويةِ، ولا تنسَيْ أنّ البسكويتَ أيضًا يحتاجُ إلى دقيقٍ وغازٍ، وليسَ إلى تدقيقِ المعدةِ وشَدِّ الأحزمةِ!

أربّما ينبغي أن نشكرَ القائمينَ على استفحالِ هذهِ الأزمةِ؟

لا بدَّ مِن الاعتذارِ، فهذا اللسانُ يتهوّرُ حينَ يحنُّ لطعمِ الخبزِ، فلا ينبغي لهُ أن يدّعي بوجودِ أزمةٍ أو أَثَمَةٍ، بل ينبغي أن يشكُرَ جميعَ الكوادرِ المتآلفةِ، إذ لاحقًا، وفّرت على الجياعِ مصاريفَ عمليّاتِ تقليصِ المعدةِ، وتكاليفَ التجميلِ وشدِّ عضلاتِ البطنِ!

"الفقرُ قميصٌ مِن نارٍ ورأسُ كلِّ بلاءٍ"!

الفقرُ المدقعُ باتَ يتشدّقُ بحقيقتِهِ الوحشيّةِ المتناميةِ باستفحالٍ قاهرٍ للبشرِ وللإنسانيّةِ، ويتمخترُ مزهوًّا بتأثيراتِهِ الهائلةِ المُدمّرة، راميًا بظلالِهِ العنكبوتيّةِ على أكثر مِن بليون نسمة في العالم، فيتفاقمُ جورُ مُعدّلاتِهِ في تقاريرِ التنميةِ البشريّةِ التي حدّدتها المؤسّساتُ الدوليّة، نتيجةً للعلاقةِ المباشرةِ بالأزمةِ الماليّةِ العالميّة، والتي تصبُّ بجامِ غضبِها على الطبقاتِ الفقيرةِ وسحْقِ حقوقِها الإنسانيّة.

ورَدَ بحسبِ لجنةِ الأمم المُتحدةِ حولَ الحقوق الاجتماعيّة الاقتصاديّة والثقافيّة 2001: "يمكنُ وصف الفقر أنّه ظرفٌ إنسانيٌّ يتميّز بالحرمان المُزمِن مِن المصادر، المقدرة، الخيارات، الأمن والسلطة الضروريّةِ للتمتع بالحياةِ في مستوًى معقول، إلى جانب التمتع بالحقوقِ المدنيّة، الثقافيّة، الاقتصاديّة، السياسيّة والاجتماعيّة"، لذا سعت اليونيسكو إلى رفع الوعي حولَ حقيقةِ التحرّر مِن الفقر كحقٍّ إنسانيٍّ أساسيّ، فأقرّت "يوم الفقر" بتاريخ 17-10 تشرين أوّل مِن كلّ عام!

هل توخّتْ أن تخففَّ وطأةَ معضلةِ الفقر، أو أن تحسرَ حدودَها الكارثيّة وخيمة الآثارِ ذاتِ ذكرى؟

قال الرسولُ (صلى الله عليه وسلّم): "اللهمّ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الكُفرِ والفقرِ، ومِن عذابِ القبر"، فردّ أميرُ المؤمنينَ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "لو كانَ الفقر رجلاً لقتلتُهُ"، لأنّ "الفقرَ أخو الكُفر" وَ "الفقيرَ ليسَ لهُ نصيرُ"، يظلُّ يجري خلفَ رغيفِهِ اللاهثِ مُغتربًا ذليلاً، كقولِ الشاعر: "رمى الفقرُ بالفتيانِ حتّى كأنّهم بأقطارِ آفاقِ البلادِ نجومُ"!

مخاطرُ الفقرِ الصحّيّةِ تتبدّى في سوءِ التغذيةِ وتدهورِ الصحّةِ وانتشارِ الأمراض والأوبئة، وفي تفكّكِ الروابطِ الأسَريّةِ وتعقيدِ خيوطِهِ الاجتماعيّة، مع ارتفاعِ معدّلاتِ البطالةِ والحاجةِ، ممّا يؤدّي إلى ازديادٍ مُطّردٍ في معدّلاتِ الجرائمِ والعنفِ والسرقات، فتنعكسُ آلامُ الحالِ على تدنّي المستوى الثقافيّ والعلميّ للمجتمع، وعلى إحباطِ نفسيّات المواطنين العاجزةِ، وإلى انعدامِ الثقةِ مع السلطةِ، وتدهورِ الروابطِ السياسيّةِ التي تمسكُ بزمامِ الاقتصادِ والرفاه!

ما هو أثرُ اندماجِ الدولِ الناميةِ التي يبلغ عددُ سكّانِها 4.3 مليارات في الاقتصادِ العالميّ؟ ما مدى نجاح خططِ التحفيز الاقتصاديّ التي اتّبعَتْها السياساتُ الاقتصاديّة لإصلاحِ الاقتصادِ الوطنيّ؟

ورد في تقريرِ منظّمةِ العفو الدولية السنويّ: "إنّ عالمَ اليوم فوقَ قنبلةٍ اقتصاديّةٍ اجتماعيّةٍ سياسيّةٍ موقوتة، فمع أنَّ ملايينَ البشرِ انضمّوا إلى الفقر، فقد أُلقِيتْ مشكلاتُهم في العربةِ الأخيرةِ لقطارِ زعماء السياسة الدوليةّ ورجالِ الأعمال، وهم يُصارعون للنجاةِ من آثارِ الأزمةِ الاقتصاديّة العالميّة". ووصف الرئيسُ الجنوب إفريقي "مبيكي" بجوهانسبرغ الفقرَ: "العالمُ اليوم أصبحَ جزيرةَ أغنياءٍ؛ تُحيطُ بها بحارٌ مِنَ الفقراء".

مَن المسؤولُ عن خلقِ الفجوةِ المعتمةِ بينَ الطبقات المعدمةِ، وانحدارِها إلى دركاتِها السفلى؟ هل بسببِ جهل وتخلّفِ وسيادةِ الدول النامية؟ كيف يمكنُ التصدّي للدولِ المُستغِلّة، وإيقافِ استنزافِ ثرواتِ الدولِ الفقيرة؟ هل صراعُ البقاء هو السببُ في تفجّرِ طبقةِ الفقراءِ وانتشارِ شظاياها على أكثر مِن بليون إنسان؟

يُجمِعُ الخبراء على أنّ المساحاتِ الشاسعةِ والخيراتِ الوافرةَ كافيةٌ لتقديمِ الرفاهيّة، للستةِ مليارات مِن سكّان الأرض، لو تمّ توزيعُها بالحدِّ الأدنى مِنَ العدالة!

وتقويمُ المختصّين والخبراء يُلخّصُ أسبابَ الفقر العالميّ: العولمةُ أدّت إلى تدميرِ اقتصادِ الدول النامية، على عكسِ الشعاراتِ التي نادت بها الدولُ الغربيّة، فيقولُ أحد أقطاب الاقتصادِ العالميّ جورج سروس: "لقد أدّت العولمةُ إلى انتقالِ رؤوس الأموال مِن الأطرافِ والبلدان النامية، إلى المركز والدول الغربيّة".

ويقولُ الخبيرُ الاقتصاديّ السابق في البنك الدوليّ جون ستجلتيز: "إنّ الدول الآسيويّة القليلة التي انتفعتْ مِن العولمة، هي تلك التي أدارت العولمة بطريقتِها، أمّا البلدان التي تضرّرتْ وهي الغالبيّة، فهي التي أخضعتْ نفسَها لأحكام الشركاتِ الكبرى والمنظّماتِ الاقتصاديّةِ الدوليّة، وهي المؤسّسات المؤيّدة للعولمة".

بعد استهتار الدولِ الصناعيّة الكبرى بظاهرةِ الاحتباس الحراريّ، وتجاهلها وامتناعها عن التوقيع على اتفاقيّاتٍ تحُدُّ مِن انبعاثِ الغازاتِ السامّةِ مِن مصانِعها، الذي يؤدّي إلى تشريدِ الشعوبِ وإفقارِها نتيجة الكوارثِ الطبيعيّة، وبعد استنزاف الاستعمارِ للدول النامية على مرّ العصور، وفرْض عقوباتٍ اقتصاديّةٍ، وهيمنةِ أمريكا على المواقع الاستراتيجيّة في العالم دون توازن قوى، بعدَ سقوطِ الاتّحاد السوفييتي..

فهل يُعقلُ أن يعيشَ أكثرُ مِن 3 مليارات تحت خطّ الفقر، بمعدّل دولاريْن أميركيّيْن يوميًّا، وفي المقابل تبلغ ثروة ثلاثة أغنى أغنياء العالم ما يُعادل الناتجُ المَحلّيّ لأفقر 48 دولة في العالم، وثروة 200 من أغنى أغنياء العالم تتجاوزُ نسبتها دخْل 41% مِن سكّان العالم مجتمِعين؟ هل مِنَ العدلِ أن تملكَ الدولُ الصناعيّة 97% من الامتيازاتِ العالميّةِ، والشركات الدوليّة عابرة القارّات تملك 90% مِن امتيازاتِ التقنيّة والإنتاج والتسويق؟ هل مِن الإنصافِ أن يذهب أكثر من 80% مِن أرباح إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في البلدان النامية إلى 20 دولة غنيّة؟ هل يكونُ المالُ وَبالاً على أسيادِهِ وسببَ هلاكِ أصحابِهِ؟

معَ الهُوّةِ السحيقةِ الناجمةِ مِنَ الخلل الطبقيّ، ومع هذه الأرقامِ المُرعبةِ، فإنّ الفقرَ اعتلى عرشَ المجتمعات الواهيةِ دونَ مُنازع، ليقبضَ بهيمنتِهِ على المفتاح الذهبيّ في خارطة مآسي الشعوب، وليَسوقها إلى أوسع بوّاباتِ الجرائم والسرقاتِ والعصاباتِ والبغاءِ والفسادِ والانحلالِ والاغتراب! وبما أنّ مواردَ العالم الاقتصاديّة يُديرُها البنك الدوليّ وصندوقُ النقد الدوليّ ومنظمة التجارة العالميّة، فإنّ النتيجةَ الحتميّة تبقى متوازيةَ النتائج دونَ تغيير منظومتِها: "رصيدُ الغنيّ يتعاظم، ورصيدُ الفقيرِ يتفاقم"!

وأخيرًا.. يقولُ بل جيتس: "ليسَ خطؤُكَ أن تولَدَ فقيرًا، ولكنّ خطأكَ أن تموتَ فقيرًا"، فهل لعَيْنِ الرغيفِ الكريمةِ أن تتغاضى عن فضيحةٍ أخلاقيّة؛ تُهدّدُ أمْنَ المجتمعِ وسلامِهِ؟

خفايا القبّعاتِ الزرقاء!

بواعثُ ومُحرّكاتٌ عديدةٌ تراودُ البشرَ بأحاسيسِها الوهّاجةِ وبشهوتِها لإصلاح العالم، ويتجلّى هذا الشعورُ كالبصيصِ تحتَ رمادِ الرمزِ والإشاراتِ البعيدةِ الغارقةِ في الوجدان، وعلى حدِّ التصوّرِ المتفائِلِ، تُلوّحُ المسافاتُ الباهتةُ على غفلةٍ مِن بلبلةِ ذكرياتٍ، تراكمتْ وترسّختْ في أعماقِ النفس، وظلّلتْ أوجاعَ أوطانٍ تجذّرتْ في آفاقِهِ الماضية، وظلّتْ تنبثقُ بضبابيّتِها وعزيمتِها في صورٍ ثائرةٍ بعشوائيّةٍ، وانفعالاتٍ تنبعثُ منها رائحةُ الخوفِ والشكّ والخيبة!

هل يحنو على البشر عشقٌ روحيٌّ للحياةِ يشطحُ بتفاؤلِهِ بالتمرّد، وآمالِهِ بالكفاح، وإيمانِهِ بالحرّيّة والاستقلال؟ لماذا غاصَ الإنسانُ المُستضعَفُ في سباتِ المجازرِ الوحشيّةِ؟

ها القبّعات الزرقاءُ منظّمة لقوّاتٍ مِن حمَلةِ الخُوَذِ الزرْق، تأسّست عام 1918م بعدَ الحربِ العالميّة، ويبلغ عددُ عناصرِها أكثر مِن مئتيْ ألف شخصٍ، ينحدرونَ مِن 115 بلدٍ في العالم، شكّلتها الأممُ المتّحدةُ لحفظِ السلام في مناطق النزاع، ولمراقبةِ الفئاتِ المتنازعة ومدى تقيّدِها باتفاقيّاتِ الهُدنةِ والإلتزام بها، وعامَ 2002 أقرّت الجمعيّة العامّة لمنظّمةِ الأمم المتحدة تاريخ 31-5 يومًا عالميًّا للقبّعات الزرق، بهدفِ تكريم الرجالِ والنساء والعاملينَ في خدمةِ المنظمةِ وقِيَمِها، إذ إنّ قسمًا من أفرادِ القوّاتِ، مِن عسكريّينَ ورجالِ شرطةٍ ومدنيّين تحت الرايةِ الزرقاء يتعرّضون لمخاطرَ الزلازلِ والبراكين والأعاصير ومفاجآت الطبيعة، وقسْمًا للقتل والمآسي والتضحياتِ الجسيمةِ أثناء تأديةِ خدمة السلام، وقد لاقي 121 شخص مصرعَهم في الشهور بين يناير كانون ثاني 1-2009 وفبراير شباط 2- 2010، من بينهم 96 إثر الزلزال الذي ضربَ هايتي.

هل كلُّ منظمةٍ إنسانيّةٍ هي حقّا ثيرمومتر للإنسانية، يقيسُ درجاتِ حرارةِ الظلم بصِدقٍ دونَ تزوير، ويُعدّلُها لتصلَ إلى حالةٍ من التوازنِ والعدل؟ هل لكلّ منظمةٍ معاييرُ وقوانين تُجيدُ عناصرُها قراءتَها وتنفيذها وإقناع المظلومِ بإنصافِها، دونَ أن تخدشَ إيمانَهُ وآمالَه؟

في ظلالِ النكبةِ الفلسطينيّةِ والجرائم السياسيّةِ والعسكريّةِ والأخلاقيّة، أرسلت أوّل بعثةٍ لحفظِ السلام في نكبةِ فلسطين في 29-5- 1948، لمراقبةِ التقيّدِ بينَ إسرائيل والدول المجاورةِ باتفاقيّةِ الهُدنةِ السلميّة، اعتمادًا على سيادةِ القانون كأداةٍ لصيانةِ أمن سِلم السكّان المدنيّين، وإعادةِ المُهجّرين واللاجئين وتأمين الحمايةِ لهم، والمشاركةِ في دعْمِ المصالحةِ وخطى السلام، واستعادةِ الاستقرارِ وغرْسِ بذورِ الأمل في مستقبلٍ أفضل!

ما مدى فاعليّةِ قوّاتِ القبّعاتِ الزرق في تنفيذ أهدافِها، وحِفظِ السلام الدوليّ، وفضِّ النزاعاتِ أو تجميدِها؟ هل لها سُلطةٌ عسكريّة وقوّاتُ جيشٍ، يمكنُ أن يُناطَ إليها بحلِّ المسائلِ العسكريّة؟

جاءَ على حدّ التصريحات، أنّها حقّقتْ إنجازاتٍ في دعمِ استفتاءِ جنوب السودان، وساعدت في حلّ الأزمةِ التي نشبت بعدَ الانتخاباتِ في كوت ديفوار، ودعمت تدريبَ أفرادِ الشرطة في تيمور- ليشتي وبناءِ قدراتهم، وساهمت في تسييرِ دوريّاتٍ في تلالِ جنوب لبنان!

هل هذه القوّاتُ تعملُ حقّا بمصداقيّةٍ عادلةٍ بينَ الأطرافِ المُتنازِعة، أم أنّها تنحازُ لدعمِ طرفٍ على حسابِ الآخر، فتفرزُ الكثيرَ مِن الشكوكِ والقلقِ والتوتّر الخطير؟ ماذا يحدث فيما لو خرجت الأحداثُ عن إرادتِها وتخطيطاتِها بينَ الأطرافِ المتنازعة؟ هل تنسحبُ؟ تقفُ مكتوفةَ الأيدي؟ أم تنحازُ إلى طرفٍ لتُعادي الآخر؟

وتأبى الذاكرةُ الملغومة إلاّ أن يتشظّى فتيلُ شكّها باليقين، وها العينُ المتمرّدةُ تنبشُ الحقائقَ وتشاكسُها، فلا تغفلُ عن تصريحٍ مُربكٍ وتمرُّ بهِ دونَ التفاتٍ مُعانِد، فحقائقُ التقارير بمعظمِها تتضاربُ وتستفزّ العيونَ النهِمةَ الشقيّة، لتقلبَ الرمادَ الضبابيَّ عن حروفٍ لامعة تبدو للغريقِ قشّةَ خلاصٍ وكنزَ حياةٍ ثمين، لكنّها عصيّةٌ على التصديقِ والائتمانِ!

هل أفلحت منظّمة القبّعات الزرق أن تتصدّى لاندلاعِ الحرب الأهليّةِ في رواندا؟ وفي التسعينيّات في الصومال، هل استطاعت أن تقفَ في وجهِ جرائم القتل وعمليّاتِ النهب وتعذيب السجناء؟ وفي الكونغو عام 2005، ألمْ يُستدْعَ عشراتُ العسكريّين من حملةِ الخُوَذ الزرقاء، لتوجيهِ تُهم جرائم بشعةٍ ارتكبوها؟ وعام 2006، هل استطاعت أن تمنعَ القوّاتِ الإسرائيليّة مِن اجتياح الأراضي اللبنانيّةِ؟

لماذا يتفاعلُ المظلومُ المنكوبُ المُتعلّقُ بحبالِ الهواءِ مع هذهِ المُنظّمات باستسلام؟ هل حقًّا يلجأ إلى أحضانِ أمْنِهِ ومفاتيح خلاصِهِ؟ وكأنّي بالشاعرِ والفيلسوفِ الهنديِّ طاغور يهيم بالمسحوقين: "إذا أوصدتُمْ بابَكم أمامَ الخطأ، فالحقيقةُ ستبقى خارجَهُ"! وهل نفتحُ البابَ يا شاعرَنا أمامَ الأخطاءِ، لتعْبُرَ الحقيقةُ وتنفُذَ داخلَهُ؟!

بتاريخ 27-5-2008 كشفت منظمة "حماية الأطفال" غيرِ الرسميّة عن حصيلةِ دراسةٍ استطلاعيّة أجرَتها، استنادًا إلى معلوماتٍ استمدّتها عبرَ توجيهِ أسئلة إلى 250 من الأطفال والناشئة و90 من البالغين، في السودان وهاييتي والكونجو وليبيريا وساحل العاج.

مفادُ الدراسة؛ أنّ ممارسةَ الاعتداءِ الجنسيّ على الأطفال منتشرةٌ على نطاقٍ واسعٍ مِن جانب أصحاب القبّعات الزرق، في المناطق المنكوبة الذين "يُستغاثُ" بهم باسم السلام فيها"، واستهدفَ أطفالاً في السادسة مِن العمر، وفتياتٍ قاصراتٍ، إمّا اغتصابًا وإمّا استغلالَ الفقرِ والجوع، فهل مَن يُدعَوْن بملائكةِ الحمايةِ والحراسة، يمكن أن يُمثّلوا خطرًا على الأطفالِ والناشئة، كمَن أمّن الذئبَ على قطيعٍ مِن الحملان؟

أين تقفُ العدالة والإنسانيّةُ مِن تصاعدِ اتهام القوّاتِ التابعة للأمم المتحدة، التي تورّط فيها عناصر مِن القبّعات الزرق، ولخّصت حقائقَها في سلسلةٍ مِن فضائح فسادٍ ماليّ، وفضائحَ جنسيّةٍ واستغلال، واغتصابِ أطفالٍ وقُصّر، وتهريبِ الذهبِ والمعادن الثمينة، ومقايضتِها بالأسلحةِ والموادّ التموينيّة؟

ألا تدفعُ هذه الفضائحُ أعضاءَ الأمم المتحدة، إلى التفكيرِ في سُبلِ تحسينِ إصلاح المهمّةِ السلميّة ونشاطِ قوّاتِ حفظِ السلام، واختيار كوادر بكفاءاتٍ إنسانيّةٍ عالية، ليقتنعَ المظلومُ بمصداقيّتِها، خاصّة في العالم الثالث وشرْقِنا الثائر؟ كيف؟

أعيدوني للوطن ولو بكفن!

هذا الكيانُ الأسطوريُّ المُسمّى وطنًا، بجسدِهِ الطاؤوسيّ البحريّ، وبقلبِهِ الزئبقيّ السماويّ، له جاذبيّةٌ قويّةٌ بكلّ الاتّجاهات، بريشِهِ الملوّنِ يكسو وجدانَ الإنسان، فيُجمّلُهُ ويُدفئُهُ ويقيهُ الحَرّ والبرد، ويُحلّقُ بهِ عاليًا، ليظلّ المرساةَ المتجذّرة في أعماقِهِ!

لماذا يُشاطرُنا أنفاسَنا ومساراتِ حياتِنا بلغتِهِ المُجرّدةِ ولهجتِهِ المُحبّبة، فيُخضّبُ أفراحَنا بأريج عطرِهِ، ويُغلّفُ أرواحَنا بجذوةِ حنينٍ نابضةٍ لا تُطفئُها ويلاتُ الزمان الغادرة؟ لماذا يُلازمُنا إن سافرنا وغادرنا، ويحُلُّ أينما أقمْنا، حتّى وإن غزتْهُ أتراحُنا في أنويةِ الحرب والسلم، يفتحُ أحضانَهُ بحنانٍ لمعانقةٍ أبديّةٍ لأبنائِهِ البررة! هل الوطنُ هو الحلقةُ الأشسعُ، التي تتّسع لاحتواءِ كلّ الحلقاتِ الأخرى؟

ليسَ الوطنُ أرضًا وبحرًا وسماءً، بل كلّها مجتمعةً في كيانِ الإنسان، في اقتسامِ الماءِ والحجرِ والهواءِ والشجر، في بلورةِ الحبّ والحرّيّةِ والانتماء، في العيش بكرامةٍ وإرادةٍ وإخاء، بكلّ الفوارقِ العِرقيّةِ والدينيّةِ واللغويّةِ والحضاريّة، فيترعرعُ نفسيًّا وحياتيًّا، ويشكّلُ الملجأَ عسكريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا.

كانت الأوطانُ قديمًا تتغيّرُ بحسبِ الحاجةِ للمواردِ الطبيعيّةِ الأساسيّةِ مِن نباتٍ وماء، فيرتحلُ الإنسانُ كلّما افتقرَ إلى أمنِهِ وراحتِهِ، ومع مرّ العصورِ والبنيان، جعلَ الإنسانُ يبني عناصرَ وطنِهِ بمقوّماتِهِ ومؤهّلاتِهِ وأبنائِهِ وتنظيماتِهِ بشكلٍ متين، لأنّهُ صارَ عرضةً للحربِ والابتزازِ والاستغلالِ والاحتلال، طمعًا بمواردِهِ وموقعِهِ الاستراتيجيّ.

لذا؛ اهتمّ البشرُ بالموت دفاعًا عن ثوابتِ الوطن وحضارتِهِ وتراثِهِ وحدودِهِ، بتوطيدِ أواصر الانتماءِ والولاءِ، وتوثيقِ روابطِ العلاقاتِ الوطنيّةِ بينَ أبناءِ الوطن الواحد!

قال كاريل: "جميلٌ أن يموتَ الإنسانُ مِن أجلِ وطنِهِ، ولكن الأجملَ أن يحيا مِن أجله".

فهل يأتي زمانٌ يعيشُ شرقُنا ويحيا مِن أجلِ الجَمالِ والوطن؟ وهل يمكن أن يكونَ للإنسان أكثرَ مِن وطن؟ كثيرٌ مِنَ المُغتربين والمنفيّين والمُهاجرين يحملون أكثرَ مِن جنسيّةٍ في ذات الوقت، وأكثرَ مِن ولاءٍ وانتماء، فمتى تتضاربُ انتماءاتُهم، وتنتصرُ واحدةٌ على الأخرى؟

ما الذي يدعو زوجة إمبرطور إيران إلى محاولة نقل رفاتِ زوجها إلى إيران؟ هل يرقدُ الميت حقّا بسلامٍ في وطنِه، على حدّ قولِها: "أريد أن يرقد بسلام"؟ وما الذي يدعو الشعوبَ المقهورة مِن المنفيّين المغتربين بالحلم بالوطن، والعودةِ إليه ولو بكفن؟ هل الوطن هو الهُويّة الأولى لمكان الميلاد، أم "مَطرح ما تُرزق إلزقْ"؟ هل يختلفُ مفهومُ الوطن بينَ شعبٍ وآخر؟ لماذا لم يذبل الحُلمُ اليهوديّ بالوطن، والعودة إلى أرض الميعادِ بعدَ عشراتِ القرون والعقود؟ وهل يموتُ الوطن للفلسطينيّ، والذي وُلدَ في المهجر سيفقدُ حقّ الحلم بالعودةِ إلى وطنِهِ بعدَ أجيال؟

غسان كنفاني هذا الشهيد الأديب الفارع بفِكرِهِ ووطنيّتِهِ وقصصِهِ، ما غابَ عن ذهني "عائدٌ إلى حيفا"، كتابُ قصّتِهِ؛ تلك الهديّة الأولى لطفلةٍ في التاسعةِ مِن عُمرِها، جعلتْها تذرفُ دموعَ خوفٍ نازفٍ لشبحِ مجهولٍ عربيد، وأتخيّلُني رضيعًا في النكبة همَّ أهلُهُ باحتضانِهِ، حينَ وَلَّوْا هاربينَ مُهرولينَ إلى الحدودِ اللبنانيّة تحتَ جنحِ قصْفِ حيفا، وبعدَ أن وصلوا الحدود، أدركوا أنّهم احتضنوا وسادةَ بدلَ الطفل، لتكتحلَ نكبتُهم بنكباتٍ وحسراتٍ وأجيالٍ لا تفارقُها كوابيسُ التغريبِ والتهجيرِ والتعذيب!

صرخَ غسّانُ في وجهِ شعبٍ قانطٍ يائس: "يا هذا قُمْ.. لكَ شيءٌ في هذا العالم.. أنتَ إنسانٌ، والإنسانُ هو في نهايةِ الأمرِ قضيّة، فإذا كنّا مدافعينَ فاشلين عن القضيّة، فالأجدرُ بنا أن نُغيّرَ المُدافعين، لا أن نُغيّرَ القضيّة، لأنّ الثورةَ وحدَها هي المؤهّلةُ لاستقطابِ الموت، والثورةُ وحدها هي التي توجّهُ الموت، وتستخدمُهُ لتشقّ سبلاً للحياة، وقضيّةُ الموتِ ليست على الإطلاق قضيّةُ الميت، إنّها قضيّة الباقين"!

يا غسّان... الباقون ليسوا قلّة، فقد تضاعفت أعدادُهم المنكوبةُ مرّاتٍ ومرّات، وانغرستْ بدمائِهم ملايينُ المآسي والأوجاع، فاسمعْ جبران مِن خلفِ العقودِ صوتُهُ يخترقُ صخرَ لحْدِهِ صارخًا: "الويلُ لأمّةٍ عاقِلُها أبكمُ، وقَويُّها أعمى"!

فيعترض لورد توماس: "لكن الطغاة لم يكتشفوا بعد سلاسلَ تُكبّلُ العقول"! إذًا؛ أين هم العقلاءُ والأقوياءُ والأتقياءُ في هذه الحياة، وفي أمّةٍ عايشَتْها الأوهامُ بحقائقِها المُرّة؟

نعم؛ "الحقيقة دائمًا تُؤلمُ مَن تعوّدَ على الأوهام" يردّ بيدل. فيضيفُ جَمال الدين الأفغانيّ: "الحقائقُ لا تزول بالأوهام، وأمّةٌ تَطعنُ حاكمَها سِرًّا وتعبدُهُ جهرًا، لا تستحقُّ الحياة!"

وها اليوم ذكرى النكبةِ تهتفُ صادحةً.. أبْشِروا.. فما الذي يدفعُ بأجيالٍ صغيرةٍ إلى الثورة، ليُسلّحَ شبابًا صاعدًا بجبروتٍ وتحَدٍّ يخترقُ حدودَ الجولان المحتلّ، وحواجزَ مستحيلِ دولةٍ لا تُقهرُ؟ هل تراها أدركت مقولة حكيم: "سقوطُ الإنسان ليس فشلاً، ولكن الفشلَ أن يبقى حيث سقط"؟ أم تراها قيود الآمال نضجتْ مفاتيحُها العجيبة، وتمرّدت على قيودِ الفقر والذلّ والغربةِ تكسرُ مغاليقِها كقول تاجور: "ما أكثرَ القيودَ التي تربطُ الإنسان بالدنيا، ولكن أعجبَها جميعًا قيدُ الأمل"؟

وإن كنّا نُسلّمُ بمقولة الإمامِ الشافعيّ: "نَعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا/ وما لزمانِنا عيبٌ سوانا"، فما الذي يدعو العملاءَ والخونة يُفرزون لعابَ غضبهم السامّ، ويتمرّدون على أهلِهم، ويسلخون جلودَ وطنيّتِهم، ويبيعون أوطانَهم بأرخص الأثمان، ويدورون في فلك الخيانةِ بوجوهِ أوصياءَ ومُهرّجينَ مطليّةٍ بشتّى الألوان الفاقعة ودون روادع، بل ويدّعونَ الغيرةَ الوطنيّة المُبطّنة بالأنانيّة، فيلتهمونَ خيراتِ البلد، ويدلّسون الحقائقَ ويشوّهونها؟

هل يؤكّدون بذلك قولَ آنا تول: "الجائعُ لا يمكنُ أن يكونَ مُخلِصًا لوطنِهِ"؟ أم يؤكّدون أنّهم عبيدُ المال والعروش والكروش كقول فولتير: "لا وطنًا حُرًّا إلاّ بمُواطنين أحرار"؟

وأخيرًا..هل يكون لنا زمانٌ نكونُ فيهِ أحرارًا وأسيادَ أوطانِنا؟

يومُ نكبةِ فلسطين عيدُ استقلال إسرائيل!

مِن مفارقاتِ الحياةِ أن يجتمعَ نقيضا القطبيْن في نفس اللحظة، بإبادةِ دولةِ فلسطين العربيّة المنكوبة وتهجيرِ أهلِها لكلّ بقاع العالم، ليصيرَ عيدَ استقلال إسرائيل اليهوديّة، وفرحها بشعبها المتباكي المُلملَمِ مِن أرجاءِ العالم! "ضربني وبكى وسبقني واشتكى"؟!

الأمّهاتُ الغربيّات احتضنَّ إسرائيل، وتلقفنَها بمنتهى الحنان والرعاية والتكفير عن ذنوب لم يقترفنها، في حين أوى الفلسطينيّون إلى انكسارِهم مُشتّتين، كسائرِ بلدانِ شرقِنا اليتيم اللطيم، تُلاطمُهُ وشعوبَنا نكباتٌ تلوَ نكبات، وثوراتٌ إثر ثورات، وبراكين ثائرةٌ مِنَ ملايين الضحايا الأحياء الأموات، فتتبدّلُ الأسماءُ والهُويّاتُ والسياسات، ويُداس جوهرُ القضايا البشريّة، ويتسلقُ مَن يتسلّق شجرة الحرّيّة، ويتعربشها ليخنقها ويغتالَ ثمارَها، وتغدو لغة الدم خلاّبة توسوسُ النفسَ، وتُسوسحُ العينَ بمزيدٍ مِن الخياناتِ الإنسانيّة!

15 مايو مِن كلّ عامٍ هو ذكرى يوم النكبة الفلسطينيّة، الذي هُجّر فيه مئاتُ القرى الفلسطينيّة العربيّةِ وصارت في خبَرِ الأطلال، أكثرُها التهمتها جرّافات الاحتلال، وأخرى استُنسِخت باستيطانِ أقدامٍ أجنبيّةٍ استُقطِبت وأُغوِيَت، لتخطّ فصولاً جديدةً لحكاياتِ شعب الله المختار، وأسطورةِ عودتِهِ إلى أرضِ الميعاد حيثُ السمن والعسل، والتين والرمّان والزيتون، ولتطأ وتفترشَ بيوتَها العربيّة متجذرة العقود الشامخة، وتتعرّشَ قممَ تلالِها وجبالِها المُستباحة، وتتّكئَ على عكاكيزِ عظامِ جدودِنا، ويبقى تاريخُ أوجاعِنا مضرجًا بدماءِ وحكايا المنكوبين الفلسطينيّين، بنهاياتِهِ مُشرّعةِ النوافذ والأبواب والألبابِ، على خلاءٍ دجّالٍ وخواءٍ نوّاح!

ملايين الفلسطينيّين تهرسُهم طواحينُ الغربة، وتبكيهم نواعيرُ التشرّد، ولا تتشفّعُ لهم طوابيرُ اللجوء، منذ اعتلت القصّةُ الصهيونيّةُ متنَ موجةٍ شرسةٍ منذ أكثرَ من ستةِ عقودٍ، وما انفكّ فؤادُ الحقيقةِ يشتعلُ ألمًا، والذكرياتُ الملتهبةُ تستنهضُها الجِراحُ النازفةُ كرامتَها ووجدانَها، فتتناسلُ آمالاً في صرّة الحياة، وتنبعثُ أحلامًا في سهوةِ الموت!

التقيتُها قبلَ أيّامٍ معدودةٍ، تلكَ الطفلةُ التي لقّمَها ثديُ أمِّها الميّتة الصمتَ مدّة ثلاثةِ أيّام أثناءَ القصفِ والعصفِ على حيفا، كي لا تبكي ويستدلَّ الاحتلالُ إلى أطفالٍ نجَوْا من بقايا عائلةٍ تحت الردم، يأكلهم الجوعُ والعطشُ ويُغطيهم الخوف، فكانت لهم الحياةُ بمراراتِها وعذاباتِها أتونَ موتٍ يتلظى، والأخت الكبرى ابنة الـ 15 في حضرةِ التمنّع والتعفف، تغدو أمًّا لطفلةٍ وخمسةِ إخوةٍ يصغرونها بهمسٍ يحترق!

اليومَ هي طفلةٌ يتيمةٌ؛ تتهاوى فريسة احتضارٍ قطفها مِن بستانِ الحياةِ، تجاوزت الستينَ مِن عُمرِ النكبة، وما أسعفها القدَرُ المهشّمُ بوِصالِ أهلِها المشرّدين، فأقعدَتها الأمراضُ مجتمعةً على كرسيّ متنقل يحتفلُ بمآسيها، وما أقعدَتها الدموعُ المقدّسةُ عن بوحِ ذكرياتِها تراتيلَ أوجاع، لا يُنازعُها فيهِ لا موتٌ ولا وداع! رضعت من ثدي أمّها الميتة ثلاثة أيام في النكبة، ومنذ مَوْلِدِها تأهّبت للموتِ قسْريًّا كأهلها وأقربائِها، لكنّهُ ما استساغ وجعَها، فظلت تتشبّثُ بالحياةِ وجوبًا لا استحقاقا.. سُحقا.. سُحقا.. كلماتٌ تطفو كطوقِ نجاةٍ على شُعيْراتِ لسانِها

تدعو بالخلاصِ على ضفافِ الوطن! كيف يكونُ الخلاصُ لهذهِ الطفلةِ الستينيّةِ ولأبناءِ جلدتِها، والعالمُ بأسْرِهِ يُعاينُ شرقنا المتراقصَ على فوّهةِ بركانٍ يتحفّزُ للانفجارِ في أيّةِ لحظة؟ هل الوقوفُ على أعتابِ النكبةِ هذا العام مسكونٌ بالصمود، أم محفوفٌ بمخاطرِ المبايعةِ ومؤامراتِ المقايضة بشكلٍ سافرٍ مكشوف؟ هل ستقومُ دولة فلسطين على أنقاضِ فلسطين، فقط بشرط يهوديّةِ الدولةِ العبريّة؟

تعْمدُ خطة رئيس حكومةِ إسرائيل إلى احتواءِ الاعتراف الدوليّ بالدولةِ الفلسطينيّة فقط على 0.050 مِن مساحة فلسطين التاريخيّة، وذلكَ مقابلَ الاعترافِ بإسرائيل كدولةٍ يهوديّةٍ وأحاديّةِ القوميّة! ألم يعلن الرئيس الراحل ياسر عرفات ومنظمة التحرير الدولة عام 1988، وما زالوا يحتفلونَ بهذا الإعلان، رغمَ أنّه لم يخرجْ عن إطار الحبر الذي جفّ على الورق؟ وإن كنّا افترضْنا إعلانَ الدولةِ الجديد باعترافٍ عالميٍّ بيهوديّةِ الدولةِ العبريّة على أنقاضِ فلسطين العربيّة، فما مصيرُ هؤلاء العرب المتجذرين في أرض الوطن؛ مَن تبقّوْا متمسّكينَ بحيفا ويافا والناصرة وعكّا والجليل والمثلث والنقب وغيرها؟

اليومَ ونحن على مشارفِ ذكرى نكبتِنا الفلسطينيّة، ينشرُ جهازُ الإحصاء المركزيّ الإسرائيليّ إحصائيّةً رسميّة في عشيّة ذكرى إقامة دولتهم، عن عددِ السكان في إسرائيل، تبيّنُ هذه الإحصائيّة أنّ عددَ السكّان العرب الفلسطينيّين قد بلغ مليون و587 ألفا، ممّا يُشكّل ما نسبته 20.5% من مجموع سكّان إسرائيل البالغ 7 مليون و746 ألف نسمة!

فإذا كانت إسرائيل تطالبُ بدولةٍ عبريّةٍ أحاديّةِ القوميّة، فأين ستمضي بخُمس سكّانها العَرَب؟ هل ستعودُ مجدّدًا إلى فكرةِ ضمّ منطقةِ المثلث العربيّةِ إلى مناطقِ نفوذِ السلطةِ الفلسطينيّةِ، لتخلُصَ منها ومِن ازديادِ سكّانِها الفاحش، الذي يُهدّدُ الكيانَ الصهيونيّ؟ هل ستمارسُ ضغوطاتِها وتخنيقاتِها على العرب أكثر ممّا هم فيه، فتجعلهم يَجْرونَ ليلَ نهار وراءَ لقمةِ العيش الكريمة، وحين تصلُ أفواههم تخطفها مِن أمامِ أنظارهم المحترقة؟ وهل ستشدّدُ عليهم الخناقَ، فتُصعّبُ عليهم امتلاكَ الأراضي المتبقية والبيوت، بفرْض ضرائبَ باهظةٍ تُكلّفهم أكثرَ من أثمانِها؟

هل ستُعجّز الطلاّب الجامعيّين العرب بامتحاناتِ تعجيز، وتلاحقهم وتمنعُهم مِنَ الاستمرارِ في جامعاتِها، ليلجؤوا إلى دولٍ مجاورةٍ وأوروبيّة للتعلّم، وحينَ عودتِهم لا يجدونَ عملاً يُحقّقُ نجاحَهم؟ هل ستزيدُ البطالة، وتقلّصُ فرصَ العملِ أمامَ العرب، لتتفاقم الأوضاعُ الاقتصاديّةُ والاجتماعيّةُ سوءًا وتضطرُّهم للهجرة؟ هل ستُسهّلُ للعرب الهجرة بتذكرةٍ مجّانيّةٍ في اتجاهٍ واحدٍ لا عودةَ فيهِ ومنه؟ هل ستطالبهم بالتجنيدِ الإجباريّ في صفوفِ جيشِها لإثبات الولاء والانتماء؟

هل ستسمحُ بتفشّي المُخدّراتِ والأسلحةِ المُهرّبةِ فيما بينهم، فيقتلونَ بعضُهم بعضًا بتصفياتِ عصاباتٍ، وصراعاتٍ طائفيّة ونزاعاتٍ حمائليّة، أم ستطالبُهم بالتهوّدِ والالتحاق بالعقيدة اليهوديّة والصهيونيّة، للسماحِ لهم بالبقاءِ على أرضِهم المسلوبة؟ هل وهل وهل....؟ جبالٌ من التساؤلاتِ تقفُ عوائقَ أمامَ الفلسطينيّين العرب، لكنّهم يدأبون على المثابرةِ في النضال، والتمسّك بما تبقّى لهم مِن وطنٍ على أرضِ الوطن!

مواسمُ تعبيرٍ وتغبيرٍ أم حملاتُ تغييرٍ وتعيير!

للإعلام المقروءِ والمسموع بكلّ أنواعِه متباينةِ التوجّه علاماتٌ فارقةٌ في حياةِ البشريّة، فهو لغةُ تعبيرٍ وتناغمٍ بينَ المُرسِلِ والمستقبل، يَعملُ على إيصالِ فكرةٍ أو قضيّة ما، ليجعلَ الرأيَ العامّ يتأثّرُ بها ويستجيبُ ويتفاعلُ معها سلبيًّا أو إيجابيًّا، لِما له مِن انعكاساتٍ وتداعياتٍ وتشويشاتٍ قد تخدمُ جهاتٍ مُوالية، وقد تحاربُ جهاتٍ أخرى مُعارِضة!

هل كلُّ إعلام يُساهمُ في عمليّةِ التثقيفِ والتقريب مِن الحقيقة، فيعملُ على التنوير والتبصير والإقناع وبثّ الوعي لصالح الفرد والمجتمع، وبتغطيةٍ متعدّدةِ الجوانب، أم أنّه قد يكون أحاديّ الاتّجاه، يوجّهُ الجيلَ الناشئَ بطُرُقِ المبالغةِ والتزوير والتحريف، ويدعو إلى حالةِ تحريضٍ وتقزيمٍ وتشويش وتثوير على ثوابتَ وحقائقَ يقوم عليها استقرار المجتمع؟

هل وصلت مجتمعاتُنا إلى حالةٍ مِن يقظةٍ فكريّة، ونضجٍ عاطفيّ وأمنيّ ونفسيّ تؤهّله للتمييز بين الحقيقةِ والوهم؟

هل يَعلمُ المواطنُ البسيط أنّ هناك أحزابًا وعناصرَ لها مكانتُها الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والفنيّة والثقافيّة، يمكنها أن تجرفَ الحقيقة عن مسارِها، وفي الخفاءِ تلعبُ مِن وراءِ الكواليس ألاعيب الغمّيضة والتعتيم، من خلالِ أسهُمٍ لها في الإعلام تشتري بها الذمم، فتمنحُ الصحف حصصًا إعلانيّة، أو مقتطعات سنويّة، أو مكافآتٍ ومخصّصاتٍ شهريّة، الأمر الذي يمنحُها القدرة على التحكّم بآليّات النشر، ونشر ما يخدمها، أو منع أيّة مادّةٍ صحفيّةٍ مِنَ النشر، إن كان لها علاقة بها وتهدّد مصالحَها، أو تتعارضُ مع مصالحِ المحيطينِ بها؟

هل يعملُ الإعلامُ على تحقيق الحرّيّةِ والعدالة والكرامة للإنسان، ويُراعي هوامشَ الحرّيّاتِ المتفاوتةِ بينَ القرّاء، أم أنّ بعضَهُ يلهثُ وراءَ الربح، على حسابِ الأخلاقيّاتِ والوطن وأمنِهِ واستقرارِه؟

في الفترة الأخيرةِ تدأبُ مواقع إعلام كثيرة في إثارةِ عجاج الغبار مِن حول بلدانِنا العربيّة، فتشاركُ في جريمةِ إخفاءِ الحقائق، وتلبسُها أوهامًا قد تودي بالثقة العربيّةِ المتبقيّةِ إلى هاوياتِ اليأسِ واللامبالاة!

وأنت الشاهدُ على مآسي إعلامِنا، قد ينعتكَ بعضُهم بالعدائيّ المتطرّف، وقد يَصِفكَ بعضُهم بالاستسلاميّ الانهزاميّ، وقد يَعُدُّكَ نفرٌ آخر معتدِلاً مُسالِمًا، وتظلُّ مرهونًا بوجهاتِ نظرٍ متعدّدة الأبعاد متباينة، تتعلقُ بثقافةِ قرّائِكَ ووعيِهم لقضايانا الراهنة.

هل يمكننا التعامل مع الرأي الآخر بتوجّهاتِهِ المختلفة، كجزءٍ مِن حرّيّةِ التعبير وليس كجزءٍ من الاتّهام؟ متى؟ وكيف؟

متى يدخلُ الرأيُ والخبرُ في معتركِ الإشاعاتِ والأباطيل؟ هل للإعلام الرسميّ دوْرٌ في تفشّي الإشاعةِ الإعلاميّة؟ هل ستبقى منابرُنا الإعلاميّة أداةَ تَسوُّقٍ في بسطاتِ الرّأي والرّأي الآخر؟

الفنان مارسيل خليفة الملتزم فنيًا ووطنيًا وعربيًا قالَ في برنامج "بلا مجاملة" بتاريخ 18-4-2011، في حلقةٍ مسجّلةٍ بُثّت في تلفزيون حنبعل التونسيّ الفضائيّ: "لا صحّة بتاتًا لأيّ أخبار عن اشتراطي مبلغ 150 ألف دولار من أجل إقامةِ حفلٍ في تونس، بمناسبة الثورة التونسيّة التي ساندتها، ولم يتّصلْ بي أحد أصلاً، مِن أجل إقامةِ حفلٍ في تونس، حتى يحقّ الحديث عن مبلغٍ ما اشترطتُه"!

وما بين ترويجِ خبرٍ تناقلتْهُ صحفٌ ومواقع إلكترونيّة وما بين نفيهِ، يقفُ المُتتبّعُ والمُراقبُ مشدوهًا حانقًا، لِما وصلَ إليه الإعلامُ مِن تضليلٍ وتظليل!

الفقرُ الموضوعيُّ واللامسؤولُ في بعض وسائل الإعلامِ العربيّةِ الرسميّة والتجاريّة يتجلّى واضحًا، فالمذيعةُ التي دسّت الخبرَ في وجبتِها الإعلاميّةَ، تحتَ بند فنانٍ ملتزم، تنفي وتبرّرُ وتُنكرُ أنّه المقصود، مِن منطلق عدم ذِكْرِ اسمِهِ في حيثيّاتِ ما أورَدتهُ في خبَرِها.

هل أمرٌ كهذا، قد يضعُ تاريخًا بأكملِهِ في خانةِ التشويهِ، سواءً كانَ الأمرُ يتعلّقُ بفنّانٍ أو بكاتب أو سياسيّ، وقد يُفضي إلى إعلان حُكم الإعدام على مسيرةٍ ناجحةٍ، بغضّ النظر عن توجُّهاتِها؟

هل باتَ السبقُ الاعلاميُّ وصناعة الإعلام تجارةٌ تفتقرُ للموضوعيّة، وتعتمدُ على الإشاعة والإثارة لضمان الربحيّة والاستمراريّة؟

ما وجهةِ نظرِ قوانين المرئيّ والمسموع وأنظمةِ المطبوعاتِ والنشر في دولِنا العربيّة، تجاهَ المنظومة الإعلاميّةِ التي تُغرّدُ خارجَ سربِ المهنيّةِ والموضوعيّة؟

في أوج المتغيّراتِ في العالم العربيّ واندلاعِ ثوراتِ التغيير، برزت إشاعاتٌ لا تخضعُ لا لرقيبٍ ولا لحسيب، إشاعاتٌ مكثفة لم يسبق لها مثيل، أضاعت المواطن العربيّ بين تعدّدِ الرواياتِ، وبعثرته في حكاياتٍ وتفاهاتٍ تُشغلُهُ بعيدًا عن جوهرِ القضيّة، وساهمت في انهيارِ أنظمةٍ، وتفتيتِ النسيج المدنيّ بين مُؤيّدٍ ومُعارِض!

هل الروايةُ الصحفيّة التي صبّتْ جُلّ اهتماماتِها على جوانب النساءِ والزواج والعشيقاتِ والأموال المنهوبةِ وغيرها، هي جزءٌ مِن الحبكاتِ الإعلاميّةِ، من أجلِ سحْقِ الأغلبيّة الصامتة، وخلطِ حابل الحقيقةِ بنابل نقائضِها، كي تُرسّخَ حالةً مِن انعدام الثقة ما بينَ مؤسّسةِ الشعبِ ومؤسّسةِ القيادة؟

هل يُؤخذ على المسؤولين والمعنيّين بأمر الإعلام العربيّ مسؤوليّة ما آلت إليه الأمور، مِن نزوح إعلامِنا نحوَ النقل عن المواقع المشبوهةِ التي تُروّجُ لأخبارِ الإثارة؟

لماذا نستسلمُ للإعلامِ الغربيّ في السرّاءِ والضرّاء، وهو الإعلامُ الذي فتحَ قنواتِهِ على مدارِ الساعةِ لفضح استثماراتِ "الزعماءِ والكبار"، في الوقتِ الذي كانَ بهِ بالأمس القريب يُبجّلُ بنزاهةِ هؤلاءِ الكبار، ويضعُهم على رأس قوائم المشهودِ لهم بالشفافيّة؟

لماذا انهارَ الإعلامُ الوطنيُّ المسؤول في بعض الدول الشقيقة، وصارَ ينطق بمستوى لغويٍّ أشبه بلغطٍ همجيٍّ يجتاحُ اللغوَ المهنيّ؟

بينَ المواطنةِ واللجوء خيطُ كذبة!

بعيدًا عن يوم اللاجئ العالميّ الذي يُصادف تاريخ 20-6 مِن كلِّ عام، بدا عام 2011 وكأنّه يأخذ المنحى الاستباقيّ عن غيره من الأعوام التي أحيى بها العالمُ هذا اليوم، كتعبير عن الضميرِ المتستّرِ وراءَ دبلوماسيّة التعايش مع الظرف والحدث والمكان والزمان، ومع حالةِ النزوح التي تشهدُها شعوبُنا العربيّة عن بلدانها، في قطاعاتٍ كبرى شهدت تغيّرات، ومتغيّرات استبقت الاحتفال السنويّ لبعض بلدان إفريقيّة دأبت عليه منذ عشراتِ السنين.

اللاّجئون! هُم مَن تُشرّدُهم الطرقُ رغمًا عن إراداتِهم مِن قراهم ومدنِهم، وتؤدّي الصراعاتُ وممارساتُ الاضطهادِ إلى تشتيتِ شمْل أُسَرِهم! فهل هروب رؤوس الأموال العربيّة إلى خارج أوطانها، طمعًا في الاستقرار والبحث عن البيئة المناسبة للاستثمار، يدخلُ في إطار اللجوء؟ ما الفرق بين اللجوء الاقتصاديّ وبينَ اللجوءِ السياسيّ؟

المفوضيّة العليا للأمم المتحدة جسمٌ دوليٌّ معترفٌ به عالميًّا لرعاية المُهجّرين؛ تعملُ على احتضانِ اللاجئين ومعالجةِ قضاياهم، وتوفير أبسط الحقوق الأساسيّةِ والمتطلّباتِ الإنسانيّة، لضمان الحمايةِ الدوليّةِ للاجئين في كافّةِ أنحاءِ العالم، وإيجادِ الحلول المؤقّتة لمشاكلِهم!

لكن؛ هل تمكّنت المفوضيّةُ فعلاً مِن استيفاءِ شروطِ الرعايةِ ولكافّة اللاجئين؟ وماذا عن 1.2 مليون لاجئ أفغانيّ فرّوا إلى دولٍ ناميةٍ مثل باكستان، وليس فيها وسائل رسميّة لحمايتهم؟ وكيف ستعالجُ مفوّضيّة الأمم المتحدة شؤونَ اللاّجئين الجُدد من عالمنا العربيّ، الذين فرّوا من دمارِ الصراعاتِ الداخليّةِ والانقسامات الحزبيّة والجغرافيّة؟

لماذا يُقيمونَ يومَ اللاجئ العالميّ؟ هل هو ذكرى العار الإنسانيّ، والتذكير بالمواجع المأساويّة والأحزان البشريّة، أم محاولةٌ للملمةِ الماضي العاثر في ثوبِ استقرارٍ جديد؟ هل هو احتفالٌ بعزيمةِ المضطهَدين اللاجئين لإقبالهم على الحياة، وانتصارهم على الاضطهادِ والمضايقاتِ والمصاعب؟ هل يهدف إلى زيادةِ التوعيةِ عندَ اللاجئين، وإتاحةِ فرَصِهم في الخلاص؟ هل يحاولُ إبرازَ أسبابِ اللجوءِ وعلاجِها على المدى البعيد؟

إذًا؛ كيف نفسّر الازديادَ المطّردَ لعدد اللاجئين في العالم؟ ما هي أسبابُ اللجوءِ الدوليّ؟ ومَن هي شرائحُ اللاجئين الدوليّين؟ كيف يحتفلُ اللاجئون الفلسطينيّون في الشتات بذكرى يوم الأرض، التي تصادف 30-3 مِن كلّ عام؟ وماذا نسمّي هجرة العائلات التجاريّة ورجال الأعمال، الذين سعَوْا إلى نقل مزيد من ثرواتهم الشخصيّةِ إلى ملاذاتٍ وأصول آمنة خارجيّة، بعدَ موجةِ الاضطرابات الأخيرة التي اجتاحت الدول العربيّة وبعض الدول الخليجيّة؟

صحيفةُ "القبس" الكويتية كشفت عن حجم المبالغ نقلاً عن صحيفة الفايننشيال تايمز البريطانيّة يوم 26-3-2011، وقالت أنّ حجمَ الأصول السائلة للمستثمرين الأفراد الخليجيّين 1200 مليار دولار، وفق تقرير مؤسسة بوز آند كومبني، ومعظمها يُدار مِن قِبل شركات خاصّة، تديرُ استثمارات وأموال عائلةٍ ثريّة واحدة، تُعرف بـ "مكاتب عائليّة" لتجّار الخليج!

دوافع عديدةٌ تضطرُّ اللاجئينَ إلى مغادرةِ بلادِهم، واللجوءِ إلى بلدٍ آخرَ يحميهم ممّا يُهدّدُهم إمّا؛ عِرقيًّا، دينيًّا، وطنيًّا، اجتماعيًّا، بسبب الجنسيّة وغيابِ العدالةِ والتهميش، أو بسبب الانتماء لفئةٍ اجتماعيّةٍ معيّنة، أو لحزبٍ وخطٍّ سياسيٍّ مُعارض، أو بسبب التغيّر البيئيّ وتضاؤل الموارِدِ الطبيعية، أو بسببِ الفرار مِنَ القتال في مناطق النزاع المسلّح، كما حدثَ في المملكة المتحدة، و 74% ممّن طلبوا اللجوءَ إلى أوروبّا والولايات المتحدة، أتوْا مِن بلادٍ تُعاني مِن مشاكلِ النزاع المسلّح!

نجدُ ثلاثةَ أنواع مِن اللجوءِ الدوليِّ الرسميِّ المشروط:

لجوءٌ سياسيّ: الشخصُ يترك بلدَهُ لأسباب سياسيّةٍ واضطهادٍ وتهديدٍ، بسببِ معارضتِه السياسة القائمة، ويحصلُ على جنسيّةٍ تمكّنُهُ مِن حرّيّةِ السفر إلى أيّ بلدٍ سوى بلده.

لجوءٌ دينيّ: أي اضطهادٌ دينيٌّ وطائفيٌّ يهدّدُ كيانَهُ وحياتَه.

لجوء إنسانيّ: يحصلُ اللاجئُ على جنسيّةٍ تُمكّنُهُ مِنَ السفر إلى بلدِهِ وأيّ بلد، لأنّ الأسبابَ بعيدةٌ كلّيًا عن السياسة والدين، والنزوحُ قسريٌّ لأسبابٍ اقتصاديّة، وعدم توفّر حياةٍ كريمةٍ في ظلّ تدهور الوضع الأمنيّ، أو بسبب التهجير والحرب والفقر، أو الهرب مِن مخاطر كوارث طبيعيّة كالزلازل والبراكين والهزّات الأرضيّة!

إذا كانتِ الحروبُ البشريّة والطبيعيّةُ تتركُ الانسانَ مُشرّدًا محطّمًا على حافّةِ ضياعٍ، بينَ الحاضر المأساويِّ وبين المستقبل المجهول، فهل اللجوءُ الدوليُّ يؤمّنُ وطنًا آخرَ للمُهَجَّر، يوطّدُ شعورَهُ بالأمان والاستقرار، وتخطّي شعورِهِ بالضياع؟

هل مِن فروق بين لاجئٍ وطالبِ لجوء؟ هل كلُّ مَن فرَّ مِن بلدِهِ إلى بلدٍ آخر يدعى لاجئًا؟ هل من شروطِ انتسابٍ لتعبئةِ طلبِ اللجوء؟ كم تشكّلُ نِسبُ اللاجئين في كلِّ فئةٍ وأخرى؟

90% من ضحايا الحروب والنزاعات هم مدنيّون، يفرّون تحت ظروفِ القصفِ والخوفِ واستحالة الاستمرار في البلد الأمّ، بحثا عن مأوى آمن، وقد بلغ عددُ اللاجئين الرسميّ زهاء 42 مليونًا، بزيادة مقدارها 20 مليونَ لاجئٍ خلال أقلّ مِن عشرة أعوام!

هل يتمكّنُ اللاجئون مِن التأقلم والاندماج في أوطانٍ جديدة، رغمَ ما لديها مِن ثقافةٍ وعاداتٍ مغايرة ولغةٍ مختلفة وظروفٍ أخرى؟ هل يمكنهم حقّا الالتزامَ بقوانين الوطن الجديد برضا، بعد الحصول على الجنسيّة؟

ما الذي يدفعُ الدول الغربيّة المتسبّبة بالحروب والنزاع بشكلٍ ما، وفي شقاءِ الأبرياء من أبناء الإنسانيّة في مناطق العالم، إلى التسابق في التبرّع وحمايةِ اللاجئين، وهم ضلعٌ أساسٌ في التسبّب بنزوحهم ومآسيهم والعبث بأمنهم واستقرارهم؟

هل هو الطمع في الهيمنةِ الاقتصاديّة على ثرواتِ البلاد، أم هو شكلٌ من استعباد اللاجئين وتشغيلهم قسْريًّا في بلادٍ احتوتْهم وفضّلتْ عليهم، أم أنّ اللاجئين في البلاد الغربيّة، هم المفاتيح السحريّة القابلة للمساومة والمقايضة؟

التسابقُ في التسلّح المائيّ!

مِن مهازِلِ الحياةِ، وفي خضمِّ الصراعاتِ العالميّةِ، والتناحراتِ الدوليّةِ والتسابق على التسلّحِ بأنواعِ الأسلحةِ الفتاكة، أن نرى الكثيرَ مِن دولِ العالم تفتقرُ إلى شرعيّةٍ ونزاهةٍ تُؤمّنُ لها مياهَ الشربِ! بتاريخ 18-1-1993 قرّرت الجمعيّةُ العامّة للأمم المتّحدة تحديدَ يوم 22 من مارس يومًا عالميًّا للمياه، وفي الدورة 58 للجمعيّة العامّة أعلنتْ قرارَ عقْدِها الدوليّ للعمل، "الماءُ مِن أجلِ الحياة"، في الفترةِ مِن الأعوام 2005- 2015، كخُطّةٍ للوصولِ إلى تقليلِ نسبةِ الأفرادِ إلى 50%، ممّن يُعانونَ مِن نقصِ المياهِ الصالحةِ للشرب بحلول عام 2015، إذْ إنّ لنوعيّةِ المياهِ أثرٌ بالغٌ على نوعيّةِ الحياةِ والصحّة!

اليونسكو كوكالةٍ رئيسيّةٍ للأممِ المتّحدةِ في العلومِ والتعليم في مجالِ المياهِ، تُزوّدُك بأرقامٍ مُرعبةٍ في تقاريرِها كلّ ثلاثةِ أعوام: هناك مليار ونصف شخص في العالم، معظمُهم في أفريقيا، ليسَ لديهم مصادر للمياهِ النقيّة!

يوميًّا يموتُ نحو 6000 طفل في الدولِ الناميةِ بأمراضِ الكوليرا والتيفوئيد الناجمةِ عن المياهِ المُلوّثة!

يوميًّا يموتُ نحو 35 ألف شخص بسببِ نقصِ المياه، أو الاعتمادِ على مياهٍ ملوّثة!

وفاة 2.2 مليون شخص سنويًّا جرّاءَ الإسهال الذي تُسبّبُهُ المياهُ غيرُ المأمونة وسوءُ النظافةِ الصحّيّة!

وفاة 1.8 مليون طفل سنويًّا مِن أمراضٍ منقولةٍ بواسطةِ المياه!

وهناك 3 مليار شخص في العالم ليسَ لديهم نظام صرفٍ صحّيّ، في حين أنّ متوسّطَ الاستهلاك الفرديّ اليوميّ للألمانيّ للمياهِ 150 لتر، وللأمريكيّ 400 لتر! فهل حقُّ الحصولِ على مياهٍ نظيفةٍ هو عاملٌ أساسيٌّ لضمانِ كرامةِ الإنسان، يستوجبُ كتابتَهُ في التشريعاتِ الدوليّةِ، وتعليمَهُ لأطفالِنا في المدارس؟ هل هو التزامٌ ديمقراطيٌّ مِن جانبِ الدولِ الغنيّةِ أن تزيدَ مِنَ الأموالِ المُخصّصةِ لمشاريعِ المياه، والتي لا تتعدّى 5% مِنَ المساعداتِ الدوليّة؟

الماءُ هو عصبُ الحياةِ، لأهمّيّتِهِ في حياةِ جميعِ الكائناتِ الحيّة ومناحي الحياةِ المنزليّةِ والزراعيّةِ والصناعيّةِ وإنتاج الطاقة، وهو رمزٌ روحيٌّ للفنّانينَ والدياناتِ والمُعتقداتِ والتقاليدِ، ومصدرٌ لازدهارِ وانهيارِ الحضارات. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ؛ 97% مِنَ الماءِ هو شديدُ الملوحةِ ويتركز في المحيطات، وفقط 3% مِن مياهِ العالَم عذبةٌ وغيرُ متوفّرةٌ بيُسْرٍ للناس، وخُمْسُ سكّانِ العالمِ يُعانونَ مِن أزمةِ مياهِ الشرب التي باتتْ تُهدّدُ البشريّةَ أكثرَ مِنَ الحروبِ والإرهاب!

ليسَ هذا فحسْب.. بل إنّ مقاطعاتٍ في الصينِ تُعاني مِنَ الجفافِ الشديدِ، ودولُ الخليجِ تُعاني مِن عجْزٍ في مواردِ المياهِ وشُحِّها، ومعَ انخفاضِ المواردِ المائيّةِ، وارتفاعِ الكثافةِ السكّانيّةِ والتضخّمِ السكّانيّ الديموغرافيّ والعُمرانيّ، تفاقمت الأزمةُ المائيّةُ واشتدّ التنازعُ على الثروةِ

المائيّةِ، وباتَ التوتّرُ يُهدّدُ دولَ الشرقِ الأوسطِ بالخطر! وفي أعالي نهرِ الفراتِ أقامتْ تركيّا عام 1992 سدَّ أتاتورك، لتخزينِ ما يُناهزُ نصفَ مياهِ النهر، وتَنوي بناءَ سدّ أليسو على الحدودِ السوريّة، وتتكرّرُ الخلافاتُ حولَ المياهِ المتبقّيةِ التي تجري إلى سوريا والعراق!

وتِسْعُ دولٍ تشاركُ مصرَ في 95% مِن مواردِها المائيّةِ المرتبطةِ بنهر النيل منذ أكثرَ مِن 50 عامًا، ومعَ زيادةِ السكّان أكثرَ مِن ثلاثةِ أضعاف، انخفضتْ كميّةُ المياهِ، وقد يؤدّي الوضعُ إلى موجاتِ جفافٍ وتغيراتٍ مناخيّةٍ قد تسيءُ لاحقًا إلى العلاقاتِ الدوليّةِ المشتركة، فهل نقْصُ المياهِ هو المشكلةُ الوحيدة؟

تفتقدُ بعضُ الدول إلى خزّاناتِ مياهٍ كبيرةٍ وأنابيبَ توزيعٍ كافية، وتُسرِفُ في استخدامِ المياهِ ولا تلتزمُ بحدودِ الحاجةِ، كما تصرفُ كثير منَ المدن والمصانع فضلاتِها في الأنهارِ والبحيراتِ وتُلوّثُ المياه، ومع تنامي عددِ السكّان والتوسّعِ العمرانيّ، ومع ضَخِّ الموارِدِ الجوفيّةِ والتلوّثِ الكيميائيّ، قد تتدهورُ نوعيّةُ المياهِ بتداعياتٍ خطيرةٍ وآثارَ مسيئةٍ للبشريّةِ وتصحيرٍ للبيئة! إذًا؛ كيفَ يتمُّ توفيرُ بيئةٍ مائيّةٍ نظيفة، يُمكنُها تلافي المشاكل الناجمةِ عن شُحِّ الموارِدِ المائيّةِ، وتوفيرٌ ملموسٌ في كمّيّةِ المياهِ المستهلَكةِ، في حين أنّ إنشاءَ محطّاتِ تحليةِ مياهِ البحرِ باهظةُ الثمن، تُشكّلُ عبئًا يُثقلُ الميزانيّاتِ الدوليّة؟

هناكَ أساليبُ وتقنيّاتٌ أقلُّ تكلفةً لإعادةِ استخدامِ مياهِ الاستحمام لريِّ الأراضي بدلاً مِن إهدارِها، ولا بدّ مِن حملةٍ تثقيفيّةٍ توعويّةٍ حولَ كيفيّةِ الحفاظِ على المياهِ ومشروعاتِها المختلفةِ بدون إسراف، وتحفيزِ المواطنينَ على ترشيدِ استهلاكِ المياه، وتبادلِ المعرفةِ التقنيّةِ والإداريّةِ بينَ القائمينَ على الثروةِ المائيّة، وتوفيرِ التمويلِ اللازم للاستثمارِ والبحثِ عن سُبلٍ وآليّاتٍ للتغلّبِ على مشكلةِ نقص المياهِ وتحسينِ نوعيّتِها، وتوفيرِ خدماتِ صرْفٍ صحّيّ بتقنيّاتٍ حديثة، ووسائلَ متميّزةٍ جديدةٍ لحمايةِ المياهِ السطحيّةِ وشبكاتِ المياهِ الجوفيّةِ مِنَ التلوّث، وفرْضِ غَراماتٍ كبيرةٍ على كلّ مَن يُلوّثُ مياهَ الشرْب!

جهازٌ جديدٌ ابتكرَهَ المهندسُ الألمانيّ هوبرت هام، ويَصلحُ للمناطقِ الصحراويّة، يُمكنُهُ تحويل رطوبةِ الهواء إلى ماء، إذ يَشفطُ الرطوبةَ مِنَ الهواء، ويُبرّدُها إلى درجة الذوبان، ويُكثّفُها في وعاءٍ كبير، ثمّ يُمرَّرُ تيّارُ الهواء المُكثّفِ على مَرشَح، ووفقًا لحجمِ فتحات شبكتِهِ يتمُّ الحصولُ على كمّيّةِ مياهٍ تتراوحُ مِن 24 إلى 6000 لتر في اليوم، وتُضافُ إليه الأملاحُ المعدنيّة، ليتمّ الحصولُ على مياهِ شرْبٍ نقيّةٍ مُطابقةٍ لمواصفاتِ منظّمةِ الصحّةِ العالميّة!

لكن تبقى الطاقة أهمُّ العوائقِ أمامَ هذا الجهاز، فهل تعجَزُ دولُ النفطِ الصحراويّةِ خاصّةً عن توفيرِ الطاقةِ في تمويلِ المشروع، إضافةً إلى الطاقةِ الشمسيّةِ وطواحين الهواء، طالما يمكنُ للجهازِ توفيرُ مياهِ الشرْب، وتقليلُ نسبةِ الرطوبةِ، واستغلالُ الهواءِ المُبَرّدِ في البلادِ الحارّةِ، كوسيلةٍ لتكييفِ البيوت ووقايةٍ لانتشارِ الأوبئةِ والأمراض؟

ولكن؛ هل هذهِ الوسيلةُ ستكونُ أفضلَ بكثيرٍ مِنَ استخراجِ مياهِ الشرْبِ مِنَ المياهِ المالحةِ، ولا تنجُمُ عنها أضرارٌ بالبيئةِ كمضاعفاتٍ؟

جيوب ثقبتها المناسبات والأزمات!

ونحن على أعتاب العام الدراسيّ الجديد، تبث وكالة الأنباء الفرنسية الأسبوع الماضي خبرًا عن سعي سنغافورة إلى احتلال أحد المراكز الأولى، بغية الظهور كمقصد تعليميّ استثنائيّ، ينافس المدارسَ المرموقة والجامعات الأوروربيّة والأمريكيّة، وفق الخبير في التعليم المعلوماتيّ "سام هان" إذ يقول:

"إنّ الإنترنت رأى النور في الولايات المتحدة، ولكن دولاً كثيرة مثل سنغافورة وكوريا الجنونية وغيرها، قطعت أشواطا كبيرة في مجال البنى التحتيّة الرّقميّة".

عند ضفاف هذا الخبر تراودني أحوالنا في الشرق، وتردّي الحالة الاقتصادية التي تواجه السواد الأعظم من أبناء شرقنا وقشرتنا، حيث تكثر الطلبات والالتزامات التي لا مناص منها ولا مفرّ، ويظلّ الفرد والمجموع العربيّ بغالبيته يرزخ تحت نير الإرهاق الماديّ والميزانيّة المعطوبة!

الموسم الدراسيّ على بُعد أيّام يأتي ليطرق الجيوب والأبواب، وفرحة الطلاب والأطفال لا بدّ وأن تتسربل برائحة الجديد من الكتب والأدوات القرطاسيّة والحقائب والزيّ المدرسيّ، ولا بدّ للآباء أن يبلعوا مرارة ضيق الحال ووجع الكف القابضة على الجمر، من أجل أن يرسموا البسمة على وجوه أبنائهم، فيوفّروا لهم ما طاب من مأكل ومشرب وملبس وفرح بشهر رمضان وبالعيد، وكذلك بتأمين مستلزمات السنة الدراسيّة الجديدة!

ومع الجديد ينتفض العتيق من الديون ويزمجر غاضبًا، بعد أن أعياه التخبّط المرير الكسيح بين العام الماضي والجديد.

كيف تتمكن الأسرة كثيرة الأولاد من تأمين وتوفير مستلزمات الدراسة لأبنائها في بداية العام الدراسيّ، والأسعار عالية والأثمان باهظة تهدّ الظهر، في ظل البطالة والغلاء والأزمة الاقتصادية الآخذة في التدهور عامًا بعد عام؟

كيف يدبّر الآباء شؤون الأبناء وتوفير حاجاتهم الأساسيّة، دون أن يعاني الأبناء من الحاجة والهمّ والغمّ، ودون أن يتسرّب بعض الأبناء من المدرسة، أو يتوقف أحدهم من الدراسة في الجامعة، ليساهموا في إعالة الأسرة؟

لماذا تتحوّل مناسباتنا السعيدة من زواج وأعياد وتعليم وتخريج إلى أزمات تعيسة، تثقل كاهل ربّ الأسرة بالعجز والدمار ووجع البال؟

لماذا لا تتبنى مدارسنا توفير الكتب للطلاب وتوزيعها عليهم منذ بداية السنة الدراسيّة حتى نهايتها بأجر رمزيّ زهيد، وفي نهاية العام تستعيد المدرسة الكتب من الطلاب، كما يتمّ الأمر في بعض المدارس الأهليّة؟

لماذا تستبدل وتغيّر الكتب كلّ عامين أو ثلاثة، فلا يستخدم الأخ كتب أخيه الأكبر؟ وفي كثير من الأحيان تفرض المدرسة على طلابها شراء نسخ جديدة من كتاب قديم، لكن يحمل نفس العام بتغيير طفيف أو تبديل بترقيم الصفحات وتبديل المواضيع. لماذا؟ مَن المستفيد من كل هذه التجارة بالكتب؟ لماذا ترتفع أسعار الكتب بشكل مهول؟ هل بسبب الاستغلال والتنافس بين دور النشر والمطابع ووزارة المعارف والمردود الماديّ؟

أما في المدارس الثانوية فتزداد التكاليف والمواجع، إذ هناك فروع وتخصّصات من رياضيّات وفيزياء وكيمياء وتكنولوجيا وإلخ، ولكلّ تخصّص كتبه الخاصّة، وقد يكون في نفس البيت إخوة لكلّ منهم تخصّص مختلف عن الآخر، والكتب باهظة في مجالات التخصّص.

أما مِن حل لهذه المعضلة والكتب قد يستخدمها فرد واحد فقط في الأسرة؟ ما مصير الكتب المكوّمة في المكتبات البيتيّة؟ كيف يمكن تصريفها والاستفادة منها ككتب مستعملة واسترداد بعض تكاليفها؟ هل يبيعها الطالب؟ هل تتبناها المدرسة؟ هل هناك جمعيّات تعمل على شراء هذه الكتب وتصنيفها بكتب مستعملة وكتب أخرى جديدة؟ أليس في الأمر إحراج لبعض العائلات المستورة في عيون أبنائها، ممّن يتحسّسون من شراء كتب مستخدمة؟

ويسارع الأهل إلى المكتبات المدرسيّة لشراء الكتب في بداية العام الدراسيّ، خوفًا من نفاذ الكتب بعد أسابيع قليلة، لأنّ المكتبات لا يمكن أن تخزّن كمّيّة كبيرة من الكتب للعام القادم، لأنّ الكتاب قد يتغير، وتبقى الكتب القديمة رهينة الرفوف والكساد. وأما عن الحقائب المدرسيّة التي تنوء ظهور طلابنا بحمْلها فحدِّث ولا حرج، تجد من الحامض للحلو من الأشكال والرسومات والتصميمات المغرية للطلاب، بألوان ودعايات وأسعار خياليّة، والأهل يحضرون أبناءهم للمكتبة لتكتمل فرحتهم باختيار حقائبهم والأدوات القرطاسيّة، وشراء الكتب والدفاتر والتجاليد، والطفل بفرحته الطفوليّة يختار ما يريد، والأب بعجزه يقف بمرارة يلحظ الفرحة في عين ابنه ويتلمّس جيبه المثقوب، ولا يسعه أن يكسر بخاطر ابنه ويُحبط معنويّاته!

لماذا يفرح طلابنا ببداية العام الدراسيّ، ثمّ يشعرون أنّ العام حِملٌ ثقيل، يودّون التخلّص منه والتسرّب والتهرّب من ظلاله؟ هل تشكّل مدارسنا ومناهجها أعباء على كواهل طلابنا بموادّها الثقيلة؟ هل يأتي يوم نردم فيه الفجوات العميقة بين واقع مدارسنا وواقع حياتنا وعصرنا كما في اليابان، فيُسجّل الطفل رقمه المدنيّ، ويُجرى له فحص ذكاء، وتعطيه المدرسة كمبيوتر نقّال فيه منهاجه الدراسيّ على أقراص مضغوطة، مدعومة بنظام صوتيّ وصور ثلاثية الأبعاد، يُسلّمها الطالب في نهاية العام الدراسيّ، لاستلام كمبيوتر أحدث في العام المقبل؟

هل يأتي يوم نودّع فيه الحقائب والكتب المدرسيّة، ونواكب عصرنا التكنولوجيّ بكلّ تطوّراته كما في مدارس كوريا الجنوبيّة، المزوّدة ببطاقات "واي فاي"، والتي تمّ برمجة الكتب المدرسيّة على شكل أجهزة لوحيّة منذ عام 2007؟ وهل يأتي يوم نقول فيه ليحيا "الآي باد"، كما في مدرسة نانيانغ السنغافوريّة، فتقوم مدارسنا بتوزيع أجهزة آي باد على الطلاب، فيرتاحون من حمل الحقائب الثقيلة وعتالتها، ويتعلّمون بطُرق أسهل من خلال لمس الشاشة المحوسبة بشكل عمليّ، ويرتاح طلاّبنا من الحشو المعلوماتيّ، ويُستبدل بالتركيز على تطوير مهارات التفكير اليوميّة والعمليّة والعصريّة؟

على مرمى دولةٍ أم على مهبطِ وطن؟

وما زلنا بقايا البقايا هنا.. شظايا مِن تكويناتِ الأمس والأزل، تشدّنا اللحظة إلى حنين الأمّهات للجبهات المحروقة، وتحرقنا جمراتُ الانتظار، أكأنّما نغطّ في صمتٍ زاحفٍ إلى أوج النهايات أو إلى درككِ البدايات؟

مِن قمّةِ الكرمل إلى ساحل حيفا البحر، مُرورًا بسور عكّا وميناءها تمخرُ الآمالُ وتُحلّقُ في سماءِ القدس وتتضرّع، عساهُ يتزلزلُ حجابُ الشمس مِن خلفِ زخّاتِ العِبَر، ليفتحَ بابَ الفرَج!

لكن في كلّ هفوةٍ لنا سقطة!

ونسقط من أعالي السموات الحالمةِ، تتلقّفنا فوضى الحقيقةِ مترامية الأطراف على عتباتِ الانزلاق.. نحبو بوجع.. ونصبو إلى آتٍ مُغاير.. ينثرُ بذارَ الآمال المضيئةِ في حقولِ وطن، بعيدًا عن حدودِ الهاوية والعتمة!

فهل لنا أن لا ننجرفَ في مزالق مَن أرادونا حكايةً خاصّة بكامل التفاصيل المرسومة، كي يسردَها العابثون في أروقةِ التماهي وصوامع التباهي، وتحتسيها كؤوسُ اللغات بمذاقاتِها الغريبة؟!

تتوالى الأحداثُ وتتعاقبُ الأدوار، وباختصارٍ دونَ لفٍّ ودون اجترار، يَبُقُّ التاريخُ حصوةَ ذاكرتِهِ الملغومةِ عبْرَ عشراتِ العقود.. ويعلو صوته مزمجرا..

اعترفت القمّة العربيّة بمنظمة التحرير الفلسطينيّة ممثّلاً شرعيًّا ووحيدًا للشعب الفلسطينيّ، لتؤكّد حقّ الشعب الفلسطينيّ في إقامة دولةٍ مستقلة، كما حصلت منظمة التحرير الفلسطينيّة على صفةِ مراقب في الأمم المتحدة كدولة غير "كيان" منذ 22 نوفمبر 1974، وخوّلتها بذلك أن تتحدّث في الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة، ولكن ليس بالتصويت.

ثمّ.. في عام 1988 أعلنت القيادة الفلسطينيّة ممثلة بالرئيس الراحل ياسر عرفات في الجزائر استقلال دولة فلسطين، وحصلت على اعتراف على إعلانها الرمزيّ الذي جاء في أوج الانتفاضة الفلسطينيّة!

ثمّ.. عام 1993 عادت منظمة التحرير الفلسطينيّة إلى غزة وأريحا ضمن اتفاقيّة أوسلو، إذ منحت المنظمة تشكيلَ "كيان" على الأراضي الفلسطينيّة المحتلة، بعد الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينيّة وإسرائيل..

واليوم.. يتجه الفلسطينيّون في الضفة لانتزاع اعترافٍ دوليٍّ بدولةٍ فلسطينيّة على حدود الرابع من حزيران عام 1967، ويبدو أنّ الجدل بات صاخبًا بين مؤيّدين ومعارضين!

التفِتوا شمالا.. إنّ الأقليّة الفلسطينيّة الثماني أربعينيّة في الضفة الأخرى داخل الخط الأخضر حائرة في مستقبلها، ضائعةٌ بين التكوينات السياسيّة والتركيبات الاجتماعيّة، في كيان يعجُّ بالأقليّات الدرزيّة والمسيحيّة والإسلاميّة إلى جانب الأكثريّة اليهوديّة!

إنّها أقليّة تصارع للمحافظةِ على زفير لغتِها بين أجيالها المتعاقبة، وعلى شهيق انتمائها بتأكيد جذورها في كلّ شبرٍ من وطنها الراكن في مفاتيح ذاكرة القرى المهجّرة، وتصرّ على البقاء في شظايا وطن سلخته الساسات والاتفاقيّات!

إنّها أقليّة تائهة بين إصرار "إسرائيل" على انتزاع اعترافٍ عالميٍّ بيهوديّة دولتها، وإصرار الفلسطينيّين بأحقيّتهم بدولة، فإلى أين سيقود الضياع بين إصرار كيانيْن، أحدهما يُشدّد بقبضةٍ حديديّة على الأرض والإنسان، والآخر هشّ لحدٍّ يهدَّد بخطر الوجود؟

وما زال أيلول أسود بكلّ المعايير في الذاكرة الفلسطينيّة والعربيّة، فهل يُخفي أيلول انتفاضة جديدة، أم أنّ المسيرات المؤيّدة للدولة، ستضع الدولة العبريّة أمام يهوديّتها على مائدة الأمم؟ هل سيكون المقابل بالمقابل، وتمنح الدولة الفلسطينيّة شرعيّةً ليهوديّة إسرائيل؟ هل سيشطب أيلول حقّ العودة من أجندة المبادئ الفلسطينيّة، ويقضي على ما تبقى مِن وطن؟

وتتعدّد أحجار الشطرنج على موائد المفاوضات، وتتراوحُ بين سقوط جنود وخيول وقلاع وطن، وما زالت ثقافة القابضين على جمر الصمود تعلو فوقَ كلّ الأصوات الناشزة، والتي ارتأت أن تدمج بين مؤسّسات الترهيب ودوائرِ الترغيب!

وما زالت ثقافة الرفض للذوبان والتذويب في محلول التجنّس والتجنيس، تصرّ على مدّ جسور التواصل مع كافة ينابيع وأنهر وحتى نواعير الوطن.. وما زالت ثقافة التحدّي تستنشقها الأجيال تلوَ الاجيال، عبْرَ المواويل والميجانا والعتابا والأوف، عبْرَ قصيدةٍ تغني للوطن، وتعتبُ على إخوة الجوارِ الذين تخلّوْا عن أهل الدار وأطفال الديار.. وما زالت ثقافة الانتظارِ تبتهلُ لإخوة على الحدودِ بين النار والنّار، تشتاقهم مفاتيحُ البيوت الموصودة المهجورة، لتتعطّرَ بهم مواسمُ قطافِ الزيتون والبرتقال وكروم العنب والصبر والتين.

يتمدّدُ الوقتُ وتتثاءبُ الفصولُ على مسرح الانتظار.. تحتضرُ عقاربُ الزمن المعقوفة على حواشي الوطن، وتتبدّلُ اتجاهات الرياح وتهبّ من خلفِ الحدود، تحاول أن تستحضرَ أجنّة سلامٍ نجَتْ من أنين المراحل المُجهَضة.. أتراها تنقشع الغيوم عن سماء الأنقياء، لتستردّ الروح من أقبية الضياع؟

الكينونة أمستْ تعرضُها جدرانُ الفصلِ وجداريّات البتر، والصورة الكيانية باتت مشروخةً بمشرط الأمم، وما زالت الأحلامُ تنفردُ على مساحاتِ التعبير والولاء والتبعيّة، ونحن وهم وكلّ الأشقاء أشقياء في وطن ممزّق بين شطريْن، فنحن وهم نتوق إلى وطن، وننتظر على حافة التمني لزمن آخر نحشوه برونق وطن.. وهم.. يتمنون دولة؟ فمن هم ومن نحن؟ وهل تراهم يكونون أبرارًا ذوي كفوفٍ بيضاء في وطن تكسوه العتمة؟ مَن تراهم يكونون أخيارًا في وطن النزوات وأرض الحكايات الحيّة؟ ومَن تراهم في لظى الحَرّ يرسمون على الوجوه الشمعيّة وطنًا مصبوغًا بالأحمر؟

وفي ظل الالتفافاتِ على كلّ المشاريع السابقة واللاحقة، تتراوحُ التساؤلات بيَن شرعيّتِها وعدم شرعيّتها.. فهل تنجح السلطة في إعلان دولةٍ على وطن مزّقته الساسات الأمنيّة والمطامع الخارجيّة، أم سيصحو الفلسطينيّون على كذبة أيلول أسود آخر، يتآلف وأيلول الآخر السالف، الذي ما زال أسودَ في تاريخ العلاقات الأخويّة الأردنيّة الفلسطينيّة؟

تقنيّاتُ الاتّصال بينَ الجهل والذكاء!

تتسارعُ الأخبارُ والتقاريرُ على الشبكة العنكبوتيّة حول خبر ازدهارِ سوق الهواتفِ المحمولة في إفريقيا، ويستوقفني كمُّ الأرقام المهول المنشور في صفحاتِ الإنترنت عن التسابق الزمنيّ في اختراق الأسواق العالميّة، وهذه الأعداد الخياليّة للأرقام التي تُنشر حولَ تعدادِ المشتركين والمستفيدين مِن خدمات الهاتف النقّال، أو كما أطلقوا عليه مُؤخّرًا "الهاتف الذكيّ"!

وتمضي بي ذاكرتي إلى الشركاتِ العاملة في فضائي الخاصّ، وما تفرضُهُ عليّ مِن تساؤلاتٍ باهظةٍ حول طبيعة الخدمة التي أتلقّاها، وأنا لست أكثر مِن رقم من بين ملايين الأرقام المختومة برسم الخدمة الهاتفيّة! هل ما نشهدُهُ اليومَ هو صراعُ بقاءٍ بين الذكاءِ الفطريّ وبين الذكاء التقنيّ، أم هي سياسة ترويجيّة انتهازيّة تهدفُ إلى التذاكي والتجهيل في المقام الأوّل وفي آنٍ واحد؟

أين نجدُ الجهلَ في معادلةٍ عصريّة، أصبحت الاتصالاتُ تمثّلُ العمودَ الفقريّ للحياة، والمتنفّس العصريّ للمواطن، في زمن يبدو واضحًا التناقضُ بين احتياجات الحياة التقليديّة، التي اعتدنا أن نوفيها حقّها، وبين جنون العصر الذي اقتحمَ حياتَنا ووخزَ جيوبَنا، وفرطها مطلعَ كلّ شهر في خزينة الفواتير المتراكمة على كواهلِنا، وأوّلها المتعلقة بالاتصالات والإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال المباشر؟

لماذا هذا الازدياد والنموّ المتسارع في الاشتراك بخدمة الهاتف النقّال، في الوقت الذي لم يتغيّر مُعدّل دخل الفرد قيدَ أنملة؟ ثمّ؛ على حساب أيّة مهامّ واستحقاقاتٍ أخرى يترعرع هذا النمو التقنيّ، الذي أصبحَ كنقّار الخشب لموازناتنا الأسريّة وفي التآكل القسريّ؟

إفريقيا.. تصدّرُ بياناتِ الفقرِ والعوَز والحاجة، وتعاني من التصحّرِ والكوارثِ البشريّة والطبيعيّة، وتشهد نموًّا بنسبةَ 20% سنويًّا في نسبة المشتركين في خدمة الهواتف النقّالة؟ كيف؟

قالت منظمةٌ عالميّة لمشغّلي أنظمة الهواتف المحمولة: إنّ إفريقيا تمثّلُ أسرع أسواق العالم نموًّا لهذهِ الهواتف، وهي الآن السوق الأكبرُ بعدَ السوق الآسيويّة!

وقالت جمعيّة مشغلي GSM في تقريرٍ أصدرته مؤخّرًا: إنّ عدد المشتركين في إفريقيا قد ازداد بنسبة 20% سنويًّا في السنواتِ الخمس الماضية، فيما تتوقعُ أن يبلغ عددُ المشتركين الأفارقة أكثر من 735 مليون مشترك في نهاية العام المقبل 2012، بعد أن بلغ 649 مليون مشتركًا في الربع الرابع من العام 2011.

هل القفزُ عن الجانب الاقتصاديّ والتكلفة الماليّة التي تستنزفُ جيوبَ المشتركين، والمستفيدين من التعاطي مع خدمات شركات الاتصال اللاسلكيّ، بات أمرًا مفروغا منه بحُكم تقادم الأجيال، وبروز أجيالٍ تتقنُ التفاهمَ مع لغةِ العصر بعدّةِ أوجه، من بينها الإبداع والترفيهُ والتسلية؟ وهل ما وصلنا إليه هو حقًّا أزمة؟

هل الأزمة تتمثلُ فقط في الجانب الاقتصاديّ الذي أصبح ينافسُ رغيفَ الخبز، ضمن الاحتياجاتِ اليوميّة للأسرة؟ وهل هناك أمورٌ أشدّ خطر مِن الخسائر الماليّة التي يتكبّدُها المواطن والمشترك والمستفيد، بغضّ النظر عن عمرِه ومكانتِه وجنسِه؟

في مدينة لاس فيجاس الأمريكيّة خُصّصَ مؤتمرٌ حولَ أمن الاتصالات، عُقدَ في 10-11-2011، تحت اسم "بلاك هات"، لبحث التهديداتِ التي تتعرّضُ لها الهواتف الذكيّة وأجهزة الحاسوب المتنقلة، والتي تُستخدَمُ لعدّةِ أغراض، ابتداءً من إجراء عمليّاتٍ بنكيّةٍ إلى تحديد موقع وجودِ الاشخاص، فوضعَ الخبراء تحت تصرّفِ مستخدمي الهواتف أدواتٍ، تُمكّنُهم مِن فحص مدى صرامة إجراءات الأمان التي تتبعها الشركات، التي تزوّدُهم بالخدمة الهاتفيّة، خاصّة وأنّ المستخدَمين يخزنون في هواتفهم الذكيّة معلوماتٍ حسّاسة، مثل كلمات السرّ ومعلوماتٍ بنكيّة وشخصيّة!

كم نملكُ مِن الوعي التقنيّ والذكاء لمعرفة أدواتِ التصنّت والتجسّس على هواتفِنا؟ وهل هناك إحصائيّاتٌ تُظهرُ حجمَ العالِمين بأساليب الاختراق والتصنّت على مكالماتِنا مع بعضنا البعض؟

في مؤتمر أمن الاتصالات في لاس فيغاس اعتبروا أنّ بعضَ البرمجيّاتِ متعدّدة الأهداف، التي يحملُها المستخدمون على هواتفِهم دون التأكّد مِن مدى سلامتِها، هو أحدُ مصادر الخطر، فماذا نعرفُ عن كلّ البرمجيّاتِ التي نتباهى بإضافتِها إلى أجهزة الاتصالات التي نقتنيها دون دراية؟

يقول جون هيرينج من مؤسسة "أوت لوك": إنّ مُطوّري برمجيّات الهواتف الذكيّة قد يكونون في عجلةٍ من أمرهم لطرح برمجيّتهم في الأسواق، ولا يصرفون الوقتَ الكافي لسدّ الثغراتِ الأمنيّة، ممّا يُمكّنُ القراصنة من النفاذ عبرَها إلى الهواتف وما تحويهِ مِن معلومات.

وتقولُ مؤسسة "F-Secure" المتخصّصة بأمن المعلومات: إنّ عددَ الفيروسات التي تهاجمُ الهواتفَ الذكيّة لا يتجاوز 500، بينما هناك ما لا يقلُّ عن 40 مليون تستهدفُ الحواسيب.

ويستنطقنا واقع حالنا بالحاح، حرصًا على أنفسِنا من هذا الغزو الذي لا يقلّ عن الغزو السياسيّ والعسكريّ، بل إنّ انحناءَنا لهذا الغزو السيكولوجيّ الذي أدخلنا في إطارِ الصراع مع الذات، وزجّ أطفالنا وشبابَنا وكهولنا في مستنقع الغيرة، وبات التسابق على الحداثةِ التقنيّة أشبه بماراثون يُهدّدُ مجتمعاتِنا الصغيرة وأسرَنا الفقيرة، كما هو واقعُنا الاجتماعيّ يتطلب منّا الحرصَ على عدم إقحامِ أنفسنا في غموض هذه التقنيّات، التي تعودُ مرجعيّاتُها للشركات الأم للدول المالكة وللأقمار الصناعيّة، والتي ترانا وتسمعُنا مِن خلال ما وضعته بأيدينا.

هل تمثّلُ هذه التقنيّاتُ تسهيلاتٍ حقيقيّةً للمواطن وللوزير والمدير، ولكلّ مستفيدٍ منها، أم هي كلمة حقّ يُراد بها باطل، تعود بالفائدة على الشركات المُنتجة؟

ومع المتاجرة بالهواء وبيع المواطن هذه السلعة التي تطيّرُ أسرارَهُ الخاصّة لعدّة اتجاهات، فهل من سياسات توجيهيّةٍ وإرشاديّةٍ وتحذيريّة لأجيالِنا الشابّة ولأطفالنا، توقف هذا المدّ الذي يصلُ في بعض الأحايين إلى المرض السرطانيّ؟

الشعوبُ وحدَها هي مَنْ تُحرّرُ نفسَها

تخرّجَ بشهادةِ طبٍّ عام 1953، جعلت ارتباطَهُ وطيدًا بطبقةِ الفقراءِ والمظلومينَ والمنبوذينَ والمرضى المحرومين بسببِ التفاوتِ الاجتماعيّ، بعدما تأثّرَ بمشاهدِ بؤسِ الفلاّحينَ الهنود، واستغلالِ عمّالِ المناجمِ الأمريكيّةِ في تشيلي فكتبَ: "أؤمنُ بأنّ النضالَ هو الحلُّ الوحيدُ لأولئكَ الناسِ الذينَ يُقاتلونَ لتحريرِ أنفسِهم، والثورةُ قويّةٌ كالفولاذِ، حمراءُ كالجمرِ، باقيةٌ كالسنديانِ، عميقةٌ كحُبِّنا الوحشيِّ للوطن"!

إنّهُ أرنستو تشي جيفارا الكوبي الثوريّ ، الذي تزوّجَ عام 1955 مِنَ المناضلةِ هيلدا أكوستا وأنجبَ طفلةً، وحينَ سافرَ للمكسيكِ التقى بفيدل كاسترو، وإيمانًا منهُ أنّ "الإمبرياليّةَ نظامٌ عالميٌّ ومرحلةٌ أخيرةٌ مِنَ الاستعمار، يجبُ أن تُهزَمَ بمواجهةٍ عالميّة"، انضمَّ للثورةِ الكوبيّةِ كطبيبٍ في البعثةِ، التي ستحرّرُ كوبا مِن دكتاتوريّة باتيستا.

لماذا كوبا وأنتَ أرجنتينيُّ المولد؟ قال: "لا يهمُّني متى وأين سأموتُ، ولا أعرفُ حدودًا، فالعالمُ بأسْرِهِ وطني، وإنّ الطريقَ مُظلمٌ وحالكٌ، فإذا لم تحترقْ أنتَ وأنا فمَن سينيرُ الطريق؟ إمّا أن ينتصرَ أو يموت، وكثيرونَ سقطوا في طريقِ النصرِ الطويل، والثوّارُ يملؤونَ العالمَ ضجيجًا كي لا ينامَ العالمُ بثِقلِهِ على أجسادِ الفقراء، ولن يكونَ لدينا ما نحيا مِن أجلِهِ، إنْ لم نكنْ على استعدادٍ أن نموتَ مِن أجلِهِ".

دخلَ جيفارا كوبا مع ثمانينَ ثوْريًّا كوبيًّاعلى ظهر زورق، ومارسوا حربَ العصاباتِ مِن عام 1956- 1965، بقيَ منهم عشرةُ ثوّارٍ فقط، وبرزَ جيفارا كقائدٍ شرسٍ برتبةِ عقيدٍ وليسَ مجرّد طبيب، بسبب إقدامِهِ وسرعةِ بديهتِهِ في الأزمات، وفي عام 1959 طلّقَ زوجتَهُ الأولى، وتزوّجَ إليدا مارش وأنجب منها 4 أبناء، وصدرَ قانونٌ كوبيٌّ أعطاهُ حقَّ الجنسيّةِ والمواطنةِ الكاملة، ومِن ثمّ تولّى منصبَ رئيسَ المصرفِ الوطنيّ عام 1959، ووزارةِ الصناعةِ عام 1965، ومناصبَ أخرى تصدّى مِن خلالِها لتدخّلاتِ الولاياتِ المتّحدة، وفي عام 1965 اختفى مِن كوبا، بعدما تركَ رسالةً لكاسترو مفادها: "أشعرُ أنّي أتممتُ ما لديَّ مِن واجباتٍ تربطُني بالثورةِ الكوبيّةِ على أرضِها، لهذا أستودعُكَ وأستودعُ الرفاقَ، وأستودعُ شعبَكَ الذي أصبحَ شعبي، وأتقدّمُ رسميًّا باستقالتي مِن قيادةِ الحزبِ ومِن منصبي كوزير، ومِن رتبةِ القائدِ ومِن جنسيّتي الكوبيّة، فلم يَعُدْ يربطُني شيءٌ قانونيٌّ بكوبا".

ما الذي استدعى قرارَ جيفارا الفجائيّ؟ جاءَ ردُّهُ ناقدًا لاذعًا للحُكّام ولمسيرةِ الثورةِ لاحقًا: "إنَّ الثورةَ تتجمّدُ، وإنّ الثوّارَ ينتابُهم الصقيعُ حينَ يجلسونَ فوقَ الكراسي، وأنا لا أستطيعُ أن أعيشَ ودماءُ الثورةِ مُجمّدةٌ داخلي"!

هل يُطالبُ بمزيدٍ مِن الثوريّةِ والدمويّةِ؟ إنّما رفضَ فكرةَ مَن حاولَ التسلّقَ على أكتافِ الآخرينَ والمُجاهدينَ في اتّحادِ الجمهوريّاتِ السوفييتيّةِ وكوبا، أو الاعتمادَ المتزايدَ على الاتّحادِ السوفيتيّ، لذا قرّرَ الانسحابَ!

ما الذي يدفعُ بك جيفارا للبحثِ عن قضيّةٍ ثوريّةٍ عالميّةٍ أخرى؟ قال: "إنّني أحسُّ على وجهي بألمِ كلِّ صفعةٍ تُوجَّهُ إلى مظلومٍ في هذهِ الدنيا، فأينما وُجِدَ الظلمُ فذاكَ هو وطني!"

لكن؛ وإنْ كنتَ أمميًّا، فمَن نصّبَكَ وصيًّا على المظلومين، ومُحرِّرًا لهم بحربِ العصاباتِ؟ قال: "أنا لستُ مُحرّرًا، والمُحرِّرونَ لا وجودَ لهم، فالشعوبُ وحدَها هي مَن تُحرّرُ نفسَها".

الثائرُ جيفارا توخّى حربَ العصاباتِ عاملاً مساعِدًا للثورةِ مِن أجلِ حياةٍ تستحقُّ العيش، لذا توجّهَ إلى الكونغو، وواجهتْ فكرتُهُ ومساعيهِ لحربِ العصاباتِ مصاعبَ كثيرةً لدى بعضِ القادة، ومنها إلى إفريقيا قادَ 125 كوبيًّا لمساندةِ الثوراتِ التحرّريّة، وانتهى في مستشفى للنقاهةِ في براغ!

كاسترو الذي احتفظَ بجميعِ رسائلِ جيفارا التوثيقيّةِ عن نشاطِهِ العسكريّ، زارَهُ لينهاهُ عن حُلمِهِ الثوريّ ويرجوهُ بالعودة، لكنّهُ رفضَ العرْضَ وبقيَ في زائير مُحارِبًا بجانبِ قائدِ ثورةِ الكونغو، ثمّ في بوفيليا لثورةٍ جديدة!

كتبَ جيفارا يوميّاتِ المعركة، وتعرّضَ لمطاردةٍ شرسةٍ كونه قائد الثوّار، فقسّمَ جنودَهُ الأربعين المُتبقّين في الأدغال بينَ الهزالِ والجوعِ والعزلةِ والمطاردة، وإذا بوحدةٍ مكوّنةٍ مِن 1500 مِن قوّاتِ الجيش البوليفي تباغتُهُ في هجومِها على مجموعتِهِ في وادٍ صخريٍّ وعر، واستمرّ القتالُ ستَّ ساعاتٍ إلى أن وقعَ في الأسرِ حيًّا، بعدما ماتَ جميعُ أفرادِ مجموعتِه ال 16 فردًا!

بتاريخ 9-11-1967 ، نُفّذَ فيه حكمُ الإعدامِ في ساحةِ المدرسة، مِن قِبلِ الجيشِ البوليفيّ ووكالةِ المخابراتِ الأمريكيّة، بإطلاقِ النارِ عليهِ في منطقةِ الخصر وما دون، بعيدًا عن منطقةِ القلبِ والرأس، كي تطولَ فترةُ احتضارِهِ ومعاناتِهِ، ثمّ بُترتْ يداهُ للتعرّفِ على بصماتِهِ، ودُفنَ في مكانٍ مجهولٍ كي لا يكونَ مزارًا للثوّار. لكن؛ ظهرتْ مذكّراتُهُ ويوميّاتُهُ للنور، لتُحدثَ بلبلةً عنيفةً، سمّيتْ "أزمةَ كلمات جيفارا"، وعام 1997 كُشِفَ النقابُ عن جثمانِهِ وأعيدَ إلى كوبا، ليَدفنَهُ الرئيسُ الكوبيُّ السابق كاسترو بصفةٍ رسميّة!

تركَ جيفارا في رصيدِهِ الأدبيّ الذي خلّدَهُ: حرب العصابات، ذكريات الحرب الثوريّة الكوبيّة 1968، الإنسان والاشتراكيّة في كوبا 1967، الأسفارُ تُكوّنُ الشباب والوعي، مانسيت!

شهيدُ الإنسانيّةِ وقضايا الظلمِ جيفارا لم تخبُ ذكراهُ التمرّديّة، لأنّهُ أسطورةُ بطولةِ أحلامِ الملايين مِن المظلومين، وقد استشرفَ بتحذيراتِهِ مخاوفَهُ المتوقّعةَ مِن مشكلةِ انهيارِ كوبا لاحقًا، وعجزِها عن إطعامِ شعبِها، إن لم تسْعَ إلى تنويعِ الزراعةِ، والتوسّعِ في محصولِ قصبِ السكّر الذي تتبادلُهُ مقابلَ البترول السوفييتيّ، وإن هرولتْ وراءَ النموذجِ الصناعيّ والإنتاجِ والتنافسِ في السوق العالميّ!

لقد آمنَ جيفارا بالإنتاجِ الكوبيّ المَحلّيّ الذي يحتاجُهُ شعبُها، مع مراعاةِ المحاولاتِ المجتمعيّةِ الّتي تخلقُ مجتمعًا أكثرَ إنسانيّة، ورفضَ معيارَ الكفاءةِ والإنتاجِ مِن أجل السوقِ العالميّ، الذي يسعى إلى خلْقِ مجتمعٍ مادّيّ! وأخيرًا .. أين بلادنا من هذا الإيمان الجيفاري والرؤية الجيفارية؟ فهل هناك مَن يتّعِظ؟

تلويث الهواء!

بغيضان يرعبانني حدّ الهوس، هما المرض والموت!

لا يكادُ يمضي أسبوع دون أن يُنذرني بخساراتٍ فادحة، من الصعب تعويضَها أو استرجاعَها، ولا يجديكَ حينها لا الألم بصحّة، ولا يُجزيكَ الصمت بحياة!

كثيرةٌ هي الأجسادُ التي تتآكلها أمراضٌ مُرعبةٌ لا تشترط عِرقًا ولا لونًا، لا جنسًا ولا دينًا ولا عمرًا.. وعديدة هي العِللُ المُستعصية التي تداهم الكيان البشريّ والأحياء والطبيعة، وتزعزعُ الأرواح بأعراضِها الجسيمة والنفسيّة، حين تُصيبُ الأجسادَ بخللٍ عضويٍّ يُطوى في الملفّاتِ المُغبرّة، ويوعز حُكمه إلى القضاء والقدر! فكيف لكَ أن تمدّ يديكَ لانتشال أحبابكَ وأهلك من لوثة الموت المُتعجّل، دون أن تغرقَ في مستنقعاته؟

إنّ صوتَ الوجع أكبرُ مبادرٍ يستغيثُ ويستنجد، ويدفعُ المرضى وذويهم إلى المشافي والأطباء المختصّين، لإجراء التحاليل والفحوصات اللازمة لتشخيص المرض والكشف عنه لعلاجه، فإمّا أن يكون مُزمنًا لا يمكن التعايش مع اضطراباته، وإمّا يمكن تهدئته أو استئصاله وعلاجه بالأدوية الشافية والمُسَكّنة!

لكن؛ كم يُشقيكَ ويُبكيكَ حين تلوّح مودّعًا أشخاصًا تُحبّهم ولا تتمنى توديعهم، حصد سنابلهم الخضراء منجلُ الموت قبل الأوان، وقد سحبتهم حبائلُ الموت إلى قمّة فواجعها.

السرطان المتفشّي في جميع أنحاء بلداننا العربية، وفي شرائح متعدّدة من مجتمعاتنا، لا زال الإنسان مهزومًا أمامه خانعًا له، يقف عاجزًا أمام جبروته المستفحِل، وان كابرت وتظاهرت بالصمود! وتكاد لا تخلو قرية من قرانا وبلادنا العربية من انتشار المستوطنات اليهوديّة المحيطة بها، إذ اتخذت لها التلال والجبال العالية ملاجئ استراتيجيّة طبيعيّة، واستحوذت على الجمال والهواء والماء، وجعلت تطلّ من علاها على قرانا، وتحُدُّ من إمكانيّة التوسع العمرانيّ لبلداننا.

هذا الأمر يظلّ محمولاً أمام مواجهات تتسابق على جيوب المستهلكين والمستضعَفين والمنتفِعين، ففي السنوات الصارمة الأخيرة، ومع الهبّة التكنولوجيّة سريعة الخطى ووارفة الظلال والهيمنة، باتت الأفواه الجائعة مضطرّة إلى تغيير مبادئها لمسايرة الحياة، رغم أنّ الأصوات المستغيثة أخذت ترتفع وتنادي، ولكن لا صدى لها، وليست تصل إلى آذان وضمائر أصابها عشق المال بالصمم! فهل يمكنك أن تصافح يدًا بحرارة أو حتى برودة، وأنت تُدرك مدى تلوّثها بجرائم تعودُ عليه بالربح؟

أحاسيسُ مؤلمة ومحبطة تتلبّسك حين ترى ابن جلدتك وبلدك وحارتك، يدوس على أجمل ما لدينا من أطفال ونساء ورجال تحت قدميه، كي يرتفع ليصل إلى القمّة ولا يكترث، بل يغفو ضميره ويُخدَّرُ، فلا يشعر بالمسؤوليّة أو الانتماء!

عَمالة مدسوسة تزرع الأنتينات الهوائيّة المكشوفة والأجهزة المُقوّية لشبكات المحمول والموبايل على المنازل العربيّة العالية، وبين البيوت في المناطق السكنيّة العربيّة والسهول القريبة، لتبثّ موجاتها السرطانيّة المميتة، وأنت تقف عاجزًا، ترى ولا تقوى على الاعتراض أو التغيير!

بعض فئات وأفراد يقومون بمظاهرات وحرق الأنتينات المُضرّة بالصحّة، ولكن يكون الحلّ البديل أسرع من اللهيب، فالحلّ متوفر بإخفاء ووضع الأنتينات المكشوفة في خزانات الماء الكبيرة، أو إخفائها بأشكال شتّى، ممّا يتيح للمنتفِعين أن يتابعوا في درب التدمير دون أيّ وازع أخلاقي!

وهل تتوقف أمور تلويث الهواء عند هذا الحدّ؟ بل انتشرت حول بلداننا العربية محارق نفايات شاسعة، وعلى مساحات أراضينا القريبة منا، كي تخدم المنطقة العربيّة واليهوديّة القريبة على حدّ سواء، فيتعطّر الهواء القريب المتباعد بروائح كريهة جدًّا، ولا يسلم من التلوّث على مدار ساعات النهار والليل! فهل من طرق لتعقيم الهواء من الشحنات المسرطنة ومن الروائح الكريهة القاتلة؟ كيف؟

شعورك ببيئتك التي تتنفسها وتحياها حين تراها تتلوّث وتتألّم بصمت، لهو أمضى وأحدُّ من الموت! ولم يقتصر التلويث على هذه الأمور فقط، بل تعدّاها إلى إقامة مصانع كبيرة في مناطق سهليّة صالحة للزراعة، تحيط بها كروم الزيتون، فصودرت مئات الدونمات لهذه الأراضي العربيّة، وبُني على هذه المساحة مصانع للزجاج وغيره، تُطلق غازات سامّة وروائح لا تحتمل!

كروم الزيتون المحاذية للمصانع قلّ عطاؤها ومحاصيلها، وصار ملمس أوراقها وأغصانها خشنا قاسيًا مغايرا، وصار طعم زيتها بنكهة أخرى. فإن كان الشجر والحجر قد تأثرا وتضرّرا، فكيف للإنسان أن يحتمل كلّ هذا التلوّث ولا يُحرّكُ ساكنا؟

كانت تهلُّ ببسمتِها وطلّتِها المملوءة بالحياة، تتدفق نشاطا وعطاءً وحيويّة، توصل أبناءَها للمدرسة بسيّارتها، تسأل عنهم وتمضي إلى بيتها وواجباتها المنزلية، وعند انتهاء الدوام تعود لتأخذ أطفالها بحنان، دون أن تتأخر يومًا عنهم. مرّت سنون وأعوام، وما فترت همّتها ولا عزيمتها التي يشدّ من إزارها نجاح أبنائها وتحصيلهم المتميّز! لكن في العام الماضي بدأت تشكو آلامًا في الظهر، وتتناول حبوبًا مهدّئة للوجع، وقرّرت أن تحجّ قبل أن تسوء صحّتها، وأثناء عودتها من الحجّ تعثرت، وتشنّجت قدمها ونقلت على الفور للمستشفى، وعند الفحص والتحليل كان السرطان ينخر بخلايا عظامها، وقد تمكّن منها.. أمضت شهورًا في العلاج المكثف، ولكن الموت كان أسرع في اختطافها والحدّ من أوجاعها وخلاصِها.

أمٌّ في أوائل الأربعينات تترك ستة أطفال متميّزين رُغمًا عنها، ولا تدري إلى أين يسوقهم القدر الذي قادها الى الموت! أحقا هو القدَر؟ أم أنّ البيئة لعبت دورَها المُقزّز كما فعل بكثيرين من نفس الحيّ، وبمنتهى الصمت؟ هل من قوانين تُجيز إقامة مصانع في منطقة سكنيّة، إضافة لمناطق صناعيّة؟ أين الصوت العربيّ والمؤسّسات الوطنيّة والقضائية المُناهِضة للظلم ولتلويث البيئة؟ لماذا يظلّ الصوت خافتًا لا يقدر ولا يقوى على الاعتراض أو التغيير!

هل تحشرجت الثورة بين مشاريعَ خيريّةٍ ومشاريعَ نـهب!؟

في السنواتِ الأخيرة أخذت وسائلُ الإعلام - وخاصّة الغربيّة- تربط أوتارَ حمَلاتِها الإنسانيّة، بكثيرٍ مِن المواضيع الخيريّة والتوعويّة الخاصّة بحقوق الإنسان والحيوان والطبّ والأعمال الخيريّة، وجعلت تعزفُ أسماءَ مشاهير مِن الممثلين والمغنّيين والفنانين وعارضي الأزياء، وشخصيّات أخرى ثريّة ومشهورة ومحبوبة في مجالاتٍ كثيرة، وذلك عند عقد اتفاقيّات وإبرام صفقاتٍ، أو جمع تبرّعاتٍ ورعاية مشاريع وتمويلها .

كثيرة هي الحالات الإنسانيّة التي تتطلب وقفة صنديدة في دعمها ومؤازرتها، خاصّة في النكبات والحروبات والكوارث الطبيعيّة والأوبئة وعلاجها، وتَعمَدُ وسائلُ الإعلام إلى الاستنجادِ بمشاهيرِ الشخصيّات والاستعانة بهم. لماذا؟ ما الذي يجعلُ وسائل الإعلام تلجأ إلى هؤلاء المشاهير؟ هل للاستفادة من ثرائهم وتمويل المشاريع؟ هل لترويج الحملاتِ التوعويّة، مِن خلال قدرة المشاهير في التأثير على الشعوب وإقناعهم؟

جون دي روكفلر رجل أعمال أمريكي، جمَع ثروته من عمله في مجال البترول، وفي وقت لاحق أصبح من المشهورين، وكان روكفلر أكثر رجال العالم ثراءً في الفترة ما بين الأعوام 1839م – 1937، ولم يتوان في إنفاقِ ما يُعادلُ مبلغ 550 مليون دولار أمريكيّ تقريبًا، في مشروعاتٍ خيريّةٍ خلالَ مشوارِ حياته .

أمّا النجمة السمراء العالميّة أوبرا وينفري، والتي كُرّمت قبل فترة وجيزة تكريمًا مميّزا ومؤثرًا، فقد تألقت أيقونةً تُشعُّ إنسانيّة في سماء الإعلام الأميركيّ لرُبع قرن، وقد كفلت ورعت خمسة وستين ألفًا من المحتاجين عبر مؤسّستها الخيريّة خلالَ مشوارها الإعلامي، وبكامل السرّيّة وبلا مِنّة قدّمت لهم مِنحًا دراسيّة وحياة كريمة غير منقوصة، وبعدَ أن أنهَوْا مشوارَهم الدراسيّ وصاروا قادةً في مجالاتِهم، تبرّعوا بمبالغ طائلة دعمًا لها ولمؤسّستها الخيريّة، وتكريمًا لشخصيّتِها وإنسانيّتها.

وهذا الممثل الأميركيّ كريستوفر نوث، والذي مثّلَ في عشراتِ المسلسلات التلفزيونيّة الناجحة، اِنضمّ إلى مؤسّسةٍ طبّيّةٍ تعمل على حملات توعية لموضوع السكّر، وأهميّة الفحص، وتقديم النصائح اللازمة حول أهمّيّة الغذاء والرياضة كجزء من علاج مرض السكّر.

وأمّا المغنّية الأميركيّة ماندي مور، التي احتلّت المركز الخامس بين أجمل الممثلات في مجلة بيبول، وقد تجاوزت مبيعاتُ ألبوماتها العشرة ملايين دولار، صارت سفيرة للمنظمة الصحّيّة الدوليّة "خدمة السكّان"، والتي ترعى موضوع مخاطر الملاريا والإيدز، وتُقدّم ندواتٍ توعويّةً في هذا المجال، وهي المتحدّثة أيضًا باسم الجمعيّة الأميركيّة لسرطان الرحم!

وهذه أيضًا الممثلة الأميركيّة جينيفر غارنر، فهي بالإضافة إلى دورها في التمثيل، تساهم أيضًا في أعمال الجمعيّة الأميركيّة لأمراض الرئة، وهي المتحدثة الرسميّة باسم جمعيّةٍ متخصّصة بالتوعية، وبأهمّيّة التطعيم ضدّ الإنفلونزا، والذي يحصدُ كلّ عام 36 ألف أميركيّ!

وهناك العديد والكثير من الأسماء المشهورة، اخترت بعضها كنماذج تثيرُ تساؤلاتي المشاكسة: ما الذي يدفعُ بهؤلاء المشهورين الأثرياء إلى إنفاق أموالهم وتعبهم على البسطاء والفقراء، وتقديم الأعمال الخيريّة بوجوهها وأشكالها المتعدّدة، وهم على مساحةٍ شاسعة من الشهرة والمحبّة؟ هل هي الثقة بالنفس تزوّدهم بقوّة تتخطى الفشل، وتحقّق لهم نجاحًا أكبر؟ هل كثرةُ المبالغ والنقود والأموال أفقدتهم لذتها، فأحبّوا العودة إلى الفقراء المُعدَمين؟

وبالمقابل؛ ما الذي جعلَ رئاساتنا العربيّة تستحوذ على قوتِ شعوبها وصدَقاتها وأموالِ الأطفال والنساء والشيوخ، فتكدّسُها لحسابها الخاصّ وللورثةِ والمشاريع الخاصّة، وتترك شعوبَها في عراءِ الفقر والمعاناة، دون غطاءٍ إنسانيّ يسترُ جوعَ الأمعاءِ الخاوية؟

أسوق قصّة قصيرة تعكس مرآة حياتنا الأرضيّة برموزها وإشاراتها، فقد تعطّلَ محرّك إحدى السفن الضخمة، واستعان أصحابُها بجميع الخبراء الموجودين، لكن لم يستطع أحدٌ منهم إصلاحَ المحرّك، فاستقدموا شيخًا طاعنًا في السنّ لاستشارته، وكان خبيرًا في إصلاح السفن منذ أن كان شابًا يافعًا، وحين حضرَ الشيخ كان يحملُ حقيبة أدواتٍ كبيرة، وما أن وصلَ حتى باشر العمل، وجعل يفحص المحركَ بشكل دقيق في كلّ جهاته وزواياه، وكان اثنان من أصحاب السفينة معه يُراقبانه، راجيان الله أن يتمكّن الشيخ من إصلاح المحرك .

بعد أن انتهى الشيخ من الفحص، أخرجَ من حقيبته مطرقة صغيرة، وبهدوء طرَقَ على جزء معين من المُحرّك، وعلى الفور عاد المحرّك للحياة وتمّ إصلاحُ الخلل، ثمّ أعادَ الشيخ مطرقته بعنايةٍ بالغةٍ إلى مكانها. بعد أسبوع استلم أصحاب السفينة فاتورة إصلاح محرك السفينة من الرجل العجوز، وقد فوجئوا بالمبلغ المسجّل؛ عشرة آلاف دولار!؟ طلب أصحاب السفينة فاتورة مفصلة من العجوز، ليتبيّنوا إن كان هناك خللٌ في الأرقام، فأرسل العجوز الفاتورة مفصّلة: الطّرْقُ بالمطرقة كلّف $2.00، ومعرفة أين تطرق بالتحديد كلف $!9998.00

فماذا يكون عزاء الكادحين ممّن يبذلون جهودًا جبّارة في حيواتهم، في أماكنها الصحيحة وغير الصحيحة، ويكون المردودُ بالتالي بخسًا، أو شبهَ ناجح؟ وماذا عن جهود الكادحين المبذولة بخطواتها الكثيرة الصحيحة والمتعثرة، هل هي حقا تؤمّنُ نجاحات للكادحين تعادلها وتوازيها في القيمة، أم أنّ المردودَ يعودُ على ذوي النفوذ والمُستعبِدين والمُشغِّلين؟ وكيف استطاعت الرئاسات العربيّة بأصابعها وأطرافها المغروسة في أعناق الكادحين والفقراء، أن تستولي على هذه الجهود والمردودات لجيوبها الشخصيّة؟

هل استطاعت تحديد الأهداف والخطوات المدروسة والطرق الموصلة بدقة في تخطي العقبات؟ هل أحصت زعاماتنا عدد خطواتها جيّدًا وأجادت في حساباتها؟ إذن ما الذي جعلها تتعثر فجأة وتفقدُ توازنها، وتسقط سقطتها المُدوّية؟

وأخيرًا.. هل خطوات الربيع العربيّ مدروسة، أم أنّها عشوائيّة في مداراتها ومساراتها، لم تُحدّد بعد أهدافها وطرق الوصول إليها بنجاح، وبأقلّ وقتٍ وأقلّ جهد؟

الصفعةُ.. وأحلَمُ العَرَبِ!

في القرنِ السادسِ عشر وفي إحدى القرى الألمانيّةِ كانَ طفلٌ ذكاؤُهُ خارقٌ، سبّاقًا في أجوبةِ الرياضيّات، يُفوّتُ الفُرَصَ على زملائِهِ في التفكير. أرادَ أستاذُهُ إشغالَهُ بسؤالٍ صعبٍ ليُفسحَ المجالَ للآخرينَ، لكنّ جوابَهُ السريعَ استفزّ الأستاذَ فصفعَهُ، واندهشَ مِن صحّةِ الجوابِ لحظتَها، وما درى أنّهُ صفعَ أحدَ أشهر علماء الرياضيّات فريدريتش جاوس. وما أكثرَها صفعات الزمن والخيباتِ والفقرِ والأوطانِ المقهورة!

"الصفعةُ" قد تودي بكَ إلى المحاكمِ ولو كنتَ بموقفِ دفاع، فمرونةُ القانونِ المطّاطيّة تُدينُكَ ولا تحميكَ، وما أطولَ حبالَ المحاكم! عجوزٌ سويديٌّ صفعَ يافعًا ابن 13 سنة تعمّدَ أن يشتمَهُ كُلّما مَرَّ بهِ، فغرّمَتْهُ المحكمةُ ب 400 $ بذريعةِ استخدامهِ للعنفِ، وما تشفّعَ له دفاعُ جمعيّةِ المتقاعدين!

"الصفعة"؛ كلمةٌ تداولَها الإعلامُ بشكلٍ مكثّفٍ في الفترةِ الأخيرةِ، فكتابُ "الصفعة" الأستراليّ لمؤلّفِهِ كريستوس تسيولكاس أثارَ نقاشًا ساخنًا منذُ صدورِهِ عام 2008، وهو أكثرُ الكتبِ مبيعًا، يربطُ بينَ قصصٍ تَرويها عدّةُ شخصيّاتٍ ضيوف في ضواحي مدينةِ ملبورن، بعدما صفَعَ ضيفٌ في حفلِ شواءٍ طفلاً عمرُهُ ثلاث سنوات ليسَ ابنَهُ، وتتناولُ الروايةُ موضوعات الخيانةِ والوفاءِ، وكراهيّةِ النساءِ والعنفِ الأُسَريّ والعنصريّةِ والحسَد.

وها هو مسلسل "الصفعة" المصريّ مِن تأليف أحمد عبد الفتاح وإخراج مجدي أبو عميرة، والذي يقومُ الفنّانانِ شريف منير وأميرة العايدي ببطولتِهِ، يتقرّرُ بدءُ تصويرِهِ في شهر 2010/12، ويتأجّلُ إلى 15-1-2011، وبعدها إلى 15-2- 2011، بعدما حصلتْ شركة الإنتاج "سينريجي" على موافقةِ الجهاتِ السياديّةِ الرسميّةِ والأمنيّةِ اللازمة، ورصدتْ لهُ ميزانيّة 50 مليون جنيه، وكونهُ مشروع رمضان القادم، توقّعَ لهُ الكثيرونَ نجاحًا كبيرًا على مستوى الاهتمامِ والتشوّقِ الجماهيريّ، إذ ينتمي لنوعيّةِ أعمال الجاسوسيّة، فالقصّةُ مِن ملفّاتِ المخابراتِ المصريّةِ ما بين عام 1957 وَ 1973، وعن الحربِ المخابراتيّةِ بينَ الموساد الإسرائيليّ والمخابراتِ المصريّة.

فهل مسلسلُ "الصفعة" يمثّلُ معالجةً دراميّةً للأحداثِ المُؤثّرةِ في هذا الصراع، تتطرّقُ للجوانبِ الإنسانيّةِ لحياةِ اليهودِ في مصر، والتحوّلِ الاجتماعيّ عقبَ هجرتِهم عام 1957 لإسرائيل؟ هل يتحدّثُ عن النتائجِ السلبيّةِ على المجتمع المصريّ متعدّدِ الدياناتِ وانقسامِهِ وتفتّتِهِ، والتركيز على الفرْقِ بين اليهوديّ والصهيونيّ؟ هل يُعالجُ فكرةَ الانتماءِ للأرضِ التي يولدُ عليها الإنسانُ ثمّ يُعاديها؟ هل يُبيّنُ إنجازاتِ المخابراتِ المصريّةِ العامّة، والاستفادةَ مِن أخطاءِ الآخرين ومواجهة هذا التيّار!

ما الذي جعلَ مواعيدَ تصويرِ الصفعة يتأخّر؟ هل هناك أيادٍ خفيّةٌ عابثةٌ تَحولُ دونَ تحقيقِ تصويرِهِ وعَرْضِهِ؟ هل يُثيرُ المسلسل مشاكلَ وغضبًا بمشاهدَ وشخصيّاتٍ وحقائق؟ هل مِن خطرٍ يُحدقُ بمصيرِ مصرَ مِن خلالِ مسلسل "الصفعة"؟ مَن يقفُ وراءَ تصعيدِ التوتّرِ الطائفيّ

والاحتقانِ الاجتماعيِّ والصراعِ السياسيّ في مصرَ والشرقِ بأجمعِهِ، ليتفشّى الوهنُ والتخلّفُ في أوصالِهِ؟ مَن يسعى إلى شطرِ البلادِ باختراقاتٍ أمنيّةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّةٍ وعسكريّةٍ، ليُعمّقَ الهُوّةَ في البنيةِ والمجتمعِ الواحدِ، فيتقسّمُ على نفسِهِ، ويهترئُ نسيجُهُ الاجتماعيُّ ويتمزّق؟ مَن يقفُ وراءَ تأهيلِ كوادر أمنيّةٍ وتوفيرِ مواردَ معلوماتيّةٍ، تفيدُ شبكاتِ التجسّسِ في عمليّاتِ الاغتيالِ والتصفياتِ الشخصيّةِ والحكوميّة؟ تتوالى الصفعاتُ متسارعةً، ويتضعضعُ الأمنُ القوميُّ المصريّ، وتحيطُ بهِ المؤامراتُ المُحاكَة!

لماذا يسرّبُ الإعلامُ الإسرائيليّ أنّ تل أبيب تحتفظُ بمحطّةِ تجسّسٍ كبرى في النقب، تستطيعُ التنصّتَ على الاتّصالاتِ بكلّ أنواعِها في عدّةِ دولٍ مجاورة؟ أهو ترويعٌ نفسيّ؟ لماذا تتفجّرُ أزمةُ "القرش المفترس" في شرم الشيخ في 2010/12 فجأة، ثمّ في 18-12- 2010 تسقطُ شبكةُ تجسّسٍ إسرائيليّةٍ جديدةٍ في مصر، يعملُ معظمُ أفرادِها في شركةِ اتّصالاتٍ مصريّةٍ، بالاستعانةِ بجهازِ "سويتش" في أمريكا وجهاز "استقبال" في إسرائيل مقرّهُ في غزة؟ هل مصرُ هي الملعبُ الأكبرُ لنشاطاتِ جهازِ المُخابراتِ الحربيّةِ الإسرائيليّة؟

هل فعلاً تطوّرَ العملُ فيها وعليها بحسبِ الخططِ المرسومة؟ لماذا تتفاقمُ اعتقالاتُ الجواسيس! هل كانَ السلامُ مجرّدَ خطّةٍ وهميّةٍ أو حالةٍ مؤقّتةٍ، تهدفُ إلى عزْلِ مصر وتقليصِ دوْرِها في المحيطِ العربيّ؟ هل حقّا تمكّنتْ حكمةُ الرئاساتِ العربيّةِ وفطنةُ السلطاتِ الأمنيّةِ والعسكريّةِ مِنَ المحافظةِ على وحدةِ الشعب، والتصدّي لمحاولاتِ ومُخطّطاتِ زعزعةِ الاستقرارِ فيها، وعدمِ المساسِ بأمنِ أوطانِها؟

وتأتي "صفعةُ الشرطيّةِ التونسيّة" فاطمة حمدي الحارقةُ للمواطنِ محمّد بوعزيزي، إذ يُشعلُ دَويُّها كرامةً في عروقِهِ، وانتفاضةً في شعبِهِ تُغيّرُ المشهدَ السياسيَّ وتُزعزعُ مفاصلَهُ!لماذا يُحمّلُها الشعبُ التونسيّ سُخطَهُ وذنوبَ النظامِ ويُعاقبُها؟ ألكوْنِها أنثى؟ لماذا أُطلِقَ سراحُ معاونَيْها اللذيْن أشبعا بوعزيزي ركلاً وشتمًا وبصقًا، وقبعتْ وحدَها في السجن؟ هل سَجنُها حمايةٌ لها مِن النظام القبَليِّ أم عقابٌ قانونيّ؟

هل حقًّا يمكنُ لأحكامِ التراثِ القبليّ أن تُقوّضَ أركانَ دولةٍ؟ هل حقًّا تُزلزلُ صفعةُ أنثى كرامةَ وطنٍ وشَعبٍ؟ هل صفعةُ الشرطيّةِ هي القشّةُ الّتي قصمَتْ ظهْرَ الوطنِ والجَمَل بما حمَلَ مِن تفشّي بطالةٍ وفسادٍ وظُلم؟ وهل تحتاجُ شعوبُنا إلى صفعاتٍ نسائيّةٍ تُهينُ مروءةَ الرجالِ وتُحطّمُ كبرياءَ ذكوريّتهم، لتوقظَ النخوةَ العربيّةَ مِن سباتِها العميقِ، كي تتحدّى وتُناهضَ التعسّفَ السلطويّ؟ هل نَشكرُ كفَّ الشرطيّةِ ونُقبّلُهُ أم نبترَهُ؟

ما الذي يدعو الإعلامَ للقفزِ عن جوهرِ القضايا المصيريّةِ، ليُشغلَ الرأيَ العامّ بفاطمة حمدي وليلى الطرابلسي، فيُحمّلُهُما مفاسدَ الأنظمةِ ومسؤوليّةَ الأوطانِ بأخطائِها المتراكمة؟ هل هي حربٌ لا مباشرةٌ ضدّ عملِ المرأةِ وفكرِها وتحرُّرها؟

وأخيرًا.. أسوقُ طرفةً حكيمةً حولَ الصفعة علَّ فيها العِبَر! جاءَ أعرابيٌّ يسألُ عن الأحنف بن قيس فأشاروا عليه، فذهبَ وصفعَهُ، فقالَ الأحنفُ بدهاءٍ: لعلّكَ أردتَ أحلمَ العَرَبِ؟ قالَ نعم. فأشارَ إلى أسوأ الرجال خُلقًا وقالَ: هذا أحلَمُهم. فذهبَ الأعرابيُّ وصَفعَ الرجلَ، فما كانَ مِنَ الرجلِ إلاّ أن قامَ وقطعَ يدَ الأعرابيّ!

الوطنُ بينَ سجنٍ وأسْر!

هل لي أن أصلك يا مدينة بيسان العتيقة، دون أن أتخطى سجن شطّة؟

ينقبضُ قلبي وينكمشُ كلّما لاحت لي أسوارُهُ الشائكة مِن بَعيد، وتسارعُ سيّارتي هاربة منه ومن كلّ السجون الأمنيّة، وأبراجُ المراقبة تلاحقني حيث يتمسمرُ في كلّ منها سجّان، وكأنّما أصواتُ وصرخاتُ وتأوّهاتُ أسرانا تتبادر إلى مسامعي تستنجد، وما مِن مُجيب!

ما هو السجن؟ هل السجن هو المكانُ الذي يُحتجزُ فيهِ الأسير، فيجعلُهُ مسلوبَ الإرادة؟

يقولُ الكاتبُ عبد الرحمن منيف في روايتِهِ "في شرق المتوسط مرّةً أخرى": "السجن ليس فقط الجدران الأربعة، وليس الجلاّد أو التعذيب، إنّه بالدرجة الأولى خوفُ الإنسان ورُعبُهُ حتى قبلَ أن يدخلَ السجن، وهذا بالضبط ما يُريدُهُ الجلاّدونَ، وما يجعلُ الإنسانَ سجينا".

ياه.. كم تغصّ مجتمعاتُنا مسلوبة الإرادة بسجون الحياة المُكبّلة بالخوفِ والنفيِ والقتلِ والخطفِ، وتشليح الإنسان مِن إنسانيّتِهِ بوحشيّة لا تليقُ حتّى بالوحوش؟

حتى للحيواناتِ وللأحياءِ محميّاتٌ في الطبيعة، يُقدّم لها الرعاية والاهتمام والدواء والطعام، ويُخالَفُ كلُّ مَن يعتدي على حرمةِ هذه المحميّاتِ وتلك الأحياء، فمَن يعملُ على حماية الأسرى في السجون وفي المعتقلاتِ؟

هل السجن هو نوعٌ مِن أنواع العقوباتِ الجزائيّة وفقًا للقانون، يَسلبُ حرّيّة البَشرِ بموجبِ حُكمٍ قضائيّ وإداريٍّ من سُلطةٍ مُخوّلةٍ باحتجازهم، كإجراءٍ وقائيّ تقومُ بهِ الجهاتُ الأمنيّة، حتى الانتهاء مِن تحقيقاتِها وإجراءاتها بحبسٍ احتياطيٍ، تحفُّظيّ، أو اعتقالٍ وقائيّ؟

لكن؛ حين يُعتقلُ شخصٌ ما تعسّفًا وظُلمًا دون إثباتِ جريمتِه، بل بتقديرٍ مِن السُّلطة أنّهُ يُشكّلُ خطورةً أمنيّةً عليها، وتُساويهِ بمجرمٍ فعليٍّ ارتكبَ جريمة، وتُنفّذُ فيهِ العقوبة بسنواتٍ طوال أو مُؤبّد، ألا يتحوّلُ السجنُ إلى لحدِ حياةٍ، تُدفنُ فيهِ الأجسادُ حيّة؟

مِن المفروض إعدادُ السجون بشكلٍ صالح لإيواءِ المساجين، وتُهيّئَ الظروف الصحّيّة لهم، بعيدًا عن التعذيب والتنكيل بهم.

لكن؛ هل السجونُ الأمنيّة التي تغصُّ بالأسرى تتمتّعُ بهذه المواصفات؟ هل مِن رقابةٍ حقيقيّةٍ صادقةٍ مِن جمعيّاتِ حقوق الإنسان؟ لماذا يُخرَجُ معظمُ الأسرى شبهَ أمواتٍ وبإعاقاتٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ بعدَ الأسر، وبعضُهم على نعوش المَرض؟

هل يهمُّ المناضل البطل كونه داخلَ السجن أو خارجِه؟ هل يهمّه مع مَن يتعايش في السجون ليتكيّف ويعرف كيفَ يُتابع النضال؟ كم مِن سُجناءَ تسكنُهم الآمالُ أبَوْا إلاّ أن يتعلّموا ويتثقفوا، ولا يُفوّتوا لحظاتِهم المريرة إلاّ بتجميلها بالمثابرة، وتحليتها بسُكّر طموحاتِهم ببناء الذات، على أمل التحرّر مِن أكبالِهم وتأبيداتهم!

كم موجعٌ أن أمرَّ بأعرق مُدنِكِ فلسطين، لأعاينَ لافتةً مهجورةً هزيلةً بُحَّ صوتُها تنادي: ها أنذا أريحا أحبّائي، موصدةٌ أبوابي أمامَ حنينكم، بالركام والصخور صدّوا شوارعي، وتركوا فوّهةً واحدةً تتأجّجُ بحواجزَ أمنيّةٍ تشلّخُ أعصابَكم، وتُجرّدُكم مِن صفائِكم! وتلكَ جنين تبعدُ ليس أكثر مِن نصف ساعة عن الناصرة، يَستغرقُ عبورُ حاجزها أكثر مِن ساعتيْن لحوافلَ إسرائيليّةٍ تحملُ مواطنيها العرب، وتُجري عليهم الفحصَ الأمنيّ والتفتيش، تمامًا كما يَجري على مَن تعتبرهم أعداءَها في الضفة!

إذًا؛ ما هي الامتيازات التي حظيَ بها مواطنو "إسرائيل" العرب؟ عندَ حقوق المواطنة أتساءل: ما الفرق بين مواطن فلسطينيّ يتوجّهُ إلى الحاجز مباشرة للوصولِ الى مدينةٍ أخرى، وبين آخر يَفرضُ عليه الاحتلالُ الالتفافَ والدورانَ حول نفسِهِ ساعاتٍ للوصولِ إلى النقطةِ نفسِها؟ أليس بهذا الإجراءِ دمجٌ حقيقيٌّ للفلسطينيّين داخل فلسطين المحتلّة عام 48، في نفس سياسةِ العقاب والعنصريّة والتعجيز التي يتلقاها سكّان الضفّة الغربيّة؟

هل هو نوعٌ مِن سياسةِ العزل تُمارسُها "إسرائيل" ضدّ مواطنيها العرب عن إخوانِهم في الضفّة الغربيّة؟ لماذا يجبُ أن يقفَ المقدسيّ بالساعاتِ على حاجز قلنديا؛ المدخل الرئيسيّ لمدينة رام الله ومتنفّسِها إلى المدن الأخرى، ليدفعَ فاتورة تواصُلِهِ مع عُمقِهِ الفلسطينيّ؟ ألسنا بصددِ سجنٍ كبيرٍ وزنزانةٍ تضمّ في حشوتِها السجون الصغيرة المُحاطة بالجدران والحواجز والأسلاك الشائكة؟

ومع أحداثِ تحرير الأسرى في صفقة شاليط، كانت القلوبُ تتراكضُ وتتلاحقُ خفقاتها تلهجُ بالدعاء، والعيون المترقبة تغصّ بحرارةِ اللقاءِ الدامع مع الأمّهات والزوجاتِ والعائلاتِ والأصدقاء، تتشابكُ الأيدي في عناق شائقٍ لا يُفلتُهُ ظلامُ السنين ولا ظُلمُ السجون، كأنّما تُحاولُ أن تُعوّضَ أجملَ لحظاتٍ مزّقتها الأيّامُ السوداء، ويُلوّحُ ببسمتِهِ الفرحُ صادحًا: بين حاجزٍ وحاجزٍ يكمنُ فجرٌ فلسطينيٌّ جديد! بين مدينةٍ ومدينةٍ ثمّةَ حصارٌ للروح لا يَفكُّها إلاّ إيمانٌ وعزيمةُ أهلِها.

بينَ الأمسِ واليوم والغد تترسّخُ حكايةُ وطنٍ مُتحدٍ لا تهزُّهُ الهزائمُ ولا الولائمُ، وطنٌ تنبضُ الآمالُ في جبالِهِ وبينَ ضفّتيْهِ وفي أرواح أبنائِهِ وشهدائِهِ وسجنائِهِ، هذا الوطنُ الختيارُ خالدُ الشباب، تتفتّحُ فيهِ فلسطينُ كأوراق الورد والبيلسان في بساتين أفراحِنا، وفي حقول عطاءاتِنا وتضحياتِنا، ويفوحُ أريجُها في صمودِ نوّار اللوزِ في أعماقِنا الإنسانيّةِ وجذورِنا الوطنيّة!

لكن؛ مسلسلُ القضيّة لا زالت نهايتُهُ مفتوحة، وتبقى قضيّةُ الأسرى والمُبعَدين عن الوطن تختزلُ شعبًا قائمًا، دخلت السجونُ إلى غرفِ نومِه وأحلام أطفالِهِ، وانتزعت أبناءَهُ إلى غياهبِ العتمة والمصيرِ المجهول، ويبقى الأملُ يُلامس عتابَ الأمّهاتِ والزوجاتِ والأخواتِ، اللواتي مصّ صقيعُ الانتظار عظامهنّ على أبواب السجن، حالماتٍ برؤية فلذاتِ أكبادهنّ وأزواجهنّ لبرهةٍ تُبدّدُها أحلامُ الكبار والأسيادِ على طاولةِ المفاوضات، ويبقى الأمل بقيادةٍ تحتكمُ لروحِ هؤلاءِ الذين غيّبهم ظلامُ السجن والاعتقالِ عن حقوقهم الإنسانيّة والوطنيّة برؤية الشمس والوطن! فهل ستنظرُ القيادة إلى قضاياهم مِن نافذة الأسرى، أم ستبقى تصوّبُ أنظارَها إلى سرابِ الوعودِ والأمنيات؟

هل الزواجُ المُثليّ يُهدّدُ البشريّةَ بالفناء؟

لطالما أقرّت الدساتيرُ والكتبُ السماويّة والأعرافُ الاجتماعيّة بقدسيّةِ الروابطِ الزوجيّة، فقد باتت الأسرة تحقيقًا للدساتير السماويّة، وخليّة أساسيّة للمجتمع، ترتكز على موضوعِ الإنجابِ بالدرجةِ الأولى، والتربيةِ الصالحة للأبناءِ ثانيًا.

وللأسرة احتياجاتُها في المأوى والحمايةِ والمساندةِ والحفاظِ على روابطِ الصلةِ والقربى، مِن أجل التصدّي للمشاكل الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ المؤثرةِ على كيانِها ووحدتِها، ففي حين كانت الهيمنة قبلَ عقودٍ للأسرة الممتدّةِ مِن أعمارٍ مختلفة؛ مِن الوالديْن والجدودِ والأبناءِ في نفسِ البيت، فقد اضمحلّت النسبةُ، وصارَ سائدًا تزايدُ عددِ الأسَرِ النوويّةِ المستقلة، والمُكوّنةِ مِن أب وأمّ وأطفالِهما، أو من أسَرٍ مُكوّنةٍ من أحدِ الوالديْن بسبب الترمّلِ أو الطلاق، أو الهجرة والعملِ خارجَ البلاد.

وقد اعتبرت الجمعيّةُ العامّة للأمم المتحدةِ عام 1993 الخامس عشر من أيار يومًا عالميًّا للأسرة، التي تشكّلُ وحدةً تحافظ على وشائج الصلةِ والترابط الأسريّ الوطيدِ مع الأقارب، وكوحدةٍ فاعلةٍ في المجتمع والتنميةِ الكليّة، ينبغي أن تكفَلَ لها الهيئاتُ الرسميّة وغيرُ الرسميّة رفعَ مستوى أفرادِها المعيشيّ، بما يتلاءمُ معَ الأهدافِ التنمويّةِ والثقافيّة، فما أهمّيّة فكرة الاحتفاءِ بيومِ الأسرة عالميًّا، رغمَ اختلافِ الثقافاتِ بين المجتمعات؟ هل مِن أجلِ تنشئةٍ سليمةٍ لمفهومِ الزواج والأسرة، والتثقيفِ وزيادةِ الوعي وإعلاءِ قيمةِ الأسرة؟

المثليّة ليست وليدةَ العصر، ففي تراثِنا الأدبيّ ومَرويّاتِنا القديمة، هناك مَن روى عنها وصوّرَها بحذافيرِها، كمثل أبي نوّاس وسافو الإغريقيّة، ولكن مع اعتلاءِ موجةِ الحرّيّةِ الجارفة، فقد انحرفَ المجتمعُ المُتطوّرُ عن سياقِهِ الفطريّ والطبيعيّ، ففي الغرب ومنذ أواخرِ التسعينيّات، عامَتْ على سطحِ الحقيقةِ حالاتٌ شاذّةٌ مِن زواجٍ مدنيّ وشراكةٍ منزليّةٍ مُثليّة، في البرازيل، الأرجنتين، فرنسا، فنلندا، نيوزلندا، النرويج، البرتغال، سويسرا، أستراليا، كليفورنيا، هاواي، وغيرها.

موضوعُ "الزواج المثلي" بمفهوم الزواج في الدولة أشغلَ الغرب؛ وفي هولندا عام 2001 أعطى القانون اعترافًا وشرعيّةً قانونيّة لهذا الزواج، ثمّ تلتها بلجيكا، إسبانيا، كندا وجنوب إفريقيا.

وفي آذار 2010 احتفلت امرأتان بزواجٍ مُثليٍّ في واشنطن بعدَ سنواتٍ مِن الانتظار، حسبما ذكرت شبكة "سي إن إن"، بعدما سمح قانون جديد بزواج المثليّين في واشنطن، وبذلك تنضمّ واشنطن إلى ولاياتِ كونيكتيكت وآياوا وماساتشوستس الامريكيّة، ونيو هامبشير وفيرمونت في السماح بزواج المُثليّين!

هل ذوي الميول الجنسيّة المُثليّة والمُزدوَجة هم فقط مِن فئةِ مَن يتعاطون المخدَّراتِ والكحولِ والدعارة، أو الذين تعرّضوا لاغتصاباتٍ وأزماتٍ نفسيّة؟ ما الذي يدفعُ الدولِ الغربيّةِ إلى سنّ

هذا القانون، في حين أنّ نسبَ العجزة في بلدانِها تتنامى، ونسبَ الأطفالِ تقلّ، فيتهدّدُ أمنُها الغذائيّ والاقتصاديّ والأمنيّ والاجتماعيّ؟

ما معنى أن يدمجَهم القانون في المؤسّسة، ويمنحَهم حقوقًا مساويةً للأسرِ العاديّة، رغمَ عُقمِ الزواج وعدمِ إنتاجيّتِهِ وإنجابِهِ واستمرارِهِ الفطريّ؟ هل القانون يُلبّي حاجاتٍ جسديّةً ونفسيّةً خاصّة بالمُثليّين، على حساب حاجاتِ المجتمعِ وخلخلةِ البنيةِ الاجتماعيّة؟

كيف يتعاملُ القانون مع مزدوَجي الجنس، هل يكون زوجًا بمعنى الزواج الأحاديّ المتعارف عليه، أم يُشرّع الخيانة، أم سيسمحُ بتعدّدِ الأزواج، أم سيعاقبُ الجُناة الذين يعملونَ على اختراقِ القانون، كما فعل مع سوزان ميتشل المتّهمةِ بتعدّدِ الأزواج، مِن صديقتِها كارولين أبيدوس وزوجِها تشارلز ميتشل؟ فهل تدومُ مثل هذهِ الزيجات؟

بعضُ الأسَر المثليّة تعملُ على تأسيس أسَرٍ رسميّة، فتتبنّى أطفالاً بتغطيةٍ وحمايةٍ قانونيّة، فهل تكفلُ صحّةً نفسيّةً سليمةً لهؤلاء الأطفال المتبنّين؟

ألا يتساءلُ الأطفالُ المُتبنّون عن اختلافِهم عن أطفالٍ لديهم أمًّا وأبًا، وهم لديهم أبويْن أو أُمّيْن؟ ألا يمكن لذوي الميولِ المُثليّة والميول الجنسيّة المُزدَوجة، خاصّة البالغين منهم، أن يُحطّموا أواصرَ الترابط الوثيق بين أفرادِ الأسرة نفسِها، بين الأمّ وابنتِها، الأب وابنِه، الجدّ وحفيدِه، والخ..؟ كيفَ يتعاملُ القانونُ مع هذا الزحفِ المُستشري دونَ الحدّ منه؟ ما هي الأضرارُ النفسيّة والجسديّة والاجتماعيّة لهذه الميولِ المستفحلةِ دون تأطيرِها، بل وإجازتِها بقانونٍ وشرعيّةٍ دوليّة؟

"لير توني بيركن" رئيس مجلس الأبحاث الخاصّة بالعائلة في أمريكا قال: "إنّ العلاقة المُشينة التي تربطُ بينَ زوجيْن مُثليّيْن تؤدّي لتدميرِ الزواجِ السويّ، ممّا يُهدّدُ الجنسَ البشريّ بالفناء"!

ودراسةٌ أُجريت في ولاية كالفورنيا بمدينةٍ سان فرانسسكو ما بين عامي (1994-1997)، أظهرت ارتفاعًا في نسبةِ الإصابةِ بالأمراض الجنسيّة، حيث كانت نسبتُها نحو 23%، وارتفعَ ليبلغ نحو 33%، وكانت أكبرُ نسبِ أمراض الجنس لدى الشباب الذين دونَ الخامسة والعشرين عامًا.

لطالما شاهدنا في مجتمعِنا الشرقيّ أنواعًا عديدةً مِن زواجاتٍ مختلفةِ الأسماء، فهل هذه الحالات الشاذة موجودة لدينا بشكلٍ مخفيّ وغيرِ رسميّ بسببِ عقاب القانون؟ وهل يمكنُ أن يتفجّرَ هذا الزواجُ الشاذ في شرقِنا وبتغطيةٍ قانونية؟ متى؟ وفي أيّ الحالات؟

اليومَ نشهدُ تفاقمَ نِسبٍ عالية مِن الطلاق، وإحجام الشباب عن الزواج أو التأخّر في إنشاءِ أسَر في شرقِنا! فهل هذا الأمرُ يُهدّدُ بانهيارِ الأسرةِ وكيانِ المجتمع والإنسان؟ لماذا؟ هل في الزواج والأسْرةِ استقرارٌ نفسيٌّ واتّزانٌ أخلاقيٌّ واجتماعيٌّ للإنسان؟ ما الذي أدّى إلى التفكّكِ الأسريّ المُتسارع؟ كيف يمكنُ أن نتفادى الأضرارَ وتوابعَها اللاّحقة؟ هل تحتاجُ مجتمعاتُنا إلى تربيةٍ جنسيّةٍ مبنيّةٍ على أسسٍ منهجيّةٍ مدروسةٍ، تتدرّجُ منذ سِنّ الطفولةِ حتى فترة الشباب وبناءِ أسرةٍ سليمة؟

القدس تحت وطأة تهويد المناهج!

هل غريبٌ أن يعمدَ أيُّ احتلالٍ على وجهِ الكرة الأرضيّة عبْرَ التاريخ والعصور، إلى تغييرِ المعالم التاريخيّةِ والثقافيّة والحضاريّة لتلكَ المنطقةِ الجغرافيّة، التي امتدّت إليها قوّتُهُ العسكريّة وأدواتُهُ التنفيذيّة؟ وهل ما يقومُ بهِ الاحتلالُ الإسرائيليّ مِن تحريفٍ للمناهج العربية الفلسطينيّة في القدس المحتلة، يُعيدُنا إلى الاحتلال الفرنسيّ للجزائر، وما طالتهُ أدواتُ التغييرِ الفرنسيّةِ على صعيدِ العقيدةِ واللغةِ على وجهِ الخصوص؟

لقد كشفت الحملة الأهليّة للحفاظِ على المناهج الفلسطينيّة، عن تعميم قرارٍ جديدٍ صادرٍ في مدينة القدس المحتلة، يؤكّدُ أنّ البلديّة بدأت فعليًّا بتنفيذِ عمليّةِ توزيع الكتب على المدارس الخاصّة ومدارس البلديّة، ضاربًا بعرض الحائط رفض المدارس والأهالي في القدس التعاطي مع هذه الكُتب، لِما فيها من تعديلات خطيرة تسعى إلى عزل المدينة عن محيطِها الفلسطينيّ، حيثُ ورد في النصّ: البلديّة شرعتٍ في توزيع الكتبِ المنهجيَّة، ابتداءً من صباح يوم الثلاثاء الموافق 6 أيلول 2011، وسيتمّ توزيعُ الكتب مِن الصفّ الأوَّل ولغاية الصفّ العاشر فقط.

وبخصوصِ مضمون الكُتب المُحرّفةِ أوضحت الحملة الأهليّة، أنّ الكتبَ لا تُشيرُ إلى أنّ القدس هي مدينة مُحتلة، فقد شطبت البلديّة جزءًا مِن قصيدةِ جذور للشاعر الفلسطينيّ هارونٍ هاشم رشيد، والذي يقولُ: "القدس.. أنا منها وأفديها بالمالِ وبالنفسِ ولا أرضى لها ذُلاً"، كما أسقطت التحريفاتُ الإسرائيليّة أيّة إشارةٍ إلى الانتفاضةِ الفلسطينيّة، عن طريق حذفِ كلٍّ مِن قصيدة الانتفاضة ونشيد الانتفاضة مِن كتاب اللغة العربيّة من منهاج الصفّ السادس.

في حين كان موقعُ يونسكوبرس قد نشرَ بتاريخ 03.03.2011 خبرًا، يؤكّدُ فيهِ على التعاون بين اليونيسكو و"إسرائيل"، مِن خلالِ اتفاقيّةِ تعاونٍ تمّ توقيعُها بينَ الحكومةِ الإسرائيليّة واليونسكو، لتعزيز علاقتهما وتطويرِ تعاونهما، ودعم التعليم عن "محرقة اليهود"، ومكافحة إنكار وقوع قتلٍ جماعيٍّ لليهودِ ولفئاتٍ أخرى أثناء الحرب العالميّة الثانية، وهذا التعاون ناجمٌ عن القرار الذي اعتمدَهُ المؤتمرُ العامّ لليونسكو عام 2007، واجتمعت فيهِ كلمة الدول الأعضاء في اليونسكو الـ 193، على دعم التعليم عن المحرقةِ اليهوديّةِ في كلّ العالم، ومكافحةِ إنكارِ وقوعِها.

"اليونيسكو"؛ منظمة الأمم المتّحدة للتربية والثقافة والعلوم، هي نفسها أحدُ أذرع هيئة الأمم المتحدة الأونروا، والتي تُعنى بـ "التعليم والصحّةِ والإغاثةِ والخدماتِ الاجتماعيّة وتمويل المشاريع الصغيرة والإشرافِ على مخيّماتِ اللاجئيين الفلسطينيّين"!

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار القرار الذي اتخذته منظمة اليونيسكو بموافقة 193 دولة على تعزيز التعليم عن المحرقة، فهل الأونروا؛ "وكالة الغوث وتشغيل اللاجئيين" المُشرفة على المناهج الدراسيّة في المخيّمات الفلسطينيّة، ستُعَنْوِنُ مناهجَها بالهوليكوست مستقبلا؟

وأيضًا؛ منظمة الأونروا ما زالت عنوانُ قضيّة الفلسطينيّين عبْرَ "بطاقة المؤن"، ومقرّها الدائم في القدس الشرقيّة، وبالتحديد في حيّ الشيخ جرّاح، الذي شهدَ قبلَ أشهرٍ هدْمَ الاحتلال

لمبنى فلسطينيّ تاريخيّ، تحتَ أعين وأنظارِ مندوبي هيئةِ الأمم والمفوّض السامي للمنظمة الدوليّة في فلسطين، فهل الخطوة الإسرائيليّة في القدس المحتلّة تأتي مقدّمة لتعميمٍ أمَميٍّ، قد يَسري مفعولُهُ في السنواتِ القليلةِ القادمة؟

تناقضات؟! المقدسيّون طالبوا السلطة الفلسطينيّة باتخاذِ موقفٍ حازمٍ مِن هذه التحريفاتِ للمناهج العربيّة في القدس المحتلة، وطالبوا السلطة بإنشاءِ صندوقٍ للتعليم يضمنُ المحافظة على التراثِ العربيّ الفلسطينيّ، وحماية القدس ومعالمَها وتراثها وثقافتها من الذوبانِ في عمليّاتِ التهويدِ الإسرائيليّة!

السلطة الفلسطينيّة التي ترزحُ تحت نيرِ اتفاقِ أوسلو الأمنيّ، والذي منحَها السيطرةَ المدنيّة المحدّدة في مناطق بـ"أ" و"ب" و"ج"، هل تملكُ الحقّ ضمنَ بنود هذا الاتفاق، لرفضِ ومنعِ تهويدِ التعليم في المدينةِ المُقدّسة؟ وهل إسقاطُ الجذورِ الوطنيّةِ من المناهج التعليميّة يعني إسقاط المدينة المقدسة نفسها مِن أيّةِ تسوياتٍ سلميّةٍ مستقبلاً؟

إذا كانَ الفلسطينيّون يَنشدونَ تعاطفَ هيئة الأمم للاعترافِ بحقوقِهم السياسيّةِ والإنسانيّةِ والمدنيّة، وهي ذات الهيئة التي منحت الاحتلالَ حقوقَ تغييرِ المناهج وتحريفِها، فلمَن سيتوجّه الفلسطينيّون بشكواهم وإدانة المحتلّ؟

في 22 سبتمبر/ أيلول سيتوجّه الفلسطينيّون إلى الأمم المتحدة في نيويورك، للحصولِ على اعترافٍ مِن الدّولِ الأعضاءِ على اعترافٍ اعتباريّ بدولةِ فلسطين وليس رسميّ، فيما لو صوّت 123 عضو، وذلك، من أجل حجْز مقعدٍ لها في الجمعيّةِ العامّةِ بصفةِ مراقب!

فهل سيقف المراقب شكليًّا عاريًا أمامَ هيئةٍ دوليّةٍ تحرمُهُ حقوقَهُ الإنسانيّة، وتدعوهُ لرفع يدِهِ تأييدًا لذبحِهِ وسلخِ تراثِهِ وثقافتِهِ ومعالمِهِ التاريخيّة، بعدما وأدت حقوقَهُ السياسيّة؟ وهل سيستمرُّ انصهارُ الفلسطينيين بشرعيّةِ الأمم وتهويد القدس مِن خلال المشاركةِ الفعليّةِ في صنع القراراتِ الأمميّة، ومن خلال وجود اعتباطيّ وليس اعتباريّ؟ هل الفلسطينيّون يُزَجُّ بهم في إطارِ الخدمةِ الأمنيّةِ المستديمةِ لدولةِ "إسرائيل" والحفاظِ على أمْنِها؟

هل ظلمت الأمم المتحدة الشعبَ الفلسطينيّ، عندما وافقت على إنشاءِ وطنٍ قوميّ لليهود على أرضه بعدَ اقتلاعِهِ منها، تعويضًا وتكفيرًا لليهود عمّا لحقَ بهم في الهولوكوست، أم عاقبت العربَ الذين انصهروا فيما يُسمّى بقراراتِ الشرعيّةِ الدوليّة واتفاقيّاتُ السلام التي أبرمَها الفلسطينيّون مع الاحتلال، وأعفت المنظماتِ العالميّةِ مِن تحمّلِ مسؤوليّاتِها الإنسانيّة والاجتماعيّةِ تجاهَ الفلسطينيّين؟

هل تحريفُ المناهج العربيّة في القدس المحتلة وموافقة 193 دولة على تعزيز التعليم عن محرقة اليهود، فيهِ اقتلاع للوطن الفلسطينيّ من ذهنيّة الفلسطينيّ لاحقا، كاقتلاعِهِ من أرضِهِ بقرارٍ مِن المنظمات الإنسانيّة والحقوقيّة الدوليّة سابقا؟

وهل ما بين تهويدُ الأرض وعبرنةِ أسماء البلداتِ والأحياء والضواحي والشوارع، ثمّة احتلال يُعاني من انفصامٍ حضاريّ وثقافيّ؟

بين التمييزِ العنصريّ وضبابيّةِ التخلّف!

الفكرُ المتزمّتُ المتعصّبُ العنصريّ يُسهمُ في خلقِ الضبابيّة وإبقاءِ التخلّفِ والدونيّة، ويُعوّقُ كلّ مشاريع النهضة، خاصّة إن كان في يدِ صُنّاع قرارٍ ومسؤولين، يُمارسون فِكرَهم بتصرّفاتٍ لا إنسانيّةٍ، وبمبرّراتٍ تخلو مِن الضمير!

وبينَ استنكارِ الرعيّة متعدّدةِ الأطياف وبين استعلاءِ السلطةِ بجاهِها وقوّتِها وعنجهيّتِها، هناكَ آثارٌ وخيمة مِن حرمانٍ وتهميشٍ وقتلٍ ونبذٍ وصراع تتعرّضُ لها البشريّة وخاصّة الأقليّة، وبدلاً مِن الاهتمام بالبناءِ والرقيّ والتحضّر، يتحوّلُ اللبُّ والجوهرُ إلى خارج قشورِهِ، وتغدو لغة إثارةِ الكراهيّةِ والتعصّبِ والغرور هي المهيمِنة في الصراع السياسيّ بين أحزابهِ وفئاتِهِ، وتصيرُ أيضًا هي اللغة المترجَمة في التناحرِ بين النسيج الاجتماعيّ للشعب الواحد والشعوب المجاورة!

هناك شواهدُ كثيرةٌ قديمةٌ وحديثةٌ مِن النزاعاتِ والتوتّرات، التي أُدرِجتْ في خانةِ التمييزِ العنصريّ عبْرَ التاريخ: الفرعون سيسوتريس الثالث في القرن التاسع عشر ق. م منعَ السودَ مِن نزولِ نهرِ النيلِ بالقارب!

المصريّون سَمَّوْا كلّ مَن لا يتكلم لغتهم بالبرابرة!

فُرضَ على اليهود عام 1215 أن يُعلقوا شارة صفراء بعد المجمع الكنسيّ الرابع، وذلك كي يميّزوهم ويُجنّبوهم الاختلاطَ بالمسيحيّين.

كما يعتبرُ غوبينو أحدَ آباءِ العنصريّةِ و رجالاتِها، وأوّلَ صاحب مذهب العنصريّة، وقد اعتبرَ مَن هم مِن العِرق الأبيض آلهة، وآمنَ بفكرةِ القوّةِ والقانون، وحارب فكرة المساواة والعدل.

أمّا هوستون ستيوارت شمبرلين في جمعيّة غوبينو، فكانت فكرتُهُ تتطلّبُ الحفاظ على الدم الجرمانيّ، والدفاع عن الطائفةِ الكاثوليكيّة للجرمان، وأيضًا نشر الفكرة النازيّة بين الجرمانيّين، فالتقى بهتلر لأداءِ المهمّة الإلهيّة الألمانيّة العنصريّة، وقامَ بالإبادة الجماعيّة لليهود عام 1924، لأنهم أعداء المسيحيّة والفِكرِ النازيّ، كما قتل مِن الغجر ما يناهز 800 غجريّ عام 1941، على اعتبار أنّهم مجرمون بالفطرة.

وقضيّة الأبارتايد بين البيض والسود في إفريقيا انبثقت مِن فِكرٍ شرّير، ومِن سياسةِ الدفع وليسَ التطوّر، لكن هذه السياسة أدّت إلى انتفاضاتٍ وفتنِ سويتو، وراح ضحيّتها 176 شخص عام 1976 في مدينة الكاب.

أمّا قضيّة الزنوج الرقّ في أمريكا وموضوع استعباد ما لا يقلّ عن أربعة ملايين زنجيّ حتى عام 1860، فقد أدّت إلى صراعات ونزاعات، وعام 1865 ألغى الدستور قانون الرقّ، وأعطى الزنوجَ نفسَ حقوقِ البيض والجنسيّة وشهادة الميلاد، وحقّ الانتخاب حصلوا عليه بعدَ صراع مريرٍ مع سياسةِ العنصريّة المتواطئة معَ المحكمةِ العليا، وهناك قضايا اليهود في الاتحاد السّوفييتيّ، والقضيّة الفلسطينيّة مع اليهود لا زالت عالقة، وقضايا أخرى عديدة.

اليوم.. ورغم المشاهدِ العنصريّةِ والممارساتِ الفظيعةِ واستفحالِ المجازر البشريّة، ورغم فنون مذابح الحروب والسجون التي تغصُّ بها حكايا الشعوب، إلاّ أنّ العالمَ بأسرهِ لم يزلْ يتغنّى ويتشدّق باتّفاقيّاتِ حقوقِ الإنسان الدوليّة والإقليميّة، التي يهدفُ حِبرُها إلى معالجةِ وحمايةِ مسائل الإنسان والأقليّات خاصّة، وكذلك قضايا المجموعات الصغيرة.

وبعودةٍ خاطفةٍ إلى التاريخ، نجدُ أنّ هذه الوثائقَ ظهرت في العهد الأعظم بإنكلترا عام 1215 م، ثمّ في وثيقة الحقوق الإنجليزية عام 1689م، وفي الدستور الأمريكي عام 1787 م، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن بفرنسا عام1789 م.

لقد ثُبّت هذا الصوتَ الإنسانيّ عالميًّا بحِبرٍ يتدفّقُ بينَ سطورِ الوثائقِ الحقوقيّة منذ 10-12-1948، بالاعلان العالميّ لاتفاقيّاتِ حقوقِ الإنسان المنبثِقِ عن الجمعيّةِ العامّةِ لمنظمة الأمم المتحدة، ومِن أهمّ أغراض هذه الاتفاقيّة: مراعاة واحترام حقوق الإنسان بشرائحِه العمريّة، طفلاً، امرأةً، عُمّالاً، أقلّيّة، وذلكَ في مجالاتِ الكرامة، المساواة، العدل، السلام، الحرّيّة، والحماية القانونيّة لهذه الحقوق.

ولكن؛ هل يمكن بالوثائق المكتوبةِ أن يتوازنَ العالمُ بالعدلِ بينَ حقوقٍ وواجبات؟ لا بدّ مِن توطيدِ العملِ بالحقوقِ مِن خلال التعليمِ والتربية، كي يتفوّق الإنسانُ على جهلِهِ وكي يعرف حقوقه، وأيضًا لا بدّ من الممارسةِ الفعليّةِ إضافة للتثقيفيّة، وبالتالي التعامل مع الإنسان بروح الإخاءِ دون تمييزٍ للون أو عرق، لغة، أصل وطني، اجتماعيّ، حزبيّ، دينيّ، مادّيّ أو سياسيّ، ودون التعرّض للعقوباتِ والتعذيب والمعاملة القاسية الوحشيّةِ التي تحُطّ مِن كرامته.

عام 1966 حدّدت الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة تاريخ 29- 7 تموز يومًا عالميًّا لمكافحةِ التمييز العنصريّ، ويعودُ ذلك إثرَ حادثةِ إطلاق الرصاص مِن قِبلِ الشرطة، ومقتل 69 شخصًا عام 1960 في مظاهرةٍ سلميّةٍ في شار بفيل بجنوب أفريقيا، ضدّ قوانين "المرور" المفروضةِ مِن قِبل النظامِ العنصريّ.

وقد عُرّفت العنصريّة على أنّها عمليّة "استثناء" أو "تفضيل"، تقومُ على أساس (العِرق، اللون، الدين، النسب، أو الأصل القومي)، وتستهدفُ عرقلة حقوق "الآخر" وحرّيته الأساسيّة وممارستها في الميادين السياسيّة، الاجتماعيّة، الاقتصاديّة والثقافيّة! ولكن مرآةَ التاريخ عكست وقائعَ بشعةً مِن بَعدِ هذه الاتفاقيّات والوثائق الحقوقيّة، فقد نُفذت حروبٌ كثيرة منذ عام 1948 في فلسطين، لبنان، العراق، الصومال، الشيشان ودول أخرى والقائمة طويلة..

مَن يقفُ على رأس وتحريكِ هذه الحروب التي دمّرت شعوبًا وأوطانًا وباعتْ بلادًا؟ مَن الذي بادرَ إلى إعلاءِ صوتِ حقوق الإنسان، وتشكيلِ جمعيّاتِ الأمم المتحدة والهيئاتِ الدوليّة؟ الدول الكبرى أم الصغرى؟ لماذا العملُ على تفتيح عيونِ الجهل على المعرفةِ الوهميّة، تحتَ مِظلّةِ ادّعاءِ الحقوق؟ أهي خدعةٌ للضحكِ على اللحى وعلى الذقون، أم نوعٌ مِن المُسكّناتِ الحالمةِ للمستضعَفين؟ أم حيلةٌ للَجْمِ ولإلزامِ الدول المستضعَفةِ بالقوانين الجديدةِ؟

هل ينبغي للشعوب المستضعفةِ أن تتيقّظَ مِن أحلامِها، وتعملَ بالقول "اِسمعوا أقوالَهم ولا تفعلوا أفعالَهم"؟

هل عجلةُ النموّ السكّانيَ تتسارعُ إلى هاويةٍ!

لقد ارتفعَ عددُ السكّانِ في العالمِ مِن مليار نسمة في عام 1810، إلى خمسة مليارات نسمة تقريبًا عام 1987، وعام 2010 بلغَ سكّانُ العالم سبعة مليارات نسمةٍ تقريبًا، ومِنَ المُتوقّعِ أن يبلغَ 9.4 مليار نسمة عام 2050.

بناءً على هذهِ الإحصائيّاتِ، حدّدتْ إدارةُ برنامج الأممِ المتّحدةِ الإنمائيّ عام 1989 يومًا عالميًّا للسكّان في 11 يوليو تمّوز مِن كلّ عام، في سياقِ خططِ التنميةِ الشاملةِ وبرامجِه، وبموجب قرارِه 46/89.

البرنامجُ يهدفُ إلى زيادةِ الوعيِ بقضايا السكّان، والحدِّ مِنَ الانفجارِ والنموّ السكّانيّ العشوائيّ، وضبْطِهِ عبْرَ برامج تحديدِ النسلِ وتنظيمِ الأسرة، خاصّةً في الدول النامية، وذلكَ لصالحِ البشريّةِ والإنسانيّة، كي يتسنّى للجهودِ الوطنيّةِ والدوليّةِ تنفيذ برامجِها التوعويّة، وإيجاد حلولٍ لمشاكلِ النموّ الديموغرافيّ، الفقر، تحدّياتِ الأمراض كالإيدز والملاريا والسلّ، والمخدّراتِ والبطالةِ، وتحسينِ الدخلِ والمناخاتِ الاقتصاديّة، وتحسينِ الخدماتِ الصحيّةِ والتعليميّةِ والظروفِ المعيشيّة، بما يتناسبُ والدخلُ، وتخفيضُ نسبةِ وفيّاتِ الأطفالِ والوالدات.

أكثر مِن ثمانين دولة وضعت قوانينَ لبرامجَ وطنيّةٍ لتنظيم النسل، وكانت اليابان سنة 1948م أوّلَ دولةٍ اتّخذت إجراءً وطنيًّا لتنظيمِ الأسْرة، فقد أجازت الإجهاضَ ومنْعَ الحمْل، فانخفضَ معدّلُ المواليدِ سنويًّا في اليابانِ خلالَ السنواتِ العشر التالية مِن 3.3% إلى 1.7%، ومن ثمّ، صارَ الإجهاضُ القانونيُّ وسيلةً رئيسيّة لتنظيم النسلِ في دولِ أوروبّا الشرقيّة.

بدأت الصين بإجراءاتِ تنظيمِ النسلِ في الخمسينيّات مِن القرن العشرين، وانخفضَ معدّلُ المواليدِ في الصين بحلولِ الثمانينيّاتِ إلى 2.1% سنويًّا.

كذلك الهند ساندت البرنامجَ الوطنيَّ لتنظيمِ النسلِ في بدايةِ الخمسينيّات، وطوّرت برنامجًا يدعو إلى العُقْم الطوعيّ للذكور!

وبدأت باكستان برنامجَ تنظيم النسل سنة 1959م، وتلتها كوريا الجنوبيّة وتايوان، ودول آسيويّة وإفريقيّة عديدة ودول أمريكا اللاتينيّة، واعتمدت تعاطي النساء والرجال حبوب منع الحمْل.

كيفَ تتعاملُ المجتمعاتُ الدينيّةُ مع برامج ومُخطّطاتِ وأساليب تحديدِ النسل؟ تقبلها؟ ترفضها؟

في العقودِ الأخيرة تراجعَ مُعدّلُ نموّ السكّان في الدولِ العربيّةِ بنسبة 5.2% سنويًّا، خلالَ الفترة مِن عام 1990 الى عام 1998. الأممُ المتحدة بصناديقِها وهيئاتِها، تعملُ على تقديم المشورةِ والبرامجِ للبعثاتِ المعتمدةِ لديها، وتقدّمُ مساعدةً تقنيّة للمكاتب الإحصائيّةِ الوطنيّة، ولمكاتبِ الحكوماتِ الوطنيّة، ومنظّماتٍ غير حكومية، ومكاتبِ الأمم المتحدة، ومجتمعاتٍ مدنيّة، ومنظّماتٍ دينيّةٍ وزعماءَ دينيّين وجهاتٍ أخرى، وللباحثين ومُمثّلي وسائطِ الإعلامِ

والجمهور، مساعداتٍ تختصُّ بالتقديراتِ والتوقّعاتِ والمعلوماتِ والتحليلاتِ المتعلّقةِ بمسائلِ السكّانِ والتنمية، مِن أجلِ تعزيزِ القدرةِ الوطنيّةِ على تنفيذِ برامجِ السكّانِ والمساكن، وتلبيةِ الحاجاتِ المَحلّيّةِ وإنجازِ المُهمّةِ بنجاح.

الهند؛ والتي تعتبرُ سكّانيًّا ثاني أكبر دولةٍ في العالم، قد بيّنت الهيئة القوميّة للسُكّان، أنّ عددَ سكّانِ الهند في عام 1951 بلغ نحو 361 مليون نسمة، بينما عام 2001 تجاوز المليار نسمة، أي ما يُعادلُ سُدْسَ سكّان العالم، وسيصلُ إلى مليار ونصف المليار نسمة خلال عام 2050، ليتجاوزَ عددَ سكّان الصين الأكبر عددًا للسكّانِ في العالم!

هذا الأمرُ يستدعي تقييمًا جذريًّا سريعًا وحثيثا، بسبب تعذُّرِ وجودِ فرصِ عملٍ كبيرةٍ، أو مستقبلٍ أفضلَ للسكّان، وبسبب نسبةِ الفقراءِ المُطّردةِ في الهند، والتي تساوي بحسب الإحصائيّات ثُلثَ فقراءِ العالم، وبسببِ المعاناةِ مِن سوءِ التغذية والمعاناةِ الصحيّةِ العالية، فهناكَ سنويًّا أربعة ملايين هنديٍّ مصابونَ بالإيدز، ومليونان مصابونَ بداءِ السلّ.

ما هي الوسائلُ المُتحدّية التي يمكن أن تتّبعُها الحكوماتُ في الدولِ النامية، للحدِّ مِن ارتفاعِ النموّ السكّانيّ؟ هل يمكن للبرامج والمنظّماتِ الحكوميّةِ أن تتحدّى وتجدَ صدًى إيجابيًّا بين المواطنين، فتتغلّبُ على أعرافٍ اجتماعيّةٍ سائدةٍ بخصوصِ كثرةِ الإنجابِ والعزوة؟ كيف يُهيمنُ الوعيُ على الجهلِ وتتغيّرُ الموروثات والعقليّات؟ أم أنّ الهيمنةَ لعقوباتِ القانون والتهديدِ والترويع؟

هل إقرارُ الحكومةِ لقانونٍ برلمانيٌّ يمنعُ أيَّ مواطنٍ أنجبَ أكثرَ مِن اثنيْن مِن المشاركةِ في الانتخابات، قد يحدُّ مِن تفاقُمِ النموّ السكّانيّ؟ وهل موضوعُ الانتخاباتِ في دولٍ فقيرةٍ نامية، له شأنٌ أكبر من رغيف الخبز، في التأثير على النموّ الديموغرافي؟ وهل كلّ المواليدِ يُسجّلونَ دونَ تحايلٍ على القانون؟ كيفَ للدولِ النامية أن تتغلّبَ على معضلةِ الحقيقةِ المُرّةِ على المستوى العالميّ، بأنّ معدّلَ وفيّاتِ الأمّهاتِ الوالداتِ لعام 2005 بلغ 400 حالة وفاة لكل 100.000 مولودٍ حيّ، وتتحمّلُ الدولُ النامية منها 99%؟

ما دوْرُ وأثرُ منظّماتِ الأسرةِ والأمومةِ والطفولة والشباب فعليًّا، على معدّل وفاة الأمّهات والمواليد، وفي تحسين الخدماتِ التوعويّةِ والصحيّةِ بالأمّ الحامل ورعايةِ رضيعِها، وتوفيرِ التطعيماتِ اللازمةِ للأطفال؟ كيفَ يمكن للحكوماتِ أن تقفَ أمامَ تحدّياتِ النموّ السكّانيّ والفقرِ والخوفِ والقلقِ على مستقبلِ أجيالِ الغد، وأكثر مِن 50% مِن سكّانِ العالم هُم مِن شريحةِ الشباب الأقلّ مِن 25 عامًا؟ هل يعملونَ بنصيحةِ عالم الاقتصادِ البريطانيّ توماس روبرت مالتوس، الذي نشرَ مقالتهُ المشهورة في مبادئِ عِلم السكّان عام 1798م، ونصحَ الشبابَ مِن الرجالِ والنساءِ بتأجيلِ الزواجِ لتقليلِ الولادات؟

كانَ عددٌ مِن الناس في أوروبا قاموا خلالَ القرن التاسع عشر بتشجيع تنظيمِ النسل، وحدثَ نتيجةَ جهودِهم هبوطٌ جزئيٌّ في معدّلاتِ الولادةِ في الدولِ الصناعيّة، أدّى إلى المعدّلاتِ المنخفضةِ الحاليّة. هل ثرواتُ وموارِدُ الدولِ النامية استُغلّت بصورةٍ تتناسبُ مع النموّ السكّانيّ والطاقاتِ الشبابيّة، لحلّ الأزماتِ الاقتصاديّة، ولردْمِ الفجوةِ الكبيرةِ بينَ الدولِ الغنيّةِ والدولِ الفقيرة؟ وأخيرًا.. هل عجلةُ النموّ السكّانيَ تتسارعُ إلى هاويةٍ!

هل مِن تعاونيّاتٍ للتعاونيّات؟!

عام 1844 تحوّلَ الاقتصادُ الزراعيّ إلى الصناعيّ، وكانت إنجلترا تعاني مِن الحروب النابليونيّة، وتكوّنت حاجةٌ ماسّةٌ للحصولِ على الموادّ الغذائيّةِ والحياتيّةِ والمساكن للعمّالِ وعائلاتِهم قرب المصانع، فتأسّست "جمعيّة روّاد روتشديل التعاونيّة"، أوّلُ جمعيّةٍ تعاونيّةٍ مُنظّمةٍ ناجحةٍ في العالم؛ تضمّنت بنودُها الغاياتِ والأهداف، وطريقةَ جمْع المال وتوزيع الأرباح، وأسلوب الإدارة، وضمّت 28 عضو مِن العمّال، جمعوا 16 جنيهًا وأسّسوا دكانًا صغيرًا قربَ المصنع بسعرٍ معقول.

نجحت الفكرة وتوسّعَ الدكّانُ، ووفّرَ جميعَ السلع والملابس، وانتقلت الفكرة للدول المجاورة، لتشكّلَ عام 1863 أوّلَ اتّحادِ جمعيّاتٍ تعاونيّ ضمّ في عضويّتِهِ (48) جمعيّة، لتوريدِ وتسويق الموادّ الغذائيّةِ والمنزليّة بالجُملة لأعضاءِ الاتّحادِ مِن الجمعيّات، رئِسَهُ المنتخَبُ أحدَ روّاد "روتشديل"، ومنذ عام 1923 في الحلف التعاونيّ الدولي احتفلوا سنويًّا بأوّل سبت من شهر يوليو حزيران من كلّ عام، ثمّ أعلنتهُ الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في جنيف في ديسمبر عام 1992 يومًا عالميًّا للتعاونيّات، وفي 2009/11/19 اتخذَ قراراتٍ عالميّةً مصيريّةً هامّة؛ نزع السلاح النوويّ في العالم دون استثناء. تنظيم الطاقة في العالم والحدّ من تأثيراتِها السلبيّه على البيئة. ومعالجة الأزمة الاقتصاديّةِ العالميّة.

وعام 2010 تمّ انتخابُ "دام بولين جرين" بريطانيّة الجنسيّة ومالطيّة المولد، رئيسة للتحالفِ التعاونيّ العالميّ، وبحسب التقارير فإنّ أكثرَ مِن نصف سكّانِ العالم (3 مليارات) تخدمُهم المنشآتُ العالميّة، وقد حققت نجاحاتٍ بالغةً ساهمتْ في النموّ الاقتصاديّ على مستوى عالميّ، وتتمتّعُ بأهمّيّةٍ اقتصاديّةٍ في عددٍ كبيرٍ مِن دول: بوركينا فاسو، الهند، اليابان، هندوراس، والولايات المتحدة الاميريكية! التعاونيّاتُ تُقدّمُ الإغاثة والعونَ لأكثرَ مِن 20 مليون متضرّرٍ سنويًّا، بمناطق الصراعاتِ والكوارث الطبيعيّة، وتسعى إلى إعادةِ الإعمارِ وإقرارِ السلام، وتضمُّ أكثرَ مِن 800 مليون عضو في جميعِ القطاعاتِ الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ العالميّة:

الكويت 70 % من تجارة التجزئة تسيطر عليها التعاونيّات. ومصر تضمّ الحركة التعاونيّة نحو 12 مليون عضو، من خلال 18 ألف جمعيّة تعاونيّة بمختلف أنشطتها، تساهمُ التعاونيّاتُ في الاقتصاد الوطنيّ بنحو 40 % من الناتج المحليّ الزراعيّ، و 6 % من إجمالي الصّادرات. ما مردود النشاطات التي قامت بها منظّماتُ المجتمع المَدنيّ والقطاع التعاوني المعنيّ بالأمر، على المستوى الرسمي والشعبي في دولِ شرقِنا؟

وتظلُّ المرأةُ أهمَّ المحاورِ والقضايا التي تُشغلُ المجتمعات، بأدوارِها الإنسانيّةِ الراسخةِ الإيجابيّةِ الرائدة، بالغةِ الأهمّيّةِ في المشاركةِ الفعّالةِ في تنشيطِ وتفعيلِ وتطويرِ المجتمعاتِ وتنميتِها اجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، إذ تقومُ بأنشطةٍ إنتاجيّةٍ ضروريّةٍ جدًّا لمعيشةِ أسْرتِها فى المجال الاقتصاديّ ورعايةِ الأسرة، ولكن بعقباتٍ تعترضُها، وأجورٍ زهيدةٍ وفُرَصٍ قليلةٍ لا تتناسبُ مع مجهودِها ولا تُراعي احتياجاتِها، ممّا يؤدّي إلى إحباطِها وتقويضِ النموّ

الاقتصاديّ والبشريّ العالميّ، لذا؛ فإنّ المؤتمرَ العالميَّ الرابع انعقدَ في العاصمةِ الصينيّةِ عام 1995، واعتمدَ منهاجَ عمل بيجين، لتمكين النساءِ من التقدّم في مجالاتٍ تتطلّبُ تدابيرَ محدّدةً لصالحِها، الاقتصاد، التعليم، التدريب، السُّلطة، الصحّة، اتخاذ القرارات، والاستدامة البيئيّة والتعاون الدولي واستئصال الفقر.

التعاونيّاتُ تسعى إلى توفير تأييدِ الرجالِ للمرأةِ ونشاطاتِها، وتعزيزِ ثقةِ النساءِ المُهمّشاتِ بأنفسِهنّ، بقدرتِهنّ على المواجهةِ والتحدّي والإقناع والتأثيرِ، وإدراكِ استحقاقِهنّ لحقوقِهنّ في تحديدِ خياراتِهنّ، والحصولِ على الخدمات والفرصِ والمواردِ الأساسيّة لمشاريعهنّ، والتحكّم في حياتِهنّ على المستويَيْنِ الوطنيّ والدوليّ، وتمكينِهنّ مِن تحمّلِ المسؤوليّاتِ المِهنيّة، وتطويرِ مهاراتِهنّ ومستوى حياتِهنّ، وتعزيزِ مكانتِهنّ الإيجابيّة كشريكاتٍ، مِن خلال مشاريعَ تعاونيّةٍ تنمويّةٍ بشريّةٍ واقتصاديّةٍ مُستدامَة، وتقوية النسيج والتماسك الاجتماعيّ للمجتمعات وروح الجماعة مع الصالح العامّ، وتوفير الحماية الاجتماعيّة لهنّ، والدفاع عن حقوقِهنّ في الاستثمار والترويجِ لجهودِهنّ المبذولة في البنى الأساسيّةِ والخدماتِ الرئيسيّة، وبالتالي تعزيز نطاق الشراكاتِ وتوسيعِها بينَ الحركةِ التعاونيّةِ الدوليّة وبينَ الجهاتِ الفاعلةِ الحكوميّة، على الأصعدةِ المَحليّةِ والوطنيّةِ والدوليّة.

التعاونيّات مشاريع مرنة مملوكةٌ ومحكومة ديمقراطيًّا وِفقَ قيادة، تقومُ على العمل الطوعيّ والمسؤوليّة الشخصيّة، والمساواة والعدل والسيادة، متعدّدة الاتجاهات، تعاونيّات يملكُها موظّفونَ عاملون ومُنتِجونَ، زراعيّة، حيوانيّة، استهلاكيّة، شرائيّة، إسكانيّة، إنتاجيّة، حِرَفيّة وأخرى، تُعِدُّ الكثيرَ مِن السيمينارات وورش العمل لدعم المرأة وتحقيق التنمية المُنصِفة والمُستدامة، فلا تُقدّمُ إعاناتٍ كي لا تبدّدَها الاحتياجاتُ اليوميّة، وانّما تستجيبُ لاحتياجاتٍ عمليّةٍ واستراتيجيّة، وتمليكِ وسائل تنظيميّة فاعلة في الإنتاج، وتجميعِ قوى وجهودِ نساءٍ فنّيّةٍ وبشريّةٍ ومادّيّةٍ في إنتاج مشاريع يُدِرْنَها ويُنمّينَها ويمتلكْنَ أسهمَها ومُدّخراتِها، تحتَ إشرافِ الدولةِ ومؤسّساتِها وأجهزتِها الرسميّة .

كيفَ تستمرّ المشاريعُ في ظلِّ الأزمةِ المادّيّةِ العالميّةِ والأسواق المُتناحرةِ والكاسدة، علمًا أنّ النجاحَ مرتبط بشركاءَ أربعة: دولةٍ قويّةٍ متدخّلةٍ بحدود، بقطاعاتٍ تعاونيّةٍ مُوجّهة، وقطاعاتٍ خاصّة منضبطة، وقطاعاتٍ مختلطة؟ لماذا لم تصِلْ هذه المنشآتُ بجدواها وأهميّتِها ونجاحاتِها إلى تغييرٍ واقع مواطني دولِ العالمِ الثالث المُهمَّش؟ هل ينقصُها تأسيسٌ مدروسٌ وتطبيقٌ واعٍ بخطواتٍ مُتدرّجة؟ هل لاستغلالٍ سياسيٍّ وحزبيٍّ للمردود، وتعصّبٍ مهنيٍّ ضدّ التعاونيّات؟

هل لعدم توفّرِ المقوّماتِ والإمكانيّاتِ ومُحرّكاتِ الاقتناعِ والإقناع بدَوْرِ هذه الجمعيّات؟ هل لعدم وجودِ نماذجَ عمل، وكوادرَ مؤهّلةٍ تُديرُ هذه المنشآت مِن خبراءَ ومُتخصّصينَ وجهاتِ اختصاصٍ تُتابعُ، وتُساهمُ في استقلالِ التعاونيّة لاحقا؟ هل لعدم توفّر دوْر إعلاميّ في التثقيفِ التنظيميّ والتوعيةِ في المناطقِ النائية؟ أيّةُ صياغةٍ معاصرةٍ مُقنِعة للمواطن ولواقعِهِ، يترتّبُ على المنشأتِ ممارستها، لتغييرِ الواقع للأفضل؟ وما حالُ ملايين النساء اللواتي يحملنَ شهاداتٍ ثانويّة وجامعيّة ويُعانينَ مِن البطالة؟ هل تشملهنّ هذه التعاونيّات؟

هل تصدّقُ الحمارَ ولا تُصدّقني؟

مضيتُ وأسرتي لحقل الزيتون كسائر أسَرِ بلادي في أيّام الإجازات والذكريات الجميلةِ والأليمة، كيوم الأرض والنكبة وغيرها، لتحتضننا ظلالُها بحنانِها وخُضرتِها، ولنُفضي لها بشعورٍ غامرٍ مِن حنينٍ يتقمّز بأرواحِنا، ويتقفز في نفوسِنا إلى أيّام فلسطينيّة كانت ولم تعُد بَعد، لم نحياها إلاّ بحكاياتٍ وأناشيدَ وذكرياتٍ دوّنتها حسراتُ الغربةِ في بلادِنا، وعذاباتُ أقربائِنا المُهجّرين المُغرّبين على ضفافِ احلامٍ قد تتحقّق، وأسمع صوته يَعلو في أذني:

أسمعُ نهيقَ حماري المسروق مِن داخل بيتِك!

فيصرخُ الآخرُ وقد خبّأ الحمار: الحمارُ ليسَ عندي! فهل تصدّقُ الحمارَ ولا تصدّقني؟

ويهبّ إلى ذاكرتي تاريخُ الحركةِ العمّاليّة الفلسطينيّة التي نشأت عام 1920، وأسّست جمعيّة العمّال العربيّة الفلسطينيّة في حيفا، وانتشرت إلى الناصرة وعكّا ويافا والقدس ونابلس وبيت لحم وعكا والرملة وطولكرم وغزة ورام الله وغيرها، واتخذت شعارًا عمّاليًّا خالدًا: (قُدُمًا إلى العملِ والعِلم والطمأنينة)!

منذ تسعينَ عامًا، أحلامٌ مزدهرةٌ جالت وصالتْ في سهولِ وبحارِ وموانئ فلسطين، وبلمحةٍ طفيفةٍ تغيّرتْ ملامحُكِ بلادي وغدوتِ مصبوغةٍ بلغةٍ وهُويّة عبريّة، أقامتْ كيانَها على خاصرتِكِ النازفةِ بحرْبةِ يهوذا، وما فتئتْ بطونُ بلدانِكِ عربيّةً تئنّ تحتَ نيرِ بطالةٍ عاليةٍ تتفاقم، فلا تُسعفُها الهُويّة الإسرائيليّة العبريّةُ التي تخدمُ قومَها اليهود أوّلاً، ولا تُنصفُها رحمةُ القوانين الدوليّة المزيّفة!

كم تُمزّقُني رؤية العمّال الفلسطينيّين المُسترزِقين مِن إخوتِنا أهلِ الضفّة، يتراكضونَ هاربين في سهولِنا ومصالحِنا وبيوتنا العربيّة، وخيولُ الشرطةِ تُلاحقُهم في الليل والنهار بكبسيّاتٍ ومُداهماتٍ لئيمة، لتُعيدَهم إلى الحواجزِ ذلاًّ، وعقابًا ماديًّا وسجنًا لمَن شغّلهم وأواهم!

وها الأوّلُ من مايو- أيّار هلَّ، طنّ وطنطن احتفالُ الحركاتِ العمّاليّة الدوليّة للإنجازاتِ الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والذي ابتدأت فكرته "يوم العمّال" في أستراليا كانتفاضةٍ عمّاليّة، تطالبُ بتحديدِ ساعاتِ العمل بثماني ساعاتٍ، وتحسين شروط العمل العامّة، ليصبحَ ذكرى لقضيّة إضراب هايماركت 1886 الدامية، حيث شاركَ في ساحة هايماركت العمّالُ والحرفيّون والتجّار والمهاجرون والقوى العاملة في شيكاغو وإلينوي والولايات المتحدة، وأبَت السلطاتُ الأمريكيّة إلاّ قمْع وإرهاب هذه الحركة العمّاليّة، فاعتقلت قادة وزعماءَ العمّال، وأودعَتهم في السجون بتهمةِ إثارةِ اضطراباتِ الشغب والفوضى والقلاقل المُخلّة بالأمن العامّ، وفتحت الشرطة النارَ وقتلتْ أربعة مِن المُضربين، وفي اليوم التالي تجمّعَ حشدٌ كبيرٌ مِن الناس بشكلٍ سلميّ، وتدخلت الشرطة لفضّ الاحتشاد، فألقى مجهولٌ قنبلة وسط حشدِ الشرطة، ممّا أدّى إلى وفاة اثنى عشرة شخصًا بينهم سبعة من رجال الشرطة، فأصدرت المحكمة الأميركيّة حكمًا بتنفيذ إعدام ستّة مِن زعماء العمّال في 11-11-1886، وتركت هذه المجزرةُ البشعة

النكراء آثارًا عميقة الجذورِ في نفوس عمّال العالم، باعتبارِهم الشريحة الكبرى من شرائح المجتمع.

كان قرارُ المحكمة مصدرَ غضب عارمٍ للعمّال في أرجاء العالم، فتضامنوا مع قضيّة العمال وتعاضدوا معها، وطالبوا بتغييرٍ جذريّ لتاريخ الحركة العمّاليّة، وتحسين أوضاعهم السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتحقيق السلام والأمن والاستقرار بين كافّة الشعوب في العالم، وبعد بضعةِ سنوات أصدرت المحكمة الأمريكيّة قرارًا بتبرئتهم، بعدَ أن سقطت التهمُ المنسوبة لهم .

ذكرى يوم العمّال العالميّ ابتدأ مِن كندا في هاميلتون وتورنتو 1870، وبعدها توجّهَ زعيمُ حركة العمّال بيتر. ج. ماكغواير إلى نيويورك، ونظّم لاحتفالٍ في 5 أيلول مِن كلّ عام، وصار منذ 1894 عطلةً وطنيّة تُنظّمُها منظماتُ العمّال، تتضمّنُ مسيراتٍ ومواكبَ وخطاباتٍ ومظاهراتٍ وتطلّعاتٍ عمّاليّةً لبناءِ مجتمعٍ وطنيّ متكامل، واحتجاجاتٍ سياسيّةً على بعض الإجراءاتِ الحكوميّة، ومسيراتِ دعْمٍ للعمّال الذين لا يحملونَ وثائقَ في جميع أنحاءِ الولايات المتحدة، وتتخلّلُها نزهاتٌ وعروضُ ألعاب ناريّة ورياضةٍ مائيّة وفعاليّاتٍ فنيّة .

منذ 1 أيّار 1889 اتّخذ القرارُ في المؤتمر الأمميّ العمّاليّ الثاني في باريس، بجعلِ الاوّل من أيّار يومًا رسميًّا للعطلةِ والإجازة الرسميّة مدفوعةِ الأجر، ورمزًا للحركاتِ العمّاليّةِ الدوليّةِ والمهنيّةِ واليدويّةِ والآليّةِ والإلكترونيّة، وإحقاق الحقوق القانونيّة والاقتصاديّة للجماهير العمّاليّة، وتخليدًا لذكرى ضحايا القوى العاملة في أرجاءِ الكرة الأرضيّة، وفي مختلف الدول باختلافِ أنظمتِها السياسيّةِ والاقتصاديّةِ والاجتماعيّة!

وأعودُ إليكِ بلادي بعدما مرّ أكثر مِن 120 عام، والحركاتُ العمّاليّة لا زالت تطالبُ بإنصافِ العمّال! فهل حقًّا؛ القوانينُ تُطبّقُ لإنصافِ العمّال والمهنيّين بشتّى القطاعاتِ الاقتصاديّة في أرجاءِ الأرض؟ ماذا عن العمّال والمُهجَّرين والمُغتربين ومَن هُم في ظلّ الاحتلال، ممّن يتعرّضون لتمييزٍ عنصريٍّ واستغلالٍ اقتصاديّ وابتزازٍ سياسيّ وعسكريّ؟ كيف نُفسّرُ انخفاضَ مستوياتِ الرواتب والأجور، في ظلّ هبوطٍ متواصلٍ في قيمةِ العملةِ لدى الدول الفقيرة؟ هل سياسةُ الحدّ الأدنى مِن الأجور معمولٌ بها وفقَ شروطٍ منصوصٍ عليها، أم أنّ العمّالَ يتعرّضون للاستغلالِ مِن قِبلِ بعض المؤسّساتِ وأصحاب العمل؟

كيف يمكنُ تنفيذ آليّة القانون بشكل عادلٍ وعدم تغييبهِ، من أجلِ رصْد تحكّم أصحاب رؤوس الأموال في مصيرِ العمّال، بالنسبة للأجور والإجازاتِ السنويّة والمَرضيّة والطارئة؟ ما دوْرُ المنظماتُ العمّاليّة العالميّة في دعم فاعليّةِ النقاباتِ العمّاليّة الوطنيّةِ الرسميّة، وفي تقويةِ دوْرِها بتنفيذ الخططِ العمّاليّةِ المرحليّةِ والاستراتيجيّة، والتي تعاني مِن ترهّلٍ تنظيميٍّ نقابيّ وحقوقيّ وثقافيّ، كي ترفعَ عددَ المنتسبين لها مِن القوى العاملة، وتُحسّنَ ظروفهم، وتُجري إصلاحاتٍ جذريّة لتقليلِ نسبة البطالة؟

وأخيرًا.. هل كانت بلادُنا المسحوقة بحاجةٍ إلى انتفاضةٍ عمّاليّةٍ شرق أوسطيّة، لتغييرِ معاييرِ العمّال والاقتصادِ والمجتمع، رغمَ أنّهُ على قدْرٍ كبيرٍ من مواردَ وثراءٍ يؤهّلانِ الشّعب للعيشِ ببحبوحة؟ أين الخللُ؟ وهل تجتازُ بلادُنا المِحنَ دونَ أن تجتزَّ المزيدَ مِن شعوبِها المسحوقة؟

كوارث لا إنسانية تُرعدُ الأبدان!

ونحن على مشارف نهاية عام 2011، تأبى الحقائق المأساويّة والجرائمُ البشعة المجرّدة من الحسّ الإنسانيّ، إلاّ أن تصدمَنا يوميًّا بما يهزُّ الأبدان، ويُرعدُ المفاصلَ والأوصال، فلا تسلم البشريّةُ لا من كوارثِ الحروب وبشاعاتِها ووحشيّاتها، ولا من الكوارثِ الطبيعيّةِ وأزماتها!

لكن؛ هل يحتملُ القلب والعقلُ والكيان البشري جريمة بحقّ الطفولة، واغتصاب رضيع عمره شهر واحد في بريطانيا بتاريخ 1-12-2011، بحسب ما ورد في موقع (mbc.net)؟

وهل تتشفعُ صفحات الفيس بوك والاستنكارات والتضامنات من تخفيفِ وقع المأساةِ وهوْلها على الأهل؟

معلوماتٌ صحيفة "ديلي ميل" البريطانيّة تؤكّدُ قولَ الأطبّاء بأنّ الرضيع تعرّض للإصابة بذبحةٍ قلبيّة وتحطُّم جميع أضلاعه، ووجودِ "إصابات جنسيّة وجروح داخليّة"، بالإضافة إلى إصابات متنوّعةٍ يُعالَج منها في غرفة عنايةٍ مُركّزةٍ بمستشفى محلّيّ، وأنّ الرضيعَ "لم تَبْدُ عليه علامات تحسن"، وسيُنقَل إلى مستشفى بالعاصمة لندن.

لو كان للرضيع بقيّة في عمره، فهل سينقطع الخيال والواقع عن تأليف سيناريوهات قادمة لهكذا كوارث؟ وهل تتورّع الوكالات الإخباريّة عن التسابق في نشر فصول جرائم وفواجع أخبار لا يستوعبها المنطق ولا الخيال؟

وجود المقابر في رمال الصحارى وارد في الأذهان، ولكن أن تتكشف عشرات المقابر في صحراء سيناء المصريّة لأفارقةٍ تمّ دفنُهم، بعدما ذُبحوا أحياء وانتُزعت أعضاؤهم، وبيعت لمافيا تجارة الأعضاء الإسرائيلية!؟

"إبراهيم التياهة" من من قبيلة التياهة بوسط صحراء سيناء قال لوكالة أنباء معًا الفلسطينيّة: "لقد عثرنا على مقبرة لستّ جثث أفارقة بمنطقة عجرة نصير الصحراويّة، على بعد 40 كم من مدينة نخل بوسط سيناء، وفيها جثث "لأفارقة سود"، مغلفة أجسادُهم بشريطٍ لاصق بلاستر ومدفونين بالرمال منذ عدّة أيّام، إلاّ أنّ الرياح كشفت عن أجسادِهم، وقد قمنا بفحص أجسادِهم فلم نجد لهم أعين، وموضع الكليتين مفتوح بمشرط طبّيّ، وآثارُ الدماء واضحة، كما وجدنا جثث الأفارقة مفتوحة البطون وهى موثوقة بالحبال من الأيدي والأرجل، كما عثرنا على كهف بجبل نصير بداخله سلعٌ غذائيّة عديدة، وعثرنا على أدواتِ جراحةٍ طبّيّةٍ مِن مشارط وسرنجات وحبال".

وأضاف: "إنّ تجارة الأعضاء البشريّة أصبحت ظاهرة خطيرة في سيناء، وبدأت تتصاعدُ منذ أكثر من عام، وقد تبيّن أنّ الإفريقيّ المريض أو الإفريقيّ الذي يتعرّضُ للوفاة الطبيعيّة لا تؤخذ منه أعضاؤه البشريّة، وإنّما الأمرُ الأخطرُ مِن ذلك، أنّ سرقة الأعضاء البشريّة تتمّ مع أفارقة أحياء يتمُّ اختيارُهم أصحّاء، ويتمّ ربطُهم بالحبال من الأيدي والأرجل، ويتزامنُ مع ذلك استدعاءُ الطبيب المختصّ إمّا مِن مدينة الإسماعيليّة أو من القاهرة، ويحضرُ بسيّارةٍ في

حقيبتِها الخلفيّةِ ثلاّجة وموادّ حافظة لحفظِ الأعضاء البشريّة، ويقومُ الطبيبُ بتخديرِ الأفارقةِ، ونزعِ أعضائهم البشريّة، بدءًا مِن العيون والكلى والقلب وغيرها من الأعضاء البشريّة"!

من هم هؤلاء الأفارقة؟ مَن أحضرَهم؟ وكيف تمّ إحضارُهم لصحراء سيناء ولماذا؟

من أريتريا، السودان، ومناطق مختلفة من إفريقيا، أتوْا إلى صحراء سيناء في محاولة للتسلل والهروب إلى إسرائيل، عبْرَ الحدود المصريّةِ الإسرائيليّة! هذا ما تؤكّدُهُ الإحصائيّاتُ المنشورة حديثا، أنّ عددَ الأفارقة الذين تسلّلوا إلى داخل إسرائيل وبصورةٍ غير شرعيّة خلالَ الأيّام التسعة الأولى من شهر تشرين الثاني 2011/10 وشهر نوفمبر 11/ 2011، قد وصل الى 950 شخصًا.

وقد أعلنت سلطة القوى البشريّة والهجرة والحدود الإسرائيليّة، أنّه تسلّل خلال عطلة الأسبوع الأولى يومَيْ 4-10-2011 و 5-10-2011 حوالي 620 إفريقيًّا، كما أعلنت هذه السلطة في إحصاءٍ عامّ لها حول التسلّل عبْرَ الحدود المصريّة، أنّه حتى نهاية عام 2010، وصل عددُ الافارقة المتسلّلينَ إلى إسرائيل ونجحوا في دخولِها، وهم متواجدون فيها الآن إلى 33273، وهذا الرقمُ ضمّ 19442 متسلّلاً من أريتريا، 8256 من السودان، و5575 من مناطق مختلفة من إفريقيا.

فهل تسلّلُ الأفارقة إلى إسرائيل نابعٌ من الحاجةِ إلى تحسين ظروفِهم الأمنيّة والمعيشيّة والبحث عن عمل، أم أنّ الأمرَ يندرجُ ويخضعُ لاعتباراتٍ سياسيّةٍ على رأسها الهجرة؟

هذا الأمر أعطى مؤشّرًا خطيرًا للسلطة الفلسطينية، دفعها لمطالبة الحكومة باتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع هذا التسلل! فهل تسلّلُ الأفارقة إلى الدولة العبريّة، هو الذي دفع بإسرائيل وفرض عليها بناء سياج أمنيّ على الحدود مع مصر؟

تقول إسرائيل إنّها حتى الآن انتهت مِن بناء جزءٍ من السياج الأمنيّ على الحدود مع مصر، يبلغ 65 كيلومترًا من أصل 230 كيلومترًا هي طول الحدود مع مصر، ومن المتوقّع الانتهاء من إقامة هذا السياج في نهاية أيلول القادم سبتمبر 9/ 2012، بدلاً من نهاية عام 2013، لمنع عمليّات تسلّل الأفارقة وغيرهم عبر الحدود المصرية الإسرائيليّة إلى إسرائيل، فلماذا تفعل إسرائيل هذا وهي تنادي بتشجيع هجرة اليهود إلى إسرائيل؟

موقف الحاخام اليهودي يحزقيل إكشطاين، رئيس ومؤسّس جمعيّة الصداقة اليهوديّة المسيحيّة في أميركا غاضبٌ جدًّا لقرار الحكومة الإسرائيليّة، بعدم الإسراع في نقل الثمانية آلاف أثيوبي يهوديّ في أثيوبيا إلى إسرائيل، إذ كان من المقرّر انتهاء عمليّة نقلهم حتى أواخر عام 2013، وليس في العام 2015.

لماذا تغيير المواقف؟ لماذا قرّرت الحكومة الإسرائيليّة لاعتباراتها وحساباتها، أن يتمّ نقل 150 أثيوبيًّا شهريًّا إلى إسرائيل، بدلاً من 250، ويعود هذا القرار إلى ضرورة توفير أماكن إقامة للمهاجرين الأفارقة، وتهيئة هؤلاء المهاجرين للانخراط في المجتمع الإسرائيليّ.

وأخيرًا.. ماذا عن عودة الفلسطينيّين المهجّرين إلى وطنِهم؟

الفهرس

رقم الموضوع	اسم الموضوع	الصفحة
1	إهداء	5
2	درع ديوان العرب للكاتبة الشاعرة الفلسطينيّة آمال عوّاد رضوان	6
3	هل الجنسيّة صليبُ آلامِك؟	8
4	"يا ربّ، لا تجعلْني أتّهمُ مَن يُخالفني الرأيَ بالخيانةِ"	10
5	سُلطة الكتابِ وإعادةُ نظر!	13
6	أزمة الكِتاب والنشر عند كُتّاب فلسطين الداخل!	15
7	مناطيدُ إعلاميّة فوقَ براكين وطنجيّة!	18
8	ما بينَ شُهرةٍ مُحدّبةٍ ومُهرةٍ مُقعّرةٍ حقائقُ مُرّة!	20
9	الكلمة سهمٌ مثلومٌ بينَ الوهم والتزوير!	22
10	تمسكُ بجمر أجنحتِها أصابعي النّاعسة!	24
11	لعبةِ الأسماءِ في المجتمع العربيّ؟	26
12	ضمائر مستترة تتجلبب بأسماء مستعارة؟!	28
13	التقييم الذكوريِّ للنصوصِ النسويّةِ	30
14	إلى عاشق أغلالِه!	36
15	مجْدُ حيفا حنينٌ محفورٌ على حافرِ مأساة!	38
16	الإيروتيكيّة مفهومًا- مبعثًا وتاريخًا	41
17	اللغة الإباحيّة المغموسة باللذّةِ (آيروسية)	43
18	تحرير الجسد إبداعيًا!	45
19	هل الأسنانُ مرآةَ القلب والعقل ومصفاة الجسم؟	48
20	هل التذوّق الموسيقيّ موروثٌ بالولادة؟	50
21	رحلة القهوةِ على جناح التاريخ!	53
22	رقصة قهوةِ الشرق على أوتار الغرْب!	55
23	أنعام الزيت بأنغام الزيتون!	58
24	أوّلُ شعلةٍ أولمبيّةٍ كانتْ غصنَ زيتونٍ مشتعلٍ!	60
25	قداسة الزيتِ والزيتونِ في الدياناتِ والحضارات!	62
26	"أنا أفكّر.. إذًا؛ أنا مفقود"!	64
27	الأنثى بين زواج وعنوسة!	67
28	الأنثى بوصلة المَسار والمَصير!	69
29	جاذبيّة الأنثى وجاذبيّة الأرض!	71
30	"إنّها لخطيئة حقيقيّة ألاّ يكونَ المرءُ سعيدًا"	73
31	هل المرأةَ سرُّ السعادةِ؟	75
32	الأمومة أجمل كلمة!	78
33	مستقبلُ المجتمعُ بينَ أيدي الأمّهات!	81
34	المرأةَ دموعٌ تعزفها أوتارُ قيثارةٍ جريحةٍ!	83
35	بصمات عازفة!	86
36	المرأة بين الماضي والحاضر!	89
37	تنصَفُ الأنثى أم تُنسَفُ؟	91
38	ثرثرةَ النساءِ داءٌ أم دواءٌ؟	93

39	سُلطةُ المرأةِ وتمثيلُها البرلمانيّ!	95
40	ظاهرةُ العنفِ ضدّ الأنثى	99
41	مهامّ المنظّماتِ النسائيّة!	101
42	أنواعُ العنفِ وآثارُه على الأنثى بشكلٍ خاصّ	103
43	تأثيرُ الأوساطِ والإعلام في مكانةِ المرأة!	105
44	كمشة من حيرة ينثرُها الجَمالُ وعمليّاتُ التجميلِ!	107
45	نساءٌ مِن سيليكون!	109
46	نساءٌ يتأرجحنَ على حبالِ الجمالِ والذكاءِ!	111
47	المرأةُ كَوْكَبٌ يَستنيرُ به الرجُلُ!	114
48	لا إنترنت للمرأة إلاّ مع مَحرَم؟	116
49	لا نخلقُ نساءً بل نُصيّرُ نساءً!	118
50	المرأةُ لا تعرفُ المستحيل!	120
51	ما مصيرُ حقوق المرأة اليهوديّة في "إسرائيل"؟	122
52	اغتيالُ المثقفِ تراجيديا وطنيّة!	124
53	لماذا يُخرَجُ المُخرجون من الحياة قسرًا؟	126
54	عقوبةُ الإعدام عبرَ التاريخ	128
55	القتلُ الرحيمُ بينَ المشروعِ والتشريع!	130
56	ظاهرةُ الانتحار فضيحةٌ بكلِّ المعايير!	132
57	سياحةُ الانتحار لعبةٌ ترفيهيّة مغايرة!	134
58	أسبابُ الانتحار!	136
59	أنواعُ الانتحار الفرديّة والجماعيّة	138
60	الحياةُ لا تُحتَمَلُ.. سامحوني!	141
61	كأنّي أقدِمُ على جنديٍّ أو شرطيٍّ؟	144
62	هل في انتحارِ الأغنياءِ عزاءٌ للفقراء؟	146
63	لماذا ينتحرُ الزعماءُ العظماء!	148
64	أجهزةٌ مانعةٌ للتحرّش الجنسيّ!	150
65	شاهدةٌ هاربةٌ مِن سِلكِ المتسوّلاتِ!	152
66	الابتزازُ لغةُ رفاهيّةِ العصر!	154
67	التحرّشات الإلكترونيّة لغةُ ابتزاز!	156
68	هل الأحياءُ وحدَهم مَن يقعونَ تحتَ طائلةِ الابتزاز؟	158
69	هل الأنثى أداةٌ في عمليّاتِ الابتزاز السياسيّ!	160
70	طفولةٌ تبتزّها عناكبُ الشياطين!	162
71	لقطاءُ على أعتابِ سقطاتِ الفقراءِ والأغنياءِ!	165
72	فلذاتُ أكبادِنا تمشي على الشّوكِ!	167
73	اليومُ العالميُّ لمناهضةِ تجنيدِ الأطفال	169
74	اليومُ العالميُّ لمناهضةِ تعسّفاتِ الشرطةِ في 15 آذار	170
75	أينَ الدفاعُ المدنيّ مِن كوارثِ شعوبنا؟!	173
76	هل وعيُ شعوبنا يُهدّدُ سلطاتِنا!؟	175
77	"كنْ نارًا ولا تكنْ حريقا"	177
78	"هل الغنى في الغُربةِ وَطنٌ؟"	180
79	كلُّ غزوةٍ وأنتم بهجرةٍ!	182
80	هل الغازُ هو آخرُ غزواتِ غزّة!؟	184

81	"الفقرُ قميصٌ مِن نار ورأسُ كلِّ بلاءٍ"!	186
82	خفايا القبّعاتِ الزرقاء!	188
83	أعيدوني للوطن ولو بكفن!	190
84	يومُ نكبةِ فلسطين عيدُ استقلال إسرائيل!	192
85	مواسمُ تعبير وتغبير أم حملاتُ تغيير وتعيير!	194
86	بينَ المواطنةِ واللجوء خيطٌ كذبة!	196
87	التسابقُ في التسلّح المائيّ!	198
88	جيوب ثقبتها المناسبات والأزمات!	200
89	على مرمى دولةٍ أم على مهبطِ وطن؟	202
90	تقنيّاتُ الاتّصال بينَ الجهل والذكاء!	204
91	الشعوبُ وحدَها هي مَن تُحرّرُ نفسَها	206
92	تلويث الهواء!	208
93	هل تحشرجت الثورة بين مشاريعَ خيريّةٍ ومشاريعَ نهب!؟	210
94	الصفعة.. وأحلَمُ العَرَب!	212
95	الوطنُ بينَ سجنٍ وأسْر!	214
96	هل الزواجُ المُثليّ يُهدّدُ البشريّة بالفناء؟	216
97	القدس تحت وطأة تهويد المناهج!	218
98	بين التمييز العنصريّ وضبابيّةِ التخلّف!	220
99	هل عجلةُ النموّ السكّانيَ تتسارعُ إلى هاويةٍ!	222
100	هل مِن تعاونيّاتٍ للتعاونيّات؟!	224
101	هل تصدّقُ الحمارَ ولا تُصدّقني؟	226
102	كوارث لا إنسانية تُرعدُ الأبدان!	228
103	الفهرس	230